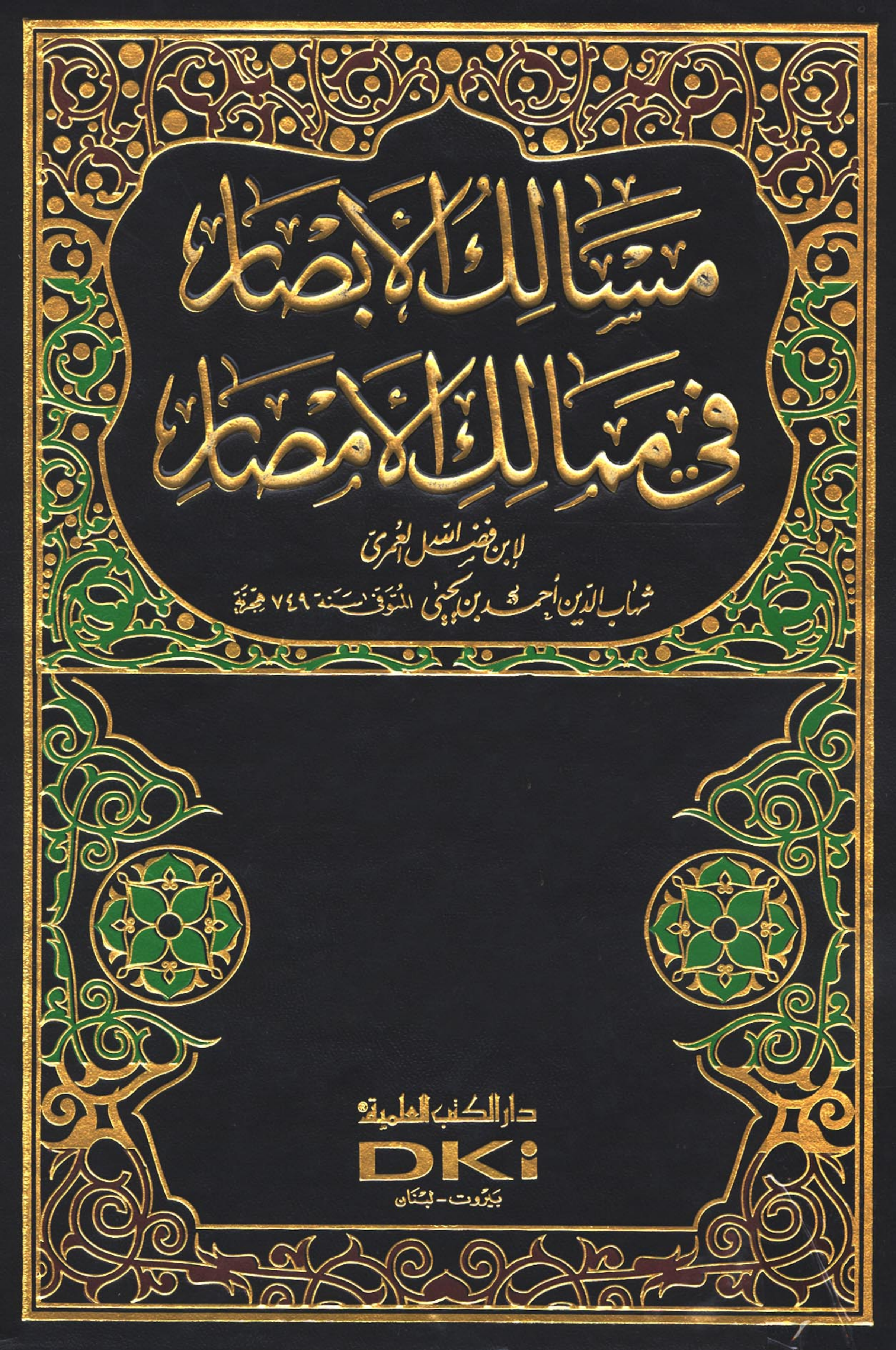

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية
دار الكتب العلمية
DKI
بيروت - لبنان

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحققه هذا السفر
كامل سلمان الجبوري

الجزء الحادي عشر

مشاهير الوزراء



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

فهذا السفر الحادي عشر من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، المتوفى بها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

تناول فيه تراجم عدد كبير من أعيان الوزراء، معتمداً فيه على كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري.

وقد اعتمدت في تحقيق هذا السفر على ثلاث نسخ:

١ـ مخطوطتا أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٣ ص٤٢٢ـ٥٣٢، ورقم ٣٤٢٤ رقم ٣٤٢٤ ورقة ٥٥ـ١٢١.

وهما نسختان قديمتان وقّفهما السلطان العثماني محمود خان وعليهما ختم باسم أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين.

واللّتان قام بنشرهما تصويراً العلامة الدكتور فؤاد سزكين ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ـ فرانكفورت ـ ألمانيا الاتحادية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م وكانتا (الأصل) في عملنا.

٢ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧ وأولها يقابل الصفحة ١١٤ من نشرة الدكتور سزكين.

* * *

أما طريقتي في تحقيقه فهي كما ذكرتها في مقدمتي للسفر الأول من الكتاب.

هذا ما استطعت أن أُقدمه للقارىء الفاضل والباحث الكريم.

أرجو أن أكون قد قمت بإحياء جزء من تراثنا الخالد.

جمهورية العراق ـ الكوفة

كامل سلمان الجبوري



صفحة العنوان ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول، رقم ٣٤٢٣

وإذ قد انتهينا إلى ذكر الأدباء، وانتهينا إلى أن نعاود بهم عيون الأنباء، فنذكرهم
على ما قدمنا به القول من ذكر أعيان الوزراء، وطوائف الكتاب، والخطباء والشعراء
ونبدأ بالوزراء ثم بالكتاب لأنهم منهم ولكبيرهم هم وإن ما وإن القسمة عنهم
ولهذا أتى في لفظنا، ولم نبق منهم فوق لا يخفينا، ونذكر ما لو انفقت الآفاق
من أصائلها مثل أحد ذهبًا ما أدرك لأحد منهم مدًّا، ولا الهلال نصيفًا لم يطع عن
محاسنهم قناع الثرى ويخرج دفائنهم، وقد أعيت مطالبها أطماع الورى، ونطلع
لهم نجومًا زينت بمثلها السماء، ونساجل بما أمًّا يشبهها الماء

وها أنا أذكر من كل الوزراء

والكتاب من القطر من أنا شاهدهم أو بعد ذلك القطر وأنوار ونمو المطعم وقوات
وأبدأ على شيء من حاله بما أذكر عند أوله، ولا أستوعب أخباره وأولاده وأما
على أمثلة عنوانًا، وأسلك في درج ذلك القطر عنوانًا

وأول ما نقول

إنه لم يكن للوزارة رتبة تعرف من بني أمية، وصدرًا من دولة آل العباس السفاح
بل كان من أعيان الخلفاء على أمرهم يقال فلان وزير فلان، بمعنى أنه موازرله
إلا أنه متولي رتبة خاصة تجري لها قوانين، وينظر بها دواوين

فأما وزير المهدي

صلى الله عليه وسلم

[illegible]

أبو سلم

٣

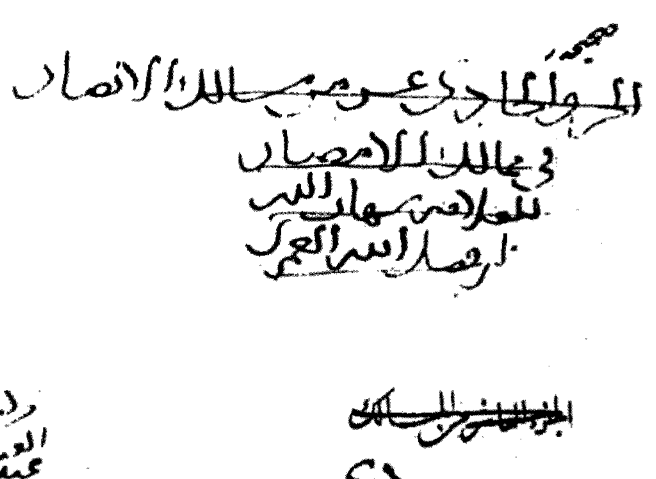
الصفحة الأولى ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول ـ رقم ٣٤٢٣

وذيروان لم يسم بهذا الاسم وملك وان دخل في هذا القسم لا يقاس به احد من الكرما
ولا يقرن سواه ولا انسا اهون عنده بالدينار واحد لا يظفر منه بعين ولا بالدرهم
وان كانت الناس تاكل عليه بالدين والمعدمين وان سبقت الشمس من ذهب
والفضة من لجين لو لم في الجوهر لقال هل هو الا حجر او في الدر لقال هل هو الا
مطر طالما سد خللا او افاض طلا وسح بالمطر وقال كيف يبخل بشيء دون وبالدنيا وقال
كيف ينافس في عارية مردوده وزاد على كرما العرب وجاد بالموجود مطر السحاب تسجد
واقترب وذهبت ايام مما لبيض بما لا كان لا ذو مرض وانقضى ايامه وطعامه لا بعد
لبني جبير منه هجر ومضى وله من البرامكة ما لال برمك ويطون المتيسر ما ليس تبني
سهل منه مسلك وتتبع الغايب الا ان ذاك عمر وهنا فاتوا ابن الزبير فما وجد
له في الزبير الا بعض ما ان خدم عند الامرا ثم ترقى وسلم الى المنية فتوفي واتصل
بالمظفر بيبرس فما لامرته فملك قياده وصحبه حيث صرف عن الملك حيا به وانه
سلطانا بماله ومال بيت المال فجمع واحضر ما معه ولم يترك شيا الا ما لا يعلمه وعده
ودخل في عين السلطان بما احضر من العين ودخل على خواص الامرا حتى استخلوه ذات
البين فزوجاه عن املاكه وعلايقه افراجا وجد به سبيلا الى مسعاته وطريقا الى غاياته
ثم لم يزل حتى ولاه السلطان امور خاصته ووكله لحقه واقامه لاستخلاصه ثم حسن
لراي السلطان المنجم وملاعبته بعدد الاكثر حتى اطلق له بعقد التوكيل وقال وقد
اختبره حسبنا الله ونعم الوكيل ثم كان هو المسلم حتى لامور الحرم والمقدم على الركب
المتوجه بكا بهن الى الحرم وكان يخلع على الخواص والامرا فما منهم الا من يتشرف بلباسه
ويعده فخرا له على منافسه حتى ان وقت زواله واذن له بتغير احواله فامسك
واخرج الى الشوبك ثم الى بيت المقدس ثم طلب وجعل مكانه زيدقته بالقرافة للحبس
ثم بعث به الى اسوان وقد قرب وقت حمامه وان يجهز عليه حتى اعتزل عنه ولده وخنق
وعلق على انه شنق وجهه وما شنق وكان زوجه امة اعوج من الكرام واخر الصرام وبقيه
اهل الاحسان والدنيا على غيره حرام والله اعلم بالصواب ه تم الجزء العاشر
يتلوه ان شا الله تعالى في السفر الذي يليه ثم كانت دودا وقاب مع من يمينا وبعدهم
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم حسبنا الله ونعم الوكيل

تم الجزء العاشر بحمد الله وعونه من مسالك الابصار

٢٤٦

الصفحة الأخيرة - مخطوطة أيا صوفيا - مكتبة السليمانية - استانبول - رقم ٣٤٢٣





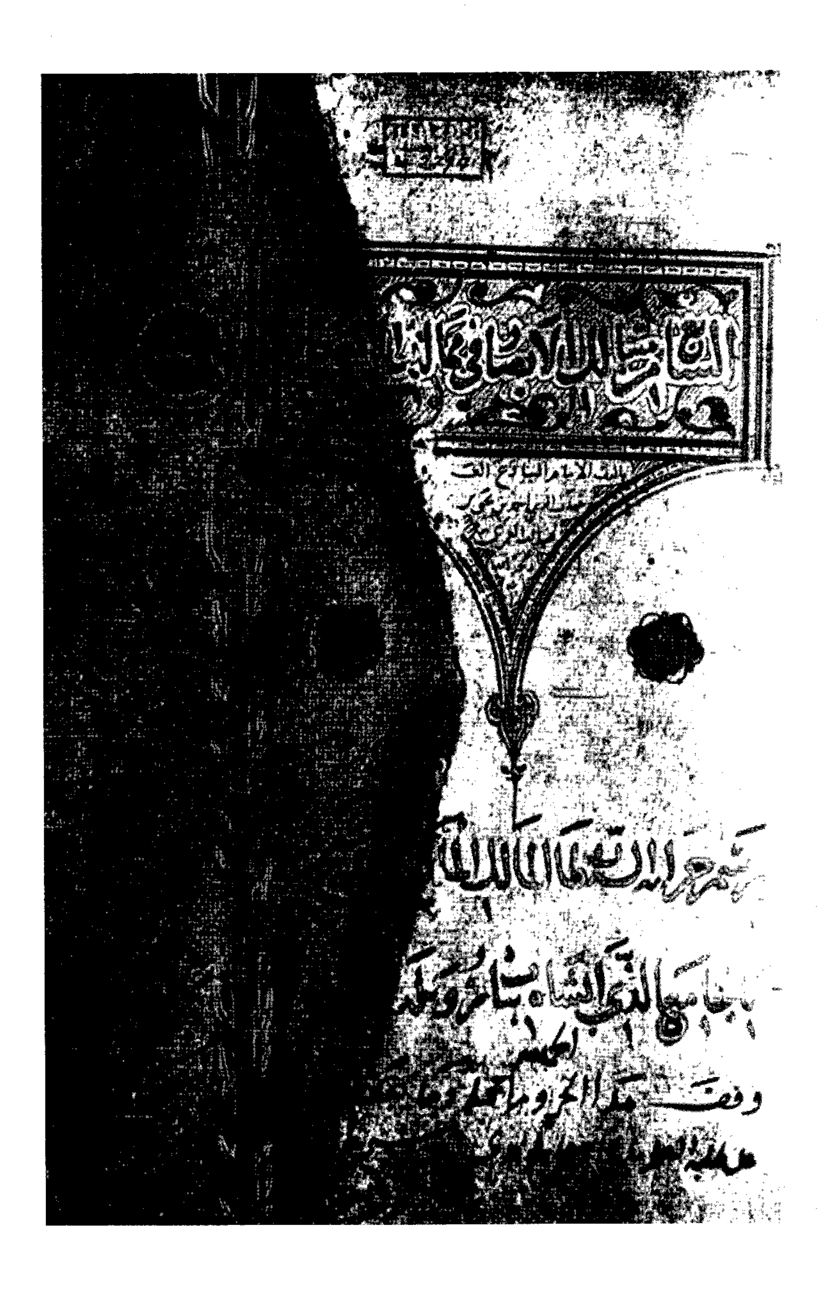


صفحة العنوان ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول ـ رقم ٣٤٢٤

الصفحة الأولى ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول ـ رقم ٣٤٢٤

وقد يروا ان لم يسم بهذا الاسم وملك وان دخل في هذا القسم لا يقاس به احد من الكرما
ولا يقرن بنداه ولا انما اهون عنده بالدينار واحد لا يظفر منه بعين ولا بالدرهم
وان كانت الناس تاكل حليته بالدين والمعدمين وان صبغت الشمس من ذهب
والفضة من لجين لو ليم في الجوهر لقال هل هو الا حجر او في الورد لقال هل هو الا
مطر طالما سر طلا وافاض طلا وبح المطر روّ قال كيف يجل بسيح دونه وبالدنيا وقال
كيف ينافس في عارية مردودة وزاد على كرما العرب وجاد بالوسمي مطر السحاب المتجد
واقترب وذهبت ايامه ما لبس بها لا كان ذلك في صيره واتقى ايامه وطعامه لا بعد
لبن جبين منه هجين ومضى وله من البر اضعاف ما لا ل يملك ولجوده المتيسر ما ليس لبحر
سهل منه مسلك وتبع الفايزي الا ان ذاك عرو وهذا فاته ابن الزبير فما وجد
له في الدنيا الا بصلحها ان خدم عند الامرا ثم ترقى وسلم الى المنية فتوفي واتصل
بالمظفر بيبرس فنال امرته فملك قياده وصحبه حيث صرف عن الملك مياين والقمه
سلمه ما بماله وبنال بيت المال فحفر واحضر ما معه ولم يترك شيا الا ما لعله وعهد وقد
ودخل في حين السلطان بما احضر من العين ودخل على خواص الامرا حتى استخرج له ذات
البين فرجاله عن املاكه وعلائقه افرادا ووجه به سبيلا الى صفايته وطريقا الى اعانته
ثم لم يزل حتى ولاه السلطان امور خاصته ووكله لحقه واقامه لاستخلاصه ثم حسن
لراي السلطان الصحبة وملاعبته عدد الاكثر حتى اطلق له مقعد التوكيل وقاله وقد
اختبره حسبنا الله ونعم الوكيل ثم كان هو المسلم حتى لامور الحرم والمقدم على الركب
المتوجه بكابهن الى الحرم وكان يخلع على الخواص والامرا فامنهم الامن يتصرف بلا شبه
وبعده حط الوعلى بنا نفسه حتى ان وقت زواله وادت زمة تبغير احواله فامسك
واخرج الى الشوبك ثم الى بيت المقدس ثم طلب وحصل مكان مدفنه بالقرافة فحبس
ثم بعث به الى اسوان وقد قرب وقت حمامه وان تجهز عليه حتى اعتزل عنه ولي وخنق
وعلق على انه شنق وحده وما شنق وكان وجهه استا نموذج الكرام واخر العظام وبقية
اهل الاحسان في الدنيا على غير حرام والله اعلم بالصواب ثم الجزء العاشر بكسره ونحوه
يتلوه ان شا الله تعالى في السفر الذي يليه ثم كانت دولة قلاوون وقد ابتدا مع من جمنا وبعدهم
والحمد لله رب العالمين [illegible] وصلى الله على سيدنا محمد [illegible] وسلم
تم الجزء العاشر بحمد الله ومنه من مسالك الابصار

الصفحة الأخيرة ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول ـ رقم ٣٤٢٤



صفحة العنوان - مخطوطة أحمد الثالث - طوبقبو سراي - استانبول - رقم ٢٧٩٧

٧

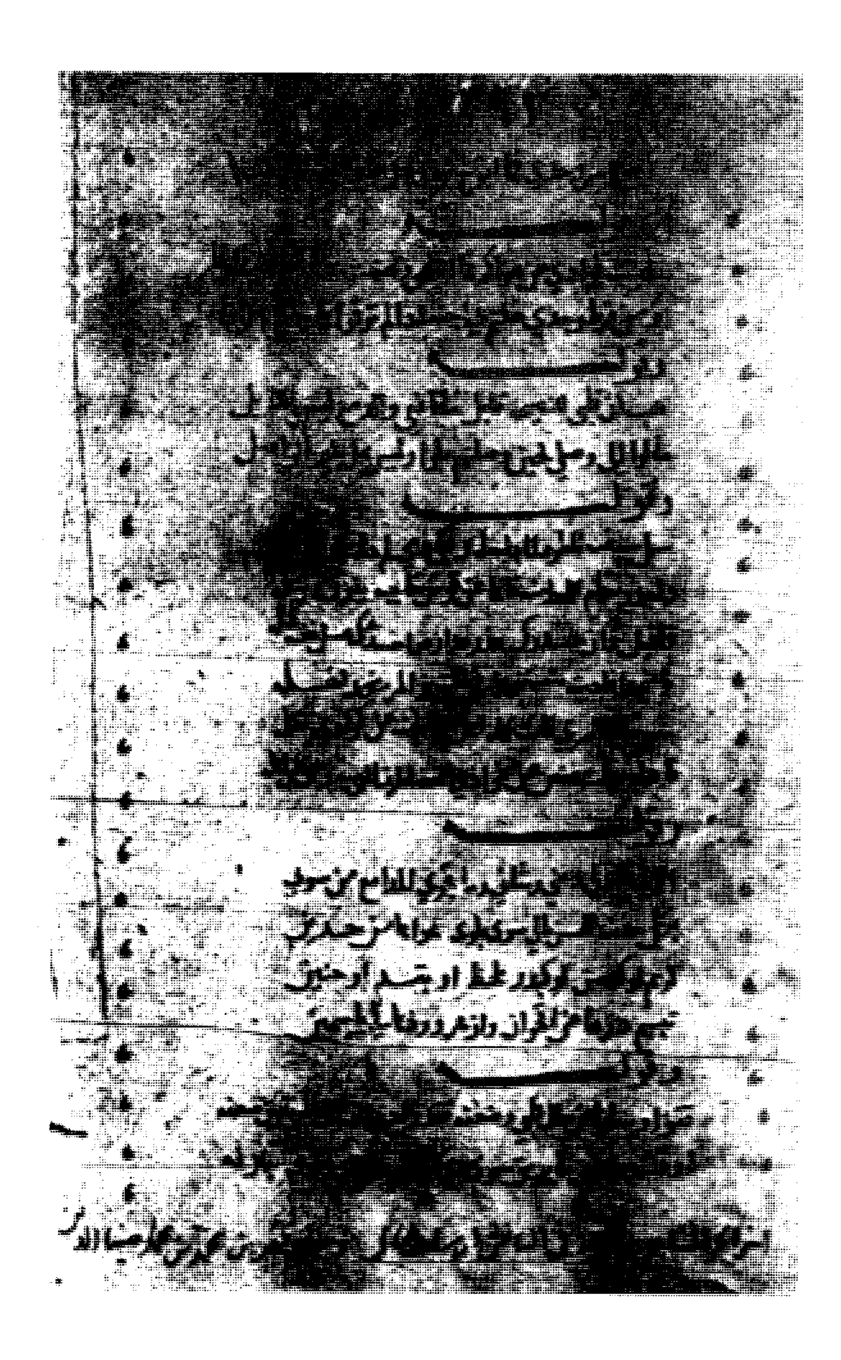
بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

ومن الآخر مشاهير وزراء الخلفاء بالجانب الشرقي فأما من تلو

هم من مشاهير وزراء الملوك ومن ينتظم في سلك الملوك فمنهم

أبو سعيد عبد الواحد بن علي بن ماكولا وكان له أدب كأنما فتق عنه الكمام

الصفحة الأولى ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول ـ رقم ٢٧٩٧



الصفحة الأخيرة ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول ـ رقم ٢٧٩٧

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحققه هذا السفر

كامل سلمان الجبوري

الجزء الحادي عشر

مشاهير الوزراء

[الوزراء]

/ ٢/ وإذا قد انتهينا إلى ذكر الأدباء، وانتهينا إلى أن نغازل بهم عيون الأبناء، فسنذكرهم على ما قدمنا به القول من ذكر أعيان الوزراء، وطوائف الكتاب، والخطباء والشعراء.

ونبدأ بالوزراء ثم بالكتّاب؛ لأنهم منهم، ولكنهم هم وإنْ نأوا في القسمة عنهم، ولهذا نأتي به لفيفاً، ونلقي منهم قولاً خفيفاً، ونذكر ما لو أنفقت الآفاق من أصائلها مثلي أُحُدٍ ذهباً، ما أرِكِ لأحدٍ منهم أمداً، ولا الهلال نصيفاً، لنُميط عن محاسنهم قناع الثرى، ونخرج دفائنهم وقد أعيت مطالبها أطماع الورى، وتطمح لهم نجوماً تزينت بمقلها السما، وتعاطي مداماً سح شبهها الما.

وها أنا أذكر من كل الوزراء والكتاب من القطر أناساً هم زينة ذلك القطر وأنواره، وثمره المطعم وفوّاره، وأبينه على شيء من حاله، بما أذكر عنه أوّله، ولا أستوعب... وأوله، وإنما أمثِّله عنواناً، وأسلكه في درج ذلك القطر صِنْواناً.

* * *

[مشاهير الوزراء بالجانب الشرقي]

وأول ما نقول: إنه لم يكن للوزارة رتبة تُعرف مدَّةَ بني أميَّة، وصدراً من دولة أبي العباس السفاح، بل كان ممن أعان الخلفاء على أمرهم. يقال: فلان وزير فلان، بمعنى أنه مؤازر له لا أنه متولي رتبة خاصة تجري لها قوانين، ويُنظم بها دواوين.

فأما وزير آل محمد ﷺ.

/ ٣/ :

[١]

أبو سلمة الخلال[1]

فإنَّه كان رأساً من رؤوس الشيعة الهاشمية. وكان ذا الرأي فيهم، فقيل: وزير آل محمد ﷺ وكان من أكابر الدعاة للدولة، وأعظم السعاة في استتباب الأمر.

فلما رأى أبو العباس السفاح قدمه وكبره، وأورد رأيه وأصدره رَجُلاً... واستخرج درَّة، فحسد لتمكنه، وعمل على مأخذه من مأمنه.

ثم كان السفاح لا يرى إفساد صنعته، ولا يأمن تكدير بواطن شيعته، فكان يلبسه على علله، ويسدّده على خلله، وأبو سلمة مع هذا ليس بوزير له فلم... ولائه أمر منوط.

---

(١) أبو سَلَمَة الخلاَّل: حفص بن سليمان الهمداني الخلاّل، أول من لقب بالوزارة في الإسلام. كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية. وكان يفد إلى الحميمة ـ في أرض الشراة ـ فيحمل كتب إبراهيم الإمام ابن محمد، إلى «النقباء» في خراسان. وصحبه مرة أبو مسلم الخراساني تابعاً له. ولما استقام الأمر للسفاح استوزره، فكان أول وزير لأول خليفة عباسيّ. وكان يسمر كل ليلة عند السفاح، وهو في الأنبار. والسفاح يأنس به لما في حديثه من إمتاع وأدب ولما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير. واستمر أربعة أشهر، واغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً ووثبوا عليه وهو خارج يريد منزله، فقطعوه بأسيافهم سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، قيل: إن أبا مسلم الخراساني دسهم له لشحناء بينهما، أو لأن السفاح توهم فيه الميل لآل علي فسلط عليه أبا مسلم. وكان يقال لأبي سلمة «وزير آل محمد» ولأبي مسلم «أمين آل محمد» ويعرف بالخلاّل لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة.

ترجمته في: تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٣٨٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٥، الفخري ١٣٧، البداية والنهاية ١٠/ ٥٥، تاريخ الطبري (حوادث ١٣٢هـ)، الأعلام ٢/ ٢٦٣ـ٢٦٤، تاريخ الإسلام (السنوات ١٢١ـ١٤٠هـ) ص٤٠٠.

ثم إنه وزره على باطن يكنّه له، ليتَّخذ بالوزارة إليه سبيله، ويتوجه له عليه شبهة يصلب بها وجهه، حتى أخذه تلك الأخذة الفذَّة.

فأمَّا مَنْ بعده من وزراء «المشرق قديماً وحديثاً» فسنبدأ من لدن عبد الملك بن مروان؛ لأنه أول من حكم هذه الأمة قواعد الملك، وعظَّم عوائد السلطان، إذ لم يستتب الأمر لأحدٍ بعد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كما استتب له، إذ كان منه إلى معاوية خبط عشواء، وليل لم يلمع بالأضواء.

فأمَّا معاوية، فإنه وإن كان قد لمَّ الشعث، وأزال الشّغب، واستقلَّ بالأعباء، واضطلع بالملك، فانَّه كان قد تخلق بالمداهنة أيام محاربته علياً ـ عليه السلام ـ لاستمالة الأهواء إليه، وجع القلوب عليه، فصار له خلفاً، لما سُلِّمَ إليه، وسَلم من النازع ثم استمرَّ عليه، حتى مضى به زمانه وانقضت عليه أيامه.

وكان عمرو بن العاص أجل ندراً، وأعظم قدراً مع أن يجري معه مجرى الوزارة وإن كان له وزراً ورداءاً، إذ كان لا يزال كالممتنّ عليه، لانحيازه إلى جهةٍ مع مماثلته له في شرفه في قريش، وسابقته في الإسلام ظاناً له لولاه لما نال الملك، ولا قدر على منازعة علي ـ كرم الله وجهه ـ في حقِّ الخلافة.

وكان لا يزال حاله معه شبيهاً بحال أبي مسلم الخراسانيّ مع أبي العباس السفاح.

فأما من تقدَّم معاوية من الخلفاء الراشدين إلى عهد النبوة فأولئك ما وزروا إلا من كانوا تبعاً لرأيهم فيما استشاروا فيه من مفرد الأمر لا / ٤/ في الأمر المطلق، فلهذا بدأنا بالوزراء من لدن عبد الملك.

فمنهم:

[٢]
رَوْح بن زِنْبَاع[1]

كتب لعبد الملك بن مروان. وكان مجراه في الوزارة مجرى الإعانة لا مجرى الولاية، وكان كأنه أجل الملوك، لمكاتبته من الخلفاء، وكثرة أتباعه، وعظم أشياعه، وعجز السيوف عن يراعه.

(١) رَوْح بن زِنْبَاع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة: أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها. قيل: له صحبة. كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. وله مع عبد الملك وغيره أخبار. توفي سنة ٨٤هـ/ ٧٠٣م. =

وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب[1] أنه قد كلَّم يزيد بن معاوية له ولقومه أن يلحقهم في العطاء بإخوانهم، فقال له: إن أجمع على ذلك قومك، فنحن جاعلوك حيث شئت، فبلغت الدعوى عدي بن الرَّقاع فقال: [من البسيط]

إنَّا رَضِيْنَا وَإنْ غَابَتْ جَمَاعَتُنَا مَا قَال سَيِّدُنَا رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعِ

= ترجمته في: تاريخ خليفة ٤٤٠، والتاريخ لابن معين ٢/ ١٦٨، والتاريخ الكبير ٣/ ٣٠٧ رقم ١٠٤٢ (دون ترجمة)، والبيان والتبيين ١/ ٣٥٨، وتاريخ أبي زرعة ١/ ٣٣٤ و٣١٦ و٣٩٣، وأنساب الأشراف ١/ ٣٦ و٤ق/ ٦٨ و٨٦ و١٤٧ و٣٠٨ و٣٣١ و٣٣٧ و٣٤٨ و٤/ ٢٠ و٤٠ و٤٦ و٢٨٦، والكامل في الأدب للمبرّد ٢/ ١٢٥، والأخبار الموفقيّات ٢٠٩، وعيون الأخبار ١/ ١٠٢ و١٧١ و٢٢٥ و٢/ ٨، وتاريخ الطبري ٥/ ٤٩٦ و٥٣١ و٥٣٦ و٦/ ٤١٢، والجرح والتعديل ٣/ ٤٩٤ رقم ٢٢٤٢، وجمهرة أنساب العرب ٣٦٤ و٤٢١، وأخبار القضاة لوكيع ١/ ١٢٣، والولاة والقضاة للكندي ٤٣، والأسامي والكنى للحاكم، ورقة ٢٠٦ب، ومشاهير علماء الأمصار، رقم ٩٠٢، والاستيعاب ١/ ٥٢٥_٥٣٠، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ٣٩٠، وربيع الأبرار ٣/ ٣٠٦ و٣/ ٥٢٦، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٥١ و٢٥٣ و٢٥٦ و٢٥٧ و٢٦٩ و٢٨٠، وثمار القلوب للثعالبي ٥٤٦، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ١١١، ومروج الذهب ١٩٥٥ و١٦١٦_٢٠٢٠ و٢٠٤٨_٢٠٥٠ و٢٣٣٧، والوزراء والكتّاب للجهشياري ٣٥_ ٣٦، والحيوان ١/ ٢٢٦، والعقد الفريد ١/ ٢٠ و١٥١ و٢٩٨ و٢/ ١٥٦ و٢٣٤ و٢٨٧ و٤/ ٥٥ و٣٩٤ و٥/ ١٤ و٢٢ و٢٦ و٣٨٨ و٦/ ١١٤، وتاريخ دمشق (تراجم النساء) ٢٠٥، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٣٤٠_٣٤٢، وأسد الغابة ٢/ ١٨٩، والكامل في التاريخ ٤/ ١٢٣ و١٤٥ و١٤٨ و١٥١ و٣٣٨ و٥١٣، وأخبار النساء لابن الجوزي ١١١ و١١٢ و١١٥ و١١٦، والعبر ١/ ٩٨، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥١_ ٢٥٢ رقم ٩١، والبداية والنهاية ٩/ ٥٣، ٥٤، ٥٥، وبلاغات النساء ١٢٩_ ١٣٠، والوافي بالوفيات ١٤/ ١٥٠ رقم ١٩٩، والأغاني ٩/ ٢٢٩ في ترجمة (الحارث بن خالد)، ومحاضرات الأدباء للراغب ١/ ١٦٠، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ٢/ ٢٧ و٥٤ و١٦١ و٢٤١ و٢٨٧، والمستطرف للأبشيهي ١/ ١٢٢، والإصابة ١/ ٥٢٤ رقم ٢٧١٣، وتعجيل المنفعة ١٣١، ١٣٤ رقم ٣٢٢، والنجوم الزاهرة ١/ ٢٠٥، وشذرات الذهب ١/ ٩٥، والجامع للشمل ١/ ٤٦٥، الأعلام ٣/ ٣٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٨١_ ١٠٠) ص ٦١ رقم ٢٨.

(١) محمد بن عَبْدوس بن عبد الله الكوفي الجَهْشَياري، أبو عبد الله: مؤرخ، من الكتّاب المترسلين، من أهل الكوفة. نشأ مع أبيه في بغداد. وكان أبوه حاجباً للوزير عليّ بن عيسى، فخلفه على الحجابة له، ثم للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله. وولي إمارة الحج العراقي سنة ٣١٧هـ. ونكب يوم قبض على ابن مقلة فأدى ٨٠ ألف دينار، وأطلق، وكان من أصحابه. ومات ببغداد مستتراً سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م. له كتب، منها «كتاب الوزراء والكتّاب ـ ط» قسم منه، و«أخبار المقتدر العباسي» في ألف ورقة، و«أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم» قال فيه ابن النديم: «ابتدأ الجهشياري بتأليف كتاب اختار فيه ألف سَمَر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلق به غيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه، وكان فاضلاً، فاجتمع له من =

يَرْعَى ثَمَانِيْنَ أَلْفاً كَانَ مِثْلَهُم فَمَا يُخَالِفُ أَحْيَاناً عَلَى الرَّاعِيْ

ثم كان روح بن زنباع من عبد الملك بن مروان كالقسم له في ملكه، ولما قلّد عبد الملك أخاه بشراً العراق، ضمَّ إليه روح بن زنباع، فثقلت وطأته على بشر، فلم يقدر على صرفه عنه إلاَّ بأن يحتال بإدخال رجل إلى بيته، وكان لا يدخله أحد سواه، فكتب على حائطه هذا: [من البسيط]

يَارَوْحُ مَنْ لِدَنَانِيْرٍ مُحَرَّسَةٍ إِذَا نَعَاكَ لأَهْلِ المَغْرِب النَّاعِيْ
إِنَّ الخَلِيْفَةَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ فَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ يَا رَوْحُ بْنَ زِنْبَاعِ

فلما رآه روح أتى بشراً، فاستأذنه في الرجوع إلى الشام، فجعل بشر يحبسه، ويسأله أن يقيم فيأبى، فأذن له، فلما دخل [على] عبد الملك، قال: الحمد لله على سلامتك يا أمير المؤمنين، قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر، فقال له: ثقُلت والله على بشر وأهل العراق، فاحتالوا في الراحة منك.

ذكر الحافظ أبو عبد الله الذهبي / ٥/ [(١)] في تاريخ الإسلام[(٢)]، قال: كان

= ذلك ٤٨٠ ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي» .ترجمته في: النجوم الزاهرة ٣/ ٢٧٩، والوزراء والكتّاب: مقدمة طبعة مصر، ثم ص٣٥ـ ٣٦، وفهرست ابن النديم: المقالة الثامنة. والوافي بالوفيات ٣/ ٢٠٥ وفيه: «أما نسبته إلى جهشيار فإن أباه كان يخدم أبا الحسن عليّ بن جهشيار القائد حاجب الموفق وكان خصيصاً به، فنسب إليه»، الأعلام ٦/ ٢٥٦.

(١) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذَّهَبي، شمس الدين، أبو عبد الله: حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الأصل، من أهل ميافارقين. مولده سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، ووفاته فيها سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، وكفّ بصره سنة ٧٤١ هـ. تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها «دول الإسلام ـ ط» جزآن، و«المشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب ـ ط» و«العباب ـ خ» في التاريخ، و«تاريخ الإسلام الكبير ـ ط» ٥٣ مجلداً، و«سير أعلام النبلاء ـ ط» أجزاء منه، و«تذكرة الحفاظ ـ ط» أربعة أجزاء، و«الكاشف ـ خ» في تراجم رجال الحديث، و«العبر في خبر من غبر ـ ط» خمسة أجزاء، و«طبقات القراء ـ ط» خمسة أجزاء و«طبقات القراء ـ ط» و«الإمامة الكبرى ـ خ» و«الكبائر ـ ط» و«تذهيب تهذيب الكمال ـ ط» في رجال الحديث، و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ ط» ثلاثة مجلدات، و«المختصر المحتاج إليه من تاريخ الدبيثي ـ ط» جزآن، و«معجم شيوخه ـ خ» و«المقتنى في الكنى ـ خ» و«الإعلام بوفيات الأعلام ـ ط» و«تجريد أسماء الصحابة ـ ط» مجلدان، و«المغني ـ ط» جزآن، في رجال الحديث. و«الرواة الثقات ـ ط» رسالة، و«الطب النبوي ـ ط» و«المرتجل في الكنى ـ خ» و«زغل العلم ـ ط» رسالة، و«المستدرك على مستدرك الحاكم ـ ط» في الحديث، و«أهل المئة فصاعداً ـ ط» حققه ونشره في مجلة المورد، د. بشار عواد معروف البغدادي، و«ذكر من اشتهر بكنيته من الأعيان ـ خ» رسالة في شستربتي (٣٤٥٨) واختصر كثيراً من الكتب. وآخر ما =

روح بن زنباع إذا خرج من الحمام أعتق رقبة.

وأمَّره يزيد على جند فلسطين، وشهد يوم راهط مع مروان.

وكانت له دار بدمشق عند طرف البُزُوريّين.

وقال مسلم ـ رحمه الله ـ: له صحبة، ولم يتابع مسلماً أحد، وأبوه زنباع بن روح بن سلامة له صحبة.

ومنهم:

[٣]

نصر بن سيَّار[١]

وكان يتقلَّد ديوان خراسان.

ثم انتهى إلى أنه كتب إلى الوليد يُعلمه بظهور المسوِّدة، فكتب إليه:

إني قد أقطعتك خراسان، فافعل فيها ما شئت.

وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة بسارة قرب الري، وعمره خمس وثمانون سنة.

= نشر من كتبه «معرفة القراء الكبار ـ ط» مجلدان.

ترجمته في: فوات الوفيات ٢/ ١٨٣، ونكت الهميان ٢٤١، وذيل تذكرة الحفاظ ٣٤ و٣٤٧، وطبقات السبكي ٥/٢١٦، والنعيمي ١/٧٨، والشذرات ٦/ ١٥٣، ومجلة المجمع العلمي العربي ١٦/ ٣٨٧، وغاية النهاية ٢/ ٧١، والفهرس التمهيدي ٤٢٨ و٤٣٣ و٤٣٥، والدرر الكامنة ٣/ ٣٣٦، والنجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢، والمختصر المحتاج إليه: مقدمته. والتبيان ـ خ. والإعلان بالتوبيخ ٨٤، ومفتاح السعادة ١/ ٢١٢ ثم ٢/ ٢١٦، وآداب اللغة ٣/ ١٨٩، ومحمد بن شنب، في دائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٤٣١ـ٤٣٤، ومجلة المورد/ج ٢ العدد ٤ ص ١٠٧ـ١٤٢، الأعلام ٥/ ٣٢٦.

(٢) تاريخ الإسلام (السنوات ٨١ـ١٠٠هـ) ص٦٢.

(١) نصر بن سيار بن رافع بن حَرِّي بن ربيعة الكناني: أمير، من الدهاة الشجعان. ولد سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م. كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ. ثم ولي إمرة خراسان سنة ١٢٠هـ، بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، ولاه هشام بن عبد الملك. وغزا ما وراء النهر، ففتح حصوناً وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو. وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصبر يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو (سنة ١٣٠) ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس وكتب إلى ابن هبيرة ـ وهو بواسط ـ يستمده، وكتب إلى مروان ـ وهو بالشام ـ وأخذ يتنقل منتظراً النجدة إلى أن مرض في مفازة بين الريّ وهمذان، ومات بساوة سنة ١٣١هـ/ ٧٤٨م. وهو صاحب الأبيات التي أولها: =

وكان مشرفياً مُرهفاً، وسمهرياً منعنا، وأسداً باغراً، وبطلاً لو قيل رأيه ردَّ صاغراً، بل سود بني العباس، واختلاف ذات بين بني مروان لأمر سبق له القدر، وكانت البدرة فيه لمن بدر ﴿ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[1]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2].

ومن كتاب كتبه إلى مروان: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنَّها قد شرعت ولم تتبين، ومبادرة الدواء في أول الداء أنجح، وآفة الرأي التردُّد والسلام.

ومنهم:

[٤]

عبد الحميد بن يحيى[3]

وهو إمام المتقدمين، ورسائله كافية للمتعلمين. وكتب لهشام بن عبد الملك، واستمرَّ حتى كتب لمروان بن محمد، وهو القدوة، وبه الأسوة، ورسائله مشهورة يتناقلها الكتاب، ويتداولونها جيلاً بعد جيل.

=

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

أرسلها إلى مروان. قال الجاحظ (في البيان والتبيين): كان نصر من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي. وقال ابن حبيب: حُصر نصر، وهو والي خراسان، بمرو ثلاث سنين. وجمع المعاصر عبد الله الخطيب ما وجد من شعره في سلسلة من «الشعر السياسي ـ ط» في بغداد، كما في المورد.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٠، تاريخ خليفة ٣٨٣، ٣٨٨، المحبّر ٢٥٥، الجرح والتعديل ٨/ ٤٦٩، الكامل في التاريخ ٥/ ١٤٨، سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٣، خزانة الأدب ١/ ٣٢٦، الأعلام ٨/ ٢٣، تاريخ الإسلام (السنوات ١٢١ـ١٤٠هـ) ص٥٥٢.

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٨. (٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٨.

(٣) عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري، بالولاء، المعروف بالكاتب: عالم بالأدب، من أئمة الكتّاب. كان جده مولى للعلاء بن وهب العامري، فنسب إلى بني عامر. يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسلون. أصله من قيسارية. سكن الشام، واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في المشرق، ويقال: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد» وكان يعقوب بن داود، وزير المهدي، يكتب بين يديه، وعليه تخرّج. له «رسائل» تقع في نحو ألف ورقة، طبع بعضها. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب. ولما قوي أمر العباسيين وشعر مروان بزوال ملكه، قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير إلى عدوي، وتظهر الغدر لي، وإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك ستحوجهم إلى حسن الظن بك. فأبى عبد الحميد مفارقته، وبقي معه إلى أن قتلا معاً، في بوصير (بمصر) سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. =

ومن كلامه:

الناس رجلان، رجل دق خطره، وحسنت معاملته، فعامله السفلة فسفل، وضيع عامل أهل الدين والأدب فتأدَّب.

ومنه يُعزِّي هشاماً بامرأة من نسائه:

إنَّ خير ما أنعم الله على خلفائه ما رزقهم الشكر عليه، والدنيا دار متاع /٦/ وبُلغة، وما فيها عوارٍ بين أهلها، ثم منقول عنهم، وإنَّ الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من مؤنسته وقرينه متاعاً إلى أجَلٍ مُسمَّى، ثم قبض العارية وليُّها، وأعطى عليها في المنُقلب، وأرجح في الميزان، وأكفى في العوض، فإنا لله وإنا إليه راجعون. أحتسب مصيبتك يا أمير المؤمنين على الله، فإنَّ مواهِبَ الله أجزل، وثوابه أفضل، فامضِ على رُؤيتك في الخبر، فإنَّ ما عند الله لا يبلغه كلام ولا يحصيه حساب.

ومنه:

أما بعد، فان أمير المؤمنين استخلصك لنفسه بعد أن غلب رأيه على هواه فيك، وبعد أن ما بك بينك وبين القرناء مضمارك، وزيفهم أخبارك، فجعلك عينه التي تبصر بها، وسمعه التي يسمَع به، ويده التي يبطش بها، فما زادك تقريباً إلاَّ ازددت إلى الناس قرباً، ولا زادك بسطاً وإيناساً إلاَّ زدته هيبة وإجلالاً. ولا زادك تمكيناً إلاَّ ازددت في الرعية عدلاً، لا تحملك النصيحة له على ظلم رعيته، ولا يحملك العدل في رعيته على إهمال حقوقه، ولا يستخفَّك الفرح، ولا يكمدك الحزن، تجري الأمور على السّداد، ولا يمنعك أن تذهب بها في مذاهبها استشعاراً لحذر العواقب.

ومنه:

الناس أصناف مختلفون منهم عِلْقُ مَضِنَّةٍ لا يباع، ومنهم غلّ مَطيةٍ لا يبتاع.

وساير يوماً مروان على دابة، فقال له: كيف سيرها؟، فقال له: همّتها أمامها، وسوطها عنانها، ما وَنَتْ قط إلاَّ حلماً، ولا ضُرِبَتْ قطّ إلاَّ ظلماً.

ومن شعره: [من السريع]

أبْـكِـيْ عَـلَـى ذَا وابْـكِـيْ لِـذَا بُـكَـاءَ الـمُـوَلَّـهَـةِ الـثَّـاكِـلِ

= **ترجمته في:** وفيات الأعيان ٣/ ٢٢٨، الفهرست ١١٧، ثمار القلوب ١٩٦، عيون الأخبار ١/ ٢٦، مروج الذهب ٣/ ٢٦٣، صبح الأعشى ١٠/ ١٩٥، البيان والتبيين ٣/ ٩، الوزراء والكتّاب ٧٢ـ٧٣، ٧٩ـ٨٣، الصناعتين ٦٩، الشريشي ٢/ ٢٥٣، سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٢ رقم ٢٠٧، الأعلام ٣/ ٢٨٩ـ٢٩٠، تاريخ الإسلام (السنوات ١٢١ـ١٤٠هـ) ص٤٧٠.

فَتَبْكِي مِنْ أَيْنٍ لَهَا قَاطِعٍ وَتَبْكِي مِنْ أَيْنٍ لَهَا وَاصِلِ

وكان المنْصُور يقول: غَلَبَنا بنو مروان بثلاثة أشْياء. بالحِجاجِ بن يوسفُ، وعبد الحميد بن يحيى، والمؤذن البعلبكي.

ومنهم:

[٥]

طلحة بن زُريق(١)

كان يكتب للإمام إبراهيم بن محمد إلى الدعاة، ويقرأ كتبهم إليه، وهو أخو مصعب /٧/ بن زُريق ـ جَدّ طاهر بن الحسين ـ وقد كانت لهم دولة مُلك، وصولة سلطان، وامتدَّت لم أيام موصوفة، وأقلام تبري الرماح قصباتُها النحيفة، ثم كانت لآخرهم سيوف ذلَّلتْ الدول، وداستْ مفرق البطل.

ومما كتبه عن الأيام في جواب إلى بعض رؤوس الشيعة، ليستأذنه فيمن قدر عليه من عُمال بني أمية: أما بعد فلا تمر بشجرة ... يكنُّك، إلاَّ فعلت، وإياك أن يتميل الثمرة والسلام.

ومنهم:

[٦]

[أبو] أيوب المُورِياني(٢)

كان وزيراً متقلداً لأبي جعفر المنصور في آخر أيام بني أمية حين جرّد للسياط على ما كان انكسر عليه من ضمان كان ضمنه منهم، ففداه أبو أيوب بنفسه، وبذل ماله دونه حتى خلص منهم، ... فكان يعدّها له يداً ويشكره إلى أن بدا له ما بدا.

---

(١) ترجمته في: الوزراء والكتّاب ٨٤.

(٢) سليمان بن مخلّد المورياني الخوزي، من وزراء الدولة العباسية في العراق. ولي وزارة المنصور بعد خالد بن برمك (جد البرامكة) وأحسن القيام بالأعمال، ثم فسدت عليه نية المنصور، فأوقع به وعذبه وأخذ أمواله. توفي سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م. وكان لبيباً فصيحاً، أصله من موريان إحدى قرى الأهواز (خوزستان، عربستان).

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٤١٠ـ٤١٤ رقم ٢٧٦، الفخري ١٥٧، الوزراء والكتّاب للجهشياري ٩٧، الأعلام ٣/ ١٣٥، تاريخ الإسلام (السنوات ١٤١ـ١٦٠هـ) ص ٤١١، و٦٧٥ـ٦٧٦، الجرح والتعديل ٤/ ١٢٢، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ١٥٢.

وكان لأبي أيوب كاتب خاص به اسمه محمد بن الوليد، وكان كاتبه هذا حريصاً على أخذ الرشا، فكتب إلى طريف على لسان أبي أيوب بحمل مائة ألف دينارٍ إليه فحملها إليه ولم يعلم بها أبو أيوب، ثم اتَّفق أن أبا أيوب أشار على المنصور بصرف طريف، وتولية غيره، ففعل ذلك، ثم إن أبا أيوب أخذ في محاسبة طريف والتضييق عليه، فحنق عليه طريف ـ وفي ظنه أن ذلك المال وصل إليه ـ فلما وصل إلى المنصور، أخرج إليه الكتاب الوارد عليه بطلب ذلك المال، فقرأه ثم دفعه إلى أبي أيوب، فقال: هذا خطُّ كاتبي وخاتمي، ولا علم لي بشيء من أمره، فقال له أبو جعفر: هذا أشدُّ من الأمرين أن يكون مائة ألف دينار يأخذها كاتبك من رجل واحد!.

ومنهم:

[٧]

عبد الجبار بن عدي

كان نبعةَ سهام، ولمعة برق تدل على ضرام، وقد كان يكتب لخلفاء بني أمية، ثم كتب للمنصور.

ثم لما مات قال المنصور: ما أخلقنا أن يكون قد دفن الكلام مع عبد الجبار، ولا نجد أحداً يقوم مقامه، ولا يسد مسدَّه.

ومن كلامه: إياك أن يعود جوابك دون بلوغ الأرب، وحصول الطلب، ولا تقل هم كثيرون، فما يحاذر لا يهوله كثرة الغنم.

/ ٨/ ومنهم:

[٨]

عبد الله بن المقفَّع[١]

وهو الغاية في البلاغة، وهو أشهر من أن يُوصف، ومهما وُصف به لا يُنصف، وبه يُضرب المثل. وكان من كتاب دولة المنصور.

---

(١) عبد الله بن المُقَفَّع: من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من الفرس. ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) سنة ١٠٦هـ/ ٧٢٤م، وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي. وترجم له «كتب أرسطو طاليس» الثلاثة، في المنطق، وكتاب «المدخل إلى علم المنطق» المعروف بإيساغوجي. وترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة ـ ط» وهو أشهر كتبه. وأنشأ رسائل غاية في الإبداع، منها «الأدب الصغير ـ ط» =

ثم استأزر به علي بن عبد الله، فلما خرج علي بن عبد الله على المنصور، وكان ابن المقفع وهو المقترح على المنصور ما يكتبه لعلي بن عبد الله في الأمان، فحقدها عليه، وقال: سواء لديَّ ابن المقفع وعلي بن عبد الله.

وجدّه مولًى لسفيان بن معاوية.

ثم كان منه ما كان، وقال ابن المقفع وهو في تلك الحال يخاطبه: [من الوافر]

إِذَا مَا مَاتَ مِثْلِيْ مَاتَ شَخْصٌ يَمُوْتُ لِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرُ
وَأَنْتَ تَمُوْتُ وَحْدَكَ لَيْسَ يَدْرِيْ بِمَوْتِكَ لا الصَّغِيْرُ وَلا الكَبِيْرُ

ومنهم:

[٩]

أبو عبد الله معاوية بن عبد الله بن يسار[(١)]

وزير المهدي وكاتبه، وموضع أُنسه، وصاحبه، ومدانيه واحد لا يقاربه. ولما وفد عبد الله بن الحسين على المهدي مُعزياً عن المنصور ومهنئاً بالخلافة، فتكلَّم بكلام أعدَّه أُعجب الناس به واستحسنوه، فبلغه ذلك، فقال لشبيب بن شبة: إني والله ما لقيت إلى هؤلاء، ولكن سل أبا عبد الله عما تكلمت به، فسأله شبيب، فقال له: ما أحسن ما

= و«الأدب الكبير ـ ط» ورسالة «الصحابة ـ ط» و«اليتيمة» واتهم بالزندقة، فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م. قال الخليل بن أحمد: ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله. وللأستاذ محمد سليم الجندي «عبد الله بن المقفع ـ ط» ومثله لعمر فروخ. ولعبد اللطيف حمزة «ابن المقفع ـ ط» ومثله لخليل مردم بك.

ترجمته في: أمراء البيان ٩٩ـ١٥٨، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٨٢، الفهرست ١١٨، ابن أبي أصيبعة ١/ ٣٠٨، الوزراء والكتّاب ١٠٩، وفيات الأعيان ٢/ ١٥١، تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٠٤، الطبري ٩/ ١٨٢، أمالي المرتضى ١/ ٩٤، أخبار الحكماء ١٤٨، البداية والنهاية ١٠/ ٩٦، لسان الميزان ٣/ ٣٦٦، سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠٨ رقم ١٠٤، أنساب الأشراف ٣/ ٢١٨، الوافي بالوفيات ١٧/ ٦٣٣ رقم ٥٣٧، الأعلام ٤/ ١٤٠، تاريخ الإسلام (السنوات ١٤١ـ١٦٠هـ) ص ١٩٨.

(١) معاوية بن عبيد الله بن يَسَار، الأشعري بالولاء، أبو عبيد الله: من كبار الوزراء. أصله من طبرية، من بلاد الأردن. ولد سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م، اشتغل بالحديث والأدب، واتصل بالمهدي العباسي قبل خلافته، فكان كاتبه ووزيره. وكان المهدي يعظمه ولا يخالفه في شيء يشير به عليه. ولما آلت الخلافة إلى «المهدي» فوض إليه تدبير المملكة والدواوين، فنهض بالأعباء وجعل للوزارة شأناً. وكان أوحد الناس في عصره حذقاً وخبرة وكتابة. وصنف كتاباً في «الخراج» ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده. وهو أول من صنف كتاباً فيه. وكان شديد التكبر والتجبر، مع وفرة الخير والإحسان. استمر إلى أن تولى الربيع بن يونس حجابة المهدي، فأفسد ثقة المهدي به، =

تكلم، ولكنه لم يبعد بكلامه أن اخذ مواعظ الحسين ورسائل غيلان فنفخ منها كلاماً، فأخبر شبيب عبد الله بذلك، فقال: لله أبوه، فوالله ما أخطأ حرفاً، ولا تجاوزت ما قال.

واعتذر إلى عبد الله رجلٌ فأطال، فقال: ما رأيت عذراً هو أشبه ذنب باستئناف من هذا الرجل.

وكان يقول: اليأس حرٌّ، والرجاء عبد.

وكان يقول: إني لأشكر حُسْن الخِلْطَة، ولِيْن اللفظة.

وهو الذي لا يخوض البحار في ضحضاحه، ولا يشبه ماء الآجن بسماحه، لولا بلبسه يكر أثقل عطفه، ومحلفه بينه سمر أنفه، لكان الذي ينقطع به النمل، ولا يشتغل بأحدٍ قبله ولا بعده.

وقد كان رُفع عليه إلى المهدي: أنَّ له / ٩/ ألف دراج سمّور، وبقية الأوبار، وسوى ما لا وبر له، وسوى غيرهما من الأصناف التي يديرها.

وحكي أنَّ الفضل بن يحيى كان شديد الكبر فعوتب في ذلك، فقال: هذا شيء حملت نفسي عليه لما رأيته من عمارة بني حمزة، فإن أبي كان يضمن فارس من المهدي، فحلَّ عليه ألف ألف درهم، فأخرج ذلك كاتب الديوان عليه، فأمر المهدي عبد الله أن يزيد بمطالبته، وقال له: إن أدّى يحيى المال قبل المغرب من يومنا هذا وإلاَّ فأتني برأسه، فكان المهدي مغضباً عليه، وكانت حيلتنا لا تبلغ عُشْرَ المال، فقال: يا بُنيّ إن كانت لنا حيلة من قبل عمارة بن حمزة، وإلاَّ فأنا ميت فامضِ إليه فلم يعرني الطرف.

ثم تقدم من ساعته بحمل المال فحمل فأديناه، فلما مضى شهران جمعنا المال، فقال لي أبي: امض به إلى الشريف الحرّ الكريم، فمضيت إليه، فلما عرَّفته خبر المال غضب، ثم قال: اكتب قسطاراً لأبيك، فقلت: لا، ولكنك أحييته، ومننت عليه بهذا المال، وقد استغنى، فقال: هو لك، فعُدت إلى أبي، فقال: لا والله ما تطيب نفسي لك

= فعزله بعد أن قتل ابناً له بتهمة الزندقة. ومات معزولاً سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م. قال ابن الخطيب: امتلأت جسور بغداد يوم وفاته بمواليه واليتامى والأرامل والمساكين، وصلى عليه علي بن المهدي، ودفن في مقبرة قريش ببغداد.

ترجمته في: التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٣٣٦ رقم ١٤٤٩، تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١/ ٤٨٠، معجم الشعراء ٣٩٥، أخبار القضاة لوكيع ٢/ ١٩٦-١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٨، ٤٠٨، الجرح والتعديل ٨/ ٣٨٦ رقم ١٧٦٤، تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٧، الفخري ١٣٣ وهو فيه: «معاوية بن يسار»، الثقات لابن حبّان ٧/ ٤٦٩، رجال الطوسي ٣١٠ رقم ٤٨٤، الفهرست للطوسي ١٩٩ رقم ٢٣٢، ٧٤٢، الأعلام ٧/ ٢٦٢، تاريخ الإسلام (السنوات ١٧١-١٨٠هـ) ص ٣٦٣ رقم ٢٨٥.

به، ولكن لك منه مائتا ألف درهم، فتشبهت به حتى صار لي خُلُقاً لا يتهيأ لي مفارقته.

ومنهم:

[١٠]

ابن طهمان، يعقوب بن داود(١)

وكان معمور الباطن بالورع والزهد المتبع، ولم تكن زخارف الأنام تَطَّبِيْهِ، ولا غروس الدنيا تصبيه.

كتب أولاً لنصر بن سيَّار، ثم بقي بطلاً وَزَرَ للمهدي، وبلغ منه ما لم يبلغه

---

(١) يعقوب بن داود بن عمر السلمي بالولاء، أبو عبد الله: كاتب، من أكابر الوزراء. كان يكتب لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى. وخرج «إبراهيم» على «المنصور العباسي» بالبصرة، فظفر به المنصور وقتله (سنة ١٤٥) وحبس يعقوب. ثم أطلق بعد وفاة المنصور، فتقرب من «المهدي» وعلت منزلته عنده، حتى صدر مرسوم إلى الدواوين يقول: «إن أمير المؤمنين المهدي قد آخى يعقوب بن داود» واستوزره (سنة ١٦٣) فغلب على الأمور كلها، وقصدته الشعراء بالمدائح، وكثر حساده، وتتابعت الوشايات فيه. وسقط عن برذون، فانكسر ساقه، فعاده المهدي في اليوم الثاني. وانتهز الوشاة فرصة غيابه عن العمل، فذكروا للمهدي صلته الأولى بالعلويين، فيقال أنه أراد اختباره، فطلب منه أن يريحه من شخص سماه له، من العلويين، فاكتفى يعقوب بأن وكل أحد رجاله بالعلوي وأعطاه مالاً، وأوعز إليه بالرحيل والاختفاء؛ وبعد مدة سأله المهدي عنه، فقال: مات. وعرف المهدي أنه كذب عليه، فانفجر سخطه، وعزله (سنة ١٦٧) وأمر بحبسه في «المطبق» وصادر أمواله. ومكث في الحبس إلى أن مضت خمس سنوات وشهور من ولاية هارون الرشيد فأخرج (سنة ١٧٥) وقد ذهب بصره، ورد عليه الرشيد ماله، وخيره في الإقامة حيث يريد، فاختار مكة، فأذن له، فأقام بها إلى أن مات سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م. وهو الذي يقول فيه بشار:

بني أمية هبوا، طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود!

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٠٠، وتاريخ خليفة ٤٤٤، وعيون الأخبار ١/ ٢٥٤ و٢/ ٢٤، ومعجم الشعراء للمرزباني ٤٩٥، والوزراء والكتّاب للجهشياري ١٥٨ـ١٦٣، وتاريخ الطبري ٦/ ١٨٣ و٧/ ٦٠٧ و٨/ ١١٧ و١١٨ و١٣٣ و١٣٦ و١٣٩ و١٥٤ـ١٦٢ و١٨١ و٣٠٢، ومروج الذهب طبعة الجامعة اللبنانية ٢٤٤٠، وحماسة أبي تمام ١/ ٣٩٩ـ ٤٠٠، والعيون والحدائق ٣/ ٢٧٠ـ٢٧٣ و٢٧٥ـ٢٧٨ و٧٨١، ومقاتل الطالبيين ٤١١، وتحفة الوزراء للثعالبي ٢٥ و١١٥، والإنباء في تاريخ الخلفاء للعمراني ٧٢، والفخري في الآداب السلطانية ١٨٥ و١٨٨، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٢٠، والكامل في التاريخ ٦/ ٣٧ و٤١ و٤٩ و٥٥ و٦٩ـ٧٢ و٨٦ و١٠٣ و١٦٠، ووفيات الأعيان ١/ ٢٧٣ و٢٧٤ و٤٢٧ و٤٢٨ و٣/ ٢٣١ و٧/ ١٩ـ٢٦ رقم ٨٣٠، وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٦٢ـ٢٦٥ رقم ٧٥٥٩، وتاريخ حلب للعظيمي ١٣٥، وأمالي المرتضى ١/ ١٤١، والفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/ ١٥٠ و١٧٦ و٢٣٣ و٣/ ٢٤١ و٤/ ١٠٤ـ ١٠٦ و٥/ ٩٨، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤، ٢٥، وبدائع البدائة ٣٥ـ ٣٦، وخلاصة الذهب المسبوك ١٣٣، والعقد =

وزيره، حتى كان يقال: يعقوب بن داود الخليفة، والمهدي الوزير.

وكان المهدي يقول[1]: يعقوب بن داود أخي في الله ووزيري.

وفي ذلك يقول سلم الخاسر[2]: [من البسيط]

قُلْ لِلإِمَامِ الَّذِيْ جَاءَتْ خِلاَفَتُهُ ... تُهْدَى إِلَيْهِ بِحَقٍّ غَيْرَ مَرْدُوْدِ
نِعْمَ المُعِيْنُ عَلَى التَّقْوَى أُعِنْتَ بِهِ ... أَخُوكَ فِيْ اللهِ يَعْقُوْبُ بنُ دَاوُدِ

وحجَّ يعقوب بن داود في صحبة المهدي، وأخذ منه أماناً للحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وأحضره إيَّاه، فأحسن إليه المهدي، ووصله بمال كثير، وأقطعه /١٠/ أرضاً من الصوافي بالحجاز، وأحمد الناس فعل يعقوب في ذلك[3].

وأنفذ يعقوب بن داود الأمناء إلى العمال في جميع الآفاق، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدي حتى ترى كتاباً من يعقوب بن داود إلى أمينه بإنفاذه.

وغلب يعقوب بن داود على أمر المهدي كله واقتصر المهدي على ملاذه حتى قال بشار بن بُرد: [من البسيط]

بَنِيْ أُمَيَّة هُبُّوا طَالَ نَوْمُكُمُ ... إنَّ الخَلِيْفَةَ يَعْقُوْبُ بنُ دَاوُدِ
ضَاعَتْ خِلاَفَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا ... خَلِيْفَةَ اللهِ بَيْنَ النَّايِ والعُوْدِ[4]

وكان يعقوب بن داود جواداً كريماً معطاءً، وأتت إليه امرأة من اليمامة قد كاتبت على نفسها وولدها وأهل بيتها على ألف دينار، فلما مثلت بين يديه، قالت: [من الوافر]

وَبَاعِثِ أَحْمَدٍ فِيْنَا رَسُوْلاً ... يُعَلِّمُنَا الحَرَامَ مِنَ الحَلالِ
لَشَهْرَاً نَحْوَ يَعْقُوْبٍ سَرَيْنَا ... فَأَدَّيْنَا إلى وَقْتِ الهِلاَلِ
أعِنِّي يَا فِدَاكَ أَبِيْ وَأُمِّيْ ... وَعَمِّيْ لا أُحَاشِيْهِ وَخَالِيْ
يُبَشِّرُنِيْ بِنُجْحِيْ كُلُّ طَيْرٍ ... جَرَى لِيْ عَنْ يَمِيْنٍ أو شِمَالِ

فقال لها: صدقْت طيرُك، وأعطاها ألف دينار وأمر لها أن يوفَّى مال كتابتها، وأن تقدم عليه بأهلها، ففعلت ذلك، فأجرى عليها وعليهم الرزق، وما زالت في عياله إلى أن مات.

= الفريد ٢/ ١٤٧ و٤/ ١٧٠، وأخبار القضاة ٣/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٠٦ـ ٣٠٩ رقم ٩٣، والعبر ١/ ٢٤٧، ومرآة الجنان ١/ ٤١٧، والبداية والنهاية ١٠/ ١٤٧، ونكت الهميان ٣٠٩، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١١، وشذرات الذهب ١/ ٢٦١، الأعلام ٨/ ١٩٧ـ ١٩٨، تاريخ الإسلام (السنوات ١٨١ـ١٩٠هـ) ص٤٧١ رقم ٤٢٥.

(١) الوزراء والكتّاب ١٥٥.

(٢) الوزراء ١٥٥، شعره (معروف) ١٩١ رقم ١٧.

(٣) الوزراء ١٥٦.

(٤) الوزراء ١٥٩.

وذكر المفضل العمري: أنَّ المهدي حجّ في بعض السنين فمرَّ بميل وعليه كتاب فوقف فقرأه فإذا هو: [من البسيط]

لــلــهِ دَرُّكَ يَــا مَــهْــدِيُّ مِــنْ رَجُــلٍ   لَــوْلاَ اتِّــخَــاذُكَ يَــعْــقُــوْبَ بــنَ دَاوُدِ
مَــاذَا الَّــذِيْ يَــا أَمِيْــرَ الــمُــؤْمِنِيْــنَ بِــهِ   أو مَــا الَّــذِيْ يَــبْــقَــى مِــنَ الــجُــوْدِ

فقال لبعض من كان معه: اكتب معه: على رغم أنف الكاتب لهذا، وتعساً لجده[1].

ثم كان يعقوب بن داود قد ضجر بموضعه، وكان يقول للمهدي: والله يا أمير المؤمنين شربة خمر أشربها أتوب [إلى] الله منها أحبُّ إليَّ مما أنا فيه، وإنِّي لأركب إليك، وأتمنَى يداً خاطئة تصيبني في طريقي فاعفني[2]، ووَلِّ من شئت، فليس دنياك بعوض لي من آخرتي. فيقول له: اللهم عفواً، اللهم اصلح قلبه، ثم آل أمره معه إلى ما آل.

ولما أوقع به المهدي، /١١/ أدخل عليه، وقال له: يا يعقوب! قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب يغضبك، فقال له: ألم أرفع من ذكرك وأنت خامل، وأعلي من قدرك وأنت غافل، وألبسك من نعم الله ما لم أجد لك بحمله يدين من الشكر، فكيف رأيت الله أظهر عليك، وردّ كيدك إليك؟! فقال: يا أمير المؤمنين إن كان بعلمك، فتصديق معترف بذنب، وإن كان بما كسبته نمائم الباغين وأقوال الحاسدين، فعائذ بفضلك، فقال: والله لألبسنك من الموت قميصاً لا يخلق الدهر جدّته، يا غلام المطبق، فولّى وهو يقول: المودّة رحم، والوفاء كرم، وأنت بها جدير[3].

وليعقوب بن داود شعر فمنه ما قاله وهو مقيم بمكة بعد إخراج الرشيد له: [من مجزوء الرمل]

طَــلِّــقِ الــدُّنْــيَــا ثَــلاَثَــا   وَاطَّــلِــبْ زَوْجــاً سِــوَاهَــا
إنَّــهَــا زَوْجَــةُ سُــوْءٍ   لا تُــبَــالِــيْ مَــنْ أَتَــاهَــا[4]

[١١]

الفيض بن أبي صالح[5]

وزير المهدي.

(١) الوزراء والكتّاب ١٥٩.
(٢) الوزراء ١٦٠.
(٣) الوزراء ١٦٢.
(٤) الوزراء ١٦٢.
(٥) الفيض بن أبي صالح شِيْرَوَيه
ترجمته في: الوزراء والكتّاب ١٦٤ـ ١٦٦.

وقال الكندي: سمعت يحيى بن خالد يقول: كان الفيض بن أبي صالح يعلّم الناس الكرم، وكان يحيى يهضم نفسه إذا ذكر الفيض بن أبي صالح، ويقول: كيف لو رأيتم الفيض بن أبي صالح[١].

قلت: كان يعلم بكرمه الخواطر المنى، ويحفِّزُ بنعمه مواهب الغنى، آية متولد، وغاية مرجو، لا يكسب المال إلاَّ لينفقه، ولا يجمعه إلاَّ ليفرقه، ولا يستجدّ الثوب إلاَّ ليهبه لا ليخلقه، لا بشكر عليه نعمه، وإن جلّت، ولا يمتلىء له سماء خزائن إلاَّ ألقتْ ما فيها وتخلَّتْ، كرماً خلق له طباعاً، وجوداً يدعه يبيتُ يطوي حشاه جوعاً، والناس شباعاً.

وفيه يقول أبو الأسد[٢] التميمي: [من الطويل]

وَلاَئِـمـةٍ لاَمَـتْـكَ يَـا فَـيْـضُ فِـيْ الـنَّـدَى ... فَـقُـلْـتُ لَـهَـا لَـمْ يَـقْـدَحِ الـلَّـوْمُ فِـيْ الـبَـحْـرِ
أَرَادُوا لِيَثْنُوا الفَيْضَ عَنْ عَادَةِ النَّدَى ... وَمَنْ ذَا الَّذِيْ يَثْنِي السَّحَابَ عَنِ القَطْرِ
مَـوَاقِـعُ جُـوْدِ الـفَـيْـضِ فِـيْ كُـلِّ بَـلْـدَةٍ ... مَـوَاقِـعُ مَـاءِ الـمُـزْنِ فِـيْ الـبَـلَـدِ الـقَـفْـرِ
/١٢/ كَأَنَّ وُفُوْدَ الفَيْضِ حِيْنَ تَحَمَّلُوا ... إِلَى الفَيْضِ أَوْفُوا عِنْدَهُ لَيْلَةَ القَدْرِ

وحكي أنَّ الفيض بن صالح، وأحمد بن الجنيد، وجماعة من الكتاب والعمال خرجوا من دار الخليفة، فتقدم الفيض، وتلاه أحمد بن جنيد، فنضحت دابة الفيض على ثياب أحمد بن جنيد من الوحل، فقال أحمد للفيض: هذه والله دابة بغيضة، ولا أدري بأيّ حقّ وجب لك التقدم علينا؟ فلم يجبه الفيض عن ذلك بشيء، ووجه إليه عند مصيره إلى منزله بمائة تخت، في كل تخت قميص، وسراويل، ودراعه، ومبطنة، وطيلسان، وعمامة، وشاشية، وقال لرسوله: أوْجَبَ لنا التقدمَ عليك أنَّ لنا مثلَ هذا الوجه به إليك عوضاً بما أفسدناه من ثيابك.

وحُكي أنَّ داود كاتب زبيدة حبس وكيلاً لها على مائتي ألف درهم تأخرت لها

---

(١) الوزراء ١٦٤.

(٢) أبو الأَسَد: نَبَاتة بن عبد الله الحماني التميمي، شاعر، من بني حمَّان (بكسر الحاء وتشديد الميم) من أهل الدينور. كان متصلاً بالفيض بن أبي صالح (وزير المهدي العباسي) ومن شعره فيه:

كـأن وفـود الـفـيـض، حـيـن تـحـمـلـوا ... إلـى الـفـيـض، لاقوا عـنده لـيـلـة الـقـدر

وكان صديقاً لعلوية المغني، مواصلاً لعشرته، ولعلوية صنعة في كثير من شعره. توفي نحو ٢٢٠هـ/ نحو ٨٣٥م.

ترجمته في: الوزراء والكتاب ١٦٤ وفيه شيء من سيرة «الفيض»، استوزره المهدي بعد يعقوب بن داود، والأغاني، طبعة الساسي ١٢/ ١٦٨ـ١٧١ وانظر فهرسته. والكلام على «حمان» في التاج ٨/ ٢٦٢، الأعلام ٨/ ٧.

عنده، فكتب الوكيل إلى صديقين له يسألهما في الحديث له، فركبا إلى كاتب زبيدة بسببه، فلقيا الفيض بن أبي صالح مصادفة في الطريق، فسألهما: إلى أين ركبا؟، فحدَّثاه بحديث الرجل، فسار معهما، وهو لا يعرف ذلك الرجل حتى أتى كاتب زبيدة فحدَّثُوه، فكتب اليها بخبرهم، فبعثت تقول: لا سبيل إلى إطلاقه إلاَّ أداء المال، فاعتذر إليهم، فقام الرجلان لينصرفا، فقال لهما الفيض: ويحكما من رجلين كأننا ما جئنا إلاَّ لنؤكد حبس الرجل، لا والله ولكن نؤدّي عنه المال، ثم أخذ الدواة وكتب إلى وكيله بالمال ودفع الرقعة إلى كاتب زبيدة ثم قال له: ها قد أعطيناك المال، فسلِّم إلينا صاحبنا، فكتب إلى زبيدة بالخبر، فبعثت تقول: أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض، فاردد ما كان منه، فما برح حتى أخذ الرجل، ثم دفع إليه المال، وقال: شيء خرجت لك عنه لا أعود فيه.

ومنهم:

[١٢]

عمر بن بَزِيع[1]

وكان من كتاب الهادي، وكان صاحب فكر غوَّاص، وفهم قنَّاص، وأدبٍ / ١٣/ محاضر، وجواب حاضر.

حكى مخارق أنه كان مع الهادي يوماً ـ وهو يتصيد ـ فرمَى، فأصاب سبعة اطلاق، ثم رمى الثامن، فأصاب الصيد، وانقطع الوتر، فاغتم لذلك، وتطير منه، وضجر، فنزل عمر بن بزيع، فوقف بين يديه، ثم قبل الأرض، وحمد الله، فقال الهادي: أي موضع حمدٍ هذا؟ فقال له: الحمد لله على أن كانت العين بالقوس، ولم تكن بك يا أمير المؤمنين، فسّري عنه، واستحسن ابن بزيع، ووصله بجملة من المال[2].

وكتب إلى صديق إليه يوصيه: كل مالك حِلٌّ. وإياك وسرعة المبادرة، وبطء الفكر، فذاك يورطك، وذاك يؤذيك فيه زيادة الحذر إلى ما يسخطك، والسلام.

* * *

(١) ترجمته في: الوزراء والكتّاب ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٣.
(٢) الوزراء ١٧٣.

[البرامكة]

ومنهم البرامكة، وكانوا ـ رحمهم الله ـ البحور الزَّواخرَ، والغيوث السواكب، والجناب المخصب، والربيع الممرع، والجبال الشواهق، والنجوم اللوامع، والبدور الكوامل.

وكانوا أمّة كرم، وملَّة فضل، وكعبة جود، وقبلة أمل، ومحلّ قصد، ومحطّ وفد، وصفاء صفا، ومروة مروءة، وركز لائذ، ومقام عائذ، لم يقدمهم مثلهم، ولا الأيام تظفر بنظيرهم. وقد قال ابن سعيد ـ وهو المتعصّب للمغاربة: فأما إذا ما افتخر أهل المشرق بالبرامكة مددنا لهم الأعناق خضوعاً، وأغضينا العيون حياء، وسلّمنا إليهم وقلنا: هذا ما لا يدفع.

قلت: ولم يكن منهم صغير ولا كبير ولا خفيّ ولا سمير إلا وهو يتسامى إلى الغايات ولا يقنع إلا بالنهايات حتى قيل فيهم: [من الوافر]

إذا مـا الـبـرمـكـيّ أنـافَ عـشـراً ... فـهـمَّـتُـهُ وزيـرٌ أو أمـيـرُ

وكانوا يتنافسون في الصنائع، ويتهافتون على المعروف، ويتقاسمون على العفاة / ١٤/ ، ويتساهمون على الوفود، ويتسابقون الآمال، ويبادرون السؤال، ويواثبون البحر، ويطاولون السحاب، ولا يقبض لهم ندى، ولا يجف لهم جود، ولا يذوى لهم معروف، ولا يهوى لهم معلم، ولا يبلى لهم ثوب صنيع. اغتنموا للناس هبوب ريحهم ـ وانتهزوا لهم فرصة إمكاناتهم، وتتبعوا بمعروفهم خلل الإخوان وداووا بوجوههم سقم الزمان، لا يقنعون لمن أمّلهم بالقليل، ولا يرضون له باليسير، يبسطون أيديهم بالعطاء، ويتوسطون له إلى الخلفاء.

وحكي أن بعض الوزراء رأى في يد جليس له كتاباً فيه أخبار البرامكة فقال له: أقرأ عليَّ ما في هذا الكتاب! فقال له: أخبار البرامكة، فقرأ أنباءً من مكارمهم، فقال له الوزير: هذا مما كَذَبَه الورَّاقون! فقال له الرجل: فهلاَّ كذبوا عليكم؟! فخجل الوزير واستحيا. ولم يكن منهم إلا من يجمع المكارم، ويدبّ له البرق خجلاً من وجوه الغمائم، وكانوا كما [قال] فيهم ابن مناذر: [من الطويل]

أَتَـانَـا بَـنُـو الأَمْـلاَكِ مِـنْ آلِ بَـرْمَـكٍ ... فَـيَـا طِـيْـبَ أَخْـبَـارٍ وَيَـا حُـسْـنَ مَـنْـظَـرِ

إِذَا نَـزَلُـوا بَـطْـحَـاءَ مَـكَّـةَ أَشْـرَقَـتْ ... بِيَحْيَى وبِالفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَتُظْلِمُ بُغْدَادٌ وَتَجْلُو لنَا الدُّجَى ... بِـمَـكَّـةَ مَـا عِـشْـنَـا ثَـلاَثَـةُ أَقْـمُـرِ
فَـمَـا خُـلِـقَـتْ إلاَّ لِـجُـودٍ أَكُـفُّـهُـمْ ... وأَرْجُـلُـهُـمْ إلاَّ لأَعْـوَاد مِـنْـبَـرِ

ومهما قيل في وصفهم فهم أكثر منه، ومن ذا يعد الرمل، ويحصر الحصى، وبذكرهم يتضوَّع الندى في كلِّ محفل، وتتعطَّر الأندية في المشرق والمغرب، وما محاسن شيء كلُّه حسن.

فمنهم:

[١٣]

خالد بن برمك[١]

وهو أساس هذا البيت، ومعدن هذا الذهب، وبحر هذه الدرر، ومطلع هذه الأنجم، ومنبع هذه الأسهم، وكلّهم حذوا حذوه، ونحوا نحوه، وأشبهوا فيه أباهم فما ظلموا، وعملوا منه بما علموا، وهو ممن تقدمت له الرياسة /١٥/ في زمان بني

---

(١) خالد بن بَرْمَك بن جاماس بن يشتاسف: أبو البرامكة، وأول من تمكن منهم في دولة بني العباس. كان أبوه «برمك» من مجوس بلخ، ولد سنة ٩٠هـ/ ٧٠٩م، وتقلد خالد قسمة الغنائم بين الجند في عسكر قحطبة بن شبيب بخراسان. كان قحطبة يستشيره ويعمل برأيه. ولما بويع السفاح ودخل خالد لمبايعته توهمه من العرب، لفصاحته، وأقره على الغنائم، وجعل إليه ديوان الخراج وديوان الجند بعد ذلك؛ وحلّ منه محل «الوزير» وبعد وفاة السفاح أقره المنصور نحو سنة ثم صرفه عن الديوان وقلده بلاد فارس (الريّ، وطبرستان، ودنباوند وما إليها) فأقام ـ بطبرستان ـ سبع سنين، وعزله ونكله. ثم رضي عنه وأمَّره على الموصل. ولما ولي المهدي أعاده إلى إمارة فارس، ووجَّهه مع ابنه هارون الرشيد في صائفة سنة ١٦٣هـ/ ٧٨٠م. ومات بعدها بنفس السنة؛ وقيل: بعد أوبته منها. وكان سخياً سرياً عاقلاً فيه نبل، قال المسعودي: لم يبلغ مبلغ خالد أحد من ولده، في جوده ورأيه وبأسه وعلمه، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل بن يحيى في جوده ونزاهته، ولا جعفر في كتابته وفصاحة لسانه، ولا محمد بن يحيى في شرفه وبعد همته، ولا موسى في شجاعته وبأسه.
ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٤٣، وعيون الأخبار ١/ ١١٧ و٣٣٩، وأنساب الأشراف ٣/ ١٣٦ و١٣٨، وتاريخ الطبري ٦/ ١٨٢ و٤٢٥ و٧/ ٣٦٣ و٣٨٩ـ٣٩٢ و٤٠٦ و٤١٩ و٤٥٨ و٤٦٠ و٤٦٥ و٤٦٧ و٦٥٠ و٨/ ١٩ و٢٠ و٥٤ـ٥٦ و١٤٦، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ١٤٧٤ و٢٢٨٥ و٢٥٥٩، والأغاني (في ترجمة بشار بن برد) ٣/ ١٧٣ و١٨٤، ١٨٥ و١٩٢ و٢٠٣، والوزراء والكتّاب للجهشياري ٨٧ ـ ١٥١، والفرج بعد الشدة ١/ ٣٦٦ و٣/ ٢٤١ و٢٤٦ـ ٥٤٨، وثمار القلوب ١٨١، وأخبار بني العباس للصولي ٢١٩ـ٢٢٢، والمحاسن والمساوىء ١٩٣ـ ١٩٤، وربيع الأبرار ١/ ٣٢٥ و٤/ ١٦١، والتذكرة الحمدونية ٢/ ٨٧ و٨٨ و١٩٦ و٢٩٠، =

مروان، ويقال: انه ولي على زمان عبد الملك شيئاً من أمور الديوان ثم كان له في الشيعة الهاشمية مكان منيف.

وكان له على عهد السفَّاح سعد مقبل.

وكان ثُمامة يقول: «كان أصحابنا يقولون لم تكن ترى عين لجليس خالد دارا، إلاَّ خالد بناها له، ولا ضيعة إلاَّ خالد ابتاعها له، ولا ولداً إلاَّ وخالد ابتاع له أمّة إن كانت أمه، ولا حرَّة إلاَّ وخالد مهرها عنه، ولا دابة إلاَّ وخالد حمله عليها، أو من نتاج دابة حمله عليها».

وكان أبو حبيش النُّميري عند خالد بن برمك في يوم نيروز، وهو على فارس، قد جاءته هدايا فيها جامات ذهب وفضة فأنشده: [الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي أمَا لَنَا فِيْكِ حَظٌّ ... يَا هَدَايَا الأَمِيْرِ فِيْ النَّيْرُوْزِ
مَا عَلَى خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ فِي الجُوْ ... دِ نَوَالٌ يُنِيْلُهُ بِعَزِيْزِ
لَيْتَ لِيْ جَامَ فِضَّةٍ فِيْ هَدَايَا ... هُ سِوَى مَا بِهِ الأَمِيْرُ مُجِيْزِي
إنَّمَا أَبْتَغِيْهِ لِلْعِسَلِ المَمْـ ... زُوْجِ بالمَاءِ أَوْ لِشُرْبِ العَجُوْزِ

فأمر له بما كان بين يديه من جامات الفضة، فبلغت أربعمائة ألف درهم الذي لا يعدله في السرد وواحدهم القيام مقام الكل ولا مردا برأ من مناقبه بما كثر. وحصلوا من فرصة على ما انتهى بك المجد وبناه، وإذا الحمد كان كل ناطق إنما غناه ذو الحلم إلاَّ أنه الذي لا يجنح، وربّ العلم إلاَّ أنه الذي لا يبرح، وأخو الذكاء إلاَّ أنه الذي في زيادة لا يقدح. نطق بالحكمة في مقاله، ونعق غراب البين في ماله، وكرم شمائل،

= والأجوبة المسكتة، رقم ٨٢، والمستجاد من فعلات الأجواد ٢٤٩، وبغية الطلب لابن العديم ٥/ ٣٣٨، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٣١، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٦٨، ومحاضرات الأدباء ٢/ ٥٩٤ـ ٥٩٥، ومعجم البلدان ١/ ٤٢٥، والكامل في التاريخ ٤/ ٥٢٤ و٥/ ١٣٨ و٣٦٣ و٣٨٦ و٣٨٧ و٣٩٨ و٤٠٦ و٤٤٥ و٤٥٤ و٥٧٣ و٥٨٠ و٥٨٥ و٦/ ٨ و١٥ و١٦، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٢ و٢/ ٤١٠ و٤١٥ و٥/ ٢٥٢ و٦/ ٢١٩ و٢٢٠ (في ترجمة ابنه يحيى، رقم ٨٠٦) و٧/ ٣٤٣، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١١٣، ١١٧، ١٢٩، والفخري في الآداب السلطانية ١٥٦ و١٥٧ و١٧٣ و١٩٧، وخلاصة الذهب المسبوك ٥٤ و٧٣ و٨٨، ونهاية الأرب للنويري ١/ ٣٨٠، الإلمام بالإعلام للنويري السكندري ١/ ٨٢، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٨ـ ٢٢٩ رقم ٨١، والعبر ١/ ٢٢٨ و٢٤٦، ومرآة الجنان ١/ ٣٥٢، والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٤٩ رقم ٣٠٣، والعيون والحدائق ٣/ ١٩١ـ ١٩٦ و٢٠٨ـ٢١٥ و٢٦٠ـ٢٦٨، والنجوم الزاهرة ٢/ ٥٠، ونثر الدرّ ٥/ ٣٢، وشذرات الذهب ١/ ٢٦١، وخزانة الأدب ١/ ٥٤٢، ودائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤٩٢ـ ٤٩٨، والأعلام ٢/ ٢٩٥، تاريخ الإسلام (السنوات ١٦١ـ١٧٠هـ) ص١٦٠ رقم ٩٠.

وعظم أثر إلاَّ معلقاً نجاد سيفه بحمائل.

وكان قد استوزره المهدي لابنه هارون الرشيد فكان يقوم بأمره. فلمَّا صارت الخلافة إلى الهادي، أراد خلع أخيه الرشيد والعهد إلى ابنه جعفر، فدعا بيحيى، فلما وصل إليه أكرمه ورفق به وقال له: أنت الذي يقول فيك القائل: [من الخفيف]

لَوْ يَمَسُّ البَخِيْلُ رَاحَةَ يَحْيَى ... لَسَخَتْ كَفُّهُ بِبَذْلِ النَّوَالِ

لَسْتُ يَحْيَى مُصَافِحَاً حِيْنَ أَلْقَى ... إِنَّنِي إنْ فَعَلْتُ أَتْلَفْتُ مَالِي

/١٦/ فقال له: تلك راحتك يا أمير المؤمنين! وقبل يده ورجله فأمر له بإقطاع مصر، ووجَّه له بعشرين ألف دينار، ثم ناظَره في خلع هارون، فقال له يا أمير المؤمنين: إنَّك إنْ حملت الناس على نكث الإيمان، هانت عليهم أيمانهم وجرَّأتهم على حلِّ العقود التي تعهد عليهم، ولو تركت الأمر على بيعة أخيك بحاله، وبويع بحضرته من بعده، لكان أوكد لبيعته! فقال له: صدقت ونصحت، وأنا أنظر في هذا، ثم صرفه: ثم لم تطب نفسه، ودعا بيحيى فحبسه، فتلطَّف لأن يدعو به ويخليه، ففعل به ذلك، فلما خلا به، قال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر، وقد خلعت هارون هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم؟ قال: لا. قال: فدع هارون حتى نبايعه عفواً فالله الله يا أمير المؤمنين، فإنَّك إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ بالله منه وثب على هذا الأمر أكابر أهلك وخرج الأمر عن ولد أبيك. ووالله لو لم يكتب المهدي عقداً لهارون لوجب أن تعقد له، ليكون الأمر في بني أبيك، فسكَّن منه بهذا الأمر وأطلقه[1].

وحكي أن خالد بن برمك لما انصرف من فارس قصد باب المهدي ومعه ابنه يحيى، والحاجب إذ ذاك معاذ بن مسلم، فسلَّم خالد على معاذ فصافحه، ثم مدَّ يحيى يده إليه ليصافحه فقبض معاذ يده، فقال له خالد: لم قبضت يدك يا أبا الحسن عن ابن أخيك؟ فقال: أكره أن أتلف مالي! أليس قال أبو حبيش: [من الخفيف]

«لست يحيى مصافحاً حين ألقى»

البيت المقدم ذكره.

ولما صار الأمر إلى الرشيد، كانت الدواوين كلّها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة، خلا ديوان الخاتم، فإنه كان إلى أبي العباس الطوسي، ثم ولاَّه جعفر بن محمد بن الأشعث، ثم دفع الخاتم إلى يحيى بن خالد، فقلّده الفضل ابنه، ثم أحب

---

(١) الوزراء ١٦٩ـ١٧٠.

الرشيد تقليد جعفر بن يحيى الخاتم فقال ليحيى: «إنني أريد أن أوقِّع بها توقيعاً لا يجري مجرى العزل للفضل، فكتب عنه يحيى: إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلاف من يمينك إلى شمالك».

وكان الرسم في الكتب الذي ينفذ من ديوان /١٧/ الخراج أن يكون باسم الخليفة، فلمَّا ولي يحيى بن خالد صارت باسمه.

وقلد اسماعيل بن صبيح ديوان السّر. ولما قلّد هارون الخلافة دعا بيحيى بن خالد، وكان يخاطبه بالأبوة ـ وعلى ذلك أجراه في خلافته ـ وقال له: يا أبتِ أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلّدتك أمر الرعية، ،أخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من رأيت، واسقط من رأيت، فإني غير ناظر في شيء معك، وكان يحيى والفضل وجعفر ينظرون في أمور المسلمين وحوائجهم، لا يحجب أحد عنهم، ولا يلقى لهم ستر، ويجلسون في كل يوم لا يركبون فيه، جلوساً عاماً إلى انتصاف النهار. وفي هارون ويحيى يقول إبراهيم الموصلي: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أنَّ الشَّمسَ كانت سقيمةً فلمَّا وَلِيْ هارونُ أَسْفَرَ نورُها
بيُمن يمينِ اللهِ هارونَ ذي النَّدَى فهارونُ وَاليها ويحيى وزيرها

فأمر يحيى بن خالد، يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب، فأنشأ الكتب إلى العمَّال بالولاية للخليفة الرشيد، وإقرارهم على أعمالهم، فكتب في ذلك كتباً مشهورة أجادها.

وقام يحيى بالأمور، وكان يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها.

ونظر يحيى في أمور السجن فأطلق بشراً كثيراً، فاحتفر القاطول فاستخرج نهراً سمَّاه أبا الجند، وأنفق عليه عشرين ألف درهم، وأقطع سدنة الكعبة على ذلك النهر لكل رجل مائة وعشرون جريباً، وأخرج توقيعه إلى الديوان بإثبات كلٍّ من بلغ الحلم من أهل خراسان بغير أمر محدود.

وكان يحيى أوَّل من أقرَّ من الوزراء، وكان أوَّل من زاد في الكتب: «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ».

وأنشأ في ذلك كتاباً في ذكر فضل الأنبياء عليهم السلام، واختصاص نبيِّنا ﷺ من بينهم بالتفضيل والكرامة، وإضافته اسمه عليه السلام إلى اسمه عزَّ وجلَّ في الصلوات، والأذان، وأمر الله تعالى العباد بالصلاة عليه، وذكره في خطب أعيادهم ومفترض صلواتهم التي هي قوام دينهم ورؤوس أعمالهم، وأنه أحب أن يستنَّ بما سنَّه

الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ بأن [يُصدِّر] في كتبه /١٨/ مقروناً بحمد الله تعالى وذكره، وكان ذلك في سنة ثمانين ومائة، وكان الرشيد ساخطاً على إبراهيم بن ذكوان الحرَّاني، فأمر بحبسه وقبض أمواله، فحبسه يحيى عنده في داره وكفَّه عنه. ولم يزل يتلطَّف له إلى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبي جعفر، وكان يلي البصرة فأشخصه معه.

وأمرت الخيزران أن يُقتل من كان يتسَّرع إلى خلع الرشيد ودعا ببيعة جعفر بن موسى الهادي، فقال يحيى: أوخير من ذلك؟ فقالت: وما هو؟ قال: نرمي بهم نحور الأعداء فإنْ دفعوا عن أنفسهم، كان لهم عنا شغل، وإنْ أصابهم العدوّ كنت قد استرحت منهم! فأمن له في ذلك، فتخلَّص القوم جمعاً. وفي يحيى يقول مروان بن أبي حفصة هذا: [من الطويل]

إذا بَلَّغَتْنَا العِيْسُ يحيى بنَ خالدٍ ... أَخَذْنَا بِحَبْلِ اليُسرِ وانقَطَع العُسْرُ
سَمَتْ نَحْوَهُ الأبْصَارُ منَّا ودُوْنَهُ ... مَفَاوِزَ تَغْتَالُ النِّيَاقَ بِهَا السَّفْرُ
فإنْ نَشْكُرِ النُّعْمَى الَّتِي عَمَّنا بِها ... فَحَقٌّ علينَا ما بَقَيْنَا له الشُّكْرُ

وفيه يقول أبو قابوس [عمر بن سليمان الحيري]: [من البسيط]

رَأَيْتُ يحيى أَتَمَّ الله نِعْمَتَهُ ... عليهِ يأتِي الذي لمْ يأتِه أحدُ
يَنْسَى الذي كانَ مَنْ مَعْرَوفِهِ أبداً ... إلى الرجالِ ولا يَنْسَى الذي يَعِدُ[1]

وكان يحيى أحسن إلى روح بن معمر المطلي، ويكنى أبا وائل حتى خصَّ به، فقال روح: [من السريع]

قَرَّبَنِي يحيى إلى نفسِهِ ... وليسَ لي منهُ مَكانٌ قَرِيْبْ
فقلتُ للنَّفسِ صِلِي شُكْرَهُ ... بالشُّكْرِ للهِ فنِعْمَ المُجِيْبْ

فلمَّا سمعها قال: والله لأصلنَّ بِرَّك كما وصل لي شُكرك! ثم أضعف ما كان يجريه عليه.

وكان يحيى يقول لولده: لا بدَّ لكم من كتَّاب وعمَّال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسفلة الناس، فإنَّ النعمة على الأشراف أبقى، [وهي] بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر[2].

وكان ليحيى ابن يقال له: إبراهيم، وكان جميلاً يُقال له لجماله: دينار آل برمك، فتوفَّى وسنُّه تسع عشرة سنة، ويحيى غائب في بعض أسفاره، فصلَّى عليه عبد

(١) الوزراء ١٧٩.
(٢) الوزراء ١٧٩.

الصمد بن علي، ووجد عليه يحيى، فاغتمَّ به / ١٩/ فقال أبو المنذر العروضي يرثيه: [من الخفيف]

مـا تـرى حـامـلـوه حـيـن أقـلُّـوا نَـعْـشَـهُ لـلـثَّـواءِ أو لِـلِـقـاءِ
فـلـيَـقُـل فـيـك بـاكِـيـاتُـكَ مـا شِـئْـ ـنَ صـبـاحـاً وعـنـدَ كـل مَـسَـاءِ
لا يُـعـنِّـفْـنَ فـي الـمـقـالِ ولـكـنْ مُـسـعـداتٌ بـذاكَ غـيـر خـفـاء
كـلّ حـيّ رهـنُ الـمـنـونِ ولـكـنْ لـيْـسَ مَـن مـاتَ مـنْـهـمُ بِـسَـواءِ

وكان يحيى أحضر مؤدِّب ابنه هذا، ومن كان ضمَّ إليه من كتَّابه وأصحابه، فقال ما حال إبراهيم؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا، ونظر في كذا! قال: ليس عن هذا سألت إنّما سألت: هل اتَّخذتم له في أعناق الرجال مِنناً، وحبَّبتموه إلى الناس؟ قالوا: لا. فقال: فبئس العشراء والأصحاب أنتم، وهو إلى هذا أحوج منه إلى ما فعلتم.

وتقدم بحمل خمسمائة ألف درهم وأمر بتفريقها عنه[1]. وفي ذلك يقول سلم الخاسر من قصيدة: [من مجزوء الكامل]

وفـتًـى خَـلاَ مـن مـالِـه وَمِـنَ الـمُـروْءَةِ غَـيْـرُ خَـالِـي
أعْـطـاكَ قـبـلَ سُـؤالِـهِ فَـكَـفـاكَ مَـكْـرُوهَ الـسُّـؤال

وكتب خالد إلى يحيى المتولي على أذربيجان: إلى يحيى بن خالد بن برمك: أمَّا بعد: «فما حقوقاً قد منعت وأموالاً قد تحيفت، فان رسمتَ ببيع ذلك وكشفه، بلغ ما يوفي على خراجها. فلمَّا وقف يحيى بن برمك على الرقعة كتب في ظاهرها: وقفنا على هذه الرقعة المذمومة، وسوق السعاة عندنا بحمد الله كاسدة، وألسنتهم لدينا معقولة، وما بعثناك إلى الناحية لتحيي العظام النخرة، ، وإلا لتبيع الآثار المذمومة، فخذ الناس على قانونهم، وطالبهم بما في ديوانك، ودع التكشف والتتبع، فهذه مدة تمضي، وأيام تنقضي، فإنه ذكر جميل، أو حزن طويل، وحسبي وحسبك قول جرير: [من الوافر]

وكـنْـتَ إذا نـزلْـتَ بـدارِ قَـوم رحـلْـت بـخـزيَـةٍ وتـركْـتَ عـارَا

وعن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ: / ٢٠/ عن أبيه قال: كتب إليَّ وكيلي أنَّ الضيعة الفلانية، وكانت تجاور ضيعتي، قد انقطع أمرها عن أربعة آلاف دينار، وقد سألت صاحبها الانتظار عليَّ إلى ورود جواب كتابي، فإن أنت وجَّهت المال، وإلا خرجت الضيعة من يدك، وورد عليَّ الكتاب في الليلة التي صبحتها نوبتي في بيتي، وكانت نوبة يحيى بن خالد في بيته، إلاَّ أنه كانت عادتي إلاَّ أبرح في ذلك اليوم من

---

(١) الوزراء ١٧٩ـ١٨٠.

بيتي، فورد عليَّ ما أسهرني، لأنَّ المال لم يكن عندي، ولم اكن أقدر على احتياله في ذلك الوقت القريب، فضربت الأمر ظهراً لبطن، فلم أجد غير يحيى بن خالد، فبكَّرت إليه، فاستأذن لي بالحاجب، فدخلت وفي يده المسواك، فلما رآني، سرَّ وابتَهج، وقال: أحسنت والله أحسنت، اليوم نوبتي ونوبتك، فنأخذ في أمرنا ولا ندخل معنا غيرنا! فقلت له: يا سيدي الحمد لله الذي وفَّقني لمحبَّتِك، ولكني والله بكَّرت لغير ذلك، قال: وما هو؟ قلت كتب إليَّ وكيلي البارحة بكذا وكذا، ووالله لا أقدر على المال، ولم أجد من أفزع إليه غيرك، فبكَّرت أسألك استلافه لي من بعض المعاملين لتردّه تحت يدك من رزقي، قال: دعنا الآن من هذا، ودع وهات يا غلام ما حضر، فجيء بالطعام وأكلنا، وأنا كأني آكل لحمي، ثم رفع وجيء بالشراب، وأنا في فكري، فلمَّا كان وقت العصر، وقد أيست، وعلمت أنَّ الحيلة قد قلّت، وأني أحتاج أن أحضر غداً الدار، قال: ياإبراهيم عندك صبية تغنّي؟ قلت: لا والله يا سيدي. قال: ولا لبعض الجواري والأهل؟ فقلت لا. ثم ذكرت صبية لبعض أمَّهات أولادي ما وضعت يدها على العود إلا أنَّها مطبوعة ولها حُلَيْقٌ، فقلت: صبية ريّض، وليست بشيء! قال: لا تبالِ يبكِّر إليك من يطلبها منك وإياك أن تقصِّر عن مائة ألف دينار! قلت: يا سيدي إنِّما قيمتها مائة دينار! قال: لو أنها تساوي درهما لا تنقصها من ماية ألف دينار، وإياك أن تنقص من ذلك شيئاً! فقلت في نفسي: هذا رجل قد غلب عليه النبيذ، ولم يكن بحاجتي عنده موضع، فهو يسخر مني، فانصرفت مكروباً، وغلب علي السهر إلى وقت السحر، فهوّمت قليلاً، ثم قمت للصلاة، وقد كنت استظهرت بأن ابتعت الصبية عند منصرفي من مولاتها / ٢١/ بمائتي دينار، وقلت هو ذا أنا أنام، فكل من جاء أصرفه عني، إلا أن يجيء رجل من صفته كذا وكذا. قال: وكان يحيى وصفه لي فأنبهني، ويئست من الضيعة، وأخرجتها من قلبي، فما طلعت الشمس جيداً حتى أنبهني الغلام. قال: قد جاء الرجل فأذنت له، فطلب الصبيَّة، فأخرجتها، وسامني، فاستمت مائة ألف دينار، فاستكثر ذلك مني وأعطاني ثلاثين ألفاً، وأنا لست أصدِّق، ثم لم يزل يزيدني حتى بلغ خمسين ألفاً. فقلت: أحضر المال؟ فقال: هاهو! وحمله إليَّ وتسلَّم الجارية، فحلَّلْت من المال أربعة آلاف دينار، ووجهت بها إلى الوكيل، وتركته على جملته، وقلت: لا بدَّ للرجل من أن يرجع يستردَّه ويردّ الجارية، ولكن نحصل ثمن الضيعة، ويقع النظر فيه. وركبت إلى دار السلطان فأقمت إلى الليل، وانصرفت. وسألت عن الرجل، فقيل لي: لم يرجع، فحمدت الله، وبتُّ وبكرت إلى يحيى، فشكرته. فلما رآني قال: هات حديثك، فحدثته فقال:

إنَّا لله، أي شيء عملت؟ ذهبت منك خمسون ألف دينار، ثم أشار إلى الغلام، بشيء فمضى وجاء ومعه الجارية، فقال: تعرف هذه؟ قلت: نعم يا سيدي هذه التي منَّ الله عزَّ وجلَّ بك عليَّ بها في أمرها، خذها وهو ذا يجيئك من يطلبها، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار، فأخذت بيدها وجاءني من يطلبها فبعتها منه بثلاثين ألف دينار، وعدت إلى يحيى، فسألني، وخبرته فلامني أيضا، فشكرته وقلت: استحييت من الله أن آخذ أكثر من هذا، فأخرج الجارية ومعها كسوة وطيب بألوف دنانير، وقال: قد تبركت لك بها، فالآن خذها لنفسك، ففعلت فهي والله أمّ طيّاب ابني. قال: فقلت له: ما قصة هؤلاء مع هذه الجارية؟ فقال:

ويحك! أمَّا الأول، فخليفة صاحب مصر، وهو مقيم على بابي منذ سنة يسألني، فسألته حاجة بمائة ألف دينار، وأنا لا أسأله، فلمَّا شكوتَ إليَّ ما شكوت، فقلت له: صبية عند إبراهيم، فاشترها لي ولو ثبتَّ علي مائة ألف لوزنها لك، ولكنك ضيَّعت. وأمَّا الثاني، فخليفة صاحب فارس، وقصَّته قصَّة الأول، فدعوت له وشكرته وانصرفت[١].

وعرض ليحيى رجل من أهل الشام من بني أمية، فترجَّل له، فرأى شيخاً وسيماً له رواء وهيبة، فلمَّا عاد إلى مجلسه دعا به وسأله عن سببه، فأخبر أنه رجل من بني أمية وأنَّ / ٢٢/ مسألته التي إليها يقصد وُصُوله إلى أمير المؤمنين! فقال له يحيى: الصدق أولى بي، وأمير المؤمنين يستثقل هذا النسب، فانظر ما تلتمسه، فإنْ تكن مظلمة رددتها، وإن تكن صلة بذلتها، وما بين ذلك من الحوائج فغير معتذر إليك في شيء منها.

فقال: الذي سألت ما سمعت أيها الوزير، وإني لأعلم أنكم يا آل برمك معادن الخير، فإنْ سهل أنْ تذكرني له فعلتَ، وإنْ ردَّ، فقد قضيت أيها الوزير ما عليك، وأوجبت عليَّ شُكْرَكَ، آخر الليالي الغوابر. فذَكَرَهُ يحيى للرشيد، وخبَّره بما دار بينهما. فأمره بإيصاله إليه، فلما وقعت عين الأموي عليه استأذن في الكلام، فأذن له فتكلم وأحسن وأبلغ، ثم أنشد يقول: [من الرمل]

يا أَمِيْنَ اللهِ إنِّي قَائِلٌ ... قولَ ذِي رأي ودينٍ وَحَسَبْ
لَكُمُ الفضلُ علينا ولنا ... بِكُمُ الفضلُ على كلِّ العَرَبْ
عبدُ شمسٍ كان يَتْلُو هاشِماً ... وهما بعدُ لأمٍّ ولأبْ
فَصِلُوا الأَرْحَامَ منَّا إنَّما ... عبدُ شَمْسٍ عمُّ عبدِ المطَّلِبْ

فأحسن الردّ عليه، وأسنى صلته، ووصله يحيى أيضاً، وأجرى له رزقاً في بلده، وردّه إليه[٢].

---

(١) الوزراء والكتّاب ١٨٠-١٨٣. (٢) الوزراء والكتّاب ١٨٧-١٨٨.

وظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه بالديلم، وقويَ أمره فشقَّ على الرشيد ذلك، واهتمَّ همَّاً شديداً، فاستشار يحيى بن خالد، فأشار بتجهيز ابنه الفضل، فأنهض إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً، وأنهض معه وجوه القواد، وولاه كور الجبل في سنة ست وسبعين ومائة ٧٩٢م.

ففيه يقول أبو قابوس الحيري: [من الطويل]

رأى اللهُ تفضيلَ ابن يحيى بن خالدٍ ... ففضَّلَهُ واللهُ بالنَّاس أعْلَمُ
لهُ يومُ بُؤْسٍ فِيْهِ للنَّاسِ أبْؤُسٌ ... ويومُ نعيم فيه للنَّاسِ أنْعُمُ
فيُمطِرُ يومَ الجودِ من كفِّهِ الغِنَى ... ويمطرُ يومَ البؤسِ من كفِّهِ الدَّمُ

فجعل الفضل محمد بنَ منصور بن زياد خليفته بباب الرشيد ومضى نحو الديلم، وواصل كتبه إلى يحيى بن عبد الله ورسله، بالرفق والاستمالة والتحذير والترغيب والترهيب، وبسط /٢٣/ الأمل إلى أن أجابَ يحيى إلى الصلح والخروج على أمان، وأخذ له بخط الرشيد أماناً أنفذ نسخته إلى الفضل، فكتب بذلك إلى الرشيد فسرَّه وحَسُنَ موقعه منه، وكتب الأمان ليحيى، وأشهد على نفسه القضاة والعدول، فأنفذه إلى الفضل. وقدم عليه يحيى بن عبد الله، فقدم به إلى الرشيد معه، فلقيه بكل ما أحب، وأسنى جائزته، وأكثر برّه وعطاءه، وأنزله منزلاً سَرِيَّاً، وبر الفضل بن يحيى، وشكر فعله في ذلك[1].

وفيه يقول مروان بن أبي حفصة[2]: [من الطويل]

---

(١) الوزراء والكتّاب ١٨٩ـ١٩٠.

(٢) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر، عالي الطبقة. كان جدّه أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار، ولد سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م، ونشأ مروان في العصر الأموي، باليمامة، حيث منازل أهله. وأدرك زمناً من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة. وكان رسم بني العباس أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم. وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية. توفي ببغداد سنة ١٨٢هـ/ ٨٩٨م، وجمع معاصرنا قحطان بن رشيد التميمي، ما وجد من شعره، في «دراسة» نشرتها مجلة المورد (٣/ ٢/ ٢٣٣).

ترجمته في: الأغاني ٩/ ٣٤ـ٤٧، ورغبة الآمل ٦/ ٨٢ ثم ٧/ ٣٧ و٤٥، وابن خلكان ٢/ ٨٩، والمرزباني ٣٩٦، والشعر والشعراء ٢٩٥، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٤٢، وأمالي المرتضى ٢/ ١٥٥ ثم ٣/ ٤ و١٦ و٢٦ وفيه: «كان كثير الشعر، ينقصه الغوص على المعاني، وهو دون مسلم بن الوليد وبشار بن برد أو هو طبقة بينهما» وسماه «مروان بن يحيى». وفي مطالع البدور ١/ ٧٣ «كان من أبخل الناس، مع يساره». وفي كتاب «الفلاكة والمفلكون» ٨٠ بعض أخبار بخله. وفي وفيات =

ظَفِرْتَ فلا شَلَّتْ يدٌ برمكيَّةٌ رَتقْتَ بها الفتقَ الذي بَيْنَ هاشِمِ
على حينَ أعيَا الرَّائِقِينَ التِئَامُهُ فكفُّوا وقالوا: ليس بالمتلاءِمِ
فأصْبَحْتَ قَد فازَتْ يَدَاكَ بخُطَّةٍ من المجْدِ باقٍ ذكرُها في المياسِمِ
وَمَا زَالَ قِدْحُ المَجْدِ يَخْرُجُ فائزاً لَكُمْ كُلَّمَا ضُمَّتْ قِدَاحُ المُسَاهِمِ[1]

وفيه يقول أبو ثمامة الخطيب: [من الطويل]

سَعَى النَّاسُ في إصلاح ما بينَ هاشمٍ فأعياهم الرَّتْقُ الذي رَتَقَ الفضلُ
كأنَّ بني العبَّاس في ذاتِ بينِهم وآل عليٍّ لَمْ يكنْ بينهمْ ذَحْلُ

[١٤]

الفضل بن يحيى[2]

وكان هو الجواد السمح، الملآن الجواد بالمنح، يتستَّر الغيث منه خجلاً بغمامه، ويتطاول النجد ليعدّ من فيض أنعامه، مع فرط تِيهٍ وتكبُّر على ما يأتيه.

= الأعيان ٢/ ٨٩ بعد قوله إن جده أبا حفصة كان مولى لمروان بن الحكم وأعتقه يوم الدار لأنه أبلى يومئذ فجعل عتقه جزاءه: «وقيل: إن أبا حفصة كان يهودياً طبيباً أسلم على يد عثمان بن عفان أو على يد مروان»، وجزم Huart بأن ابن أبي حفصة «كان ابناً ليهودي من خراسان» وهي رواية ضعيفة قد تكون مما لفقه عليه من كان يهجوهم. أضف إلى هذا قول ابن خلكان: «ويحيى ابن أبي حفصة، كنيته أبو جميل، وأمه حيا بنت ميمون، يقال: إنها من ولد النابغة الجعدي وأن الشعر أتى إلى أبي حفصة بذلك السبب». الأعلام ٧/ ٢٠٨، معجم الشعراء للجبوري ٥/ ٣٧٠.

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٥١ ط الاستقامة، شعره ٢٧٧ رقم ٧٩.

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي: وزير الرشيد العباسي، وأخوه في الرضاع. كان من أجود الناس. ولد سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٥م. استوزره الرشيد مدة قصيرة، ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨هـ فحسنت سيرته، وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة (سنة ١٨٧هـ) وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى، وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافة. وتوفي الفضل في سجنة بالرقة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م. قال ابن الأثير: كان الفضل من محاسن الدنيا لم يُر في العالم مثله.

ترجمته في: التاريخ لابن معين ٢/ ٤٧٥ـ ٤٧٦، وتاريخ خليفة ٤٥٥ و٤٦٢ و٤٦٣، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٠٧ و٤٢٦ و٤٢٩، والمعرفة والتاريخ ١/ ١٦٨ـ ١٦٩، وعيون الأخبار ١/ ٢٥ و٢/ ٢٩ و٣/ ٢١٠، والمعارف ٣٨١ـ ٣٨٢، والشعر والشعراء ٢/ ٧١٨، والأغاني ١٨/ ٢١٩ و٢٣٧ و٣٣٦ـ٣٣٨ و١٩/ ٥٩ و٦٠ و٢١٦ و٢٧٨ و٢٧٩ و٢٨٢ و٢٨٣ و٢٩١ و٢٩٢ و٢٠/ ٥١ و٥٢ و١٤٠ و٢٤٠ـ٣٤٣ و٢١/ ٦٠ و٣١ و٢٢/ ٢٥٣ و٢٣/ ١١ـ١٤ و١٩ و٢٠ و١٥٤ و١٥٥ و١٦٠ =

يقول مروان بن أبي حفصة[١] : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الـجُـودَ مِـنْ لَـدْنِ آدَمِ ... تَـحَدَّرَ حتى صارَ في راحةِ الفَضْلِ
إذا مـا أبُـو الـعـبَّـاسِ راحَـتْ سَـمَـاؤُهُ ... فيَا لَكَ مِنْ هَطْلٍ ويَا لَكَ من وَبْلِ

وقال فيه أيضاً[٢] : [من الطويل]

إذا أُمُّ طِـفْـلٍ راعَـهَـا جُـوعُ طِـفْـلِـهَـا ... غَذَتْهُ بذكرِ الفَضْلِ فاسْتَطْعَمَ الطِّفْلُ
لِـيَـحْـيَـا بِـكَ الإسْـلامُ إنَّـكَ عُـروَةٌ ... وإنَّـكَ مِـنْ قَـوْمٍ صَـغِـيْـرُهُـمُ كَـهْـلُ

فوصله بمائة ألف درهم، وحمله وكساه، ووهب له جارية يقال لها «طيفور» كاسية خالية، فقيل إنه حصل له سبعمائة ألف درهم ما بين وَرِقٍ وعُرُوض.

= و١٦١، وربيع الأبرار ٤/ ٥٠ و٩١ و١١٣ و٣٥٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز ١٢٥ و١٣١، و١٣٢ و١٣٥ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧ و٢١٣ و٢١٧ و٢٣٧ و٢٥٦ـ٢٦٠ و٢٩١، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٣٠٧، ٣٠٨، و٢/ ٢٥١ و٣/ ٥١ و١٢٦ و١٧١ و١٧٣ و١٧٣ و٤/ ١٠ و١١ و٢٢، ونشوار المحاضرة ١/ ١٩ و٥/ ٥٣ و٨/ ٢٤٥، وأمالي المرتضى ٢/ ٩ و١٣، وبدائع البدائة لابن ظافر ١١٨، وثمار القلوب ٢٠٣ و٣٧٠، ومقاتل الطالبيين ٤٦٥ و٤٦٧ـ٤٧١ و٤٩٣ و٥٠٢ و٥٠٣، ونزهة الألباء ٨٦، وأمالي القالي ١/ ١٢٤ و٢/ ١٧٢ و٣/ ٩٩، وتحفة الوزراء ١١٩ و١٤٠ و١٤٢ و١٦١ و١٦٣، والإعجاز والإيجاز ٩٩، والهفوات النادرة ١٩٣ و٢٥٧، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٧٥ و٧٩ و٨٣ و٨٤، والتذكرة الحمدونية ١/ ٤٤٢، ٢/ ١١٦ و١١٧ و١٨٩ و٢٢٦ و٢٧٥ و٣٤٦ و٣٥٧ و٣٥٨ و٣٦٤ و٣٧١، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٣ـ٣٣٥ و٣٣٧ و٣٤٠ و٣٤٤ و٢/ ١٢١ و٤/ ٢٧ـ٣٦ و٤٥ و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٤ و٢٢٧ و٢٢٨ و٧/ ٣٢٥، وتاريخ الطبري ٨/ ٢١٠ و٢١٢ و٢٣٠ و٢٤٠ و٢٤٢ و٢٥٥ و٢٥٧ـ٢٦١ و٢٦٦ و٢٦٩ و٢٩٣ و٢٩٦ و٢٩٩ و٣٤١ و٣٤٧ و٣٥١ و٩/ ١٣٢٧، والعيون والحدائق ٣/ ٢٩٢ و٢٩٦ و٣٠٢ و٣٠٨ و٣٠٩ و٣١٩، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٢٥٥٩، ٢٥٦١ و٢٥٨٨ و٢٦٠٢٠٢ و٢٦٠٣ و٢٦٠٩ و٦١٣ـ٢٦١٥، والبدء والتاريخ ٦/ ١٠١ـ١٠٣، والعقد الفريد ١/ ١٧٢ و٢٧٠ و٣١٣ و٢/ ١٢٤ و٢٧٢ و٤/ ٢٠٣ و٢٠٥ و٥/ ٣١٠ و٣١٢ـ٣١٤ و٣١٦ و٣١٧ و٦/ ٢١١ و٣٨٢، والكامل في التاريخ ٥/ ٥٨٥ و٦/ ٨٩ و١٠٦ و١٢٢ و١٢٥ و١٤٠ و١٤٥ و١٤٦ و١٥٢ و١٦١ و١٧٦ و١٧٨ و١٨٤ و٢١٠ و٢١٥ و٢٢١ و٧/ ١١، والفخري ١٩٣ و١٩٤ و٢٠١ـ ٢٠٤ و٢٠٩ و٢٣٢، وخلاصة الذهب المسبوك ١٦٦ـ ١٢٨، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨، والعبر ١/ ٣٠٩، ودول الإسلام ١/ ١٢١، ومرآة الجنان ١/ ٤٣٠ـ٤٤٢، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٩١ـ ٩٢ رقم ٢٩، وشذرات الذهب ١/ ٣٣٠، والوزراء والكتّاب ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، والمستجاد ٦٤، و١٣٥، والمستطرف ١/ ١٦٢ و٢/ ١٠، والأجوبة المسكتة، رقم ١٢٠٢، ونثر الدر ٣/ ٩٠، وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٩ رقم ٦٧٨٢، وزهر الآداب ٣٦٤، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٤٠، الأعلام ٥/ ١٥١ـ١٥٢، تاريخ الإسلام (السنوات ١٩١ـ٢٠٠هـ) ص رقم ٢٤٩.

(١) تاريخ الطبري ج١/ مج٣ ص٩٣٢ ط ليدن، شعره ٢٦٠ رقم ٦٥.

(٢) الوزراء والكتّاب للجهشياري، ط البابي الحلبي ١٩٠، شعره ٢٦٠ـ ٢٦١ رقم ٦٦.

/ ٢٤/ ومدح أبو نواس الفضل بن يحيى في عدة قصائد طوال أجاد فيها فمنها التي أولها[1]: [من الطويل]

أَرْبَعَ البِلَى إنَّ الخُشُوعَ لَبادِ ... عليكَ وإنِّي لمْ أخُنْكَ وِدَادِي

وفيها يقول:

رأيتُ لِفَضْلٍ في السَّماحَةِ هِمَّةً ... أَطَالَتْ لَعَمْرِي غَيْظَ كلِّ جَوَادِ
تَرَى النَّاسَ أفوَاجاً إلى بَابِ دَارِه ... كأنَّهُمْ رِجْلا دَبًى وجَرَادِ
فيومٌ لا يخافُ الفقيرُ ندى الغنى ... ويومُ رقابٍ بُوكِرَتْ لِحِصَادِ
سلامٌ على الدُّنْيَا إذا ما فقدْتُمُ ... بني بَرْمَكٍ من رائِحِيْنَ وغَادِ
بفَضْلِ بن يحيى أشرقتْ سُبُلُ الهدى ... وآمَنَ ربِّي خوفَ كلِّ بِلادِ

ومنها قصيدة أولها[2]: [من الطويل]

سأشكُو إلى الفضلِ بنِ يحيى بنِ خالدٍ ... هواكِ لعلَّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بينَنَا
وللفضْلِ صَوْلاتٌ على صُلْبِ مالِهِ ... ترى المالَ فيها بالمَهانَةِ مُذْعِنا
ولِلفَضْلِ حِصْنٌ في يديه مُحَصَّنٌ ... إذا لَبِسَ الدِّرْعَ الحصِيْنةِ واكْتَنَى
نَفَرْنا فكَمْ حط البَرَامِكَ مَعْدَنَاً ... من الجُودِ إذ لمْ نَلْقَ للجُودِ مَعْدِنَا

وفيه يقول إبراهيم بن إسحق الموصلي[3]: [من البسيط]

لَوْ كَانَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ الفَضْلِ مَعْرِفَةٌ ... فضل بن يَحْيَى، لأعْداني على الزَّمَنِ
هو الفَتَى الماجِدُ المَيمُونُ طائرُهُ ... والمشترِي الحمدَ بالغَالِي مِنَ الثَّمَنِ

ذا يصلح للفرسان، فذكر له أمر المال، فقال له: أمَا لك بيتٌ يَسَعُهُ؟ ثم خلاله.

ولما وصل الفضل إلى خراسان، حين ولاه الرشيد أمرها، بسط بساط العدل، وأزال سيرة الجَور وبنى الحياض والمساجد والرِّباطات، وأحرق دفاتر البواقي، وزاد الجند عشر مئات والقواد خمسينيات، ووصل الروَّاد والقوَّاد والكتَّاب بعشرة آلاف درهم، وأمر بهدم بيت النُّوبهار، فلم يقدر على هدمه، لشدَّة وثاقته، وعظم المؤونة فيه، فهدم منه قطعة وبنى فيها مسجداً، واستخلف عمر بن جميل / ٢٥/ على خراسان، ثم انصرف إلى العراق، فتلقاه الرشيد ببستان أبي جعفر، وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله، وكان قد شخص مع الفضل إبراهيم بن جبريل على شرطه، فوجَّهه إلى كابل ففتحها، وأفاد مالاً عظيماً، ثم ولاَّه سجستان، ووصل إليه تسعة آلاف ألف

---

(١) ديوان أبي نؤاس ٤٧١ـ٤٧٣.
(٢) ديوان أبي نؤاس ٤٧٤ـ٤٧٥.
(٣) الوزراء والكتّاب ١٩١.

درهم، وحصل في يده من خراجها أربعة آلاف ألف درهم، فلمَّا انصرف الفضل إلى العراق، لحق به إبراهيم بن جبريل، وبنى داره، وسأل الفضل أن يزوره، ليريه نعمته عليه، وأحضر المال، فلمَّا حضر الفضل، عرض عليه تحفاً وهدايا جليلة، وذكر له حال المال، فأبى أن يقبل منه شيئاً، وقال له: لم آتِكَ، لأسلبك النعمة! فقال له: أيها الوزير، نعمتك علي ظاهرة، ولك عندي مزيد، ولم يزل يسأله أن يكرمه بقبول شيء منه، فقبل سوطاً سجزيّاً، وقال هذا يصلح للفرسان، فذكر له أمر المال، فقال له: أمَا لك بيتٌ يَسَعُهُ؟ ثم خلاَّه وانصرف[١].

وكان أبو الهول الحميري هجا الفضل بن يحيى، ثم أتاه راغباً فيما بعد إليه، فقال له الفضل: بأي وجه تلقاني؟ فقال: بالوجه الذي ألقى الله عزَّ وجلَّ به، وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك ووصله[٢].

وذكر محمد بن الحسن بن مصعب: أنَّ الفضل بن يحيى لمَّا صار إلى خراسان، فرَّق بينهم أموالاً، وأخذ البيعة بالعهد لمحمد بن الرشيد، وسمَّاه الأمين، فبايع له الناس[٣].

وفي ذلك يقول فيه منصور النَّمري[٤]: [من البسيط]

---

(١) الوزراء والكتّاب ١٩١ـ١٩٢. (٢) الوزراء ١٩٣.

(٣) الوزراء ١٩٣.

(٤) منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري، أبو القاسم، من بني النمر بن قاسط: شاعر، من أهل الجزيرة الفراتية. كان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي. وقرظه العتابي عند «الفضل بن يحيى» فاستقدمه الفضل من الجزيرة واستصحبه، ثم وصله بالخليفة هارون الرشيد؛ فمدحه، وتقدم عنده، وفاز بعطاياه، ومتَّ إليه بقرابته من أم العباس بن عبد المطلب، وهي نمرية واسمها نُتيلة. وجرت بعد ذلك وحشة بينه وبين العتابي، حتى تهاجيا، وسعى كل منهما على هلاك صاحبه. وكان النمري يظهر للرشيد أنه عباسي منافر للشيعة العلوية، وله شعر في ذلك، فروى العتابي للرشيد أبياتاً من نظم النمري، فيها تحريض عليه، وتشيّع للعلوية، فغضب الرشيد، وأرسل من يجيئه برأسه من بلدته «رأس العين» في الجزيرة، فوصل الرسول في اليوم الذي مات فيه النمري، وقد دفن فقال الرشيد: هممت أن أنبشه ثم أحرقه! وهو القائل من أبيات:

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى، فإذا الدنيا له تبع!

كانت وفاته نحو ١٩٠هـ/ نحو ٨٠٥م.

ترجمته في: جمهرة الأنساب ٢٨٤ وفيه نسبه: منصور بن الزبرقان بن سلمة الخ، وفيه أيضاً أن النمري كان أول أمره خارجياً صفرياً، ثم تحول إلى مذهب الإمامية. والشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر ٨٣٥ـ ٨٣٨ وهو فيه: «منصور بن سلمة بن الزبرقان» وأشار محققه إلى الرواية الأولى. وتاريخ بغداد ١٣/ ٦٥ـ٦٩ وهو فيه: «منصور بن سلمة بن الزبرقان، وقيل: منصور بن الزبرقان بن سلمة». وسمط اللآلي ٣٣٦، والنويري ٣/ ٨٢، والأغاني ١٢/ ١٦ـ٢٤ وانظر فهرسته. والأعلام ٧/ ٣٠٠، معجم الشعراء للجبوري ٥/ ٤٤٢.

أمسَتْ بمروَ على التوفيقِ قد صَفَقَت على يدِ الفضلِ أيدِي العُجم والعَرَبِ
ببيعةٍ لوَليِّ العهدِ أحْكَمَهَا بالنُّصْحِ منه وبالإشْفاقِ والحَدَبِ
قَد وَكَّدَ الفضلُ عقداً لا انْتِقاضَ لَهُ لمصطفًى من بني العباسِ مُنْتَخَبِ[١]

فأجازه بثلاثمائة ألف درهم.

وكان الفضل بن يحيى لا يشرب النبيذ ويقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما ذقته أبداً[٢].

وقد حكى عبد الملك بن مروان مثل هذا الكلام في مصعب بن الزبير؛ لأنه وصفه وفضَّله وقال في كلامه: كانت عنده عقيلتا قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة /٢٦/ ، ثم هو أكثر الناس مالاً جعلت إليه الإمارة، وضمنتُ أن أولِّيه العراق، وقد علم أني سأفي له لصداقة كانت بيني وبينه، فأبى وحمى أنفاً وقاتل حتى قتل، فقال له بعض من حضره: إنه كان يصيب الشراب. فقال: ذاك قبل أن يطلب المروءة، فأما مذ طلبها فلو ظَنَّ أنَّ الماء ينقص من مروءته ما ذاقه.

وركب الفضل بن يحيى يوماً من منزله بالخلد يريد منزلَهُ بباب الشَّمَّاسِيَّة، فتلقَّاه فتى من الأبناء ومعه جماعة من الناس ركبان قد تحمَّلُوا لإملاكه، فلمَّا رآه الفتى نزل وقبَّل يديه، ولم يعرفه، فسأل عنه، فعرِّف به، فسأل عن مبلغ الصَّداق، فعرف أنه أربعة آلاف درهم للنفقة على وليمة، فقال الفضل لقهرمانه: أعطه أربعة آلاف درهم ثمن منزل ينزله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على وليمته، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه[٣]..

وكان محمد بن إبراهيم الإمام قد ركبه دين، فركب إلى الفضل بن يحيى ومعه حقّ فيه جوهر، وقال: قصَّرت بنا غلاتنا، وأغفل أمرنا خليفتنا، وتزايدت مؤونتنا، ولزمنا دين احتجنا لأدائه ألف ألف درهم، وكرهت بذل وجهي للناس، وإزالة عرضي لهم، ولك من يعطيك منهم، ومعي رهن ثقة بذلك، فان رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه، وحمل المال إلينا. فدعا الفضل بالحقّ فرأى ما فيه، وختمه بخاتم محمد بن إبراهيم الإمام، ثم قال: نُجْحُ الحاجة أن تُقيم في منزلك عندنا اليوم، فقال له: إنَّ في المقام

---

(١) شعر منصور النمري ١٤٣ رقم ٨.
(٢) الوزراء ١٩٤.
(٣) الوزراء ١٩٥.

عليَّ مشقَّة، فقال: وما يشقُّ عليك من ذلك؟ إنْ رأيت أنْ تلبس شيئاً من ثيابنا دعوت به، وإلاَّ أمرت بإحضار ثياب من منزلك، فأقام، ونهض الفضل، فدعا بوكيله، وأمر له بحمل المال، وتسليمه إلى خادم محمد بن إبراهيم، وتسليم الحقّ الذي فيه الجوهر إليه بخاتمه، وأخذ خطَّه بذلك، ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى المغرب، وليس عنده شيء من الخبر.ثم انصرف إلى منزله، فرأى المال وأحضر الخادم الحقّ، فغدا على الفضل يشكره فوجده قد سبقه في الركوب إلى دار الرشيد، فوقف ينتظره، فقيل له: خرج من الباب الآخر، قاصداً منزله، فانصرف عنه، فلمَّا وصل إلى منزله أنفذ إليه / ٢٧/ الفضل ألف ألف درهم، فغدَا عليه فشكره وأطال، فأعلمه أنه بات ليلته، وقد طالت عليه غماً بما شكاه، إلى أن لقيَ الرشيد فأعلمه حاله، فأمره بالتقدير له، ولم يزل يعاكسه حتى تقرر الحال معه على ألف ألف درهم، وإنه ذكر أنَّه لم يصلك بمثلها قط، ولا زادك عن عشرين ألف درهم، فشكرته وسألته أن يصك بها صكاً بخطه، ويجعلني الرسول، فقال له محمد: صدق أمير المؤمنين، أنه لم يصلني قط بأكثر من عشرين ألف دينار، إنَّما تهيَّأ بك، ولك وعلى يدك، وما أقدر على شيء أقضي به حقك، ولا شكراً أؤدِّي به معروفك، غير أن «عليَّ وعليَّ» أيماناً مؤكدة، إن وقفت بباب أحدٍ سواك أبداً، ولا سألت غيرك حاجة أبداً، ولو استفَّيتُ الترابُ، فكان بعد ذلك لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن حدث من أمرهم ما حدث، فصار لا يركب إلى غير دار الخليفة، ويعود إلى منزله، فعوتب بعد تقضي أيامهم في إتيان الفضل بن الربيع، فقال: «والله لو عُمِّرتُ ألف عام، ثم مصصْتُ الثماد، ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى، ولا سألتُ أحداً بعده حاجة حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل على ذلك إلى أن مات»[١].

قال عبد الله بن ياسين: حدَّثني أبي قال: كنَّا عند الفضل بن يحيى فخضنا في الشعر، فإذا هو أروى الناس له، وأجودهم طبعاً فيه، فقلت له: أصلحك الله لو قلت شيئاً من الشعر، فإنَّه يزيد في الذكر، وينبه. قال: هيهات، شيطان الشعر أخبث من أن أسلِّطَهُ على عقلي[٢].

قال أبو النجم القائد أحد الدعاة، قلت لإبراهيم الموصلي: صف لي ولد يحيى. فقال لي: أمَّا الفضل فيرضيك بفعله، وأمَّا جعفر فيرضيك بقوله، وأمَّا محمد فيفعل دون ما يجد، وأمَّا موسى فيفعل بحسب ما يجده، فيفعل ما لا يجد[٣].

---

(١) الوزراء ١٩٥ـ١٩٧. (٢) الوزراء ١٩٧.

(٣) الوزراء ١٩٨.

وكان يكتب ليحيى بن خالد عبد الله بن سوار بن ميمون فقال: فدعاني يحيى يوماً فقال: اجلس فاكتب. فقلت: ليس معي دواة. فقال: رأيت صاحب صناعة تفارقه آلته! وأغلظ في حرف أراد به حضّي على الأدب، ثم دعا بدواة، فكتبت بين يديه كتاباً إلى الفضل، في شيء من أموره، فظنَّ أني متثاقل عن الكتابة بسبب تلك المخاطبة، وأراد إزالة ذلك فقال لي: عليك دين؟ فقلت: نعم. قال: كم هو؟ قال: قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فأخذ الكتاب ووقَّع بخطه: [من الطويل]

/٢٨/ وكلّكمُ قد نالَ شِبعاً لبطنِه ... وشِبْعُ الفتى لؤمٌ إذا جاعَ صاحِبُهْ

إن عبد الله ذكر أن عليه دَيناً يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فَقَبْلَ أن تضع كتابي هذا من يديك، فأقسمت عليك لمَّا حملت ذلك إلى منزله من أخصِّ مالٍ قِبَلَكَ، إن شاء الله تعالى. قال: فحملها لي الفضل وما أعلم لها سبباً غير تلك الكلمة(١)..

ودخل محمد بن زيدان على الفضل بن يحيى، فقال له الفضل، من الذي يقول: [من الطويل]

سأرسلُ بيتاً قد وسمتُ جبينَهُ ... يُقطِّعُ أعناقَ البيوتِ الشَّوَارِدِ
أقامَ النَّدى والجُودُ في كلِّ منزلٍ ... أقَامَ به الفضلُ بن يحيى بنُ خالدِ

فقال: سلم الخاسر، فقال: لا تسمِّه خاسراً، وسمِّه سلماً الرابح، وأمر له بألف دينار.

ثم غلب سلم على الفضل بن يحيى، وكثرت مدائحه إياه، وعظم إحسان الفضل إليه(٢).

وكان يحيى بن خالد يقول: «الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدَّثون بأحسن ما يحفظون»(٣).

وكان يقول:

«التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة»(٤).

ومنهم:

[١٥]

جعفر بن يحيى(٥)

وكان الرشيد يسمِّي جعفراً أخي، ويدخله معه في ثوبه، وقلَّده بريد الآفاق ودور

---

(١) الوزراء ١٩٨ـ ١٩٩.
(٢) الوزراء ٢٠٤.
(٣) الوزراء ٢٠٠.
(٤) الوزراء ٢٠٠.
(٥) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل: وزير الرشيد العباسي، وأحد مشهوري البرامكة =

....

= ومقدميهم. ولد في بغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ونشأ فيها، واستوزره هارون الرشيد، ملقياً إليه أزمة الملك، وكان يدعوه: أخي. فانقادت له الدولة، يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة، نقمته المشهورة، فقتله في مقدمتهم سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٦م، ثم أحرق جثته بعد سنة. وكانت لجعفر توقيعات جميلة. وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس، قالوا في وصف حديثه: «جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة» وكان كاتباً بليغاً، يحتفظ الكتّاب بتوقيعاته يتدارسونها. والبرامكة يرجعون في أنسابهم إلى الفرس.

ترجمته في: تاريخ خليفة ٤٥٨ و٤٦٢ و٤٦٣ و٤٦٥، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤١٠ و٤٢١ و٤٢٩، والمحبر لابن حبيب ٤٨٧، والبرصان والعرجان للجاحظ ٣٦ و٢١٨، والحيوان له ١/ ٢٣٨ و٣٨٢ و٣٨٦، والإمامة والسياسة ٢/ ٢٠٣ وما بعدها، وعيون الأخبار ١/ ١٣ و٩٣ و٢٣٢ و٢٧٣ و٢٩٩ و٣١١ و٢/ ١٧٣ و١٧٤ و٢٠٩ و٣/ ١٠٠ و١٠٤، وتاريخ الطبري ٦/ ١٨٦ و٨/ ١٣٧ و٢٣٨ و٢٤٧ و٢٥٢ و٢٥٥ و٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٥ و٢٦٦ و٢٨٦ـ٢٨٩ و٢٩١ـ٣٠١ و٣١٧ و٣٤٧ و٣٥١ و٣٥٢ و٣٨٥ و٩/ ١٢٧ و٤٠٣، وأخبار القضاة لوكيع ٢/ ١٦٩، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٢٤٧٤ و٢٥٢٩ و٢٥٥٩ و٢٥٦٣، و٢٥٦٤ و٢٥٨٨ـ٢٦٠٠، ٢٦٠٢، ٢٦٣٩ و٢٦١٦ و٣٣٧٤، والكتّاب والوزراء للجهشياري (انظر فهرس الأعلام)، والجليس الصالح الكافي ١/ ٥٨٠ـ ٥٨١، والعيون والحدائق (لمؤرخ مجهول) ٣/ ٣٠١ و٣٠٥ـ٣١٩، والعقد الفريد ٥/ ٧٢، ٧٣، ١١٨ و٦/ ٢٢٢، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٤٥ و١٢٥ و١٣٠ و٢٠٢ و٢٠٤ و٢١٣ و٢٤٢، وتاريخ سنيّ ملوك الأرض والأنبياء للأصفهاني ١٦٥، والأغاني ١٨/ ٢٠١ـ٢٠٣ و٢١٧ـ٢٢٠ و٢٢٣ـ٢٢٦ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٣٤ و٢٣٧ و٢٣٨ و٣٠٣ و١٩/ ٢٣٦ و٢٧٩ و٢٨٥ و٢٨٥ و٢٨٦ و٢٩٠ و٢٩١ و٢٩٥ و٢٠/ ٢٢٧ و٣٤١، ٣٤٢ و٢١/ ٥٩ و٢٣/ ١٥٥، وربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ١٦٣ و٢٥٦ و٣٦٣، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٣١١ و٣٦١ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٦ و٢/ ٤٧ و١٥٩ و٣/ ١٣ و١٤ و٢١ و٥١ و١٠٨ و١٢٦ـ١٢٨ و١٦٦ و١٧٣ـ١٧٧ و٣٠٢ و٣٠٤ و٣٠٥ و٤/ ١١ و١١٤ و١١٥ و٢٩٥ و٣٣١ و٣٣٢ و٣٣٩ و٣٤١ و٣٤٢ و٣٩٧ و٣٩٨، ونشوار المحاضرة له ٧/ ٤٧، ٧٥، وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ـ١٦٠ رقم ٣٦٠٦، وثمار القلوب للثعالبي ٧٣ و١٥٥ و١٨٩ و٢٠٤، والأذكياء لابن الجوزي ١٤٦، وبدائع البدائة لابن ظافر ١٢٣، ومرآة الجنان لليافعي ١/ ٤٠٤ـ٤١٥، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ١٤٥ـ١٥٤، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٣٥، ومقاتل الطالبيين ٤٩٤، والبدء والتاريخ ٦/ ١٠٤ـ ١٠٥، وأمالي المرتضى ١/ ١٠١، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ٧٩ وما بعدها، والكامل في التاريخ ٥/ ٤٦٠ و٦/ ١١٩ و١٢٦ و١٤٠ و١٥١ و١٦١ و١٦٨ و١٧٥ـ ١٧٩ و١٨٦ و١٩٢ و٢١٥ و٢١٨ و٢١٨ و٢٣٣ و٧/ ٤٠٠، والفخري في الآداب السلطانية ٢٠٥ـ٢١٠، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢٨ـ٣٤٦ رقم ١٣٢، وشرح البسّامة ٢٢٢ وما بعدها، ونهاية الأرب ٢٢/ ١٣٥ وما بعدها، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٦ وما بعدها، والبداية والنهاية ١٠/ ١٨٩ وما بعدها، والوافي بالوفيات ١١/ ١٥٦ـ١٦٥ رقم ٢٤٧، والعبر ١/ ٢٩٨، وأمراء دمشق في الإسلام ٢٤، وفوات الوفيات ١/ ١٩٦ـ ١٩٧ و٢/ ٣٩٠ و٣/ ١٨٣، والتذكرة الحمدونية ٢/ ١٤٣ و١٨٩ و١٩٦ و٢٥٩ =

الضَّرب والطِّرز في جميع الكور.

وكان جعفر بليغاً كاتباً، وكان إذا وقَّع، نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته.

حكى علي بن عيسى بن يزد انيروز أنه جلس للمظالم، فوقَّع في ألف قصة ونيِّف، ثم أخرجت ففرِّقت على العمال والقضاة، وكتَّاب الدواوين، فما وجد شيء منها ينكر، ولا شيء يخالف الحقَّ، قال علي: «فحدثت بهذا الحديث إسحاق بن إبراهيم، فقال: حدثني عمرو بن مسعدة بهذا الحديث».

قال ثمامة بن أشرس: / ٢٩/ كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، وقد جمع الجد والهزل، والجزالة والحلاوة، وافهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة، لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة.

وقال ثمامة [بن أشرس]: ما رأيت أحداً قط كان يتحبَّس، ولا يتوقف، ولا يتلجلج، ولا يرتقب لفظاً استدعاه من تعذر، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعاصى عليه بعد طلبه إلاَّ جعفر بن يحيى.

وفيه تقول عنان جارية الناطفي[1]: [من الوافر]

= و٢٧٥، ومحاضرات الأدباء ١/ ٥٩، والبصائر والذخائر ٦ رقم ٧٣٥، ونثر الدر ٥/ ٣٣ و٤٥، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٢٣، وحسن المحاضرة ١/ ٥٩١، وشذرات الذهب ١/ ٣١١، وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ ١/ ١٥٧، والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ١٥٣ـ١٥٦، والمحاسن والمساوىء ١٩٩ و٣٧٣ و٤٤٣ و٥١١، والأعلام ٢/ ١٣٠، تاريخ الإسلام (السنوات ١٨١ـ١٩٠هـ) ص ٩٨ رقم ٤٣.

(١) شاعرة مستهترة، من أذكى النساء وأشعرهن. كانت جارية لرجل يدعى «الناطفي» من أهل بغداد. وهي من مولدات اليمامة، وقيل المدينة، اشتهرت ببغداد. وكان العباس بن الأحنف يهواها. لها أخبار معه ومع أبي نواس وغيرهما. ماتت بخراسان. قال أبو علي القالي: عنان الشاعرة اليمامية، كانت بارعة الأدب سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف منهم. وأخبارها مدونة. وفي المستطرف من أخبار النساء (٣٨ـ٤٧) أنها خرجت إلى مصر حين «أعتقت» وماتت هناك سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤١م.

ترجمتها في: أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ٣٤ و٣٥ و١٣٧ و٢١٢، والأغاني طبعة الدار ١١/ ٢٨٦ـ ٢٨٧، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٤٧ وفيه: «بيعت بعد موت الناطفي بمئة وخمسين ألف درهم» وكتاب الورقة ٣٩، وفيه: «اشتراها عبد الملك بن صالح الهاشمي من الناطفي»، والنويري ٥/ ٧٥ـ ٧٩ وفيه ما خلاصته أن رجلاً اشتراها بعد موت الناطفي بمئتين وخمسين ألف درهم، وأولدها ولدين وخرج بها إلى خراسان، فمات هناك وماتت بعده. وفي الكنز المدفون ٤٦ «كتبت عنان على عصابتها بالذهب: «ليس في العشق مشورة»، وفي سمط اللآلي ٥٠٠، اشتراها الرشيد، بعد موت الناطفي، في سوق من يزيد، وعليها رداء رشيدي، ومسرور الخادم يتزايد فيها =

بَــدِيْــهــتُــهُ وفِــكــرتُــهُ ســواءٌ   إذا الْـتَـبَـسَـتْ عـلـى الـنـاسِ الأمُـورُ
وصــدرٌ فــيــه لــلــهَــمِّ اتــســاعٌ   إذا ضـاقَـتْ مـن الـهَـمِّ الـصُّـدُورُ
وأحْـزَمُ مـا يـكُـونُ الـدَّهْـرَ رَأْيـاً   إذا عَـجَـزَ الـمـشـاوِرُ والـمُـشِـيْـرُ(١)

وقد ذكر حمدون النديم لجعفر بن يحيى شعراً، وأنشدت منه بيتين لم يقع لي غيرهما، وما فيهما طائل: [من البسيط]

نـزفـتُ دمـعـي فـإنْ كـانَ الـفِـراقُ غـداً   فـكـيْـفَ أبْـكِـي ودمـعُ الـعـيـنِ مـنـزُوفُ
وا سـوأتـا مـن عـيـونِ الـعـاشِـقـيـنَ إذاً   إذا دخـلْـتُ ودمـعُ الـعـيـنِ مـذروفُ

قال ثمامة: قلت لجعفر: ما البيان؟ فقال: أن يكون الكلام محتطّاً بمعنى له، مُجلياً عن مغزاه، مخرجاً من الشوكة غير مستعان عليه بالفكرة.

ووقّع جعفر بن يحيى على رقعة لعمرو بن مسعدة: «إذا كان الإكثار أبلغ، كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً، كان الإكثار عِيّاً».

ودفع رجل رقعة إلى جعفر ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل، ورجاء فسيح، فوقَّع على ظهرها:

هذا يمتّ بحرمة الأمل، وهي أقرب إلى الوسائل، وأثبت الوصائل، فليعجّل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم، وليمتحن ببعض الكفاية، فإن وجدت عنده، فقد ضمَّ إلى حقّه حقّاً، وإلى حرمته حرمة، وإن قصر عن ذلك فعلينا معوّله وإلينا موئله، وفي مالنا سعة له(٢).

ووقّع إلى عامل له يأمره باليقظة والحذر: كن مني على مثل ليلة البيات.

ووقّع في رقعة لأهل فارس، وقد رفعوا يشكون جور عاملهم: [من الطويل]

/٣٠/ ضمنتُ لكم إنْ لم تُعُقْني عوائِق   بـأنَّ سـمـاءَ الـجـورِ عـنـكـم سـتُـقْـلِـعُ

ورفع رجل إلى جعفر بن يحيى يسأله الاستعانة، وكان يعرفه ويخبره، فوقَّعَ على ظهر رقعته: [من الرمل]

قَـدْ رأيـنـاكَ فـمـا أعْـجـبْـتَـنَـا   وبَـلـونَـاكَ فـلـمْ نَـرْضَ الـخـبـرْ(٣).

= مع الناس بمائتي ألف وخمسين ألفاً، وأولدها الرشيد ولدين ماتا صغيرين». الأعلام ٥/ ٩٩، معجم الشعراء للجبوري ٤/ ١٠٧.

(١) الأغاني ١٠/ ١٠١، والعقد الفريد ٣/ ٢٥٨، الوزراء والكتّاب ٢٠٤.

(٢) الوزراء والكتّاب ٢٠٥.

(٣) الوزراء والكتّاب ٢٠٥.

وكان جعفر بن يحيى يقول:

الخطّ سِمْط الحكمة، به تفصّل شذورها، وينظم منثورها.

ووقَّع على كتاب لعلي بن عيسى بن ماهان، وقد كتب إليه معتذراً من أشياء بلغته عنه: [من الطويل]

كأنَّا وقدْ كنَّا صَدِيْقاً مُؤانِساً تَبَاعَدَ بيَنانا فدامَ إلى الحشرِ[1]

وقد وقع في كتاب آخر لعلي بن عيسى: حبَّب الله إليك الوفاء الذي أبغضته، وبغَّض إليك الغدر الذي أحببته، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنَّك بها، وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً، والسلام.

ووقَّع على رقعة لمحبوس: العدوان أوثقه، والتوبة تطلقه.

وكان الأصمعي يألف جعفر بن يحيى، ويأنس به، ويختص بقربه، وله فيه مدائح كثيرة، وحكايات توصف، وتقريظ وتفضيل، فمن شعره فيه: [من المتقارب]

إذا قيلَ: مَنْ للنَّدى والعُلا مِنَ النَّاسِ؟ قيل: الفتى جعفر
وما إنْ مدحتُ فتًى قبلَهُ ولكِنْ بَنُو برمكٍ جَوْهَرُ[2]

وقال جعفر يوماً لخادمه: خذ معنا ألف دينار فإني أريد أن أمر بالأصمعي، وأنزل عنده، فإذا حدثني وأضحكني، فضع الكيس في حجره، ثم صار إليه ومعه أنس بن أبي منيح، فحدثه الأصمعي بكل شيء، فلم يضحك، وانصرف، فقال له أنس ابن أبي منيح: إنه قد أضحك بجهده، فلم تضحك، وليس من عادتك رد شيء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك. فقال له جعفر: ويلك قد وصلنا هذا الرجل بخمس مائة ألف درهم، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة، ورأيت «حُبَّه» مكسوراً، وعليه برنكان منجرد عنه مصلَّى وسخ، وكل ما عنده رثّ، وأنا أرى أنَّ لسان النعمة أنطق من لسانه وإن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام أعطيه الأموال، إذا لم تظهر الصنيعة عنده، ولم / ٣١/ تنطق النعمة بالشكر عنه، ثم أنشد نصيب[3]: [من الطويل]

---

(١) الوزراء والكتّاب ٢٠٥. (٢) الوزراء ٢٠٥ـ٢٠٦.

(٣) نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان: شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح. كان عبداً أسود لراشد بن عبد العزّى من كنانة، من سكان البادية. وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه. وكان يتغزل بأم بكر «زينب بنت صفوان» وهي كنانية، وفي بعض الروايات «زنجية» ومن شعره فيها قصيدة مطلعها:

بزينب ألمم، قبل أن يدخل الركب وقل: إن تملينا فما ملَّك القلب

له شهرة ذائعة، وأخبار مع عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم. وكان يعد مع جرير وكثير عزة. وسئل عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلدته. وتنسك في أواخر عمره. وكان له =

فَعَاجُوا فأثْنُوا بالذي أنتَ أهلُهُ ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليكَ الحقائِبُ[١]

وكأنَّ جعفراً نظر ما بعد، فإنَّ الأصمعيَّ قد هجا البرامكة فيما بعد، وكفر نعمهم وقال عند نكبتهم: [من المتقارب]

إذا ذُكِرَ الشِّرْكُ في مجلسٍ أضَاءَتْ وُجُوهُ بني برمَكِ
وإنْ تُلِيَتْ عندَهُمُ آيَةٌ أتَوا بالأحاديثِ عنْ مَزْدَكِ[٢]

وردَّ الرشيد إلى هرثمة بن أعْيَن الحرس، وكان إلى جعفرِ بن يحيى، فقال له جعفر، ما انتقلت عني نعمة صارت إليك.

وقلَّد الرشيد جعفراً إلى ما كان يتقلَّده من الدواوين، التوقيع والسر بالجزيرة والشام. وأمره أن يتخذ خيلاً يجريها في الحلبة، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقة، فسبقت خيل الرشيد، فغضب، فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر: يا أبا الفضل، ما أحسن الشكر، وادعاه للمزيد، من أين لك هذا الفرس السابق؟ فقال له: إنه من خيلك. فقال له: والله لأرْضيَنَّك، ثم أقبل على الرشيد فقال: كنت يا أمير المؤمنين مع أبي العباس السفاح، ونحن في الميدان، وقد أرسلت الخيل. فبينا نحن ننتظر إذ طلع فرس

= بنات، من لونه، امتنع عن تزويجهن للموالي ولم يتزوجهن العرب، فقيل له: ما حال بناتك؟ فقال: صببت عليهن من جلدي (بكسر الجيم) فكسدن علي! قال الثعالبي: وصرن مثلاً للبنت يضن بها أبوها فلا يرضى من يخطبها ولا يرغب فيها من يرضاه لها. وعناهنّ أبو تمام بقوله:

أما القوافي، فقد حصنت عذرتها فما يصاب دم منها ولا سلب

إلى أن يقول:

كانت بنات نصيب حين ضن بها عن الموالي ولم تحفل بها العرب

قال التبريزي (في شرح ديوان أبي تمام): وينشد في هذا المعنى بيت لم أجده منسوباً إلى نصيب، وهو:

كسدن من الفقر في بيتهن وقد زادهن سوادي كسودا

توفي سنة ١٠٨هـ/ ٧٢٦م، وفي وفاته خلاف.

وللزبير بن بكار، كتاب «أخبار نصيب»، وللدكتور داود سلوم «شعر نصيب بن رباح ـ ط».

ترجمته في: إرشاد الأريب ٧/ ٢١٢، والأغاني طبعة الدار ١/ ٣٢٤ـ٣٧٧، و١٢/ ٣٢٤، وشرح ديوان أبي تمام ١/ ٢٥٨ـ ٢٥٩، والنجوم الزاهرة ١/ ٦٢٦٢، وسمط اللآلي ٢٩١، وشرح الشواهد ١٠٥، والشعر والشعراء ١٥٣، وثمار القلوب ١٧٧، وتزيين الأسواق، طبعة بولاق ١/ ٩٨ـ١٠٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١١ وفيه: وأخبار نصيب مستوفاة في تاريخ ابن عساكر، ورغبة الأمل ٢/ ٢١٧ـ٢٢٢، و٤/ ٣٢ و٥/ ١١٢ـ١١٩، والجمحي ٥٤٤ـ٥٥٠، والتبريزي ٣/ ١٤١، ١٥١، ٤/ ١٤٤، وأمالي المرتضى، تحقيق أبي الفضل: انظر فهرسته، الأعلام ٨/ ٣٢، معجم الشعراء للجبوري ٦/ ٤٧.

(١) الوزراء ٢٠٦. (٢) الوزراء ٢٠٦.

سابق، قد غطَّاه القتام فما ترى علامته؟ فقال عيسى بن علي، وقال غيره لي: ثم طلع اخَر على تلك الصفة، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك، وقد أخذ قصبات السبق. فقال خالد: مر يا أمير المؤمنين بقبضها. فقال له: هي لنا عندك. فإنك عدَّة من عددنا. فسُرِّي عن الرشيد. وزال الغضب عنه. ثم استخلف الرشيد جعفراً بالرقة، وخرج مجاوراً، فاعتمر عمرة شهر رمضان، وأقام بالحرم حتى حجّ، وانصرف على طريق البصرة، وخرج منها إلى الجزيرة يريد الرقة.

ثم هاجت بالشام عصبة في سنة ثمانين ومائة، فقال الرشيد لجعفر: إما أن تخرج أنت إليها، وإما أن أخرج أنا إليها. فشخص جعفر بالرقة يريد الشام، فتبعه الرشيد، وخرج معه جميع من بحضرته من الإخوة والأشراف، وفيهم عبد الملك بن صالح، فلما ودَّعه عبد الملك قل له جعفر: اذكر حاجتك. قال له: حاجتي أعزَّك الله أن تكون كما قال الشاعر: [من الطويل]

وكوني على الواشينَ لَدَّاءَ شَغْبَةً ... كما أنا للوَاشِي ألَدُّ شَغُوبُ

/ ٣٢/ فقال له جعفر: بل أكون كما قال الآخر: [من الرمل]

وإذا الوَاشِي أتَى يَسْعَى بِهَا ... نَفَعَ الوَاشِي بِمَا جاءَ يَضرُّ[١]

فقال منصور النميري ذلك قصيدة اخترت منها أبياتاً وهي[٢]: [من الطويل]

لقد أُوقِدَتْ بالشَّام نيرانُ فِتْنَةٍ ... فَهَذَا أوَانُ الشِّام تُخْمَدُ نَارُهَا

اذا جَاشَ مَوْجُ البَحْرِ من آلِ بَرْمَكٍ ... عليها خَبَتْ شُهْبَانُهَا وشَرَارُهَا

رَماهَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ بجَعفرٍ ... وفيهِ تَلاقَى صَدْعُهَا وانجبارُهَا

رماها بمَيمونِ النَّقِيْبةِ ماجِدٍ ... تُراضُ بها قُحْطَانُهَا ونِزَارُهَا

وفيه يقول: [من الطويل]

إذا ما ابنُ يحيى جعفرٌ قَصَدَتْ لَهُ ... مُلَمَّانُ خَطْبٍ لَمْ تَرُعْهُ كِبَارُها

لقدْ نشأتْ بالشَّام منْكَ غمامةٌ ... يُؤَمَّلُ جَدواهَا ويُخْشَى دمارُهَا

فَطُوبَى لأهْلِ الشَّامِ يا وَيْلَ أمِّهَا ... أتَاهَا حياها أو أتاها بَوارُهَا

غدَا بِنجوم السَّعْدِ من حلّ رَحلَهُ ... إليكِ وعزَّتْ عُصْبَةٌ أنتَ جَارُهَا

فإنْ سَالَمُوا كانَتْ غمامةَ نائِلٍ ... وغيثٍ وإلاَّ فالدِّماءُ قطارُهَا

---

(١) الوزراء والكتّاب ٢٠٨.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٢-٢٦٣، شعره ١٤٩-١٥٠ رقم ١٤٩.

ثم سار جعفر إلى الشام فأصلحها، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد، وشرد آخرين حتى استقامت أُمُورها. وله خطبة خطبها ذكرتها من بين كلامه لسدادها وهي:

الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم، والرَّأفة بهم. دعاهم من طاعته لما يحييهم، وزادهم من معصيته عما يرديهم. كلَّفهم من العمل دون طاقتهم، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حمَّلُوا مخفَّف عنهم، وفيما حوَّلوا موسَّع عليهم، وصلى الله على سيدنا محمدٍ نبي الرحمة المبعوث إلى كافة الأمة وسلَّم تسليما.

أما بعد أيها الناس، فإني أوصيكم بالألفة، وأحذِّركم الفرقة، وآمركم بالاجتماع، وأنهاكم عن الاختلاف. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١]. فأمر بالجماعة في أول الآية، ثم لم ينقض حتى نهى عن الفرقة، توكيداً للحجة، وقطعاً للمعذرة. إن الفرقة تنشىء بينكم إحَناً يطلب بها بعضكم /٣٣/، بعضاً، وإنَّ الجماعة تعقد بينكم ذمماً، يحمي بها بعضكم بعضاً، حتى تكون المكاثرة لواحدكم كالمكاثرة لجماعتكم، فمتى طمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم إن غفل بعضكم حرسه بقيَّتكم، وإن غرَّبت طائفة منكم منعها تآلفكم. إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلاَّ قَوُوا حتى يمتنعوا، ولم يتفرق أقوياء قط إلاَّ ضعفوا حتى يخضعوا، واجتماع الضعيفين قوة تدفع عنها، وافتراق القويين مهانة يتمكن منها غافل الجماعة لا تضرَّه غفلته، لكثرة من يحفظه، ومسقط الفرقة لا ينفعه سقطه، لكثرة من يطلبه، وصاحب الجماعة يدرك أرْشَهُ من الخدش والشَّجَّة، وصاحب الفرقة يذهب حقّه في النفس والحرمة[٢].

وفي جعفر بن يحيى يقول مسلم بن الوليد[٣]. في قصيدة طويلة عند انصرافه من

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣. (٢) الوزراء والكتّاب ٢٠٨ـ٢٠٩.

(٣) مسلم بن الوليد الأنصاري، بالولاء، أبو الوليد، المعروف بصريع الغواني: شاعر غزل، هو أول من أكثر من «البديع» وتبعه الشعراء فيه. وهو من أهل الكوفة. ولد سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م. نزل بغداد، فأنشد الرشيد العباسي قوله:

وما العيش إلا أن تروح مع الصبى وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فلقبه بصريع الغواني، فعرف به. قال المرزباني: اتصل بالفضل بن سهل فولاه بريد جرجان فاستمر إلى أن مات فيها. وقال التبريزي: هو مولى أسعد بن زرارة الخزرجي، مدح الرشيد والبرامكة وداود بن يزيد بن حاتم ومحمد بن منصور صاحب ديوان الخراج ثم ذا الرياستين فقلده مظالم جرجان. وقال السهمي في تاريخ جرجان: قدم جرجان وتوفي سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م، وقبره بها معروف. ولمحمد جميل سلطان «صريع الغواني ـ ط».

ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢/ ١٨٦، وسمط اللآلي ٤٢٧، والمرزباني ٣٧٢، والتبريزي ٣/ ٥، =

الشام[1]: [من البسيط]

اسْتَفْسَدَ الدَّهْرُ أقْوَامَاً فَأَصْلَحَهُمْ ... مُحَمَّلٌ لِكِتَابِ اللهِ مُحْتَمِلُ
كَأنَّهُ قَمَرٌ أو ضَيْغَمٌ هَصِرٌ ... أو حَيَّةٌ ذَكَرٌ او عَارِضٌ هَطِلُ
لا يَضْحَكُ الدَّهْرَ إلاَّ حِيْنَ تَسْأَلُهُ ... ولَيْسَ يَعْبِسُ إلاَّ حِيْنَ لا يُسَلُ
سَدَّ الخَلِيْفَةُ أطْرَافَ الثُّغُورِ بِهِ ... وَقَدْ تَهَتَّكَ واسْتَرْخَى لَهَا الطِّوَلُ
كُلُّ البَرِيَّةِ مُلْقٍ نَحْوَهُ أَمَلاً ... للرُّغْبِ والرُّهْبِ مَوْصُولاً بِهِ الآمَلُ
دَاوَى فِلَسْطِيْنَ مِنْ أدْوائِهَا بَطَلٌ ... فـي صُورَةِ المَوْتِ إلاَّ أنَّهُ رَجُلُ
سَلَّ المَنُونُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَنَاصِلِهِ ... مِثْلَ العَقِيْقِ تَرَامَى دُوْنَهُ الشُّعَلُ
أمَّنْتَ بالشَّامِ أرْوَاحَاً وأفْئِدَةً ... قَدْ حَلَّ مُسْتَوْطِنَاً أوْطَانَهَا الوَجَلُ

حدث ميمون بن هاورن قال: قال لي الحسن خالي قال: إنه كان لجعفر بن يحيى كاتب، فبلغه عنه خيانة، فأراد أن يوقع به، فقلت له: أنشدك الله أن تفعل، فإنه إن بلغ أمير المؤمنين هذا، ضيَّع أمره وماله، فكيف تراه يضبط مالي وأمري، ولكن دعه الآن، ثم اعزله فيما بعد، وتتبعه في يسير. فقبل رأيي ولم يعزله في ذلك الوقت.

وقال ابن عبدوس في كتاب «الوزراء والكتاب»: وجدت بخط أحمد بن إسماعيل نطَّاحة، حدثني يحيى بن يعقوب النصراني، قال: حدثني سعيد بن حميد قال: لم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التوقيعات على أن يوقِّع الرئيس /٣٤/ في القصة بما يجب فيها، ويذكر المعاني التي يأمر بها، ولم يكن للكاتب غير ذلك الأمر شيء أكثر من أن يكسو تلك الجملة من التوقيع ألفاظاً يشرحها ويقرب من العامة فهمها، ولا يخرجها عن معنى ما قصده الرئيس، إلى أيام الرشيد، فإنَّ المتظلمين كثروا على باب جعفر بن يحيى، وتأخَّر جلوسه أياماً، فبعث يحيى إليه يسأله بحياته أن يجلس لهم فجلس، وكانت القصص قد كثرت، فنفض أكثرها. وجاء رسول الرشيد يأمره بالمصير إليه، فقال للرسول: قل له يا سيدي الساعة أجيء. ونظر فيما بقي، وجاءه رسولٌ آخر يستحثّه فقال له: قل له يا سيدي قد بقي بين يدي شيء يسير، فجاءه رسول آخر ثالث فقال: يقول لك أني جائع، وأنا منتظرك للطعام، فدع كل ما بين يديك، واقبل إليَّ، وأنا منتظرك. وكان في القصص قصة طويلة دقيقة الخط، رديئة. وكان جعفر كلَّما وقعت

= وتاريخ بغداد ١٣/ ٩٦، والشعر والشعراء ٣٣٩، وتاريخ جرجان ٤١٩، والنويري ٣/ ٨٢، والأعلام ٧/ ٢٢٢، ومشاهير الشعراء والأدباء ٢٢٧، معجم الشعراء للجبوري ٥/ ٣٨١ـ٣٨٢.

(١) ديوانه ٢٤٩ـ٢٥٢ رقم ٤٠، الوزراء والكتّاب ٢٠٩.

عينه عليها، عزلها استثقالاً لها، وقدَّر أن يكون نظره فيها بعد الفراغ، فوافاه الرسول الثالثة وهي في يده، وأعجله أن يستتمها، وكان يحتاج في فهمها إلى مدة، وكره أن يتأخر عن الرشيد، وكره وقد رئيت في يده أن يطرحها فيما لم ينظر فيه، فوقع في ظهرها: «يُعمل في ذلك بما يُعمل به في مثله على سنن الحق وقصده، وجهة الإنصاف وسبيله»، إنْ شاء الله تعالى.

فورد على الكتاب من هذا التوقيع ما لم يرد مثله، وصار ذلك رسماً للرؤساء في التوقيع بالألفاظ الجميلة[١].

وكان عبد الله المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك، فنقله الرشيد إلى جعفر بن يحيى، فأشار على الرشيد ببيعته للمأمون بعد محمد، وقام بالأمر حتى عقد له، وشخص معه من الرقة إلى مدينة السلام، حتى أكد البيعة له، وأخذ الأيمان على بني هاشم والوجوه بها. وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك، ثم انصرف إلى الرقة[٢].

وتكلم سهل بن هارون بحضرة جعفر بن يحيى، فأغرب وأعرب، فقال له جعفر: أي شيء هذا الكلام، وأنت من دهشان؟ فقال له سهل هي أقرب إلى البادية من بلخ. وهذا الكلام قد روي أنَّ المتكلم به مالك بن شاهي، وأن جعفراً قال له: أتتكلم بهذا الكلام، وأنت من أهل نِفَّر؟ قال: أقرب إلى البادية من بلخ.

وصنع أبان بن عبد الحميد بن لاحق مولى الرَّقاشيين كتاب «كليلة ودمنة» شعراً، وأهداه إلى جعفر بن يحيى، فوهب له مائة ألف درهم[٣].

وذكر إسحاق الموصلي قال: قال لي إبراهيم بن المهدي: خلا جعفر بن يحيى /٣٥/ يوماً في منزله، وحضر ندماؤه وكنت فيهم، فتضمَّخ بالخَلُوق، ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك، وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب إلاَّ من عبد الملك بن نجران، فوقع في أذن الحاجب «عبد الملك» ومضى صدر النهار، وبلغ عبد الملك بن صالح مقام جعفر في منزله، فركب إليه، فوجَّه الحاجب إلى جعفر: قد حضر عبد الملك، فقال: يؤذن له، وهو يظنّه ابن نجران، فدخل عبد الملك بن صالح في سواده، وقلنسوته، فلما رآه جعفر اسودَّ وجهه ورآنا على حالنا، وكان لا يشرب النبيذ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه؛ لأنه كان يلتمسِ منادمته فيأبى، فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر، فدعا غلامه فناوله سواده، وقلنسوته، وأقبل حتى وقف على باب

---

(١) الوزراء والكتّاب ٢١٠ـ٢١١. (٢) الوزراء ٢١١.
(٣) الوزراء ٢١١.

المجلس الذي نحن فيه، فسلَّم، وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم، فدنا منه خادم، فألبسه حريرة، فجلس ودعا بطعام فأكل، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشربه، وقال لجعفر: ما شربته قبل اليوم، فليخفَّف عني! فدعا له برطليَّة، فجعلت بين يديه، وجعل كلما فعل من ذلك شيئاً سُرِّي عن جعفر.

فلما أراد الانصراف، قال له جعفر: سل حاجتك، فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك! فقال: إن في قلب أمير المؤمنين منِّي إحنة، فتسأله الرضا عني. قال: قد رضيَ عنك أمير المؤمنين. قال: وعليَّ دين، أربعة آلاف درهم تقضى عني، قال: إنها لعندي حاضرة، ولكن جعلتها من مال أمير المؤمنين، فإنَّها أنبل لك، وأحبّ إليك. قال: وإبراهيم ابني أحبّ أن أشدّ ظهره من أولاد الخلفاء. قال: قد زوَّجه أمير المؤمنين ابنته الغالية. قال: وأحبّ أن يخفق لواء على رأسه. قال: قد ولاَّه مصر. وانصرف عبد الملك. ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان. وقلت: لعلَّه أن يجاب إلى ما سأله من الحوائج فكيف بالتزوج! أن يطلق لجعفر أو لغيره ذلك! فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد، ودخل جعفر فلم نلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، وخرج إبراهيم، وخلع عليه، وزوّج، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك، وخرج جعفر، فأشار علينا باتباعه إلى منزله، فلما صرنا إليه قال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك، فأحببتم علم آخره. وأني لما دخلت على أمير المؤمنين، وقمت /٣٦/ بين يديه، ابتدأت القصة كيف كانت من أولها إلى آخرها، فجعل والله يقول: أحسنت حتى أتممت خبره. قال: فما صنعت به؟ قال: فأخبرته ما سأل، وما أجبت له، فجعل يقول: أحسنت أحسنت!

وقال مخارق: غدوت يوماً إلى إبراهيم بن ميمون الموصلي، وكان يوم دجْن، فأصبت بين يديه قدوراً تغرغر وأباريق تزهر، وهو كالمهموم، فسألته عن حاله، فقال: لي ضيعة، وإلى جانبها ضيعة تباع ثمنها مائتا ألف درهم، وإن دخل فيها غيري أفسد علي ضيعتي، وما أقول: إن ثمنها ليس يمكنني، لكن لست أسمح بإخراج شيء في منزلنا. فأمسكت عنه وأتممت يومي عنده، وغدوت على يحيى بن خالد فلقيته. فسألني عن خبري في أمسي، فخبَّرته الخبر، فأضحكه ما قال إبراهيم، وانصرفت لإبراهيم، لأعرِّفه الخبر، فوجدت المال قد سبق إليه، فقلت له اشترِ الآن الضيعة، فقال لي: لكلٍّ جديد لذَّة، وهذا مال جديد، ولست أحبُّ إخراجه. قال: فحدَّثه يحيى بن جعفر بن يحيى الخبر، فأضحكه، وبعث بالمال إليه، ثم صرت إليه، فقلت: اشترِ الآن الضيعة فقال: العجلة من عمل الشيطان، دعني أستمتع بهذا المال مدَّة. ثم صرت إلى الفضل بن

يحيى، فحدثته بالحديث، فابتاع له الضيعة ووزن ثمنها، ووجَّه إليه بمثل الثمن، ووجَّه إليه بالصك[١]، فصرت إلى إبراهيم فوجدته فرحاً مسروراً بوصول المال وحصول الضيعة في ملكه، فبلغ ذلك جعفراً، فقال: والله لا يزيد عليَّ الفضل، فأمر له بثلاث مائة ألف درهم حملت إليه في ساعتها.

وفي جعفر بن يحيى يقول أشجع السّلمي[٢]: [من المتقارب]

يُحِبُّ الملوكُ نَدَى جعفرٍ ولا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وكيفَ ينالُونَ غاياتِهِ وهم يجمعونَ ولا يَجْمَعُ
وليسَ بأوْسَعِهِمْ في الغِنَى ولكنَّ مَعْرُوفَهُ أوْسَعُ[٣]

وحكي أن المأمون قال لمحمد بن عبَّاد المهلَّبي يوماً: بلغني أنَّ فيك سرفاً. فقال: يا أمير المؤمنين، منع الموجود سوء الظن بالمعبود، وإنِّي لأهم بالإمساك، فأذكر قول أشجع في جعفر، وذكر هذه الأبيات، فأمر له المأمون بمائة ألف درهم، وقال له: استعن بها على مروءتك.

/ ٣٧/ وحكي أنَّ الرَّشيد قام عن مجلسه يريد الدخول إلى بعض حجره، وأنَّ جعفراً أسرع، فرفع الستر، وأنَّ الرَّشيد تأمل عنقه، فقال له:

ما تتأمَّل فيَّ يا أمير المؤمنين؟ فقال: حسن عنقك، وحسن موقع الجَّربان عليه، فقال: لا والله ما تأمَّلت إلا موقع سيفك منها، فقال له: أعيذك بالله من هذا القول، واعتنقه وقبله. فلما قتله بعد ذلك، قال للفضل بن الربيع: قاتل الله جعفراً، وذكر هذا الخبر، وقال: تأملت عنقه لموقع السيف منها[٤].

وفي طويل عنقه يقول أبو نواس يهجوه[٥]: [من البسيط]

قَالُوا: امْتَدَحْتَ فَمَاذا اعْتَضْتَ قلْتُ لَهُمْ خَرْقَ النِّعَالِ وإبْلاَءَ السَّرَاوِيْلِ
قَالُوا فَسَمِّ لنا هذا فقلْتُ لَهُمْ وَصْفِي له يَعْدِلُ التَّصْرِيْحَ في القِيْلِ
ذَاكَ الأَمِيْرُ الذي طَالَتْ عِلاَوَتُهُ كأنَّهُ ناظِرٌ في السَّيْفِ بالطُّوْلِ[٦].

ولأبي نواس في جعفر، أهاج كثيرة بلغته، فتعمدها بحلة، وقابلها بفضله، وأجازه عليها ووصله بسنيها، منها قوله[٧]: [من الطويل]

---

(١) الوزراء والكتّاب ٢١٢-٢١٥.
(٢) ديوان أشجع السلمي ٢١٥.
(٣) الوزراء والكتّاب ٢١٥.
(٤) الوزراء ٢١٥-٢١٦.
(٥) شرح ديوان أبي نواس، (إيليا حاوي) ط الشركة العالمية ٢/٢٩٦.
(٦) الوزراء ٢١٥.
(٧) شرح ديوان أبي نواس (إيليا حاوي) ط الشركة العالمية ١/ ١٦١.

لَقَدْ غَرَّنِي مِن جَعْفَرٍ حسنُ بابِهِ ولم أدرِ أنَّ اللَّوْمَ حَشْوُ إهَابِهِ
فَلَسْتُ وإنْ أخْطَأتُ في مدحِ جعفرٍ بأوَّلِ إنسانٍ خَرَا في ثِيابِهِ

فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال له: اغسل ثيابك بهذه الدراهم. وقد كان جعفر بن يحيى كريماً، ولا يستحق الهجو، ولكن الشعراء لا تملك ألسنتهم، وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح. وأدلَّ دليل على كرمه أن أبا نواس، على حذقه، وتقدمه في الصناعة، لما أراد هجاءه، لم يجد له ما يعيبه به إلاَّ طول عنقه، ولو وجد غير هذا لقاله، والعيب في الخَلْق دون العيب في الخُلُق، ثم لمَّا هجاه ثانياً بما ذكرنا لم يعب خلقاً ولا خلقاً غير أنه تحمل فيه قوله: إنَّ اللؤم حشو إهابه ولو كان وجد خُلُقاً ذميماً لقاله في هجائه، وذمَّه بأوابده، ولكنه لم يجد إلاَّ ملء سمعه وبصره. على أنه قد كان يقال: إنَّ جعفر بن يحيى مبخِّل، وما ذاك كذاك، وإنما كان كرمُ أبيه يحيى وأخيه الفضل يغمران البحار كثرة.

/٣٨/ وكان جعفر دونهما على كرمه المفرط، وجوده الزائد، مع قربه من الخليفة أكثر من قربهما، فلهذا بُخِّل وإلاَّ فهو كنز السماح، ورسيل البحر إذا سحَّ، والغمام إذا ساح.

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يوماً بحضرة الرشيد فقال جعفر للفضل: يا لقيط. فقال الفضل: اشهد يا أمير المؤمنين، فقال جعفر للرشيد: تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين، وأنت حاكم الحكام؟!

قال إسحق بن سعد القطربلي: أخبرنا أبو حفص عمر بن فرج قال: انصرفت مع عمرو بن مسعدة يوماً من الشَّماسية، والمأمون بها في زلال لعمرو بن مسعدة فلمَّا صرنا بإزاء قصر جعفر بن يحيى قال لي عمرو: يا أبا حفص، سرت وجعفر كمسيرنا هذا، فلمَّا نظر إلى البناء، قال لي: يا أبا الفضل والله أنِّي لأعلم أنَّ هذا ليس من بناء مثلي، ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان إليه في وقت من الأوقات، فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام، فإنَّما يقال: قصر جعفر. ويبقى لي اسمه وذكره. ولعلَّ أن يمرَّ به بعض من لنا عنده، معروف فيترحَّم علينا. ثم قال: فوالله لكأنَّ جعفراً كان ينظر إلى ما آلت إليه الحال فيه!

وقد حُكي أنَّ السبب كان في بناء جعفر هذا القصر أنَّ متظلِّماً من أهل أصبهان تظلَّم إلى يحيى بن خالد من عامله بها، وقال له: إنَّه ظلمني، وأساء معاملتي، وأخذ ما لا يجب له مني، وهدم شرفي، فقال له يحيى: قد علمت جميع ما تظلَّمت منه خلا «هدم شرفي» ففسِّر لي ذلك، فقال له الرجل: أنا من بني رجل كان بنى قصراً جليلاً،

وكان ينسب إليه، فكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته، وعلم أني من ولد الباني له، عرف بذلك قديم نعمتي، وجلالة أوَّلي فهدمه. فاستحسن يحيى ذلك منه، وقال للفضل وجعفر: لا شيءَ أبقى ذكراً من البناء، فاتَّخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً. فاتَّخذ جعفر قصره، وكذلك الفضل، وأمر يحيى بإيفاد مستحثّ مع المتظلِّم، يطالب العامل بإعادة بناء قصره، وإنصافه في ظلامته[1].

قال إسحاق بن سعد: /٣٩/ وحدَّثني أبو جعفر محمد بن علي كاتب عمر بن فرج، عمَّن حدَّثه ممَّن أدرك البرامكة، وكان يخبر كثيراً من أمرهم، قال: لمَّا قارب جعفر بن يحيى الفراغ من بناء قصره هذا، صار إليه ومعه أصحابه فيهم مُوَيْس بن عمران، وكان عاقلاً كاملاً، فطاف به، واستحسنه، وقال من حضره من أصحابه، وأكثروا فيه القول، ومويس بن عمران ساكت، فقال جعفر: ما لك لا تتكلم، فقال: فيما قال أصحابنا كفاية، وتكرار القول مما لا يُحتاج إليه، وكان جعفر ذكياً، فعلم أن تحت قوله شيئاً، فقال له: أنت فقل، فقال: هو ما قالوا، قال: أقسم لتقولنَّ. قال: فإذا أبيت الآن إلاَّ أن أقول، فتعتزل ناحية. فقال له تصبر على الصدق، قال: نعم، قال: بل تختصر، قال: أسألك بالله إلاَّ خرجت من دارك هذه، فمررت بدارٍ لبعض أصحابك تشبهها، أو تقاربها، ما أنت قائل؟ قال فهمت ما أردت، فما الرأي، قال: هو رأي واحد إنْ أخرته عن ساعتك هذه فأنت، ولم تلحقه، قال: وما هو؟ قال: لا شكَّ أن أمير المؤمنين قد طلبك، وسأل عن خبرك، وضجر لتخلُّفك، فأطل اللبث هاهنا، ثم امضِ إليه من فورك، فادخل عليه، وعليك أثر الغبار، فإذا سألك عن خبرك، فقل: صرت إلى الدار التي بنيتها للمأمون، ثم اتبع لك القول بما أنت أعلم به. وقد كان جعفر اتخذ في هذا القصر ثلاثمائة وستين مقصورة وكتب إلى كل ناحية يعمل فيها الفرش، فأمر أن يتخذ له ما يحتاج إليه لبنائه من الفرش على ذرعه، ومقاديره. وكان قد كثر القول في البناء والفرش، فأقام في الدار الشارعة مدة، ثم مضى من فوره، فدخل إلى الرشيد، فسأله عن خبره، فقال: كنت في الدار التي اتَّخذتها للمأمون على دجلة، وتفقدت بعض ما احتجت إلى تفقده فيها، فقال: أوَللمأمون بنيتها؟ قال: لمَّا شرَّفني أمير المؤمنين بأن جعله في حجري، واستخدمني له، وعرفت محله من قلبك، أردت بأن أبني له بناء يشبه هذا المحل، ومع ذلك فإني كتبت بأن يتخذ لجميع البناء فرش في جميع النواحي التي تستعمل فيها الفرش على مقادير، وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه،

(١) الوزراء ٢١٦ـ٢١٧.

فقدرنا أن نعوِّل فيه على خزائن أمير المؤمنين إمَّا عارية، وإمَّا هبة، فزال بذلك التشنيع الواقع عليه كلّه، وأمره بنزولها. رأى أن /٤٠/ يطلق للمأمون الانتقال إليها، فانتقل إليها جعفر بن يحيى.

ولمَّا عزم جعفر على بناء قصره هذا شاور أباه يحيى بن خالد، فقال: هو قميصك، إن شئت فوسعه، وإن شئت فضيقه، وأتاه وهو بين يديه وهو يبتني داره هذه، وإذا الصّنَّاع ينقضون حيطانها، فقال: إنَّك تغطي الذَّهب بالفضة. فقال له جعفر: في كلِّ أوانٍ يكون ظهور الذهب أصلح، ولكن هلا ترى عيباً. قال: نعم مخالطتها دور السُّفَّل والسُّوقة.

وحكي أن جعفر بن يحيى لمَّا عزم على الانتقال إلى داره، وهو القصر، جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه إليه، فاختاروا له وقتاً من الليل، فلمَّا حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذي كان ينزل فيه إلى قصره، والطريق خالية، والناس هادون، فلمَّا صار إلى سوق يحيى، رأى رجلاً قائماً، وهو يقول: [من الوافر]

تَـدَبَّـرَ بـالـنـجـومِ ولـيـسَ يَـدْرِي ورَبُّ الـنـجـم يـفـعـلُ مـا يُـرِيْـدُ

فاستوحش ووقف، ودعا بالرجل، فقال له: أعد عليَّ ما قلت، فأعاده، فقال له: ما أردت بهذا؟ فقال له: والله ما أردت به معنى من المعاني، ولكنه شيء عرض علي، وجاء على لساني في هذا الوقت، فأمر له بدنانير ومضى لوجهه، وقد نغَّص عليه سروره[1].

قال إسحاق بن سعد: سمعت عمر بن فرج الرُّخَّجي، ومن الحارث بن بستنخر حالاً لطيفة جداً، وأنَّه وصف جلالة الحارث ونبله وفضله، قال: فقلَّد جعفر بن يحيى في بعض الأوقات الحارث ضياعه بالأهواز، وكان لها قدر جليل فسُعي به إليه، وقيل: إنه قد قطع من أمواله أموالاً جليلة، وإنَّ فرج الرخَّجي يعلم ذلك، وإنَّه ستر ما بلغه، فأحضر فرجاً، فجاءه وسأله، واستحلفه صدقه عن ذلك، فأحضر جعفر أبي وخلا به، وسأله عن أمر الحارث، وما بلغه عنه، فأنكره، فاستحلفه عنه بالطلاق، فحلف له به، فلمَّا خرج من عنده، قال لي: قل لفلانة الحرة، وكانت عنده تسترمي، فقلت لها: ذاك، وزال عن الحارث ما كان أشرف عليه.

ثم حجَّ الرشيد، وحجَّ معه يحيى بن خالد، وابناه الفضل وجعفر، فلمَّا صار بالمدينة جلس الرشيد، ومعه يحيى بن خالد، /٤١/ فأعطى أهلها العطاء، ثم جلس بعده محمد، ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء، ثم جلس عبد الله، ومعه جعفر بن يحيى، فأعطاهم العطايا، فأعطوا في تلك السنة ثلاث أعطية، وكان أهل المدينة

---

(١) الوزراء ٢١٧.

يسمُّون ذلك العام عام الثلاثة أعطية، ولم يروا مثل ذلك قط إلاَّ في أيام البرامكة[١].

في نحو من ذلك يقول ابن مناذر: «فتظلم بغداد...»، الأبيات، وقد تقدمت.

وكان جعفر بن يحيى، طالبَ [محمداً الأمين] لمَّا حلف للمأمون في بيت الله الحرام أن يقول: خذلني الله إن خذلته. فقال ذلك ثلاث مرات. فحكي عن الفضل بن الربيع فيما حدث ميمون بن هارون محمداً قال له: في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: أيا أبا العباس هو ذا أجد في نفسي أنَّ أمري لا يتم، فقال له: ولمَ ذاك أعزَّ الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، فقلت له: سبحان الله في مثل هذا الموضع؟ فقال لي: هو ما قلت لك. ولمَّا أنفق الرشيد في تلك الحجة الأموال الجليلة، نفد ما كان معه، فقال ليحيى بن خالد: يا أبه احتل لي مالاً. فأخذ له من النجار مالاً، فاستزاده، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّا بمكة وما نجد، فلقي جعفر بن يحيى عمر بن حبيب القاضي، وكان انقطاعه إلى يحيى، فقال له: ما صنع بك صديقك، يعني أباه، فقال: وكيف أعزَّك الله؟ قال: طلب منه أمير المؤمنين مالاً، فلم يحمل إليه حتى أتاه بعض خدمه بمائة ألف دينار، فقبضها بين يديه، وقال له: اصرف هذا يا أمير المؤمنين في بعض ما تحتاج، فلما رآه استكثره وأحب الرشيد جمع المال، وفرغ مما كان قصد له من توكيد بيعة أبنية، وأخذ الأيمان لكل واحد منهما على صاحبه، وعلى الناس لهما. قال موسى بن يحيى ابن خالد: فخرج أبي إلى الطَّواف وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلق بأستار الكعبة، ويردِّد هذا الدعاء، ويقول: اللهمَّ إن ذنوبي جمَّة، ولا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهمَّ إن كنت معاقبي، فاجعل عقوبتي في دار الدنيا، وإن أحاط بذلك سمعي وبصري، ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك مني.

قال: وعلَّق الرشيد الكتب بالعهد لابنيه في البيت الحرام، وانصرف فنزل الأنبار، ودعا الرشيد صالحاً صاحب المصلَّى حين تنكر / ٤٢/ للبرامكة، فقال له: اخرج إلى منصور بن زياد فقل له: قد صحَّت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إليَّ في يومك هذا، وانطلق معه، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يوم هذا، وإلا فاحمل إليَّ رأسه، وإياك ومراجعتي في أمره.

قال صالح: فخرجت إلى منصور، وهو في الدار، فعرفته الخبر فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ذهبت والله نفسي، ثم حلف والله لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف بعشرة آلاف ألف؟ فقال له صالح: خذ في عملك، فقال له: امضِ بي إلى منزلي

(١) الوزراء ٢٢١_٢٢٢.

حتى أوصي، وأتقدم في أمري، فما هو إلاَّ أن دخل حتى ارتفع الصياح في منازله، فأوصى وخرج وما يه دم ولا لحم، فقال لصالح: أمض بنا إلى أبي علي يحيى بن خالد، لعلَّ الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضى معه، فدخل على يحيى وهو يبكي، فقال له يحيى: وما وراءك؟ فقلق يحيى بأمره وأطرق مفكِّراً، ثم دعا خازنه، فقال له: كم عندك؟ فقال: خمسة آلاف ألف درهم، فقال له: أحضرني مفاتيحها، فأحضرها. ثم وجه إلى الفضل ابنه فقال له: إنَّك كنت أعلمتني أنَّ عندك ـ فداك أبوك ـ ألفي ألف درهم، قدَّرت أن أشتري بها ضيعة، وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها، وتحد ثمرتها، فوجّه إلينا بالمال، فوجَّه به. ثم قال للرسول: امضِ إلى جعفر، فقل له: ـ فداك أبوك ـ وجه إليَّ ألف ألف درهم لحقٍّ لزمني، فوجَّه إليه به، ثم قال لصالح: هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق إطراقه، لأنه لم يكن بقي عنده شيء، ثم رفع رأسه إلى خادم له على رأسه، وقال له: امشِ الى دنانير وقل لها: وجِّهي إيَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين قد وهبه لك. فجاء به، فإذا عِقْدٌ لعظم الذِراع. فقال له: اشتريت هذا لأمير المؤمنين بمائة وعشرين ألف دينار، فوهبه لدنانير، وقد حسبته عليك بألفي ألف درهم، وهو تمام حقك، فانصرفْ وخلِّ صاحبنا، ولا سبيل لك عليه. قال صالح: فأخذت ذلك، ورددت منصوراً معي، فلمَّا صرنا بالباب أنشد منصور متمثِّلاً: [من الوافر]

فـمـا بُـقْـيَـا عـلـيَّ تـركـتـمـانِـي ولـكـنْ خـفـتـمـا صَـرَدَ الـنِّـبـالِ

قال صالح: ما على وجه الأرض رجل أنبل من رجل كنَّا خرجنا من عنده، ولا سمعت بمثله قط فيما مضى، ولا يكون مثله فيما بقي، ولا على وجه الأرض أخبث سريرة، ولا أردأ /٤٣/ طبعاً من هذا النبطي، إذ لم يشكر من أحياه.

قال صالح: وصرت إلى الرشيد، فقصصت عليه القصَّة، فقال لي الرشيد: أمَّا إنِّي علمت أنه إنْ نجا، لم ينج إلاَّ بأهل هذا البيت. وقال لي: اقبض المال، وأرجع العقد، فإنِّي لم أكن أهب هبة وترجع إلى مالي. قال صالح: ولم أطب نفساً بترك تعريف يحيى ما قاله منصور، فقلت له لمَا رأيته بعد أن أطلت في شكره، ووصف ما كان منه: وقد أنعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بألأم قول. قال: وكيف ذلك؟ فأخبرته بما كان منه، فجعل والله يطلب له المعاذير ويقول: يا أبا علي إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حالة عظيمة. فقلت له: والله ما أدري ما أمريك أعجب! أمِن أوَّله أم من آخره؟ ولكني أعلم أنَّ الدهر لا يخلف مثلك أبداً[1].

---

(١) الوزراء ٢٢٢ـ٢٢٤.

قال: ثم لم ألبث حتى بلغت جعفراً الخبر فسألني، فقصصت عليه ما كان. فقال: يا هذا لا تسرع إلى ملامة الرجل، ولُمنا إذ لم نجعل المال له صلة، وندفع أمير المؤمنين عنه! ثم لوى رأس دابته عائداً إلى باب الرشيد، وأنا معه، فتركني بالباب ودخل، ثم لم يكن بأسرع من عوده وبيده توقيع الرشيد بإعادة المال عليه، ثم قال: اذهب به إلى الرجل، ثم قال: خذ المال صلة لك بارك الله لك فيه، قلت: يأبى الله إلا أن يكون ابن يحيى!

قلت: والبيت الذي تمثل به منصور بن زياد من أبيات اللعين المنقري يهجو فيها جريراً وهي: [من الوافر]

سأقضي بين كلبِ بني كليب ... وبين القَيْنِ من ابْنَيْ عِقالِ
فإنَّ الكلبَ مطْعمُهُ خبيثٌ ... وإنَّ القَيْنَ يعمل في سَفَالِ
كِلاَ العبْدَينِ قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... لئيمُ الأصلِ من عمٍّ وخالِ
فما بُقْيَا عَلَيَّ تَرَكْتُمانِي ... وَلكنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النِّبَالِ

وكان أبو الشمقمق قد صار إلى منصور بن زياد يسأله أن يبرَّه وكان منصور ضيِّقاً بخيلاً، فوهب له عشرة دراهم، وأمره بالعودة إليه، ليبرَّه فأخذها، وقام وهو يقول هذا: [من السريع]

لولا ابن منصورٍ وأفضالُهُ ... سَلَحْتُ في لِحْيَةِ منصورِ

/ ٤٤/ فبلغ ذلك محمداً فقال: إنَّما خفنا هذا، وما أفلتنا منه[1].

وإنَّما حكيت هذه الحكاية، وإن لم يكن موضع ذكرها، ليعرف بها لؤم منصور، وكرم البرامكة الغيوث البحور «والضد يظهر حسنه الضد»:

وصدر البيت: [من الكامل]

«ضدان لما استُجمعا حسنا»

وحكي أن ابن منصور بن زياد أفسد نيَّة جعفر بن محمد بن الأشعث على بني يحيى بن خالد، وضربه عليه، فتكلم فيه يحيى، وصار إليه جعفر بن محمد، فقال له، لا تحوجني فأكفر نعمتك.

وكان جعفر بن يحيى يساعد الرشيد على كل شيء يطالبه، وكان الفضل يمتنع عليه، وكان لا يشرب النبيذ، فظنَّ الرشيد أنه يعيب عليه، فكان يعتب عليه في ذلك،

---

(١) الوزراء ٢٢٤.

وكان يحيى بن خالد ينكر على جعفر دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه، ويتخوَّف عليه من عاقبته.

وذكر سعد بن هريم أنَّ يحيى كتب إلى جعفر يوماً في شيء عتب عليه منه من هذا الجنس:

«إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت أخشى أن تكون التي لا شروى لها».

وقال يحيى للرشيد غير مرة:

يا أمير المؤمنين، إني أكره مداخلتك جعفراً، ولست آمن أن ترجع العاقبة عليَّ في ذلك منك، فلو أعفيته، واقتصرت به على ما يتولاَّه من جسيم أعمالك، كان ذلك أحبّ إليَّ، وأولى بتفضيلك عليه، وآمن عليه عندي. فقال له الرشيد: ليس بك هذا، ولكنك تحبّ أن تقدم الفضل عليه[1]..

وقال صاحب كتاب الوزراء: حدَّثني بختيشوع بن جبريل، قال: حدَّثني أبي، وكان صنيعة البرامكة:

أنَّه دخل على الرشيد يوماً، وهو جالس على بساط، وكان على مشرعة باب خراسان فيما بين الخلد والفرات، وأمّ جعفر من وراء ستر يعني وزبيدة حاضرة من وراء ستر- فقال لي:

أم جعفر تجد شيئاً، فاشر عليها بما تعمل به، قال: فبينا أنا أنظر في ذلك إذ ارتفعت ضجَّة عظيمة، فسأل عنها، فقيل له جعفر بن يحيى ينظر في أمور المتظلمين، فقال: بارك الله عليه وأحسن جزاءه، فقد خفَّف عني، وحمل الثقل دوني، وناب منابي وذكره بكل جميل، وفعلت أم جعفر مثل ذلك، ولم تدع شيئاً يذكر به أحد من الجميل إلاَّ ذكرته به، فامتلأت سروراً وقلت في ذلك ما أمكنني وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد، وكنت آتيه بالأخبار، فخبرته بذلك، فسرَّ به! ومضت مدة، ثم جاءني رسول الرشيد يوماً، فصرت / ٤٥/ إليه، فوجدته جالساً في ذلك المجلس بعينه، وأم جعفر من وراء الستر، والفضل بن الربيع بين يديه، وأم جعفر قد وجدت شيئاً، فأمرني بتأمل حالها والمشورة عليها بما أراه، فإني لفي ذلك إذا ارتفعت ضجَّة شديدة، فقال الرشيد: ما هذا؟ فقيل: جعفر بن يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلَّمين، فقال: فعل الله به وجعل يذمّه ويسبّه أشد سب، استبدّ بالأمور دوني، على غير رأيي، وعمل بما أحبَّه

---

(١) الوزراء ٢٢٤ـ ٢٢٥.

دون محبَّتي، وتكلمت أم جعفر بأغلظ من كلامه، وثلبته بأكثر مما يثلب به أحد. فورد عليَّ من ذلك مورد، أقام وأقعد، ثم أقبل عليَّ الرشيد، وقال: يا جبريل: إنه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل، وليس الفضل ممن يحكي شيئاً منه، وعليَّ وعليَّ لئن تجاوزك لأُتْلِفَنَّ نفسك، قال: فبرأت إليه من ذكره، وأكبرت الإقدام على حكاية شيء جرى في مجلسه، وانصرفت، ولم أصبر، وقلت في نفسي: إن تلفت في الوفاء فلا أبالي، وصرت إلى يحيى بن خالد، فعرفته بما جرى، فقال لي: أتذكر وقد جئتني في يوم كذا من شهر كذا، وأنا في هذا الموضع، فحكيت لي عن أمير المؤمنين الإحماد والثناء والشكر والدعاء، وعن أم جعفر مثل ذلك؟ فقلت: نعم وعجبت من حفظه الوقت، فقال: إنَّه لم تكن منه في تلك الحال التي أحمدها ولا كان منه في تلك ما لم يكن منه هذا. ولكنَّ المدة إذا آذنت بالانقضاء، جعلت المحاسن مساوىء، ومن أراد أن يتجنَّى قدر، ونسأل الله حسن الاختيار. وكان جبريل صنيعة البرامكة، وكان يقول للمأمون كثيراً: هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك هذه أفدتها من يحيى بن خالد.

ولمَّا أحسَّ يحيى من الرشيد بالتغيُّر، ركب إلى صديق له من الهاشميين ليشاوره في أمره، فقال له: إنَّ أمير المؤمنين قد أحبَّ جمع المال، وقد كبر ولده، فأحب أن تعقد لهم الضياع، وقد كثِّر على أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ما بين أيديهم من ضياع وأموال، فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت بها إليه رجونا لك السلامة، ولهم في ذلك من مكروهه، فقال يحيى: جعلني الله فداك! لأن تزول النعمة عنِّي أحبّ إليَّ من إزالتها عن قوم كنت سببها إليهم[١].

وسمع رجل يحيى بن خالد، وهو يتضجَّر بالعمل، ويستعفي منه، فقال له رجل كان يختصُّ بـه منهم، أعيذك بالله أن يعلم أمير المؤمنين أنَّه مستغنٍ عنـك طرفة عين، /٤٦/ ولا تفلح بعدها أبداً، ودعه يظنُّ أنَّ ملكه يزول بزوالك، وأن صرفك ما لا يجوز، ولا يكون، فلم يقبل يحيى ذلك. ووصل الضجر إلى الرشيد والاستعفاء، فهلك وبنوه، وكان أسرعهم هلكاً، وأشنعهم صرعة جعفر.

وحكي عن عبد الله بن زياد الكاتب: أنَّه لما أحسَّ يحيى بالتغيُّر من الرشيد، صار إلى معاذ بن مسلم، فدخل على دابته إلى مجلسه فقام إليه معاذ، وأكب عليه يحيى يكلمه، فلمَّا فرغ من حديثه ولى منصرفاً، وعاد معاذ إلى مجلسه، فقال لمن حضر: أتدرون ما قال لي يحيى: فقالوا: لا. قال: جئت أشكو إليك أمير المؤمنين، فقلت:

---

(١) الوزراء ٢٢٥ـ٢٢٧.

في ماذا؟ فقال: كان سألني أن أصرف له في السنة أربعة آلاف ألف درهم لخاص نفقاته ليصرفها فيما أحب، ففعلت، ثم سألني أن أزيد فزدته، فجعلتها ستة آلاف، ثم استزادني في وقت بعد آخر، ثم سألني اليوم أن أصيرها عشرة آلاف درهم، فأي بيت مال يبقى على هذا؟ وقد أشرت عليه بأن يداريه ويرفق به، ولا يسخطه.

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد لما ابتدأت حاله في الفساد، وهو خالٍ، فعرف خبره، وانصرف، فقال الرشيد لبعض الخدام: الحق يحيى. فقل له: خنتني فاتَّهمتني! فلحقه فقال ذلك، فقال يحيى للرسول، إذا انقضت المدة كان الحتف في الحيلة، ووالله ما انصرفت عنك في خلوتك إلاَّ تخفيفاً عنك. وهذا كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إذا انقضت المدَّة كان الهلاك في العدَّة». أي الاستعداد. وأخذ هذا الكلام ابن الرومي الشاعر: [من الكامل]

غَلِطَ الطَّبِيْبُ عليّ غلطةَ موردٍ ... عجزَتْ مواردُهُ عَنِ الإصْدارِ
والناسُ يَلْحَوْنَ الطَّبيبَ وإنَّما ... غَلَطُ الطَّبيبِ إصابةُ المقدارِ

وذكر محمد بن زكريا العلاني قال: حدثني مهدي بن سابق قال: رأى يحيى بن خالد في منامه قبل نكبته كأنَّ قائلاً يقول له: [من مجزوء الخفيف]

أنعموا آلَ برمكٍ ... وأنظروها مَتَى هيَه
يوشكُ الدهرُ أنْ يحلَ ... لَ عليكم بداهِيَهْ

وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلَّد عليّ بن عيسى بن ماهان خراسان /٤٧/ لتكثير وقع عنده على الفضل في الأموال، فقتل عليّ بن عيسى وجوه أهل خراسان وملوكها، وجمع أموالاً جليلة، فحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولة من الحرير، فيها عشرة آلاف ألف درهم، فلما وصلت إليه سرَّ بها، وأحضر يحيى بن خالد، فقال له: يا أبتِ أين الفضل عن هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين: إنَّ سبيل خراسان أن يُحمل إليها المال، لا أن يُحمل منها، والفضل أصلح نيَّات رؤسائها، واستجلب طاعتهم، وعليّ بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطَرَاخِنَتِها، وحمل أموالهم، ولو قصدتَ لدرب من دروب الصيارف بالكرخ، لوجدتَ فيه أضعاف هذا، وسينفق أمير المؤمنين مكان كل درهم عشرة، فثقل هذا القول منه على الرشيد، فلمَّا انتقض أمر خراسان، وخرج رافع بن الليث، واحتاج الرشيد إلى النهوض إليها بنفسه، فخرج حتى صار إلى طوس، وجعل يتذكر هذا الحديث، ويقول: صَدَقَنِي والله يحيى ونصح، فلم أقبل منه، لقد أنفقتُ مائة ألف ألف درهم وما بلغتُ شيئاً[1].

---

(١) الوزراء ٢٢٧ـ ٢٢٨.

وكان يحيى بن خالد ولَّى رجلاً بعض أعمال الخراج، فدخل به إلى الرشيد، ليراه ويوصيه، فقال الرشيد ليحيى ولولده: أوصياه، فقال له يحيى: وفِّر واعمُر. وقال له جعفر: أنصف وانتصف، فقال له الرشيد: أعدلْ وأحسنْ.

واستأذن جعفر بن يحيى الرشيد في العمرة في سنة خمس وثمانين ومائة، فأذن له، فشخص في شعبان، وأقام إلى الحج، وانصرف، ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد على حالهِ من الأنس به والانبساط إليه، إلى أنْ ركب في يوم الجمعة مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومائة إلى الصيد، وجعفر معه يسايره خالياً به، وانصرف مُمسياً على تلك الحال إلى القصر الذي كان ينزله بالأنبار، وهو معه، فضمَّه إليه، وقال: لولا أني أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك، فصار جعفر إلى منزله، وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف إلى وجه السحر، ثم هجم عليه مسرور الخادم ومعه سالم أبو عصمة، فَحُمِلَ وَربَتْ عنقه، وأُتِيَ الرشيد برأسه، وكانت سِنُّهُ سبعاً وثلاثين سنة، وأنفذ الرشيد جثته إلى مدينة السلام، مع هرثمة بن أعين ومسرور وسالم الخادمين، فقطَّعت نصفين، وصلبتا على الجسرين، ونُصب رأسه بمدينة السلام.

وحُبس الفضل ومحمد وموسى بنو يحيى، ووكّل سلام الأبرش بباب يحيى، ولم يتعرَّض لمحمد بن خالد، ولا لأحد من أسبابه.

/٤٨/ قال الجهشياري: حدَّثني عبد الواحد بن محمد الحُضيني قال: حدَّثني أبو حازم القاضي قال: قد صحَّ عندي أن جعفر بن يحيى كان مصلوباً وفي رجليه قيد، فكنت أعجب من ذلك حتى سألت عيسى عن ذلك، فذكر أن مسروراً لما هجم عليه وعرَّفه ما أُمر به، قال له: يا أبا هاشم: الحرمة والمودة، فقال له: ما لي في أمرك حيلة! فقال له جعفر: فهذه خمسون ألف دينار اقبضها، واحملني معك غير مقتول، وأعلم أمير المؤمنين بأنك قد امتثلتَ ما أمرك به، فإن أمسَك عني تركتني حتى يسألك عني، فتُعلمه أنك قد أشفقت من قتلي خوفاً من أن يكون ما أمرك به من عمل النبيذ، أو بإرادة يندم عليها، فاستظهرتَ بتركي، وتمضي بعد ذلك ما يأمر به، وإن تكن الأخرى، فأنت من المال في حلٍّ. ففعل مسرور ذلك، وحمله إلى مضرب الرشيد بالعُمْرِ، فوكّل به فيه واستظهر بأن قيد، ثم دخل على الرشيد وهو جالس على كرسي ينتظره، فلما رآه قال: ما فعلت؟ فقال: امتثلت أمر أمير المؤمنين، قال: فأين رأسه يا بن الفاعلة؟ فرجع مسرور يعدو حتى أخذ رأسه في بَريكَة قبائه، وألقاها بين يديه، وحُمِلَتْ جثتُه والقيدُ في رجليه.

قال سلام الأبرش: ولما دخلت على يحيى بن خالد في ذلك الوقت، فهتكت الستور، وجمعت المتاع، قال لي غير متغيّر، ولا مضطرب: يا أبا سلامة، هكذا تقوم

الساعة! ثم بلغه خبرُ قتل جعفر فقال: الحمد لله، فإني بفضل ربِّي واثق، وبالخيار منه لي عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلاَّ بذنوبهم. وما ربك بظلاّمٍ للعبيد، وما يغفر الله أكثر، والحمد لله على كلِّ حال. وأنفذ الرشيد مسروراً الخادمَ، والحسين الخادم، وأبا صالح بن يحيى بن عبد الرحمن الكاتب، وإبراهيم بن حميد الكاتب، لقبض أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق، فكانت مدّتهم في الوزارة سبعة عشر سنة.

وذكر مسرور الخادم أنه دخل على جعفر في ليلة، وهي الليلة التي قُتِل فيها، وبين يديه أبو زكار الأعمى / ٤٩/ المغني وهو يغني: [من الوافر]

عَـدَانـي أن أزورَكَ غـيـر بُـغـضٍ   مُـقـامُـكَ بـيـنَ مُـصْـفَـحَـةٍ شـدَادِ
فـلا تـبـعِـدْ فـكـلُّ فـتًـى سَـيَـأتِـي   عـلـيـهِ الـمـوتُ يَـطْـرُقُ أو يـغـادِي

فقلت له: يا أبا الفضل الذي جئت له والله من ذلك، قد والله طَرَقَك الأمر، فأجب أمير المؤمنين، قال: دعني حتى أوصي، فتركته حتى أوصى بما أراد، وأعتق مماليكه، وأتتني الرسل تستحثّني على قتله، فحملته.

وقال الرّقاشي في قتله: [من الطويل]

الآنَ اسْـتَـرَحْـنَـا واسـتَـراحَـتْ رِكـابُـنـا   وأمسكَ مَنْ يُجْدِي ومَنْ كان يَجْتَدِي
فقلْ للمَطايا قد أمِنْتِ من السُّرَى   وقَطْع الفَيافِي فَدْفَداً بعْدَ فَدْفَدِ
وقُلْ للمنَايَا قدْ ظَفِرْتِ بجَعْفَرٍ   ولن تَظْفَرِي مِنْ بَعْدِهِ بِمُسوَّدِ
وقُلْ للعَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ تعطَّلي   وقُلْ للرَّزايَا كلَّ يوم تجدَّدِي
وَدُونَكَ سيفاً برمكيّاً مُهنَّداً   أُصِيْبَ بسيفٍ هاشِميٍّ مُهنَّدِ

وقال فيه أيضاً: [من الوافر]

على المَعروفِ والدُّنيا جَميعاً   بدَولةِ آل بَرْمَكٍ السلامُ
وما أبْصَرْتُ قبلَكَ يا بنَ يحيَى   حُساماً قدَّه السَّيفُ الحُسَامُ

وقال أبو حزرَة: [من الخفيف]

ما رَعَى الدَّهْرُ آل برمكَ لمَّا   أنْ رمَى مُلْكَهُم بأمرٍ بديعِ
إنَّ دهراً لم يَرْعَ حقّاً ليَحيَى   غيرُ راعٍ حقّاً لآلِ الرَّبيعِ

وقال آخر: [من الرمل]

يا بَنِي بَرْمَكَ وَاهاً لكُمْ   ولأيَّامِكُمُ المُقْتَبَلَهْ
كانت الدُّنيَا عروساً بكُمُ   فَهِيَ الآنَ ثَكُولٌ أرْمَلَةْ[1]

---

(١) الوزراء ٢٣٤ـ ٢٣٦.

وقال محمد بن الحصين الأهوازي: كنَّا مع جعفر بن يحيى بالرّقة ونحن بين يديه يوماً، وهو يأمر وينهى، إذ خلا بأنس بن أبي شيخ ناحية، ونحن نراه، فأدخل صاحب الشرطة رجلاً من أهل الذمَّة، فوقفهُ من بعيد، ودنا من جعفر /٥٠/ فقال له: لقد أحضرت الرجل الذي أمرت بإحضاره، قال: فقطع ما كان فيه من أُنسٍ، والتفت فنظر إليه. قال: وكان الرشيد أمر أهل الذمة بتغيير الملبوس والمركوب. قال له وهو رافع صوته: ما اسمك؟ قال: فلان. قال: ابن من؟ قال: ابن فلان. فقال: أنت الحراني؟ قال: نعم. قال: الرقعةُ التي رفعتها رقعتك؟ قال: نعم. قال: وما فيها عنك وأنت تقوله؟ قال: نعم، فأطرق جعفر ساعة، ثم التفت إلى صاحب الشرطة، وقال: خذه إليك فإنَّ أمير المؤمنين قد أمرك أن تقتله وتصلبه، قال: فارتعنا لذلك القول، ولم نعرف الرجل ولا ما في برقعته.

فأخذ صاحب الشرطة بيده، فقال: أنسُ بن أبي شيخ: أصلبه على أطول عود بالرقة، فالتفت الحراني وقال: إن شاء على أطول عود، وإن شاء على أقصره، ليس والله يركبه بعدي غيرك[1]!

قال: وكان في الرقعة رفاعة على البرامكة.

وقال أبو قابوس عمرو بن سليمان الحيري: يخاطب الرشيد ويرقِّقه على الفضل بن يحيى بن خالد، ويذكر مقتل جعفر: [من الوافر]

أمينَ اللهِ هبْ فضلَ بنِ يحيَى ... لنفسِكَ أيُّها المَلِكُ الهُمَامُ
وما طَلَبِي إليكَ العفوَ عنْهُ ... وَقَدْ قَعَدَ الوُشاةُ بِهِ وقامُوا
أرى سبَبَ الرضا عنهُ قويَّاً ... على اللهِ الزِّيادةُ والتمامُ
نذرتُ عليَّ فيهِ صيامَ شهرٍ ... فإن تمَّ الرضا وجَبَ الصِّيامُ
وهذا جعفرٌ بالجسرِ يمحُو ... مَحاسِنَ وجهِهِ ريْحٌ قَتَامُ
أمَا واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفةِ لا تَنَامُ
لَطُفْنَا حولَ جِذْعِكَ واسْتَلَمْنَا ... كما للنَّاسِ بالحجرِ استلامُ
وما أبْصرتُ قبلَكَ يا بنَ يحيَى ... حُساماً قدَّه السَّيفُ الحُسامُ
عِقابُ خليفةِ الرَّحْمَنِ فخرٌ ... لِمَنْ بالسَّيْفِ صبَّحَهُ الحِمَامُ

قال: كان مسرور صديقاً للبرامكة جميعاً خلا جعفراً، فإنه كان يعاديه، وكان قد

(١) الوزراء ٢٣٨ـ ٢٣٩.

جرى بينهما كلامٌ بحضرة الرشيد، فشتمه جعفر وقرَّفه بشيء تبرأ منه مسرور، وحلف على بطلانه ثم قال لجعفر: إنْ كنتَ كاذباً فَقَتَلَكَ اللهُ بسيفي هذا!! فذكر الفضل بن مروان أنَّ مسروراً ضرب عنق جعفر بذلك السيف.

/ ٥١/ وحكى حمزة بن حنيف قال: كنَّا مع علي بن عيسى بن ماهان في الوقت الذي نزل فيه بالبرامكة، وكان من مُعاداتهم على ما لا غاية وراءه، وكان مسروراً بنكبتهم، فعدنا له في يوم من الأيام، فوجدناه على قصره يبكي وينشد بيتين وهما: [من السريع]

إنَّ المساكينَ بني برمكٍ ... صُبَّتْ عليهِم غِيَرُ الدَّهرِ
وللورى في أمرهم عِبْرةٌ ... فليعتبرْ ساكنُ ذا القصرِ

قال: ثم لم يلبث حتى نكبه الرشيد عقيب البرامكة، ولم يزل في الحبس إلى أن أطلقه الأمين.

وحكى الأصمعي قال: لمَّا قتل الرشيد جعفر بن يحيى أرسل إليَّ ليلاً فراعني، وأعجلني الرسل، فزادوا في وجلي، فصرت إليه، فلمَّا مَثُلتُ بين يديه، أومأ إليَّ بالجلوس، فجلست، ثم قال: [من الكامل]

لو أنَّ جعفرَ خافَ أسبابَ الرَّدَى ... لَنَجَا بِمُهْجَتِهِ طِمِرٌ مُلْجَمُ
ولكانَ من حَذَرِ المنُونِ بحَيثُ لا ... يرُجو اللِّحاقَ بِهِ العُقابُ القَشْعَمُ
لكنَّه لمَّا تقارَبَ يومُهُ ... لَمْ يَدْفَعِ الحدثانَ عنه مُنَجِّمُ

ثم قال لي: الحقْ بأهلك يا ابن قُريب! فنهضت ولم أُحر جواباً، وفكرت فلم أعرف لما كان منه معنى، إلاَّ أنَّه أراد أنْ يسمعني شعره فأحكيه.

وحكى إسحاق فقال: قال الرشيد بعد مقتل جعفر بن يحيى وصلبه: اخرج بنا ننظر إلى جعفر، فلمَّا وصل إليه، جعل ينظر ويتأمله وينشده: [من المتقارب]

تَقَاضَاكَ دهرُكَ ما أسْلَفَا ... وكدَّرَ عيشَكَ بعدَ الصَّفَا
فلا تَعْجَبَنَّ فإن الزَّمانَ ... رهينٌ بتفريقِ ما ألَّفَا

قال إسحاق: فنظرتُ إليه ثم قلت: يا جعفر أصبحْنَا به، ولقد كنت في الجود غاية، فنظر إليَّ الرشيد كالجمل / ٥٢/ الصَّؤول: [من السريع]

ما يُعجِبُ العالمُ من جعفرٍ ... ما عاينوه [بعد] ما كانَا
مَنْ جَعفرٌ أو مَنْ أبوه، ومَنْ ... كانَتْ بَنُو بَرْمَكَ لولانَا

وكان جعفر قد اتخذ دنانير للصلة، زنة كل دينار مائة دينار ودينار، وكتب على

أحد وجهيها : [من المتقارب]

وأصْـفَـرَ مـنْ ضـربِ دارِ الـمـلـوكِ يـلُـوحُ عـلـى وجْـهِـهِ جـعـفـرُ
يـزيـدُ عـلـى مـائـةٍ واحـداً إذا نـالَـهُ مُـعْـسِـرٌ يُـوسِـرُ

ولما أوقع الرشيد بالبرامكة، لم يجد لهم إلا القليل، فسأل عن أموالهم، فقيل له: أذهبوها في المكرمات.

وقال إسماعيل بن صبيح: كنت يوماً أكتب ين يدي يحيى بن خالد في أيامه، فدخل عليه ابنه جعفر، فلمَّا رآه أشاح بوجهه عنه، وقطَّب، وتكرَّه رؤيته، فلمَّا انصرف قلتُ: أطال الله بقاكَ، أتفعل هذا بابنك، وحاله من أمير المؤمنين حاله لا يقدم عليه ولداً ولا ولياً؟ فقال: إليك عنِّي أيها الرجل، فوالله ليكونَنَّ سبب هلاك هذا البيت. فلمَّا كان بعده مُديدة أخرى، دخل عليه جعفر وأنا عنده، ففعل مثل فعلته الأولى، فأعدتُ عليه القول، فقال لي: أدن مني الدواة، فأدنيتها، فكتب كلماتٍ يسيرةً في رقعةٍ وختمها ودفعها إليَّ وقال: لتكن عندك، فإذا دخلت سنة سبْع وثمانين ومضى المحرم، فانظر فيها، فلمَّا كان في صفر أوقع الرشيد فيهم ما أوقع، فنظرتُ في تلك الرقعة، فكان الوقت الذي ذكره[1].

ثم ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة، وتحسر على ما فرط منه في أمرهم، وقال لخواصه: لو وثقت بصفو نيَّاتهم لأعدتهم! وكان أكثر ما يقول: حملونا على نصائحنا وكفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلمَّا صاروا إلى مكانهم لم يُغنُوا شيئاً.

فهذه جملة من أخبار البرامكة وأيامهم، وكانت دولتهم الكريمة، وصولة الجود على العدم، وغاضت بعدهم نجوم السماحة، وغارت نجوم الفصاحة، وخفَّ وقار الثبات /٥٣/ وجفَّ ورق النبات، وأبى ضرع الكرم أن يدرَّ لحالب، ودرّ الحمد أن ينتقل لجالب، وطمست أقمار البادي، وحبست أمطار الوادي، وذهبت الأيدي والأيادي، وسكتت همامهم الأُسد العوادي، وغَلّ المعروف يده في عتقه، وغرَّ الساري المدح وضوح طرقه، ونزلت وقاه مضرة، ونسفتْ أطواد الحجى وخسفتْ بدور الدّجى، إلاَّ بقية ذكر تلاقى أيامهم الزاهية، وَرِمَ بخضاب البكاء عليهم لمم. الدموع الساكبة، فما ماتوا حتى أبقوا لهم ذكراً لا يموت، وشكراً غير موقوت، حتى صار سمر الحاضر والبادي، والرَّائح والغادي، ولا يجري لهم ذكر في محفل إلاَّ أثنى عليهم من

---

(١) الوزراء ٢٤٨ـ ٢٤٩.

حضر، ويصفهم ويثني عليهم عنان الثناء من يعرفهم، ومن لا يعرفهم: [من الكامل]

كَفَلَ الثناءُ لهم بردِّ حياتِهم لمَّا انقضوا فكأنَهُم ما ماتُوا

* * *

وأما بقايا وزراء الشرق فمنهم:

[١٦]

الربيع بن العباس(١)

ولم يكن له رتبة وزارة ولا كتابة، وإنما كان حاجباً، وذكرناه في الوزراء، لمؤازرته للخلفاء، ومشاركته في كثير من الأمور.. وكان من الشيعة العباسية، وأخباره معروفة، وقد تخلل في تضاعيف هذا التصنيف ما هو حلية جيدة، وعليه صفات مجيدة.

ومنهم:

---

(١) الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة كيسان، من موالي بني العباس، أبو الفضل: وزير، من العقلاء الموصوفين بالحزم. ولد سنة ١١١هـ/ ٧٣٠م، اتخذه المنصور العباسيّ حاجباً ثم استوزره. وكان مهيباً، محسناً إدارة الشؤون. عاش إلى خلافة المهدي (العباسي) وحظي عنده، ثم صرفه الهادي عن الوزارة وأقرَّه على دواوين الأزمَّة، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م. وإليه تنسب «قطيعة الربيع» ببغداد وهي محلة كبيرة أقطعه إياها المنصور.

ترجمته في: تاريخ خليفة ٤٦٣، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٨٤ و٣٨٩ و٣٩٢ و٣٩٤ و٤٠١، وأنساب الأشراف ٣/ ١٩٨ و٢٠٤ و٢١٠ـ٢١٥ و٢٣٦ و٢٤٣ و٢٤٤ و٢٥٩ و٢٦١ـ٢٦٣ـ٢٦٦ و٣٣٧ و٣٣٩، والوزراء والكتّاب للجهشياري ١٢٥ـ١٤٠ (ضمن أخبار أيام المنصور)، وتاريخ الطبري ٦/ ١٨٣ و٧/ ٥٠٦ و٥٢٤ و٥٢٦ و٥٤٢ و٥٦٤ و٦٠١ و٦٢٠ و٦٢٥ و٦٢٥ و٦٥٣ و٦٥٤ و٨/ ١٣ و٣٥ و٥٢ و٥٦ و٥٩ و٦٠ و٣٤ و٦٥ و٧٣ و٧٤ و٧٩ و٨٥ و٩٠ و٩٧ و١١١ـ١١٤ و١٣٧ و١٣٩ و١٤٥ و١٤٦ و١٥١ و١٥٢ و١٦٥ و١٧٧ و١٨٧ـ١٨٩ و٢٠٩ و٢٢٨، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٢٣٧٤ و٢٤٠٧ و٢٤١٢ و٢٤١٧ و٢٤١٨ و٢٤٣٤ و٢٤٣٥ و٢٤٦٥ و٢٤٧٣، والأغاني ١٩/ ٢١٩، و٢٢/ ٢٤٦، ٢٤٧، ومقاتل الطالبيين ٢١٥ و٢٢١ و٢٦٤ و٣٤٧ و٣٥٠ و٣٩٣ و٤١٨ ٤٢٠ و٥٨٧، ونشوار المحاضرة ٦/ ١٢٥ـ١٢٧ و٨/ ١٣٨، والمستجاد ١٤٩ـ ١٥٠، والفرج بعد الشدّة ١/ ٣٠٧ و٣١٣ و٣١٨ و٣١٩ و٣٢٧ و٣٧٦ و٢/ ٢٩٦ و٣٣٦ و٣٣٧ و٣٤٤ و٣٥٩ و٣/ ٢٦٠ و٣٢٦ و٣٢٨ و٤/ ٥٤ و٥٧ـ٥٩ و٨٧ و٨٨، والعيون والحدائق ٣/ ٢٦٧ و٢٦٨ و٣٧٣ـ٣٧٥ و٢٨٣ و٢٨٩، وثمار القلوب ٢٧ و١٩٤ و٣١٧، وأمالي المرتضى ١/ ١٦٩ و١٧٠ و١٧٤ و٢٢٥ و٢٢٦، وربيع الأبرار ١٨٨ و٢٥٢ و٢٧٧، وتحفة الوزراء ٩٦ و١١٨، والعقد الفريد ١/ ١٩٣، والمحاسن والمساوىء ١٤٦ و١٥٩، وتاريخ بغداد ٨/ ٤١٤ رقم =

[١٧]

الفضل بن ربيع(١)

وولي الوزارة لهارون الرشيد بعد البرامكة، وكان من أكبر الساعين في دمارهم، والمساعدين على خراب ديارهم، ثم ما سدُّوا مسدَّهم، ولا بلغوا أشدهم.

وكان الرشيد قد عزم على الفصاد، ثم قال لجلسائه: أيَّ شيء تهدون لي؟ فقال

= ٤٥٢١، والهفوات النادرة ٢٤ و٩٥ و٩٦ و١٢٨، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٣١١ـ٣١٣، والتذكرة الحمدونية ١/ ٢١٢ و٤١٥ و٤٤٢ و٢/ ١٣٧ و٢٠٩ و٢١٠ و٢١٨، وغرر الخصائص ٢٣٧، والمستطرف ١/ ١٧٢، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٧٤، والبصائر والذخائر ٢/ ٤٣٣، ونثر الدر ٣/ ٣٠، والكامل في التاريخ ٥/ ٥٠٣ و٥٣٣ و٥٦١ و٥٧٤ و٥٨٠ و٥٩٧ و٦/ ٢١ و٣٣ و٣٤ و٥٢ و٥٣ و٦٠ و٦٦ و٧٥ و٨٥ و٨٨ و٨٩ و٩٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٩٤ـ٢٩٩ و٣٩٠ و٤٦٦ و٣/ ٤٧٠ و٥/ ٣٠٨ و٣٠٩ و٤٠٦ و٤١١ و٤١٢ و٧/ ٢١ و٢٦ و٣١٦، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١١٥ و١١٧ و١٢٤، والفخري في الآداب السلطانية ١٦١ و١٦٦ و١٧٤ و١٧٧ و١٧٨ و١٨٢ـ١٨٤ و١٩٢ و٢١٠، وخلاصة الذهب المسبوك ١١٣، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٢، ونهاية الأرب ٣/ ٣٠٨، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣٥ـ ٣٣٦ رقم ١٢٠، ومرآة الجنان ١/ ٣٥٩ ـ٣٦٠، والوافي بالوفيات ١٤/ ٨٤ـ ٨٥ رقم ١٠٠، وشذرات الذهب ١/ ٢٧٤، الأعلام ٣/ ١٥، تاريخ الإسلام (السنوات ١٦١ـ١٧٠هـ) ص١٨٦ رقم ١١٢.

(١) الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس: وزير أديب حازم. كان أبوه وزيراً للمنصور العباسي، ولد سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م. واستحجبه المنصور لما ولى أباه الوزراء، فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة كان صاحب الترجمة من كبار خصومهم، حتى ضربهم الرشيد تلك الضربة، قال صاحب غربال الزمان: وكانت نكبتهم على يديه. وولي الوزارة إلى أن مات الرشيد. قال أبو نواس:

إن دهراً لم يرع عهداً لحي ... غير راع ذمام آل ربيع

واستخلف الأمين، فأقره في وزراته، فعمل على مقاومة المأمون. ولما ظفر المأمون استتر الفضل سنة ١٩٦هـ ثم عفا عنه المأمون وأهمله بقية حياته. وتوفي بطوس سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٤م. وهو من أحفاد أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان.

ترجمته في: المحبر لابن حبيب ٢٦٠، وتاريخ خليفة ٤٤٧ و٤٦٥ و٤٧٣، والأخبار الموفقيّات ٥٧ و١٤٩ و٣٧٨، والأخبار الطوال للدينوري ٣٨٩ و٣٩٢، والمعارف ٣٨٤ـ ٣٨٥، وأخبار القضاة لوكيع ١/ ٢٥١ و٢/ ١١٧ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢ و١٥٦ و٣/ ٢٥٣، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢١٣ و٢١٤ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٥٦ و٢٧٢، والبيان والتبيين ٢/ ١٩٤ و٣/ ٢٢٤ و٢٣٢، وتاريخ الطبري ٨/ ٥٩٩، وانظر: فهرس الأعلام ١٠/ ٣٦٧، وزهر الآداب للحصري ٥٤١ـ٥٤٥، والمحاسن والمساوىء ٤٦٠، والجليس الصالح ١/ ٣٦٧ و٥١٦، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٣٠٧ـ٣٠٩ ١/ ٣٠٧ـ٣٠٩ و٣١٨ و٣٧٧ و٣٨٦ و٣٨٧ و٢/ ٣٥ و١٨٠ـ١٨٢ و٣/ ٢ و٧ و١٣ و٢١ و١٧٥ و٢١٨ و٢٥٨ و٣٦٠ و٣٦٥ و٣٦٣ و٤/ ٢٩٣ و٢٩٥ و٢٩٧ و٢٩٩ و٥/ ٨٨، =

كل رجل منهم: قد أعددت كذا وكذا. واحتال الفضل بن ربيع في التخلص إلى منزله، فرهن حقه في قطيعة الربيع عند عون الجوهري على تحفة سنية، وقال له: إني أريد أن أهديها إلى الخليفة، فصَيِّر لي من ثمنها عشرين بدرة جدداً في أكياس ديباج منجمة مفضضة. وكان عون الجوهري يحفظ للربيع يداً، فقال للفضل: أطابت نفسك أن تخرج عن جميع نعمتك / ٥٤/ في هدية يوم؟ فأعلم أنَّ له عند الرشيد مواعيد، فقال عون: إنَّ عندي عبدين روميين أحدهما ناقد، والآخر وازن، جميلي الصورة، مراهقون، وقد وهبتهما لك، وأحضر تابوت أبنوس محلًّى بفضة، وصير البدر فيه مع الطيارات، والموازين والصبحات، ثم أقفله بقفل فضة، وغشَّاه بديباج، وكسا الغلامين من الديباج المذهب، وألبسهما المناطق المذهب المرصع بالجوهر، والمناديل المصرية، ووجه بهما وبالتابوت المملوء بالبدر مع من يحمله إلى دار الندماء، فلما فرغ الرشيد من فصاده، قال: اعرضوا عليَّ هداياكم، فقدمت هدية يحيى بن خالد وبنيه من فاكهة،

= ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٢٤١٧ و٢٤٣٠ و٢٤٣٦ و٢٤٣٧ و٢٥٠٣_٢٥٠٥ و٢٥٤٧ و٢٦١٩ و٢٦٤٥ و٢٦٤٦، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٢٦ و٢٤٥ و٢٥٥ و٢٥٦ و٣٣١، والمثلث ٢/ ٥٣، وربيع الأبرار ٤/ ١٢١ و٢٠٠ و٢٦١ و٣٠٠ و٣٧٩ و٤٥٥، وبغداد لابن طيفور ٥ و٦ و١٠ و١١، ومقاتل الطالبيين ٤٧٤ و٤٧٨ و٥٠٠ و٥٠٢ و٦٢٠ و٦٢١، وتحفة الوزراء ١١٩_ ١٢٠، وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٤٣_ ٣٤٤ رقم ٦٧٨٥، والهفوات النادرة للصابي ١٣٥ و١٧٦ و١٧٨_١٨٢ و٢٥٧ و٢٧٤، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٨٣_١٨٦ و٣٤٢ و٣٤٣ و٣٤٩ و٤٤١ و٤٥١ و٤٥٣ و٢/ ١١٧ و١٣٠ و١٣٢ و١٤٠ و١٤١، وحلية الأولياء ٨/ ١٠٥_ ١٠٨، وسراج الملوك ٥١، والذهب المسبوك للحميدي ٢١٢، ومحاضرات الأدباء ١/ ٥٣٨، والمصباح المضيء ٢/ ١٥٢، ومحاضرات الأبرار ١/ ١٩٣_ ١٩٤، وعيون الأخبار ١/ ٢٢، والوزراء والكتّاب ٢٩٤، ونثر الدر ٤/ ٨٢، و٥/ ٤٥، والتمثيل والمحاضرة ١٤٢، وغرر الخصائص ٣٨٢، والمستطرف ١/ ١٨٧، والكامل في التاريخ ٦/ ٣٨٦، والأذكياء ٤٧ و٩٣، وأخبار النساء ١٥٨، ونزهة الظرفاء ٢١ و٢٤، ونكت الوزراء للجاجرمي، ورقة ٣٩ أ، وتاريخ حلب للعظيمي ١٠٧ و١٠٨ و١٣٨ و١٩٦ و٢٣٩ و٢٤٤، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٧_٤٠ رقم ٥٠١، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٦٢ و٩٢ و١٠٥ و١٠٨ و١١٣ و١٧١ و١٧٣ و١٧٤ و١٩٨، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٧٤ و٨٠ و٨٥ و٨٧ و٨٨ و٨٩ و٩١ و١٠٠، وبدائع البدائة ٦٦ و١٢٤، وآثار البلاد وأخبار العباد ٢٢٧، والعبر ١/ ٣٥٥، ودول الإسلام ١/ ١٢٨، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠٩_ ١١٠ رقم ٨، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٨، ومرآة الجنان ٢/ ٤٢_ ٤٣، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٦٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١/ ٢٦٥_٢٧٠، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٨٥، ومفتاح السعادة ٢/ ٣٠٣_٣٠٦، وشذارات الذهب ٢/ ٢٠، والفخري ٤٥ و١٧٧ و١٨٢ و٢٠٤ و٢٠٩ و٢١٠ و٢١٢ و٢١٣ و٢١٥، وإعتاب الكتّاب ٩٩، ورسوم دار الخلافة ١٩، الأعلام ٥/ ١٤٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٠١_٢١٠هـ) رقم ٣١٣.

ومشام، وما أشبه ذلك، وعرض غيرهم هداياهم، فقال الرشيد للفضل بن الربيع: أين هديتك يا عباسي؟ـ وبذلك كان يدعوه ـ فقال: أحضرها يا أمير المؤمنين! ثم قال للفراشين: احملوها، فحملوها... راع الرشيد لما رآه، وكشفوا عن التابوت، فاستحسنه، ثم أحضر الغلامان، ففتح أحدهما القفل، وأخرج الموازين والصبحات، وأخرج الآخر البدرة وفتح بدرة ووزنها، وشرع الآخر ينقد، فلم يدر الرشيد ما يستحسن واستطار فرحاً، وأمر بحمل المال، وإدخال الغلامين إلى دار النساء، ليفرقا المال على ما يأمرهما به، ثم قال للفضل: ويلك يا عباسي من أين لك هذا؟ قال: ستعرفه يا أمير المؤمنين! فقال: لتقولن، فقال: بعتُ حقي من قطيعة الربيع لأشتري ما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم، فقال: والله لأسرنَّكَ، فقام فدخل إلى دار النساء، وانصرف جعفر يجر رجليه.

وحُكي عن الفضل بن الربيع أنَّه قال: صرتُ إلى يحيى بن خالد، فسألته حاجة فتعذَّر عليَّ فيها، فقمت وقلت: [من الطويل]

مـتـى وعَسَـى يَـثْـنِـي الـزمَـانُ عـنـانَـه ... بـتـصـريـفِ حـالٍ والـزَّمـانُ عَـثُـورُ
نُـقَـضِّـي لُـبـانـاتٍ وتـشـفـى حـسـائـك ... وتـحـدثُ مـنْ بـعـدِ الأُمُـورِ أُمُـورُ

قال: فقال يحيى: نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً، أقسمت عليك لترجع، وهذه الحاجة عليَّ في مالي إلى أن أكلِّم الخليفة، فما بتّ حتى وافتني[1].

ثم أخذ الفضل بن الربيع في السعي على البرامكة، فلما آل أمرهم إلى ما آل، كان الفضل بن الربيع ممقوتاً من الرشيد، / ٥٥/ وسائر الناس.

وحضر يوماً بعد نكبة البرامكة جنازة أم حمدونة بن علي فذكر البرامكة فأطارهم، ووصفهم، ثم قال: كنا نعتبُ عليهم، فقد صرنا نتمناهم، ثم أنشد متمثلاً: [من الطويل]

عَـتَـبْـتُ عـلـى سَـلْـم فَـلَـمَّـا فـقـدْتُـهُ ... وَجَرَّبْتُ أَقْوَامَاً بَكَيْتُ عَلَى سَلْمِ[2]

وكان الفضل بن الربيع رجلاً سمحاً كريماً، إلاَّ أنَّه كُره لواقعة البرامكة، ولم يسلّم إليه الرشيد خاتمة، ولا سلَّمه إلى أحد غير البرامكة، بل كانت الكتبُ تحضر إلى بين يديه، ويختمها هو بيده.

وكان الفضل بن الربيع محافظاً على خدمة الرشيد وحضرته، لا يبالي ما سوى ذلك، فضاع ما وراء بابه، واختلَّت الأمور.

---

(١) الوزراء ٢٤٩ـ٢٥١.
(٢) الوزراء ٢٦٢.

ثم كان هو القائم ببيعة الأمين، وتدبيره، وسدَّ خلله، وترقيع أموره، وهو الذي أخذ له البيعة لما مات الرشيد بطوس، وأتاه أبو نواس، فأنشده هذه [الأبيات]: [من الطويل]

تَعَزَّ أبا العبَّاسِ عَنْ خيرِ هالكٍ   وَأكْرِمِ مَيْتٍ كَانَ أوْ هو كَائِنُ
وفي الحَيِّ بالمَيْتِ الذي غُيِّبَ الثَّرَى   فَلاَ أنتَ مَغْبُونٌ وَلاَ الدَّهْرُ غَابِنُ

ولم يكن عند الأمير إلاَّ حاجباً، ولكنه قام بكل الأمور، وتحدَّث في سائر الملك.

وكان لأبي نواس إليه ميل، وفيه يقول: [من البسيط]

لَقَدْ نزلتَ أبا العباسِ منزلةً   ما إنْ تَرَى خَلفَها الأبصارُ مُطَّرَحَا
وَكَلْتَ بالدهرِ عَيْنَاً غَيْرَ غافِلةٍ   مِنْ جُودِ كَفِّكَ فَأسُ كُلَ مَا جَرَحَا

وفيه يقول ويذكر تمكنه من الأمين: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما غابَ الأمينُ مُحَمَّدٌ   عنِ الأمرِ يُغْنِيْهِ إذا شهدَ الفَضْلُ
ولولا مواريثُ النبوةِ إنَّها   لها دونَهُ ما كانَ بَيْنَهُمَا فَضْلُ

ولهذا نقم المأمون عليه، ثم صلح أمره معه فيما بعد.

وقد أكثر القراطيسي هجاءه، فمما قاله فيه: [من الهزج]

لئِنْ أخطأتُ في مدْحِـ   ـكَ مَا أخْطأتُ في مَعْنَى
لقد أحلَلْتُ حاجاتي   بوادٍ غيرِ ذي زَرْعِ[(١)]

* * *

/ ٥٦/ ومنهم دولة السّهيليّين.:

فمنهم:

[١٨]

الفضل بن سهل ذو الرئاستين[(٢)]

وزير المأمون، والقائم بأمره حتى استخلف، وثبتت قواعد ملكه، وكان له مثل

---

(١) كذا ورد في الأصل.

(٢) الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس: وزير المأمون وصاحب تدبيره. اتصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠هـ، وكان مجوسياً. وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له =

أبي مسلم للسفاح، ولم يكن في وقته أبصر منه بالنجامة، وله فيها الأحكام العجيبة، والمصادفات الموافقة، فقلَّ أن أخطأ له حدس، أو كذب له قول، مع ما كان له من وفور البلاغة، وعظم الشجاعة، ، وسماحة اليد، وسعد الجَد، وإضاءة الزَّند، وإضاعة النَّدّ، إذا قيل إنه له نِدّ.

ولما قَتَلَ طاهرُ بن الحسين محمداً الأمين، وأنفذ رأسه إلى المأمون، قال الفضل بن سهل: ما فعل بنا طاهر، سلَّ علينا سيوف الناس وألسنتهم، أمرناه أن يبعث به أسيراً، فبعث به عثيراً.

ثم أمر المأمون أن ينشأ كتاب طاهر يقرأ على الناس، فكتب عدَّة كتب لم تَرضِ ذا الرئاستين، فكتب أحمد بن يوسف كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

«أمَّا بعد، فإنَّ المخلوع، وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين في النسب واللّحمة، فقد فرَّق حُكم الإسلام بينهما في الولاية والحرمة لمفارقة عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله ـ جلّ اسمه ـ فيما اقتصَّ علينا: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾[1]، ولا صلة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله، وكتبت وقد قتل الله المخلوع وردَّاه رداء بغيه، وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين بعلوم حقَّه، المكائد له خير عهده، ونقض عقده حتى ردَّ الله به الألفة بعد فرقها، وأحيا الأعلام بعد دروسها، وجمع به الأمة بعد شتاتها.. والسلام».

فلما عرضت النسخة على ذي الرئاستين، رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف: ما أنصفناك، ثم أجزل له العطاء[2].

وكان الفضل بن سهل شيخاً سَرِيّاً، نبيل النفس، كثير الأفضال، يذهب مذاهب

= الوزارة وقيادة الجيش معاً، فكان يلقب بذي الرئاستين (الحرب والسياسة). مولده في سرخس (بخراسان) سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م، ووفاته فيها سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٨م. قتله جماعة بينما كان في الحمام، قيل: إن المأمون دسهم له وقد ثقل عليه أمره. وكان حازماً عاقلاً فصيحاً، من الأكفاء. أخباره كثيرة.

ترجمته في: وفيات الأعيان ١/ ٤١٣، والوزراء والكتّاب: انظر فهرسته. والمرزباني ٣١٣، والكامل لابن الأثير ٦/ ٨٥ و١١٨، وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٩، واللباب ١/ ٤٤٥ وفيه التنبيه إلى أن السمعاني، في الأنساب، تكلَّم عن الحسن بن سهل وهو يعني أخاه الفضل، الأعلام ٥/ ١٤٩.

(١) سورة هود: الآية ٤٦.

(٢) الوزراء ٣٠٤_٣٠٥.

البرامكة في ذلك، وإنما كان غليظ العقوبة، مقداماً إذا أنكرَ، حَسَنَ الرجوع إذا استوطن.

وكان يبغض السعاة ويعصيهم، وإذا أتاه ساعٍ قال له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا، أقلناك.

/ ٥٧/ ومنهم:

[١٨]

الحسن بن سهل(١)

وتقلّد الوزارة للمأمون.

وكان كاتباً بليغاً، لسناً، لسانُه من عصبه، وقلمه من سحبه، ولا يجري السَّير إلاَّ على مدى قدمه، ولا يمضي السيف إلاَّ بشبا قلمه، ويروي المسامعَ من كلامه الرقاق، بساعات محاضرته، أيام الفراق.

---

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، أبو محمد: وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح. ولد سنة ١٦٦هـ/ ٧٨٢م. أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣هـ، فتغير عقله حتى شد في الحديد، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته (سنة ٢١٠هـ) وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان) سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥١م. قال الخطيب البغدادي: وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس وأسلما، هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد.

ترجمته في: المحبَّر ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤، والمعارف لابن قتيبة ٣٨٧ـ٣٩٠، ٥١٦، و٢٥٠ وعيون الأخبار ١/ ٩٤، ٩٥، ١٠٥، ٣٣٣، وأخبار القضاة لوكيع ١/ ٢٥٦ و٢/ ١٦٠، ١٦٢ و٣/ ٢٩٦، ٣٧٠، ٣٧٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٧، ٣٧٧، ٤١٤، ٤٤٧، وبغداد لابن طيفور ١، ٢٧، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٤، ١٤٠، ١٦٣، وتاريخ الطبري ٨/ ٣٧٧، ٣٨١، ٣٩٤، ٤٢٤، ٥٢٧ـ٥٢٩، ٥٣٥، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٦ـ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٨ـ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٤ـ٥٦٩، ٥٧٩، ٦٠٦، ٦٠٩ و٩/ ٢٤، ١٥١، ١٨٤، ١٨٥، ٢٣٣، ٣٤٨، وتاريخ بغداد ٧/ ٣١٩ رقم ٣٨٣، والكامل في التاريخ ٧/ ٥٢ـ ٥٣، وانظر فهرس الأعلام ١٣/ ٩٤، وتحفة الوزراء للثعالبي ٢٩، ٧٠، ٧٤، ٩٧، ١١٦، والعقد الفريد ١/ ٣١٤ و٢/ ١٣٢، ١٥٧، ٢٤٢، ٤/ ١٦٥، ١٧٠، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٤٠، ٦/ ٢١٩، ٢٢، والهفوات النادرة للصابي ٢٥٠، ٢٥١، ٥٢٣، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١٥، ٩٨ـ١٠٣، ١٠٧، ١١٩، وخاص الخاص ٨، ٥٦، ٩١، وشرح أدب الكاتب ٢١، ٥٠، ١٠٧، ١٠٩، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٤٥، ٤٤٦ـ ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٧٠، ٤٨٦، ومروج الذهب ٢٧٤٤، ٢٧٥٢، ٢٧٥٣، والعيون والحدائق ٣/ ٣٤٤ـ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٥١ـ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٧، ٣٧٩، وتجارب =

وخطب المأمون إليه ابنته بوران، واسمها خديجة، فقال: يا أمير المؤمنين؟ إني وإن كنت عبدك، وكانت أمتك بوران، فإنَّ الدهاقين لا يزوِّجون بناتهم إلاَّ في منازلهم، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يكمِّل تشريفي قصد منزله والذي ملكنيه، فعقد أمراسه فيه، ودخل بها فأجابه إلى ذلك، وعمل عليه، وقصد فم الصلح في شهر رمضان سنة عشر ومائتين في زورق ركبه من قصره حتى أرسى على باب الحسن بفم الصلح.

وكان قد قدم العباس بن المأمون على الظهر، ومعه العسكر والثَّقَل، فتلقاه الحسن، فأومأ الحسن لينزل، وحلف كل واحد منهما على صاحبه، واعتنقا، وهما على دوابهما.

ووافى المأمون فأكل هو والعباس بن المأمون، ودينار بن عبد الله قائماً على رؤوسهم حتى فرغوا من طعامهم.

ثم دعا المأمون بشراب فأتي بجام من ذهب فيه شراب، فشرب، ثم عقد العقد، ونثر الحسن في ذلك اليوم كل شيء له يجري على ملكه من الكراع، والرقيق، والبزاة، والكسي، والطيب، والضياع والعقارات، والجواهر، والدنانير، والدراهم، وكان ذلك مثبتاً كله في رقاع فيها ذكر هذه الأصناف، وجعلت في أكر عنبر ثم نثرت، وكان كل من التقط شيئاً من تلك الرقاع بصنف صار إلى خازن ذلك الصنف فقبض منه.

= الأمم ٦/ ٤١٨ـ٤٤٥، ٤٥٦، ٤٥٩، والفرج بعد الشدة للتنوخي ١/ ١٦٨ و٢/ ٦٠، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٦٨، ٢٢٧، ٣٤٧، ٣٤٨ و٣/ ٥٣، ٥٥، ٢١٨، ٢٥٣، ٣٢٩، ٣٣٢، ٤/ ٢٣، ٦١، ١١٣ـ١١٥، ٣٤٢، ٥/ ٨٨، وتاريخ حلب للعظيمي ١٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٥٦، ونصوص ضائعة من الوزراء والكتّاب ٢٤، ٣٣، ٥٤، ٥٥، ٦١، ٦٢، والجامع الكبير لابن الأثير ١٤٢، وبدائع البدائة لابن ظافر ١٢٤، والفخري لابن طباطبا ٢١٨، ٢٢٠ـ٢٢٥، ونشوار المحاضرة ٦/ ٥٨، وتاريخ بغداد ٧/ ٣١٩ـ٣٢٣، ومعجم ما استعجم للبكري ٤٩٠، وأمالي القالي ١/ ٢٤٩ و٢/ ١٢٨، وخلاصة الذهب المسبوك ١٨١، ١٨٨، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٧، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٣٧، ١٦٤، ١٦٥، ونزهة الظرفاء ٢٩، والوزراء والكتّاب ٣٠٧، ورسوم دار الخلافة ٥٧، ونُكت الوزراء للجاجرني ٣٨ ب، والأغاني ١٩/ ٧٤، ٧٩، ٨١، ٨٦، ٨٨، ٩١، ٢٠/ ٥٤، ١٥٦، والروض المعطار ٢١٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ووفيات الأعيان ٢/ ١٢٠ـ١٢٣ رقم ١٧٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٧، ودول الإسلام ١/ ١٤٤، ومرآة الجنان ٢/ ١١٦ـ ١١٧، والوافي بالوفيات ١٢/ ٣٧ـ٤٠ رقم ٣٣، وسير أعلام النبلاء ١١/ ١٧١ـ ١٧٢ رقم ٧٣، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٨، واللباب ١/ ٤٤٥، والعبر ١/ ٤٢٣، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٢، وشذرات الذهب ٢/ ٨٦، وأعيان الشيعة ٢١/ ٤٤٥، والأعلام ٢/ ١٩٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٣١ـ٢٤٠هـ) ص١٣١ رقم ٩٩ .

ودخل المأمون ببوران بعد قدومه بستة أيام، وعندها حمدونة وأم جعفر وجدَّتها أم الفضل بن سهل، فلما جلس المأمون معها، نثرت عليها جدَّتها ألف درَّة كانت في صينية ذهب، فأمرها المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدرر، فذكرت أنَّه ألف حبة، فعُدَّت فنقصت عشراً، فقال المأمون: من أخذها فليردَّها؟ فجمعه المأمون وجعله في حجرها، وقال لها: هذه نحلتك، فاسألي حوائجك، فأمسكت. فقالت لها جدَّتها: كلمي سيدك، فقد أمرك، /٥٨/ واسأليه حوائجك، فقد أذن لك، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي. وكان قد شخص معه في العسكر، ولم يظهر منه الرضا عليه، ففعل، وسألته في الإذن لأم جعفر في الحج، وجعلت عليها أم جعفر البدنة الأموية، وبنى بها المأمون في ليلته، وأُوقد بين يديه في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مناً، فأنكر ذلك وقال: هذا سرف. ووصل الحسن بعشرة آلاف درهم من مال فارس، ففرَّقها في قوَّاد المأمون وحشمه، وأقام المأمون سبعة عشر يوماً، يُعدُّ له في كل يوم، وبجميع من معه ما يحتاجون إليه ممن جميع الأشياء.

وخلع الحسن على جميع القواد والوجوه ووصلهم، فتكون نفقته على جميع ذلك خاصة، سوى ما أنفقه على تجهيز بوران، وما وصله به المأمون، خمسين ألف ألف درهم، وكانت نفقته على الجهات ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم.

قال ابن عبدوس: وكان الحسن بن سهل قد رتَّب أربعين بغلاً تنقل الحطب إلى حضائر أعدَّها له، وكانت تنقل في اليوم عدَّة مرار فمكثت تنقل سنة كاملة. ولمَّا أعرس المأمون ببوران استعمل ذلك الحطب أجمع، وجميع ما قدر على سواه، واضطرهم الأمر إلى أن قطعوا شعبَ النخل رَطْبَاً، وصبُّوا عليها الزيت والأدهان، وأوقدوها في زواج المأمون ببوران: [من الطويل]

لِـيَـهْـنِـكَ أصْـهَـارٌ أذَلْـتَ بِـعِـزِّهَـا ... خُدُوداً وجَـدَّعْـتَ الأُنُوفَ الـرَّواغِـمَـا
جَمَعْتَ بها الشَّملَيْنِ مِن آلِ هاشِمٍ ... وَحُزْتَ بِهَا لِلْكِسْرَيَيْنِ المَكَارِمَا
بِكُوك غدواً آل النَّبِي وأَوْرَثُوا ... الخِلاَفَةَ... كِسْرَى وَهَاشِمَا

وحكى عنه محمد الجهم حكاية منها: أنه كان يسايرُه ـ يعني الحسن ـ حتى أتى داره، ثم أمره بالنزول، وكان يوم نوروز، ثم قال له: إني قد جعلت لكل شيء يهدى إلى اليوم، فأقم عندي غلامك، ليقبضه. قال: فحصل في يدي ما قيمته ألف دينار، فلما أمْسينا، وحضر وقت الانصراف، قمت قائماً، وقلت: أعزَّ الله الأمير، قد قبلت ما وهبته لي، وقبضته، وقد وهبته لمحمد بن الأمير. فقال لي: قد قبلها، فانصرف مصاحباً. فانصرفت، فلما كان اليوم الثالث، /٥٩/ جاءني رسوله، فأتيته، فقال: إنَّ

أمير المؤمنين طلب مني رجلاً يوجه به إلى مصر في شيء من أمورها وقد سمَّيتك له، واستنجزت أمره لك بعشرة آلاف دينار صلة لك، ومائة ألف درهم لنفقة طريقك، وثلاثين رأساً من الظهر، فامض إلى أمره، ثم إن استطبت البلد، فاكتب إليَّ حتى أقلِّدكه، وإن كرهته، فاكتب إليَّ حتى أفعل ما أرى، فقبضت ما أمر لي به، وشخصت حتى أتيت مصر، ففرغت مما أمرت به، ولم أستطبها فبذل لي على الانصراف مائة ألف دينار، فقبضتها، ثم كتبت إلى الحسن، فأمر لي بعشرة آلاف دينار أخرى، وأذن لي في الانصراف.

وقال أبو عيسى محمد بن سعيد، سمعتُ عبد الله بن سليمان يقول: لم أرَ أحداً قطُّ يقطع بسجلات ـ غير الخليفة ـ إلاَّ الحسن بن سهل.

وعنه قال ابن غسان بن عبَّاد: إنَّه حضر الحسن بن سهل يوماً، وقد أعطى عطايا جزيلة عظيمة المقدار، فقال له غسان، على سعة نفسه، وإنَّه لما قدم من السند، وصل بعشرة آلاف ألف درهم، فلم يبرح من دار المأمون حتى فرَّقها بأسرها: أيها الأمير لا خير في السرف، فقال له الحسن: مُتِّعتُ بك، ولا سرف في الخير.

وعن يحيى بن خاقان، قال ـ وكان يكتب للحسن بن سهل ـ مرَّ عليَّ ابن هشام برجل للحسن بن سهل فأمر له بألف دابة، وتقدَّم إليَّ بالكتاب له بها، قال: فصادف علي بن هشام، فقال: إنَّ الأمير قد أمر لي بألف دابة، كما علمت، وفكرت فيها، فإذا هي عيال لا أقوم بها، وله عليَّ مؤنه كثيرة لا أطيقها، ولا يحسن بي أن أبيعها، وهي عطية الأمير وأحبّ أن يحتال لي فيها، قال: فلم يفرغ من كلامه حتى أتاني رسول الحسن بن سهل من المصير إليه، فلما دخلت عليه، قال: يا يحيى أعلمت أنِّي فكَّرت فيما أمرت به لعليّ بن هشام، فوجدته كما يقول العامة: رزقك الله قليلاً تعوض تعوله، وأنَّه ليس له فيها حظّ، فاكتب له مع ألف دابة ألف غلام، وأقم له إنزال الغلمان، وعلوفة الدواب، قال: ففعلت /٦٠/ ذلك.

وقيل لأبي العيناء: ما تقول في الحسن بن سهل، فقال: خلف آدم في ولده فهو يسدَّ خلَّتهم عليهم، ولقد رفع الله الدنيا من شأنها أن جعله من سكانها.

وفيه يقول يوسف الجوهري الشاعر: [من البسيط]

لَوْ أنَّ عينَ زُهَيْرٍ أبْصَرتْ حَسَناً ... وكيفَ يصْنَعُ في أَمْوَالِهِ الكَرَمُ
إذاً لَقَالَ زُهَيْرٌ حينَ يُبْصِرُهُ: ... هَذَا الجَوَادُ عَلَى العِلاَّتِ لاَ هَرَمُ

فهذه جملة أخبار السهليِّين، وهم أوسع من البرامكة كرماً وأنفع ديماً، وإن كان

أولئك أطير صيتاً، وأشهر ذكراً محيياً مميتاً، إلاَّ أنَّ أولئك أرجح عقولاً، وأنجح مأمولاً.

فأمَّا السهليُّون، فبحورٌ يعبّ عبابها، ويصب سحابها، لا مهات أن تهب، ولا يوقد نار قِرًى إلاَّ الذَّهب، فما اصطلى بلهبها إلاَّ من وصل بذهبها، وإذا قصدنا قصد الحق، فأولئك فتحوا الباب لهؤلاء حتى دخلوا، وهؤلاء بنوا كما بنى أولئك، وفعلوا مثل ما فعلوا، إلاَّ أن الحسن بن سهل امتدَّت أيامه إلى زمن المتوكِّل، ونزل عن تلك الرتبة التي علت على السماء مظهراً، ولم يرضَ درّ الكواكب لحليها جوهراً، إلاَّ أنَّه كان محفوظاً له ما تقدَّم أيام المأمون، وكان يرعى له الفضل بن مروان سالفةَ ذاك الأوان. فلمَّا وزر ابن الزيَّات، فقصد بسوءٍ تعمَّده بإخماد ضوئه، ولم يتمكن منه... عقوبة ولا قدر على الصدر... من رتبته، فلم يلحقه قذى غضاضة، ولا أغضَّ خلقه شجى مضاضة.

ثم نعود إلى تتمة من ذكر من الوزراء بالمشرق، فنقول:

[١٩]

أحمد بن أبي خالد(١)

وكان مندول الطارف والتالد، لا يدمه بريل ولا ينصرف عنه.

ولما قتل الفضل بن سهل، قال له المأمون: إنِّي كنت عزمت أن لا أستوزر أحداً

---

(١) أحمد بن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن، أبو العباس الكاتب الأحْول: من الموالي، ولي وزارة المأمون بعد الفضل بن سهل، ولكن لم يبلغ مرتبة الفضل. وكان خبيراً مدبِّراً كريماً جواداً ذا رأيٍ ودهاء، إلاَّ أنَّه كانت فيه فظاظة ودعارة أخلاق.
قال له المأمون: إن الحسن بن سهل قد لَزِم منزلة وإنني أريد أن أستوزرك. فتنصَّل أحمد من الوزارة، وقال: يا أمير المؤمنين أعفني من التَّسمِّي بالوزراة وطالِبْني بالواجب فيها، وجاعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني لها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات.
فاستحسن المأمون جوابه وقال لا بد من ذلك، واستوزره. فنهض بالوزارة خير نهوض.
وكان أبوه كاتباً لوزير المهدي أبي عبد الله، ثم صار كاتباً للهادي، فمات بجُرْجان مع الهادي.
توفي آخر سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٥م
ترجمته في: أخبار البحتري للصولي ١٩٠، والعقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ٢٩ و٢/ ٢٧٤ و٤/ ٢١٦، والأغاني ٢٠/ ١٤٣، وبغداد لابن طيفور ٣ و٩ و١٧ و٧٤ و١٠١ و١١٩-١٢٨ و١٤١، وتحسين القبيح للثعالبي ٨٧، وثمار القلوب له ٢٠٦ و٦١٣/ ٦١٥، وتاريخ الطبري ٨/ ٥٥ و٥٧٩ و٥٩٥ و٦٠٣، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٢٦٩٥ و٢٧٥١، والفهرست لابن النديم =

بعد ذي الرئاستين، وقد رأيت أن أستوزرك، فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين العامة منزلة يتأملها صديقي، ويرجوها ويخافها عدوِّي، ويحذرها، ولا يقال أبلغ العامة، وليس إلاَّ الانحطاط، فاستحسن ذلك منه واستوزره.

قال أحمد بن خالد: لما قدمنا من خراسان مع المأمون، وكنا بعقبة / ٦١/ حلوان، كنت، فقال لي: يا أحمد إني لأجد رائحة العراق، فأجبته بغير جوابه، فقال: ما هذا جوابي، ولكنِّي أحسبك مفكِّراً؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين!، قال: فيمَ فكَّرت؟ قال: في هجومنا على بغداد،وليس معنا إلاَّ خمسين ألف درهم مع فتنة قد غلبت على قلوب الناس، كيف يكون حالنا إن هاجَ هيج، أو تحرَّك متحرِّك؟ فأطرق ملياً، ثم قال: صدقت يا أحمد ما أحسن ما فكَّرت!، ولكنِّي أخبِّرك أنَّ الناس في هذه المدينة ثلاث طبقات: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم. فأمَّا الظالم فليس يتوقَّع إلاَّ عتابنا، وأمَّا المظلوم، فليس يتوقَّع إلاَّ أن يُنصَف بنا، ومن خرج منهما فمنزله يسعه. فوالله ما كان إلاَّ كما قال.

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد وغسان بن عباد لمَّا ظفر بإبراهيم بن المهدي: ما تريان فيه؟، قال أحمد بن أبي خالد لغسان: تعفو عنه، وقال غسان: تقتله، فقال أحمد بن أبي خالد: العفو قبيح أم جميل؟، فقال له غسان: جميل، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين أولى الناس بالجميل ما لم يسبقه أحد بمثله، فكان من أمره ما كان.

وحكى ابن عبدوس: أنَّ رجلاً من وجوه الكتاب كان يقال له: صالح بن علي الأجعم، طالت به العطلة في أيام المأمون. قال: فبكرت يوماً إلى أحمد بن [أبي] خالد مُغلِّساً لا أكلمه في أمري، فخرج من بابه وبين يديه الشمع قاصداً دار المأمون، فلما نظرني، أنكر بكوري، وعبس في وجهي، وقال: أفي الدنيا أحد يبكر هذه البكرة، ليشغلنا عن أمورنا؟، فقلت له: أصلحك الله ليس العجب منك فيما تلقَّيتني به، إنما العجب مني إذ سهرت ليلتي، وأسهرت جميع من في منزلي تأميلاً لك، وتوقفاً للصبح

= ١١، والعيون والحدائق ٣/ ٣٦١ و٣٦٤ و٣٦٥ و٣٧٩ و٤٥٠ و٤٥٣ و٤٥٤ و٤٥٦، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ٤٧٦، والهفوات النادرة للصابي ٢٥٣، ومعجم الأدباء لياقوت ٣/ ١٥ و١٤/ ٩٩، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١٠٣، وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١١٨ـ١٢٠، والتذكرة الحمدونية ١/ ٣٤٩، ومحاضرات الأدباء للراغب ١/ ٥٤٠، ومطالع البدور للغزولي ٢/ ١١٢، والفخري لابن طباطبا ٢٢٣/ ٢٢٥، والكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٧ و٣٦١ و٣٨٢ و٣٨٣ و٣٨٦، والوافي بالوفيات ٨/ ٣٧٢ـ٣٧٤ رقم ٣٦٩٦، وإعتاب الكتّاب لابن الأبّار ١٠٩ـ١١٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١١ـ٢٢٠هـ) ص٤٨ رقم ١٤.

حتى أصير إليك، لأستغيثك، وعليّ إن عدتُ وقفتُ لك بباب، وسألتك حاجة حتى تصير إليَّ معتذراً، وانصرفت مغموماً بما لقيني به، مفكِّراً فيه، متندِّماً على ما فرط مني من اليمين غير شاكٍّ في العطب. فأنا كذلك إذ دخل عليَّ بعض الغلمان، فقال لي: الوزير ابن أبي خالد مقبل إليك في الشارع، ثم دخل آخر، فقال: ها هو قريب من الباب، ثم تبادرت الغلمان بين يديه، ودخل، فخرجت مستقبلاً له، فلما استقرَّ به الجلوس، قال لي: أمير المؤمنين أمرني بالبكور إليه في بعض مهماته، فدخلت إليه وقد غلبني السهر بما فرط /٦٢/ إليك مني، حتى أنكر عليَّ، فقصصتُ عليه القصَّة، فقال لي: قد أسأت بالرجل، امضِ إليه معتذراً مما قلته له، [فقلت]: أفأمضي فارغ اليدين؟، فقال: تريد ماذا؟ قلت: تقضي دينه، فقال: كم هو؟ فقلت: ثلاثمائة ألف درهم، فأمرني بالتوقيع بها، فوقعت بها، ثم قلت: فإذا قضي دينه رجع إلى ماذا؟ قال: فوقع له ثلاثمائة ألف درهم أخرى يصلح بها أمره، فقلت: فولاية يشرف بها، قال: وله مصر أو غيرها فما يشبهها، فقلت: فمعونة على سفره، فأمر لي بتوقيع بمائة ألف درهم، وهذه التوقيعات لك بسبعمائة ألف درهم، والتوقيع بولاية مصر، ودفعها إليَّ وانصرف.

وكان نهماً في الأكل فأجرى عليه المأمون في كل يوم لما يريد ألف درهم، ومع هذا لم تكف نهمه، ولا شغلت فمه.

[٢٠]

عَمْرو بن مَسْعَدة[١]

أحد كتَّاب المأمون في وزارته، وله مكانة ومنزلة عنده، واعتمد عليه المأمون في

---

(١) عَمْرو بن مَسْعَدة بن سعد بن صول، أبو الفضل الصولي: وزير المأمون، وأحد الكتاب البلغاء. كان يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في أيام الرشيد، واتصل بالمأمون، فرفع مكانته، وأغناه. وكان مذهبه في الإنشاء الإيجاز واختيار الجزل من الألفاظ. وفي كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته. وكان جواداً ممدّحاً فاضلاً نبيلاً. توفي في أذنة (أطنه) بتركية آسية. سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م.

ترجمته في: المعارف ٣٩١، وبغداد لابن طيفور ٣/ ٦ و٧٨ و١١٩ و١٢٠ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٩ و١٧٦، وتاريخ الطبري ٨/ ٥٧٥ و٥٩٩ و٩/ ٣٥٨ و٤٢٤، والعيون والحدائق ٣/ ٣٧٧، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ١٥ و١٧ و٤١٧-٤١٩ و٤٤٣ و٤٧٦ و٥٠١، والعقد الفريد ٢/ ٢٧٢ و٤/ ١٥٦ و١٦٥ و١٧٥ و١٩٧ و٢١٥ و٦/ ١٧٢ و٣٤٤ و٣٤٥، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٠٣- ٢٠٤ رقم ٦٦٦٢، وأمالي القالي ١/ ٢٢٢، وخلاصة الذهب المسبوك ١٥٣، وبدائع البدائه =

وزارته بعد أحمد، وقلَّده أمره. وكان من البلغاء الذين إليهم يشار، وبنان كأنه الآذي المُشار.

وحكى ميمون بن هارون: أنَّ رجلاً مرَّ بقصر عمرو بن مسعدة بعد بنائه بأيام، فقال ألا أخبركم ما أنفق على هذا القصر؟ فقال: أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

ومما استجاد له قوله: أما بعد، فلن يعدم من معروفك عندنا أمرين، أجراً من الله، وشكراً منَّا، وخير مواضع ما جمع الأجر والشكر.

ومنه كتاب كتبه إلى المأمون وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم... كفاة راحت أعطياتهم، واختلَّت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم.

وكان المأمون معجباً بهذا الكتاب، وكان يقول: استحساني أيّاه يعينني إن أمرت للجند مثله بعطاياهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلَّ محله في صناعته.

وكتب إلى بعض أصحابه في حقٍّ شخص يعزُّ عليه: أمَّا بعد، فوصل كتابي هذا إليك سالم والسلام.

أراد بهذا قول الشاعر: [من الطويل]

يُـدِيْـرُوْنَـنِـي عَـنْ سـالـمٍ وأُدِيْـرُهُـمْ وَجِـلْـدَةُ بَـيْـنَ الـعَـيْـنِ والأنْـفِ سَـالِـمُ

يعني أنَّ هذا المحلّ منّي هذا المحل.

ومن كتاب كتبه إلى رئيس [وقد تزوَّجت أمه فساءه] ذلك: الحمد لله / ٦٣/ الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة، ثم أتى على هذا كتابه[1].

= ١٤٩ـ ١٥٠، وثمار القلوب ١٧٩ و٦٦٨، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٣١١ و٣١٢ و٣٨٤ و٣٨٥ و٣٨٦ و٢/ ١٢٦ و٣/ ٤٣ و٤٥ و١٧١ و١٧٢ و٣٠٦ و٣١٤ و٥/ ١٥، والجامع الكبير لابن الأثير ١٦٩، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٢٧، والوزراء والكتّاب ٢١٦ و٣٥٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ٢١٩، وتحفة الوزراء للثعالبي ١٩ و٦٥ و١١٦ و١٣٨، وخاص الخاص له ٨، والهفوات النادرة للصابي ٣٩٠، والتذكرة الحمدونيّة ١/ ٤٣١، وربيع الأبرار ٢/ ٣٢٢، ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٤ و٣/ ٣٧٥ـ٢٧٨ و٥/ ٩٥ و٦/ ١٥٢، وإعتاب الكتّاب ١١٦، ونصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب ٤٨، ومرآة الجنان ٢/ ٥٩ـ٦١، وأمراء البيان ١٩١، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨١ـ ١٨٢ رقم ٣٣، الأعلام ٥/ ٨٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١١ـ٢٢٠هـ) ص٣٢٨ رقم ٣٠٣.

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٦.

وقد ساق ابن خلكان هذه الرسالة بتمامها في ترجمة ابن مسعدة[(١)].

ثم ذكر بيتين ذكرهما إنهما لابن عباد الصاحب في معناهما وهما: [من المتقارب]

عَدلتُ لتزويجهِ أُمَّهُ فقالَ: فَعَلْتَ حلالاً يَجُوز
فَقُلْتُ: صَدَقْتَ، حلالاً فَعَلْتَ ولَكِنْ سمحتَ بِصدعِ العَجُوز[(٢)]

واعتلَّ عمرو فقال[(٣)]: [من البسيط]

قالوا: أتى الفضلُ معتلاً، فقلتُ لهمْ: نفسي الفداءُ لهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ
يا ليتَ علَّتَهُ بي غيرَ أنَّ لَهُ أجْرَ العَلِيلِ وَأنِّي غيرُ مَأْجُورِ

ومرض فعاده المأمون، فتلقاهُ عمرو وقد كان أبلَّ من علَّته، فقال مروان بن أبي حفصة[(٤)]: [من الهزج]

صحَّ الجِسمُ يا عَمْرُو لَكَ التَّمْحِيْصُ والأجْرُ
ولِلَّهِ علينا الحمْـ ـدُ والمِنَّةُ والشُّكْرُ
وَقَدْ كانَ شَكَا شَوقاً إليكَ النَّهْيُ والأَمْرُ
وَهَا قَدْ جاءَكَ المأمُو نُ فابْشِرْ قَدْ نَأَى الضُّرُّ

وكتب حميد الطُّوسي إلى عمرو بن مسعدة: [من الوافر]

ونَسْتَعْدِي الأميرَ إذا مَرِضْنَا فَمَنْ نُعْدِيْ إذا ظَلَمَ الأميْرُ

ونحن نعوذُ بالله من ظلم صاحب المظالم فوقَّع على رقعته: وأنا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ومن فضوله، وأنا أحبّ أن يتقرر عندك أن آمل فيك أبعد من اختلس الأمور منك اختلاس من سيرى في عاجلك غرضاً من آجلك، وفي الذاهب من يومك بدلاً من المأمون في غدك.

ومنها:

ذو الحرمة ملوم عليَّ فرحاً، الدالة كمال المحتوم به مذموم على التَّناسي والاذالة، ومن مذهبي الوقوف بنفسي دون الغاية إلى تقدُّمي إليها حتى الأمرين أحدهما أن الرضا بدون الحق أزيد من الحق، والثاني أني أرى النفس من الحظ زهيداً إذا أتى

(١) الرسالة كاملة في وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٦ـ٤٧٧.
(٢) الوفيات ٣/ ٤٧٧.
(٣) الوفيات ٣/ ٤٧٧ وفيه أن الأبيات لمحمد بن البيدق النصيبي.
(٤) الأغاني ١٠/ ٩٣ـ٩٤، ط دار الكتب، شعره ٢٣٨ رقم ٣٨.

من جهة الإرهاق، ولي ذمام المودة الصادقة التي تتبعها كل حرمة، وحقَّ الشكر الذي جعله الله رفياً بالنعم. وأنت فمعدن المعالي وبقية / ٦٤/ الكرم، فأي سبيل للغدر؟ أم أي موضع للأكف بين حرمتي وعنايتك، ودمائي وكرمك.

ومنها: كتابي إليك كتاب واثق بمن كتبت إليه معين بمن كتبت له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

ووعد عمرو بن مسعدة ماني الموسوس شيئاً، فطلبه فجاءه ماني فوقف بين يديه وأنشد يقول[1]: [من البسيط]

هذا ابن عمرٍو يعيذُ الله كَنَّتَهُ ... والجدُّ مسعدةٌ إيهاً له إيهَا
لا عيبَ بالمرءِ إلاَّ أنَّ زوجَتَهُ ... غَضْبَى عليهِ لشيءٍ ليسَ يُرضِيهَا
بِودِّها أنَّما يجْرِي بفَقْحَتِه ... مِنَ المَنيِّ وإن لم يكْفِها فِيها

ولما سمع ذلك ابن مسعدة من ماني، قال: صدق والله إيهاً لعمرو إيهاً.

وكانت بينه وبين إبراهيم بن العباس الصولي مدَّة مودَّة صحبا بها وما بينهما على أحسن حال، فحصل لإبراهيم ضيق يد لبطالة طالت، فبعث له عمرو مائة ألف، فكتب إليه إبراهيم: [من الطويل]

سَأشْكُرُ عَمْراً مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أَيَادِيَ لَمْ تَمْنَنْ وإنْ هيَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عن صَدِيْقِه ... وَلا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حيثُ يَخْفَى مَكَانُهَا ... فكانتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ[2]

وذكر ميمون بن هارون أنَّ عمرو بن مسعدة خلَّف ثمانية عشر ألف ألف درهم سوى الأمتعة والكراع والعقار، وبنى قصراً، أنفق عليه أربعة وعشرين ألف ألف درهم.

[٢١]

أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح[3]

الكاتب في دولة المأمون، والصاحب الذي لا تحد به الظنون. وكان المأمون

---

(١) أخل بها شعره.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٨.

(٣) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صَبِيح العجلي بالولاء، المعروف بالكاتب: وزير من كبار الكتّاب من أهل الكوفة. ولي ديوان الرسائل للمأمون، واستوزره بعد أحمد بن أبي خالد الأحول، وتوفي ببغداد سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م. وكان فصيحاً، قويّ البديهة، يقول الشعر الجيد، له «رسائل» مدونة. =

يعلمه بتقدم أحمد بن يوسف في البلاغة إذا احتاج إلى كتاب يظهر أمره بكتابته.

وكتب بين يديه مرة فاستحسن خطَّه، فقال له: لَوَدَدْتُ أني أكتب مثل خطّك، وعليَّ صدقة ألف ألف درهم، فقال له: لو كان في الخطِّ حظٌّ ما حُرِمه رسول الله ﷺ.

وقال أحمد بن يوسف: أمرني المأمون بالكتابة إلى جميع الآفاق بإيقاد المصابيح في جميع المساجد، فلم أدرِ كيف أكتب، فإنه لم يكن أحد سبقني إلى الكتابة في مثل ذلك، فأسلك طريقه، فنمت في وقت القائلة، وأنا مشغول / ٦٥/ القلب لذلك، فرأيت كأنَّ قائلاً يقول لي، اكتب: «فإنَّ في ذلك أُنْسَاً للسابلة، وإرضاء للمتهجِّد وبقياً لمكامل الرتب، وتنزيهاً لبيوت الله ـ عز وجل ـ عن وحشة الظلم».

ومن شعره: [من المنسرح]

كَمْ لَيْلَةٍ فيكَ لا صباحَ لها ... بِتُّ بها قابِضاً على كَبِدِيْ

قدْ غُصَّتِ العينُ بالدّموعِ وقَدْ ... جَعَلْتُ خَدِّي على بَنانِ يَدِي

وَأنْتَ نامَتْ عَيْناكَ في دَعَةٍ ... شَتَّانَ بينَ الرُّقادِ والسَّهَدِ

كأنَّ قلبِي إذا ذّكّرْتُكُمْ ... فَرِيْسَةٌ بَيْنَ ساعِدَيْ أسَدِ

وعن محمد بن عبد الملك، قال: وهب أحمد بن يوسف الكاتب على ظهر

= وهو صاحب البيت المشهور:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذي يُستودع السرّ أضيق

ترجمته في: عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٨٥ و٣/ ١٥١، والشعر والشعراء ٢/ ٦٧٧، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٠ و٣٨١، وتاريخ الطبري ٨/ ٢٢٨ و٥٠٧ و٦٢٠ و٦٢٣، وثمار القلوب للثعالبي ١٥٤، وتحفة الوزراء له ١٣٧ـ١٣٨، وتحسين القبيح له ٨٤ـ ٨٥، وخاص الخاص له ٨ و٦٣ و١٢٤، والعيون والحدائق ٣/ ٣٧٩ و٤١٨، والفرج بعد الشدة للتنوخي ٣/ ٤٣ و١٧٥ و٣٤٧ و٣٤٩ و٣٥٠ و٥/ ٨١، وأمالي المرتضى ١/ ٢٧٥ و٢/ ٢٦٩، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٥/ ٦١ـ١٨٣ رقم ٣٦ و١٥/ ٢٤٢، والعقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ٧٣ و٢١٣ و٢/ ١٠٠ و١٤٥ و١٤٦ و٢٧٢ و٣/ ١٩٥ و٤/ ٤٧ و٥٠ و١٦٥ و١٧٠ و١٩٧ و٢٢٥ و٢٢٦ و٢٢٨ و٢٣٦ و٢٣٩ و٦/ ٢٨٤، وتاريخ بغداد ٥/ ٢١٦ـ ٢١٨ رقم ٣٦٩٢، وبدائع البدائه ١٤٩، وخلاصة الذهب المسبوك ١٩٤، وبغداد لابن طيفور ١١٩ و١٢٨ و١٣٢ و١٤٤ و١٦٧ و١٨٣ و١٨٤، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١٠٣، والهفوات النادرة للصابي ٢٥٣ـ ٢٥٤، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٣٧، والفخري لابن طباطبا ٢٢٣ و٢٢٥، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٦٩، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٩ و٣/ ٤٧٨ و٤/ ٤٠ و٣١٥، والأغاني ٢٣/ ٨١ و١١٧ـ١٢١، و٢٤/ ١ـ٣، والوزراء والكتّاب للجهشياري ٣٠٤ وما بعدها، والوافي بالوفيات ٨/ ٢٧٩ـ٢٨٢ رقم ٣٧٠٣، وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١٤٢ـ ١٢٦، والفهرست لابن النديم في عدة مواضع، وتاريخ حلب للعظيمي ١٣٦، والكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٩، الأعلام ١/ ٢٧٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١١/ ٢٢٠هـ) ص٤٦ رقم ١٣.

يد ألفي ألف درهم تفاريق.

وقال موسى بن عبد الملك: قال لي أحمد بن يوسف في يوم مهرجان: اكتب إلى الخليفة رقعة مع هذا اللطف ـ وكان قد أعدَّ شيئاً يهديه إليه ـ فكتبتُ فأطلت، فقال: ما أحمله أمير المؤمنين من ثقل قراءة هذه الورقة الطويلة بثقل كل ما أتحفه به، ثم أخذ الدواة فكتب: جرت العادة في مثل هذا اليوم، بألطاف العبيد لسادة، وقد بعثت بكذا وكذا.

واحتاج المعتصم ـ بعظم اختصاص أحمد بن يوسف بالمأمون ـ إلى العمل على إسقاط منزله على ما ضمنه لمحمد بن الخليل إذا فعل ذلك حتى عمل على إسقاط منزله، ثم قبض من المعتصم ما كان وعده به.

[٢٢]

أحمد بن الضحاك الطبري

خيَّمت برياه المروءة، وأقسمت لا يبرح، وعقلت حوله مطيّتها وحلفت لا تسرح، وانتهمت على غيره معانيها، وأبت أن تسرح.

وكان للمأمون ديوان البريد والرسائل والتوقيع، ثم جهَّزه إلى عبد الله بن طاهر، فخرج من خراسان ومعه مائة بغل تحمل الثقل، ومائة دابة لمركوبه، ومائة غلام أتراك. سوى ما معه من الفرسان والغلمان، وغير ذلك من الصامت والناطق، فسُرَّ به ابن طاهر، ودفع إليه خاتمه، وأمره أن يتقلَّد الأمور على ما يرى.

ثم وقع بينهما خلاف فحلف لا يتولى لابن طاهر عملاً، وحلف ابن طاهر /٦٦/ لا يوليه عملاً، فانصرف أحمد بن الضحاك نحو العراق، ودسَّ عليه ابن طاهر من أفسد غلمانه فاشتراهم منه بمائة ألف درهم، وكانوا قد تقوَّموا عليه بنحو ألف ألف درهم، كل غلام بعشرة آلاف درهم، وما قاربها.

[٢٣]

أبو عباد

واسع الكرم لولا ضيق خلقه، وحرج صدره ونزقه، وكان يكتب هو وعمرو بن مسعدة للمأمون.

قال أبو عباد: دعاني المأمون يوماً، فأعطاني كتاباً، وأمرني أن آتي عمرو بن مسعدة وآخذ خطَّه بجوابه، ثم أدع الكتاب عندي، ولا أذكره للمأمون إلاَّ إن ذكره لي

فعلمت أنها مرافعة، وخفت أن لا يكون لي فيها تعلُّق، فإنني قد كنت شاركتُ عمراً في أشياء كثيرة أخذتها أنا وإيَّاه. قال: فأتيت عمراً، فوجدته يلعب بالشطرنج، فعرَّفته إنني أحتاج إلى الخلوة، فقال: دعني حتى أفرغ [من] هذا الدست، فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال بنا السيل وأهلكنا وأنت تلعب، ثم أقرأته الكتاب، فضحك، وقال: ويحك ما تستحي أن تخدم رجلاً هذه المدَّة، ولا تعرف خلقه؟، فقلت: يا هذا، كيف يقدر يجحد؟، ولو جحدت كل شيء ما يقدر يجحد كذا وكذا، وأنا قد شاركتك فيه، فأما أنت، فمهما شئت، فقل، وأما أنا فوالله لا أجحد، وأصبر لأمر الله ـ عز وجل ـ فقال لي: أفتريد أن أطلعك على أشدّ من هذا؟، قلت: وما هو؟، قال: كتاب دفعه إليَّ المأمون منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا الكتاب، فعرفت ضيق عَطَنِكَ مما قلت لك عنه، فكدت أموتُ، ثم سألته أن يوقفني على ذلك الكتاب، فأحضره فقرأته، وأنا أنتفض، وهو يضحك، وكان الذي علينا فيها سبع وستون ألف ألف درهم، عليه هو أربعون ألف ألف درهم، وعليَّ سبعة وعشرون ألف ألف درهم، فقلت له: قتلتني والله، وقتلت نفسك، أتظنُّ أنَّ المأمون يدع لنا هذا المال؟ أما أنا فأحتسب نفسي عند الله، وأما أنت، فاكتب الجواب. فكتب: لو قصرت بنا هممنا عن هذا المقدار وأضعافه لوسعتنا منازلنا، وما بقي هذا بدلجةٍ في برد أو بهجيرٍ في حر يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، ونلقى ما نؤمله به، وعلى يده. ثم قال لي: يا هذا، إنَّ صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يعين / ٦٧/ معروفه، فأراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، وسامحنا به على علمٍ منه.

ثم إنه ختم الكتاب بخاتمه، فأخذته، وانصرفت، وأنا في الموت. وبقيت سنة كاملة قلقاً مهموماً مغموماً لا أكاد آكل، ولا أشرب حتى بان عليَّ الضعف فرآني المأمون، فقال: مال لك هكذا؟ فقلت: من الكتاب الذي دفعه إليَّ أمير المؤمنين، فقال: أمسك عليك حتى أعيد ما جرى بينكما فيه. ثم قصَّ الحديث حتى كأنه حاضره، فقلت: هكذا كان والله يا أمير المؤمنين، ولقد استقضى لك الذي وكلته بخبرنا، فقال: والله ما قال لي هذا أحد ولكنني ظننته، وعمرو أعلم بنا منك. فدعوت له، وقلت فما أصنع يا أمير المؤمنين؟، قال: حرّقه في لعنة الله، وامضِ آمناً مصحوباً في ستر الله.

[٢٤]

المعلَّى بن أيوب

وكان قليل العيوب، جليل الأسلوب، لا يعدل أحد وزنه الراجح، ولا يفصل سعته الناجح.

واستكتبه المأمون على الجيش، وأجرى له عليه كل سنة ألف ألف درهم فخدم عشر سنين ارتزق فيها عشرة آلاف ألف درهم.

ثم علت حالته وكثر ماله، وحسن في سعة الحال مآله.

[٢٥]

عمر بن سموى

وكان لو يقلب في التراب لانقلب ذهبا، أو دعا الأبي الممتنع لما أبى، ولو حلق به إلى الوهاد حالت رُبى.

وكان من كتاب المأمون وسلَّمه إلى الفضل بن مروان، ليصادره، فرفق به، فبذل عشرين ألف ألف درهم، فقال له الفضل: بل يكفي عشرة آلاف ألف، فكتب بها خطّه، وبلغ المأمون رفق الفضل به، فسلَّمه إلى غيره، فعاقبه أشدَّ العقاب، فلم يسمح إلاَّ أن كتب خطّه بثلاثة آلاف ألف، كأنه يُعلمه أنَّه لو كان مستمراً عنده، لما كتب بهذا المبلغ، فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، قد كنت بلغت بالرفق ما لا يبلغه هذا بالعقوبة له، وعرَّفه بالخبر، وأراه الخط الأول، فعجب المأمون من أمرهما، ثم قال: والله لا كنتما أكثر مروءةً مني! ثم أمر بمسامحته، وإطلاق سراحه.

/٦٨/

[٢٦]

الفضل بن مروان[١]

وزير المعتصم، وكان مَحظوظاً يقظاً، إلاَّ أنه كان ذا مروءةٍ لا تصدع مروتُها،

(١) الفضل بن مروان بن ماسرجس: وزير. كان حسن المعرفة بخدمة الخلفاء، جيد الإنشاء. ولد سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م. أخذ البيعة للمعتصم، ببغداد، بعد وفاة المأمون (سنة ٢١٨هـ) وكان المعتصم في بلاد الروم، فاستوزره نحو ثلاث سنوات، واعتقله. ثم أطلقه، فخدم بعده جماعة من الخلفاء إلى أن توفي سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، له «ديوان رسائل» وكتاب جمَع فيه «الأخبار» التي علم بها و«المشاهدات» التي رآها.

ترجمته في: تاريخ الطبري ٩/ ١٨-٢١، ١٢١، ١٢٣، ١٦٢، ٢٦٤، ومروج الذهب ٢٦٩٥، ٢٨٣٤، والهفوات النادرة للصابي ١٩٦، ٢٥٥، ٣٥٦-٣٥٩، ٣٦٤، والإعجاز والإيجاز ١٠٢، وتحفة الوزراء للثعالبي ١٢٠، ١٢٢، والتمثيل والمحاضرة ٤٧، ونكت الوزراء للجاجرمي (طبعة ستنسل) ورقة ١٤٢، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١١٠، ١١٣، وإعتاب الكتّاب ١٣٠، والوزراء والكتّاب للجهشياري (في عدة مواضع)، والكامل في التاريخ ٦/ ٤٥٣-٤٥٤، ٧/ ٣٩، ١٢٤، =

ولا تُحلّ حَبْوَتُها يرعى الذمم القديمة لأهلها، ويرى لها سابقة فضلها.

وكتب عن المعتصم إلى المأمون في فتح تفليس: وكتابي إلى المأمون كتاب منّةٍ للخبر، لا معتدٍ بقيام ولا أثر.

وتوجه مع المعتصم إلى مصر زمان المأمون، لرتق فتقها، وترقيع خرقها، فكتب عنه ألف أمان، أُخذ في كل أمان ديناراً، وجعل كتابته مائة ألف دينار.

ولما مات المأمون، قام بأخذ بيعة المعتصم، ثم كان يُسرف في الدالة عليه، ويعارضه في شهواته ولذاته، ويمنعه من الإنفاق، والحرق فيما يجب الإنفاق فيه، فثقل عليه مكانه، فنكبه، وأخذ جميع ماله، ونسي ما مضى من مصالح أعماله.

[٢٧]

محمد بن عبد الملك الزيات[١]

وزير المعتصم واتصل به اتصالاً لا ينفصم، وكان ينكر أن يخاطبه باسم الوزارة، ويقول: لست بوزير إنما أنا مدبر جيش.

وكان سهل اللقاء لا يحتجب، إلاَّ أنه كان ظلوماً غشوماً، فلا يزال لائماً وملوماً.

= ١٣٥، ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٣ و٤/ ٤٥-٤٧ و٦/ ٢٢١، والفخري ٢٣٢- ٢٣٣، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٣-٨٥ رقم ٢٥، ومرآة الجنان ٢/ ١٥٧، والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٣٢، وشذرات الذهب ٢/ ١٢٢، الأعلام ٥/ ١٥١، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١-٢٥٠هـ) رقم ٣٧٥.

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات: وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتّاب والشعراء. ولد سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م. نشأ في بيت تجارة في الدسكرة (قرب بغداد) ونبغ، فتقدم حتى بلغ رتبة الوزراة. وعول عليه المعتصم في مهام دولته. وكذلك ابنه الواثق. ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل، فلم يفلح. وولي المتوكل فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م. وكان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم. وله «ديوان شعر - ط».
وللدكتور يحيى الجبوري «محمد بن عبد الملك الزيات، سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه» - ط دار البشير ٢٠٠٢م - عمان، مؤسسة الرسالة، بيروت.
ترجمته في: تاريخ بغداد ٢/ ٣٤٦ رقم ٨٤٩، وأمالي المرتضى ١/ ١٩٥، ٥٢٣، ٥٣٥، ٥٣٦، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ١٠٢، ١٠٥، ١٨٦، ٢١٢، ٢/ ٦٣-٦٥، ٩٣، ٩٥-٩٨، ١٧٦، ٢٥٩، ٢٦١، ٣/ ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٠، ٤/ ١٨، ٤١٥، ونشوار المحاضرة له ١/ ١٧-١٩، والعيون والحدائق ٣/ ٣٨٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٣٠٩، وتجارب الأمم ٤٨١، ٤٨٢، ٥١٦، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٨، ٥٣٥-٥٣٩، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٣٤، ٣٨٩، وثمار القلوب ١٩٦، ٢٩١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٦٦٤، وبدائع البداهة ٤٨، ٤٩، ٩٥، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٨٧، ٤٨٣، =

وكان يقول الرحمة خور في الطبيعة، ويمنع الشفاعات إليه، ويسد أبواب الذريعة، واتخذ تنوراً من حديد، ليُعذب فيه الناس، فما أفرغ حتى أمسك فيه، وجزاه الله شؤماً كان ينويه.

ومات لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وكان المتوكل قد قبض عليه وحبسه، وأخذ جميع أمواله، وعذَّبه بالسهر، ثم جعله في التنور الذي كان هو صنعه، وعذب فيه ابن أسباط المصري، وأخذ أمواله.

وكان محمد بن عبد الملك بليغاً، ووقَّع لرجل قلَّده البريد: اجعل الصدق شعارك، وتجنَّب الكذب، فإنَّ فيه بوارك، ولا تتقحمنَّ أمراً إلا بعد تثبُّت، ولا تكتبنَّ به إلا بعد بحث عنه، وتصحيح له، وترجيح لنقله، ولمن نقله... لك وعليك.

وكتب إلى صديق جفاه: إن اعتللت عليَّ بأشغالك، فإنَّ حقِّي قسيم تلك الأشغال، فان كنت في خاص نفسك، فإن أداء الحقَّ لإخوانك والصلة لأودائك أعظم اختصاصاً بك، وأليق بوفائك، وإن كانت في عامَّة أمرك، فان تقدَّم ما يلزمك / ٦٩/

= ٤٨٤، وتاريخ الطبري ٩/ ٢٠، ٢٢، ٥٣، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٩، ١١٩، ١٢٥، ١٤٠، ١٤١، ١٥٠، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٧، ٢٣١، ٢٣٢، والتنبيه والإشراف ٣٠٨، ٣١٣، ٤٩٣، ومروج الذهب ١٢٨٥، ٢٧٨٧، ٢٧٨٨، ٢٨٣١ـ٢٨٣٣، ٢٨٧٨ـ٢٨٨٠، ٢٨٩٨، وأمال القالي ٢/ ٦٩، وربيع الأبرار ٤/ ١١٨، والتذكرة الحمدونية ١/ ٣٧٦ و٢/ ١٠٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ونثر الدر ٣/ ٤٤ و٥/ ٣٩، ٤٤، والأجوبة المسكتة رقم ٣، ومحاضرات الدباء ١/ ٢٤٣، ٢٧٢، ٦٠٥، وخاص الخاص ٨/ ٥٨، ١٢٤، وعيون الأخبار ١/ ٥١، ٩٥، ٢٧٣، ٢/ ١٢٤، ٣/ ٣١، ٧٤، والعقد الفريد ٢/ ١٣٠، ١٤٢، ١٦٤، ٣٥٦، ٣/ ١٩٣، ١٩٤، ٢١٣، ٤/ ٥٠، ١٦٥، ١٧٠، ١٨٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٠، ١٢٧٥، ١٢٢، ٣٠١، ٦/ ٤٠٠ـ٤٠٢، وبغداد لابن طيفور ١٠٧، وتحفة الوزراء ٤٣، ١١٦، ١٤٢، والهفوات النادرة ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٩، ٣٧٥، ٣٤٩، ٣٦٢ـ٣٦٥، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٣ـ١٢٠، والفخري ١٤٩، ٢٣٣ـ٢٣٧، والجليس الصالح ٣/ ٩٦، ٢٤٢، والبصائر والذخائر ١/ ٣٢٥، ٢/ ٣٥، ٣٦، ٧/ ١٩٦، والمنظوم والمنثور ٤٢٢، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٢٣، والأغاني ١٩/ ٧٤، ٩٥، ٢١٩، ٢٥٢، ٢٠/ ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٣/ ٤٥، ٧٤، ٩٧، ٦٨، ١٠٤ـ١٠٨، والروض المعطار ٣٠١، ومعجم الشعراء ٣٦٥، ووفيات الأعيان ٥/ ٩٤ـ١٠٣ رقم ٦٩٦، والفهرست ١٢٢، والعبر ١/ ٤١٤، ودول الإسلام ١/ ١٤٢، والوافي بالوفيات ٤/ ٣٢ـ٣٤ رقم ١٤٨٦، ومرآة الجنان ٢/ ١٠٦، ١١١ـ١١٣، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٧، والبداية والنهاية ١٠/ ٣١١، والكامل في التاريخ ٦/ ٤٥٤، ٥٥٠ و٧/ ٢٩ـ٤٣، ومآثر الإنافة ١/ ٢٢٦، وشذرات الذهب ٢/ ٧٨، وخزانة الأدب ١/ ٢١٥، وتكملة تاريخ الأدب العربي ١/ ١٢١، وعصر المأمون للرفاعي ٣/ ٢٧٨ـ٢٨٢، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٨٥، والأعلام ٦/ ٢٤٨، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٣١ـ٢٤٠هـ) ص٣٣٣ رقم ٣٨٨.

إداوه، أرسى بك وأدنى لقربك.

وله شعر جيد، فمنه ما كتب مع شراب أهداه لصديق له في سفر[١]: [من الكامل]

مــا إنْ تَــرَى مِــثْــلِــي أخَــاً أنْــدَى يَــداً وأدرَّ جُــودَا
تُــهْــدِي إلَــيْــكَ إذا خَــلَــوْ تَ سُــلاقَــةً تُــذْكِــي وُقُــودَا
صَــفْــرَاءَ صــافِــيَــةً كــأنَّ عــلــى جَــوانِــبِــهــا الــعُــقُــودَا
خُــذْهــا إلــيــكَ كــأنَّــمــا كُــسِــيَــتْ زُجــاجَــتُــهــا فَــرِيــدَا
اسْــقِ الــصَّــدِيــقَ بــبــدلــةٍ لَــمْ يــرْوِ مــنــهــا الــمــاءُ عُــوْدَا

ومنه قوله[٢]: [من المنسرح]

لا تــشــكــي هــواكِ إلاَّ إلَــيْــكَ لــو يــشــفــع الــتَّــشــكِّــي
فَــرَغَــتْ لِــيْ مــن إســارِ قَــلْــبِــي ثُــمَّ تَــشَــا غَــلْــتَ عــنــدَ فَــكِّــي

ومنه قوله[٣]: [من الكامل]

كَــتَــبَــتْ عَــلَــى فَــصٍّ بِــخَــاتَــمِــهَــا مَــنْ مَــلَّ عَــنْ أحْــبــابِــهِ رَقَــدَا
فَــكَــتَــبْــتُ فــي فَــصِّــي لِــيَــبْــلُــغَــهَــا مَــنْ نــامَ لَــمْ يــشــعــرْ بِــمَــنْ سَــهِــدَا
قَــالَــتْ تُــعــارِضُــنــي بِــخــاتَــمِــهِ والــلــهِ لا كَــلَّــمْــتُــهُ أبَــدَا

ومنه قوله يرثي جارية توفيت وخلفت له طفلاً بعدها[٤]: [من الطويل]

ألاَّ مَنْ رَأى الطفلَ المفارقَ أُمَّهُ بَعِيْدَ الكَرى عَيْنَاهُ تَنْسَكِبَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عنْها لأنَّنِي جليدٌ فمنْ للصبرِ لابنِ ثمانِ
ضعيفُ القُوى لا يعرفُ الأجْر حِسْبَةً ولا يأتَسِي بالنَّاسِ في الحَدَثَانِ
ألا مَنْ إذا ما جِئتُ أكرمَ مَجْلِسِي وإنْ غِبْتُ عنهُ حاطَنِي وكفَانِي

ومن شعره قوله في الشيب وأجاد ما شاء[٥]: [من مخلع المنسرح]

وعــائــبٍ عَــابَــنِــي لِــشَــيْــبٍ لَــمْ يَــعْــدُ لــمَّــا أَلَــمَّ وَقْــتَــهْ
فــقــلــتُ إذْ عــابَــنِــي سَــفَــاهَــاً يــا عــائِــبَ الــشَّــيْــبِ لا بَــلَــغْــتَــهْ

ومن شعره قوله في ابن أبي دؤاد وقد رآه قائماً يصلّي، وكانت بينهما عداوة[٦]: [من الكامل]

/ ٧٠/ صَلَّى الضُّحى لمَّا استَفَادَ عَدَاوَتِي وَرَآهُ يَنْسُكُ بَعْدَهَا وَيَصُومُ

(١) ديوانه ١٧١-١٧٢ رقم ٤١.
(٢) ديوانه ٢٣٢-٢٣٣ رقم ١١٥.
(٣) ديوانه ١٧٢ رقم ٤٢.
(٤) ديوانه ٢٦٣-٢٦٥ رقم ١٥٦.
(٥) ديوانه ١٦٣-١٦٤ رقم ٣٢.
(٦) ديوانه ٢٥١-٢٥٢ رقم ١٣٧.

لا تَحْمِلَنَّ عَدَاوَةً ربطها تَرَكَتْكَ تَقْعُدُ تارةً وتقُومُ

وقال: وقد أدخل التنور الذي صنعه ليعذب الناس فيه[١]: [من البسيط]

هُوَ السَّبِيْلُ فَمِنْ يوم إلى يوم كأنَّهُ مَا تُرِيْكَ العَيْنُ في النَّوْمِ
لا تَعْجَبَنَّ رُوَيْداً إنَّها دُوَلٌ دُنْيَاً تَنَقَّلُ مِنْ قَومٍ إلى قَوْمِ

ولما أتى إبراهيم الصولي خبر موته قال: [من الرجز]

لَمَّا أتَانِي خَبَرُ الزَّيَّاتِ
وَأنَّهُ قَدْ عُدَّ في الأمْواتِ
أيْقَنْتُ أنَّ مَوتَه حَيَاتِي

وكان ابن الزيات صديق الصولي، فلما ولي ابن الزيات الوزارة، صادر الصولي بألف ألف درهم: [من المتقارب]

وكنتُ أذمُّ إليكَ الزَّمانَ فأصْبَحْتُ منكَ أذمُّ الزَّمَانَا
فكنتُ أُعِدُّكَ للنائباتِ فَهَا أنَا أطْلبُ منكَ الأمَانَا

* * *

(١) ديوانه ٢٥٨ رقم ١٤٨.

[بنو خاقان]

ومنهم: بنو خاقان وكانوا في دولة المتوكل نوافذ سهامها، ونوافث أقلامها، بيدهم ملك إمامها، وملك زمامها، وكانوا أبواب الخلافة، وبالفتح فتحها، وزمانهم أوقات الأسمار ووجوههم صبحها.

[٢٨]

[الفتح بن خاقان]

وكان الفتح[١] صدر تلك الأيام الحَوَالي الخَوَالي، واللَّيالي المضمَّخة فما تنقش الغواني بالغوالي، وكان مصباح خليفتها، وصاحب وظيفتها، وبأمره منعها، ومنحها، وعقابها، وصفحها.

---

(١) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه. وكان يقدمه على جميع أهله وولده. واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن.

وألف كتاباً سماه «اختلاف الملوك» وكتاباً في «الصيد والجوارح» وكتاب «الروضة والزهر» وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م وهو غير الفتح بن خاقان (الفتح بن محمد) صاحب القلائد.

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٩٢، وتاريخ الطبري ٩/ ١٨٤، ٢٠٠، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٤ـ ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٦١٤، ومقاتل الطالبيين ٦٠٨، ٦٠٩، ٦٤٣، ولطف التدبير للإسكافي ٦٢ـ ٦٣، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١١٩ـ ١٢٠، والفهرست لابن النديم ١٦٩، ومعجم الشعراء للمرزباني ٢١٨، ومعجم الأدباء ٦/ ١١٦، وفوات الوفيات ٢/ ٢٤٦، والفخري ٤، ٣٢٦، والعقد الفريد ٢/ ٤٨٧، والهفوات النادرة للصابي ٢٢، ٢٣، ٢١١، ٢١٢، والولاة والقضاة وولاة مصر ٢٢٨، ٢٣٠، وتحفة الوزراء ١١٦، وخاص الخاص للثعالبي ٥١، والعيون والحدائق ٣/ ٥٤٦، ٥٥٤ـ٥٥٧، وتاريخ حلب للعظيمي ١١٢، ٢٥٩، والجليس الصالح للجريري ١/ ٢٦٩ـ ٢٧٠، والأذكياء لابن الجوزي ٢٠٢، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٢٠٩، ٢١١، ٢١٩، ٢/ ١٢٥، ٣/ ٥٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٣٢٤، ٣٢٥، ٥/ ٨٨، ونشوار المحاضرة، له ١/ ٢٦٥، ٣/ ٤٩، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ١/ ٤٥٢، وذم الهوى لابن الجوزي ٤٨١، وتاريخ مختصر الدول، لابن العبري ١٤٦، ومروج الذهب ٨، ١٨٤٣، ١٨٤٤، ٢٨٧٤، ٢٨٨١، ٢٨٨٢، ٢٨٨٧، ٢٩٠٥، ٢٩٠٦، ٢٩٤٤، ٢٩٥٣، ٢٩٥٦، ٢٩٥٧، =

وكان المتوكل لا يقدر على مفارقته، ولا يتأنَّس إلا بموافقته وصحبته. وكان مجراه منه مجرى الأخ أو أقرب، لا يلتذ بغير حضوره، ولا يطرب، حتى أطلعه على أموره وحرمه، وأسكنه معه في دور حُرَمه، وأشركه في شائع أموره، وسائر غمومه وسروره. وكان يحضر معه مجلس الأنس حيث تطرح مؤنة التحفظ، وتؤمن معرَّة التلفُّظ، ويجالسه في منارة الأفراح، ويراضعه في مراشف الأقداح، وتطوف عليهم سقاتها بحمل نوَّاره، وتعاطي ريقة ما أبقت للغواني سؤراً. وذلك مجلس / ٧١/ كان بعد جعفر بن يحيى قد سُدَّ على الوزراء بابه، وأرخى عمَّن دون الندماء حجابه، حتى كفل الفتح له كفايته، واستدرك غايته، وأقعده المتوكل على طراحته، وساهمه في اغتنام راحته، حتى كان له من القتل مشاركاً، وقتل معه، وقال:

اقـتـلـونـي ومـالـكـاً...

فساواه حتى ختم أيامه بأيامه، وساقاه حتى شرب معه كأس حمامه، فقُتل معه وطرح موضعه، وقالت الأتراك: إنَّ الفتحَ قتل المتوكل، وإنَّه أُخذ به وقُتل، بل هم قتلوهما وعرفوهما ثم جهلوا فحملوهما. وكان البحتري كثير المدح لهما. ومن شعره في مدح الفتح بن خاقان(١): [من الوافر]

لَقَدْ أَجْرَى الوَزِيْرُ إلى خِلال ... مِنَ الخَيْراتِ زَاكِيَة العِدَادِ
يُحَلُّ بذِكْرِه عَقْدُ النَّواحِي ... ويُفْتَحُ باسمِهِ أقصَى البِلادِ
اذا أمْضَى عَزِيْمَتَهُ لِخَطْبٍ ... كَفَاهُ العفُو دونَ الإجْتِهادِ

= ٢٩٦٦، ٢٩٩١، ٣١٩٩، وأمالي المرتضى ١/ ١٩٤، ١٩٩، ٣٠٠، ٥٣٥، ٥٨٦، ٢/ ٤١، والكامل في التاريخ ٧/ ٩٥ـ١٠٠، ١٠٣ـ١٠٥، والمنازل والديار لابن منقذ ٢/ ٣١٠، ونزهة الألباء لابن الأنباري ١٧١، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٤٧، ووفيات الأعيان ١/ ٣٠، ٣٥٥، ٤١١، ٤٧٧، ٢/ ٢٣٦، ٣/ ١٥٥، ٣٧٤، ٦/ ٣٠، والروض المعطار للحميري ١٧٧، ٢٨٣، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ٣١٥، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ٤٠١، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٢ـ ٨٣ رقم ٢٤، والوافي بالوفيات ٣/ ١٧٧ـ١٧٩، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢١٣، ٣٢٤، ٣٢٥، وشذرات الذهب ٢/ ١١٤، وزهر الآداب ٢٠٣ـ ٢٠٤، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٩٢، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤١، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٨، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨، ومآثر الإنافة ١/ ٢٢٩، واكتفى الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٨٩ رقم ٦٨٤٥: «الفتح بن خاقان وزير المتوكل قتل معه». ولم يزد!، وآثار الأول وترتيب الدول للعباسي ١٩٩، الأعلام ٥/ ١٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ٢٥٠هـ) رقم ٣٦٦.

(١) ديوان البحتري ١/ ٦١٢ـ٦١٣ رقم ٢٥٢ وفيه أنها في مدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

وفيه يقول، وكان قد عبر النهر فكاد يغرق[١]: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما الدُّنيا بنا قصَّةِ الجَدَا ... إذا ما بَقِي الفتْحُ بنُ خاقَانَ والقطرُ

غَمَامُ سُحَابٍ مَا يَغُبُّ لهُ حيَّاً ... ومِسْعَرُ حرب ما يضيعُ لهُ وِتْرُ

وَمَا لِيَ عُذْرٌ في جحُودكَ نعمةً ... وَلو كانَ لِيْ عُذْرٌ لَمَا حَسُنَ الغَدْرُ

لَقَدْ كانَ يَومُ النَّهر إنِّي عظمه ... أطّلَّتْ ونعمى [قَدْ] جَرى بِهما النَّهْرُ

وَجُزْتَ عليهِ عابراً فتَساجَلَتْ ... أيادِيهِ لمَّا [أنْ] طَمَى فَوقَهُ البَحْرُ

وفيه يقول[٢]: [من السريع]

قدْ جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ... وشَقَّ عنَّا الظُّلْمةَ الصُّبْحُ

وَكلُّ بابٍ للنَّدى مُغْلَقٌ ... فإنَّما مفتاحُهُ الفَتْحُ

وفيه يقول[٣]: [من الخفيف]

مَا نُبَالِي يَدَا الوَزِيرِ اسْتَهلَّتْ ... أمْ رأيتُ العَقِيْقَ سَالَتْ شِعابُهْ

بَيْنَ حَقٍّ يَنُوبُهُ يصِرفُ القصْدَ ... إليهِ ومُعْتَفٍ يَنْتَابُهُ

وفيه يقول / ٧٢/ يمدحه ويعيبه[٤]: [من الطويل]

عَلَى أيِّ أمرٍ مُشْكِلٍ أتَلَوَّمُ ... أُقِيْمُ فأثْوَى أمْ أَهِمُّ فأعْزِمُ

ومَا مَنَعَ الفَتْحُ بنُ خاقانَ نَيْلَهُ ... ولكنَّها الأقْدارُ تُعْطِي وتَحْرِمُ

سَحَابٌ خَطَانِي جُودُهُ وهْوَ مُسْبِلٌ ... وَبَحْرٌ عَدَانِي فيْضُهُ وهْوَ مُفْعَمُ

وبَدْرٌ أضَاءَ الأرْضَ شَرْقاً وَمَغْرِباً ... ومَوضِعُ رِحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

أأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ مَا وَسِعَ الوَرَى ... وَمَنْ ذَا يَذِمُّ الغَيْثَ إلاَّ مُذَمَّمُ

ومن الخاقانيين:

[٢٩]

عبيد الله بن يحيى[٥]

وهو من أركان هذا البيت، وأغصان هذه الشجرة، وله أخبار مسيرة، وآثار كأنها

---

(١) ديوان البحتري ٢/ ٨٤٣ـ ٨٤٧ رقم ٣٣٩.

(٢) ديوان البحتري ١/ ٤٧٤ رقم ١٩٦.

(٣) ديوان البحتري ١/ ١١٥ـ ١١٨ رقم ٣٧ وفيه أنها في مدح إسماعيل بن بلبل.

(٤) ديوان البحتري ٣/ ١٩٧٨ـ ١٩٨٠ رقم ٧٦١.

(٥) عبيد الله بن يحيى بن خاقان، أبو الحسن، وزير من المقدمين في العصر العباسي، ولد سنة =

بسواد الخَيلان على صفحات الخدود مسطَّرة، أو من الدرِّ الثمين مصوَّرة، وكان ممن أبعد بعد مقتل الفتح بن خاقان، ممن أبعد من أهله، فإنَّه لما ولي المنتصر، أحاط بهم إلاَّ مَن واراه الاستتار، أو أراه الرأي طريق الفِرار.

وكان عبد الله بن خاقان هو وزير التدبير، وأما الفتح ففوق رتبة الوزير.

ولما أراد المتوكِّل أن يوزره، عيَّن له فيمن عيَّن، فقال له: اكتب لنرى خطَّك، فقال له: أي شيء أكتب؟ فقال: اكتب ما شئت. فكتب بعد الافتتاح: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1] ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[2] فأعجب المتوكل بذلك، فقدَّمه، ثم وزره، وكان محظوظاً، وفيه حرية، وكرم، ودهاء، وحلم يُقيل العثرات، ويتغمَّد الذنوب الكبار.

عرض رجل له وهو في موكبه، فأخذ بلجام دابته، وقال له: يا زنديق، قال: كذبت ما عبد الله قط، قال: يا فاسق: قال: كذبت ما أنا بفاسق. قال: يا كذاب. قال: صدقت يضطرونا إلى أن نكذب. خلِّ اللجام وانصرف، ثم أمر بقضاء حاجته، ولم يدع أحداً يعرض له ممن كان معه، وعجب من حضر من حلمه.

وكان له أعوان تعينه على أموره، ولا يقف [له] حال، ولا يتأخر له طلب، وامتدت أيامه إلى زمان المعتمد، وكانت له بها دولة.

* * *

= ٢٠٩هـ، واستوزره المتوكل والمعتمد، وكان عاقلاً حازماً، استمر في الوزارة إلى أن توفي سنة ٢٦٣هـ.

ترجمته في: دول الإسلام ١/ ١٢٥، تاريخ الطبري ١١/ ٢٤٦، الديارات ٨٢، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٤٦، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٨٨، ٤٩٢، ٤٩٥، ٥٠٧، وتاريخ الطبري ٩/ ١٧١، ١٨٥، ٢٠٠، ٢١٤ـ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٨، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٨، ٤٧٤، ٥٠٧، ٥١٧، ٥٣٢، والتنبيه والإشراف ٣٢٠، والجليس الصالح ١/ ٤٧١ـ ٤٧٢، والديارات ٨٢، والعقد الفريد ٤/ ١٦٦، ٥/ ١٢٢، ٤٠٦، وتجارب الأمم ٦/ ٥٥٢ـ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٧، وطبقات الحنابلة ١/ ٢٠٤ رقم ٢٧٣، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ٣٨/ ١٤٣ـ ١٤٨ رقم ٤٥٠٢، والمنتظم ٥/ ٤٥ رقم ١٠١، والتذكرة الحمدونية ١/ ٢٦٤، والإيجاز والإعجاز ٢٧، ولطائف الظرفاء ٤٣، والتمثيل والمحاضرة ١٥٥، وثمار القلوب ١٦٤، ٢٠٧، والكامل في التاريخ ٧/ ٣١٠، والعبر ٢/ ٢٦، ودول الإسلام ١/ ١٥٩، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٩ـ ١٠ رقم ٥، والبداية والنهاية ١١/ ٣٦، ونهاية الأرب ٢٢/ ٣٣٤، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٧، والأعلام ٤/ ١٩٨، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ٢٨٠هـ) ص١٣٢ رقم ١٠١.

(١) سورة الصف: الآية ١٣. (٢) سورة الفتح: الآية ١.

[جماعة الوهبيين]

ومنهم:

جماعة الوهبيين، وكانوا أهل مواهب، ولهم في فصاحة اللسان وسماحة البنان /٧٣/ مذاهب، إن كتبوا أكبتوا الأعداد، وإن وهبوا أخجلوا على الأرض الأنداء..

وفيهم يقول أبو تمام(١): [من الخفيف]

كُلُّ شِعْبٍ كُنتمْ بهِ آلَ وَهْبٍ ... فَهْيَ شِعْبِي وِشِعْبُ كلِ أديبِ

إنَّ قَلْبِي لَكُمْ لَكَالكَبِدِ الحرَّ ... ى وقَلْبِي لغَيْرِكُمْ كالقُلُوبِ

[٣٠]

سليمان بن وهب(٢)

وكان على البريد أيام المعتصم، فأهْمله، وأخَّره، وعطَّل سبيله، فكتب إليه مكرم: [من السريع]

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ إذا جِئْتَهُ ... ولخِّص الأقْوالَ تلخِيْصَا

هذا جَناحُ المُسْلِمِيْنَ الَّذي ... وَلَّيْتَهُ أصْبَحَ مَقْصُوصا

* * *

---

(١) شرح ديوان أبي تمام ٥٠/٥٤ رقم ٨.

(٢) سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي: وزير، من كبار الكتّاب. من بيت كتابة وإنشاء في الشام والعراق. ولد ببغداد، كتب للمأمون وهو ابن ١٤ سنة. وولي الوزارة للمهتدي بالله، ثم للمعتمد على الله. ونقم عليه الموفق بالله، فحبسه، فمات في حبسه سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م. له «ديوان رسائل». وكان من مفاخر عصره أدباً وعقلاً وعلماً، ولأبي تمام والبحتري مدح به وبأهله.
ترجمته في: تاريخ الطبري ٩/ ١١٢، ١١٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٦٩، ٤٠٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٦، ٤٤٨، ٥٣٢، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٣، ١٠/ ٩، ومروج الذهب ٢٨٣٤، ٣١٢١، ٣١٥٤، ٣١٨٩، وثمار القلوب ٢٠٩، وتحفة الوزراء ١١٦، ١٢٢، وخاص الخاص ٥١، والوزراء للصابي ٢٨، ٣٦، ١٩٩، ٢١٤، ٢٣٠، ٢٨٤، وولاة مصر ٢٢٩، والأغاني ٢٣/ ٣ـ ١٨، والعيون والحدائق ج ٤ ق١/ ٣٧، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ١٣٤، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٣٦، ١٣٩، ١٤٩، ١٦٧، والعقد الفريد ١/ ٧٧، ٤/ ١٧١، ٤/ ٢٩٥، ١٩٧، ٦/ ١٦٧، والمنتظم ٥/ ٨٦ رقم ١٩٠، والكامل في التاريخ ٧/ ١٠، ٤٦، ٢١٩، ٣١٠، ٣١٦، ٣٢٧، ٤١٨، ووفيات الأعيان ٢/ ٤١٥ـ =

[بنو المدبر]

ومنهم:

بنو المدبر وأعيانهم:

[٣٠ـ ٣١]

أحمد[١] وإبراهيم[٢]

وكان أحمد من كتَّاب المتوكِّل، وطالبه لمنادمته، فامتنع من ذلك، ونافق، وأجرى إليه أخاه، فتوقَّف، فطلب المتوكِّل إبراهيم ونادمه، واستأثر به، ولازمه. وكان شاعراً ظريفاً، ونديماً لطيفاً، فخفَّ على قلبه، ولطف محله منه، وكان لا يقدر على أن يصبر عنه.

= ٤١٨ رقم ٢٧٧، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٢٧ـ١٢٩ رقم ٦٥، وأخبار أبي تمام ١٠٤، والوافي بالوفيات ١٥/ ٤٤٠ـ٤٤٣ رقم ٥٩٢، والفخري ١٨٢ـ١٨٤، والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٧ـ ٤٠، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٦٠، ١٦٣، وربيع الأبرار ٤/ ١٦٢، ١٧٤، وتاريخ حلب للعظيمي ١٣٨، ٢٦٣، ٢٦٧، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ١٨٦، ١٨٨، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٧، ٢/ ٦٣، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٣٤، ٢١٣، ٢١٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٣/ ١٢٩، ١٣٠، ١٥١، ١٥٤، ١٧٣، ١٩٩، ٤/ ٢٩٣، وسمط اللآلي ٥٠٦، ونصوص ضائعة من الوزراء والكتّاب ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٨٥، ٨٦، الأعلام ٣/ ١٣٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ٢٨٠هـ) ص٣٦٤ رقم ٣٩٧.

(١) أحمد بن محمد بن عبيد الله بن المدبر: أبو الحسن الضبّي، الكاتب السُرَّمَرّائي ولي مساحة الشام زمن المتوكل، وكان مفوّهاً شاعراً مترسلاً عالماً يصلح للقضاء.
وله أخ اسمه إبراهيم، شاعر محسن رئيس، وللبحتري فيهما مدائح.
ثم ولي خَرَاج دمشق ومصر أيضاً، ثم قبض عليه أحمد بن طولون وعذّبه في سنة ٢٦٥هـ، لأنه سجنه ثم طلبه، فقال: ما حالك؟ فقال: تسألني عن حالي وأنت عملت بي هذا يا عدو الله! أخذل الله من يأمنك.
فأمر بقتله، بل بقي في أضيق سجن إلى أن مات سنة ٢٧٠هـ أو ٢٧١هـ.
ترجمته في: مروج الذهب ٣١٢٤ـ ٣١٢٨، وتاريخ دمشق (أحمد بن عتبة ـ أحمد بن محمد بن المؤمل) ٣٣٧ـ٣٤٠ رقم ١٦٨، وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٥٩، والوافي بالوفيات ٨/ ٤٠ رقم ٣٤٤٣، والوزراء والكتّاب للجهشياري ١٩٩، ٢٠٠، ٢٥٢، وإعتاب الكتّاب، رقم ٤١، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ٢٨٠هـ) رقم ٢٣، ص٢٧٥ رقم ٢٤٥، الفرج بعد الشدّة ١/ ٢٤٧، =

ثم قلَّده نفقات المختارة التي كان بناها، فجرت على يده نفقات أموال جليلة، كانت سبب تأخيره، وأخذ قليلِه وكثيرِه.

ووقف أحمد بن المدبر على ديوان شعر أخيه وقد نكب فقرأه ثم كتب: [من الوافر]

أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ تَكُنِ اللَّيَالِي عَطَفْنَ عليكَ بالخَطْبِ الجَسِيْمِ
فَلَمْ أَرَ قَطُّ صَرْفَ الدَّهْرِ نحوِي بِمَكْروهٍ على غَيْرِ الكَرِيْمِ

ولإبراهيم بن المدبر شعر، فمما قاله، وهو في الحبس، يذكر طيفاً زاره، ولم يمنعه بابُه المغلق، ولا حديده الذي هو به موثق. وكان قد رأى في نومه جارية يهواها، وأتته على غِرَّةٍ، غريرةٌ بعيدٌ مَهْوَاهَا: [من مجزوء الرمل]

بِأَبِي مَنْ بَاتَ عِنْدِي طَارِقاً مِنْ غَيرِ وَعْدِ
بَاتَ يَشْكُو شِدَّةَ الشَّوْقِ وَأَشْكُو فَرْطَ وَجْدِي
وَتَجَنَّى فَبَكَى فَانْهَلَّ دُرٌّ فَوْقَ وَرْدِ
فَيَدٌ تَحْتَ يَدٍ طَوراً وَخَدٌّ فَوْقَ خَدٍّ

ثم بعث بها إلى المسدود، فصاغ لها لحناً، وغنَّاه للمتوكِّل، فسأله المتوكِّل عن قائله، فأعلمه أنها لابراهيم، فأمر بإطلاقه.

=
٢٤٩، ٢/ ١٢٤، ١٥٩، ٢٦١، وأمالي المرتضى ١/ ٥٦٩، والجامع الكبير لابن الأثير ٩٧، وبدائع البدائه ٣٤٠، والأغاني ٢٢/ ١٥٩، ١١٧، والهفوات النادرة ٩٢ـ ٩٣، وإعتاب الكتّاب ١٥٧ـ ١٥٩، والتذكرة الحمدونية ٢/ ١٠٥ـ ١٠٦ رقم ٢١١.

(٢) إبراهيم بن محمد بن عبيد الله ابن المُدَبِّر، أبو إسحاق: وزير، من الكتاب المترسلين الشعراء. من أهل بغداد. تولى ولايات جليلة. واستوزره المعتمد العباسي لما خرج من سامراء يريد مصر سنة ٢٦٩هـ. وتوفي ببغداد متقلداً ديوان الضياع للمعتضد سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٣م.

ترجمته في: طبقات الشعراء لابن المعتز ٣١٩، وتاريخ الطبري ٩/ ٤٧٢، ٤٤٣، ٤٧٧، ١٠/ ٣١، والأغاني ٢٢/ ١٥٦ـ١٩٨، ٢٣/ ٢٤، ٢٥، ٧٥، ٧٦، ٨٣، وأمالي القالي ١/ ٢٩، وإعتاب الكتّاب ١٥٩ـ١٦٣، ومروج الذهب ٢٨٤٥ـ٢٨٤٨، ٣١٢٤، والهفوات النادرة ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٩، والفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/ ١٨، ١٢٤، ٥/ ٥٧، وتحسين القبيح للثعالبي (انظر فهرس الأعلام) ١٢٥، والتذكرة الحمدونية ١/ ٤٢٨ رقم ١١٢٤، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٦٣، والجامع الكبير لابن الأثير ٩٧، وبدائع البدائة لابن ظافر ١٧٦ رقم ٢٠٣، والكامل في التاريخ ٧/ ٤٦٠، ونثر الدرّ للآبي ٣/ ٤٨، ومعجم الأدباء ١/ ٢٢٦ـ٢٣٢، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٢٤ـ ١٢٦ رقم ٦٣، وفوات الوفيات ١/ ٤٥ـ٤٧، والوافي بالوفيات ٦/ ١٠٧ـ١١٠، والروض المعطار ١٩٣، ٢٥٤، والأعلام ١/ ٦٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ٢٨٠هـ) ص ٢٩٤ رقم ٢٧٧ .

وله أيضاً: [من الطويل]

وَذي بِدَعٍ في الطَّرْفِ والشَّكْلِ والحُسْنِ سَكُوتٌ إليهِ غَيْرُهُ وَهُوَ مَنْ أعْنِي
وإنِّي لأَكْنِي بِاسْمِهِ عَنْهُ دائِباً لِيَحْسِبَنِيْ الواشُونَ عَنْ غَيْرِهِ أكْنِي

وقد ذكره صاحب بغية الألباب، وقال: إنه وزر للمعتمد، ثم تقلَّد ديوان الضِّياع للمعتصم، وأنشد قوله: [من المنسرح]

يَا كَاشِفَ الكَرْبِ بعدَ شِدَّتِهِ ومُنْزِلَ الغَيْثِ بَعْدَ مَا قَنطُوا
لا تُبْلِ قلبي بسُخْطِ بَيْنِهِمُ فالموتُ دانٍ إذا هُمُ سَخِطُوا

وكان يقول: وددتُ أن أكون قلت بيتي الصولي في رثاء أبيه.

قلت ثمَّ أنشدهما: [من مجزوء الكامل]

أنْتَ السَّوَادُ لِمُقْلَةٍ يَبْكِي عَلَيْكَ النَّاظِرُ
مَنْ شَاءَ بعدك فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ منْهُ أُحَاذِرُ

فان لم يكن فقوله:

وَليلةٍ مِنْ ليالي الدَّهْرِ فالمت فيها بدرها ببدري
لَمْ تكنْ غيرَ شفقٍ وفخرٍ حتى تولَّت وهي تكر الدهر

فان لم يكن فقوله: [من الوافر]

ولكنَّ الجوادَ أبا هشام وَفِيُّ العَهْدِ مَأمُونُ المَغِيْبِ
بطيءٌ عنْكَ ما اسْتَغْنَيْتَ عنهُ وطَلاَّعٌ عَلَيْكَ مَعَ الخُطُوبِ

وقلَّد المتوكِّل أحمد بن المدبر الشَّام، وأجرى عليه في كلِّ شهر مائة ألف وعشرين ألف درهم، وكان أحمد جمَّاعاً حمّالًا للأثقال، لو صودم به الجبل لتقطَّع، أو زوحِمَ به الفضاء لم يحل منه أجمَع، إلاَّ أنَّه لم يسفر صبحه، ولم يظفر ما جزأ المحامد سبحه، فأصرَّ بسحابه الحمود، وقبر لم يمتع شأوه الخلود.

ومنهم: / ٧٥/

[٣٢]

إبراهيم بن العباس الصُّوليّ(١)

من كُتَّاب المتوكِّل، وله في البلاغة ما كأنَّه قد صاغه صياغة. على أدبه

(١) إبراهيم بن العباس (الصُّولي) بن محمد بن صول، أبو إسحاق: كاتب العراق في عصره. أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها. ولد سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م. ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب وقرّبه الخلفاء فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل. وتنقل في الأعمال =

طلاوَة، ولألفاظه حلاوَة.

وكان البحتري إذا ذكر إبراهيم الصوليّ، قال: كاتب العراق، وأنشد من شعره، وتذكر عنده جماعة من الشعراء يوم العاشق: [من مجزوء الرمل]

أحْسَبُ اليَوْمَ حَكَاكَا إذْ رأى منْكَ جَفَاكَا
فَمَتَى الصَّبْرُ ومنْكَ الـ ـبحرُ فَابْلَغْ بي مَداكَا
كَبُرَتْ هِمَّةُ عَيْنٍ طَمِعَتْ في أنْ تَرَاكَا
أَيُّمَا حَظٌّ لِعَيْنٍ أنْ تَرَى مَنْ قَدْ رَآكَا
لَيْتَ حَظِّي مِنْكَ أنْ تعـ ـلَمَ مَا فِيْ مِنْ هَوَاكَا

ثم قال: تصرفت هذه في معانٍ من الشعر أحسن جمعها فكتبها عنهم أجمعهم.

وما روى ثعلب شعر كانت غيره وهو له: [من الطويل]

لَنَا إبِلٌ لومُ يَضِيْقُ بِها الفَضَا ويَعثرُ عنها أرْضُها وسَمَاؤُهَا
فَمِنْ دُوْنِهَا أنْ تُسْتَباحَ دماؤُنَا وَمِنْ دُونِنَا أنْ تَسْتَدِيْمَ دماؤُهَا
حَمَى... فَالمَوْتُ دُونَ مَرامِهَا وأيسرُ خطْبٍ يومَ حَقٍّ فَنَاؤُهَا

ومما كتبه إلى بعض أخوانه: فلانٌ ممن يزكو شكره، ويعينني أمره، والضيعة عندي واحدة مرضعها، وسالكة طريقها، وأفضل ما يأتيه ذو الدين الحجى إصابة شكر لم يُضع معه أجراً.

وكتب إلى ابن الزيات: كتبت إليك وقد بلغت المِديَة المَحَزَّ، وعدت علي الأيام بك بعد عداوتي بك عليها، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن يسكن في وقت حركتها،

= والدواوين إلى أن مات متقلداً ديوان الضياع والنفقات بسامراء سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م. قال دعبل الشاعر: لو تكسب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء. وقال ياقوت: كان إبراهيم إذا قال شعراً اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته. وقال المسعودي: لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتّاب أشعر منه، وكان يدّعي خؤولة العباس بن الأحنف الشاعر. له «ديوان رسائل» و«ديوان شعر» و«كتاب الدولة» كبير، و«كتاب العطر» و«كتاب الطبيخ».

ترجمته في: تاريخ الطبري ٧/ ٥١١، وتاريخ بغداد ٦/ ١١٧ـ ١١٨ رقم ٢١٤٧، والأنساب لابن السمعاني ٨/ ١١٢، وذم الهوى لابن الجوزي ٨٣، والكامل في التاريخ ٧/ ٨٣، ومرآة الجنان ٢/ ١٤٣ـ ١٤٤، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٤٤ـ ٣٤٥، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٠، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٧، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٤ـ ٢٨ رقم ٢٤٥٦، الأعلام ١/ ٤٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ٢٥٠هـ) ص ١٦٠ رقم ٦٤.

وتلف إدارتها، فصرت أضرَّ عليَّ منها، فلف الصديق عن له نصرتي خوفاً منك، وبادر إليه العدو تقرُّباً إليك.

وكان أحمد بن المدبر قد رافعه بحضرة المتوكل، وعدَّ عليه أموراً، قال: في غالبها إفكاً وتزويراً، فقال له المتوكِّل: ما تقول؟، فقام وأنشأ يقول: [من الخفيف]

بـذَّ قـولِـي وصَـدَّقَ الأقْـوَالا   وَأطـلاعَ الـوُشـاةَ والـعُـذَّالا
أتُـرَاهُ يـكـونُ شـهـرَ صُـدُودٍ   وعـلـى وجـهـهِ رأيـتُ الـهِـلالا

فقال المتوكِّل: زِهْ زِهْ أحسنت والله، أحسنت والله، ثم دعاها، ورددها واستحسنها، واستجودها، وقال: اخلعوا على إبراهيم، فخلعوا عليه، وأجازه بجائزة سنية، /٧٦/ عجَّلها له من بين يديه، وأتَى بها، وابن المدبر يرى قذى في عينيه، فأُحضر له من لحنه قدامه وغنى، ثم قال المتوكِّل: آتوني بمن يعمل في هذا لحناً. هاتوا نأكل، وجيئونا بالنُّدماء والمغنِّين، ودعونا من فضول ابن المدبر، فانصرف إبراهيم إلى منزله محبوَّاً، وبقي على ابن المدبر بين ضلوعه مخبوَّاً.

وكان إبراهيم بن العباس هو المتولي لعقد البيعة عن المتوكِّل لبنيه، والكاتب لليمين المنشيء للكتب، وركب يومئذٍ بغلاً، فتطيَّر منه الناس، وقالوا: هذا الأمر لا يتم، ولا ينتج، لان البغل لا نتيجة له، لا يلد، ولا يولد، وكانت الفُرس تتطير من البغل لذلك.

[٣٣]

عبد الله بن العباس

وأخوه عبد الله كان من وجوه الكتَّاب مقدماً في خدمة الخلفاء، وله مكانة من الدولة ووجاهة في ديوان الوزراة، وهو وأخوه من صنائع الفضل بن سهل، وكان جدهما صول من السبعة الخراسانية، والدُّعاة إلى البيعة العبَّاسيَّة، وكان رجلاً تركيَّاً إلاَّ أنَّه كان ذكيَّاً، وإياه عنى أخوه [إبراهيم] بقوله، وقد رآه يتحبب لمن يبغضه ويتوالى لمن يرفضه[1]: [من مجزوء الكامل]

خَـلِّ الـنِّـفـاقَ لأهْـلِـهِ   وعـلـيـكَ فـالـتَـمِـسِ الـطَّـرِيْـقَـا
وارْغَـبْ بـنَـفْـسِـكَ أن تَـرَى   إلاَّ عَـدُوَّاً أَوْ صَـدِيْـقَـا

(١) البيتان لابراهيم بن العباس الصولي في الوافي بالوفيات ٦/ ٢٥.

[بنو مخلّد وبنو صاعد]

بنو مخلد[1]، وبنو صاعد[2]، ولهم ذكر، وأكتفي من ذكرهم بقول البحتري[3]:

[من الكامل]

وإذَا رَأيتَ شَمائِلَ ابْنَي صَاعِدٍ   أدَّتْ إليْكَ شَمائِلَ ابْنَي مَخْلَدِ
كالفَرْقَدَيْنِ إذَا تأمَّلَ نَاظِرٌ   لَمْ يَعْلُ موضِعُ فَرْقَدٍ عَنْ فَرْقَدِ

وقال علي بن الحسين بن عبد الأعلى: أكلت على مائدة الحسن بن مخلد فوجدناها تتجاوز مائة دينار.

وقال محمد بن داود: شهدت الحسن بن مخلد يحاسب بلال بن البزار على مائة وعشرين ألف دينار.

ومنهم:

[٣٤]

أحمد بن الخصيب[4]

وزير المنتصر، ثم المستعين، وكان من أقسط وزراء المشرق، لكثرة تبرُّمه وقلة تفهُّمه، ونقص حظِّه من العلم وتعلُّمه.

---

(١) بنو مخلد: هما صاعد الذي ولي الوزارة للمعتمد، وعبدون المترهب، وجميعهم قبض عليهم الموفق يوم الاثنين ٩ رجب ٢٧٢هـ.

(٢) ابنا صاعد: هما أبو عيسى العلاء بن صاعد، وأبو صالح.

(٣) ديوانه ١/ ٥٤١ برقم ٢٢٧.

(٤) أحمد بن الخصيب الجَرْجرائي الكاتب. كاتب المنتصر قبل الخلافة. فلمّا استُخْلف وَزَر له، فظهر منه جَهْلٌ وحُمقٌ وتِيه.

قال له المنتصر يوماً: أريد أن أُقْطِع السيّدة، يعني أمَّه، ضياع شجاع والدة المتوكِّل.

قال: وما قلت للفاجرة؟

فال المنتصر: قتلني الله إن لم أقتلك.

وكان سيّء الخُلق متكبّراً، استغاث به مظلوم يوماً، فأخرج رِجْله من الرّكاب ورَفسه على فؤاده، فسقط ميتاً. فعزَّ ذلك على المنتصر، وأراد قتله، فمات قبل أن يتفرَّغ له. =

وكان يتردد في رأيه، ويتوقف في إيقاف كل أمر ومضائه، وكان ربما سبقت له إلى جلسائه بادرة غضب لا دخان /٧٧/ لها، ولا لهب، ثم يعصب سوء فعله بندمه، ويشعب سوء بؤسه بتلافي كرمه، ومع هذا تقدَّم الأكفاء، وتخلفوا وراءه، وملك الخلفاء، وهو الذي أخذ البيعة للمنتصر.

وقال الحسن بن مخلد: دخلت عليه زمان المنتصر وعنده أحمد بن إسرائيل، فجرى شيء تعجبت منه، فقلت له: أو ليس من العجب ـ أعزَّك الله ـ أن يكون كذا وكذا؟ فقال لي: وأعجب والله منه يا أبا محمد أن تكون في دار أمير المؤمنين آمناً مطمئناً، وأنت بالأمس تضرب عليه وتسعى في تقديم أخيه عليه، وتفعل وتصنع والله إنَّه لعاقل عن ضرب عنقك، فقلت له: يا سيدي لا أعدم الله خدمتك. قال: فانقلبت عينه وارتعدت فرائصه ولم يدع شيئاً من القبيح إلا قاله، ثم قال لي: أمزح معك، فيقول لي: ما قلت والله ليسَفِكَنَّ أمير المؤمنين دمك وليشفينَّ صدره منك، فقال له أحمد بن إسرائيل: جعلني الله فداءك، قد أمن الله خدمك أن ينالهم في أيامك دون هذا فضلاً عنه، فانقلب على أحمد، وقال له: وأنت أيضاً تتكلم كأنك ترى مما دخل فيه هذا، أو

= وقيل: إنه رُفعت له قَصص بني هاشم، فكتب عليها: هشَّم الله وجوههم. وكتب على قصةٍ للأنصار: لا نَصَرَهم الله.

ولمّا ولي المستعين همَّ به، فأرضاه بالأموال، فيقال إنَّه أعطى المستعين ألف ألف درهم؛ وغضب عليه، ونفاه إلى جزيرة أقريطش سنة ٢٤٨هـ. وكانت وفاته سنة ٢٦٥هـ.

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٧، ٤٩٣، ٤٩٤، وتاريخ الطبري ٩/ ٧٥، ١٢٥، ١٢٨، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٠، ٣٤٣، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٩، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١٢٦، ١٦٢، والعقد الفريد ٣/ ١٠، ٤/ ١٦٥، ١٧٠، ١٧٢، والهفوات النادرة ٢٦١ـ٢٦٥، ٢٦٧، والعيون والحدائق ١/ ٤٤٩، ٥٢٧، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٤، وتاريخ حلب للعظيمي ١١٣، ٢٥٩، ٤٨٢، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٢٥٠، ٢/ ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٢١٧، ٣/ ١٥٢ـ١٥٤، ونشوار المحاضرة ٨/ ٤٩، ٨٣، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ٢/ ١٠٥، ٢٧٩، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٤٦، والتنبيه والإشراف ٣١٤، ومروج الذهب ٢٨٣٤، ٢٩٨٥، ٢٩٨٨، ٢٩٩٢، ٢٩٩٨، ٣٠٠٦، ٣٠٠٩، ٣٠١٧، وأخبار البحتري ١١٢ـ ١١٣، ومعجم الأدباء ١٨/ ٣٠٣ـ ٣٠٤، والأذكياء لابن الجوزي ٦١، والكامل في التاريخ ٧/ ١٠، ١٠٣، ١٠٤، ١١١، ١١٧، ١١٩، وتحفة الوزراء للثعالبي ١٢١، والفخري في الآداب السلطانية ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٦٩، ٢٧٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٤١٨، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٢٨ـ ٢٢٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٥٣ رقم ٢١١، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٢ رقم ٢٨٧٣، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٩، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤١، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ٢٥٠هـ) ص٤٠ رقم ١٨.

أنَّه عمل شيئاً، وما علمت أنت أضَعافه، ومن كان آفة أمير المؤمنين مع أبيه غيركما، والله لأفعلنَّ بكما، ولأصنعنَّ، قال: فأغاثَنا الله بشغل أشغله عنَّا. وبقينا متوقعين أن يأمر فينا بسوء، فلما فرغ من شغله أخذ ورقتين مما قدَّامه، وكتب عليهما، استؤمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه في ذلك، فأمر بإمضائه، ثم رماهما إلينا، فإذا فيهما حوائج كنَّا سألنا فيها عبد الله بن يحيى من أول ما تقلَّد الوزارة، فأخَّره عنا، فقمنا فقبلنا يده، وشكرناه فقال: سبحان الله أتشكران هذا مني، وإني شيء فعلته من قضاء حقكما إلاَّ أنِّي، ربما عجلت في بعض الأوقات مني حدَّة فاحتملوني.

وقال أبو القاسم يحيى بن زكريا: إنَّ خطّ أحمد بن الخصيب كان رديئاً جداً، وإنه كان في ديوانه ابن لإنسان علاف يشبه خَطُّه خطَّه، فكان يزوِّر عليه، ويأخذ الحمل، فاتصل الخبر بأحمد، فأحضره، وقال له: قد اتَّصل بي ما تفعل، وقد أجريت عليك خمسين ديناراً كل شهر على أن تترك ما أنت عليه، ثم لك عندي مزيد الإكرام. فعفَّ مدَّة، ثم عاود عمله الأول، فقيل لأحمد عنه، فطلب أباه، وقال: إنَّ ابنك ابتدأنا بالإساءة، فجزيناه بالإحسان، وأزلنا /٧٨/ ضرورته التي كانت تحمله على ما يعمل، ثم هو قد عاود، ولا يجاورني في هذا البلد، ثم أمره بالمقام ببغداد واستمر بجارية عليه.

وقال أحمد بن أبي الإصبع: اجتمع لبلال البزار عند المتوكِّل ألف ألف ومائة ألف دينار وما ابتيع منه الأمتعة، فلما قتل المتوكِّل يئس من المال، فأتى وسألني أن أكلم أحمد بن الخصيب له، ليعطيه نصف ماله، ويأخذ هو النصف، وكتب بذلك رقعة، فأخذتها، وتوجَّهت وقت خلوة، وجعلت أقلبها بيدي، فنظر إليها، وقال: ما هذه؟ فدفعتها إليه، فقال لي: وهذا المال لبلال؟، فقلت له: نعم، فقال: فاخرج لي حسابه، وصححه، فرآه صحيحاً، فقال لي: إذ كان هذا المال لهذا الرجل فلأي شيء يرضى بنصفه ويعطي نصفه؟ ثم وقع له به، وصرف عليه المال، ولا والله ما رزأه ابن الخطيب شيئاً منه.

ولما ولي المستعين أعطى الكتَّاب مائة ألف درهم لكل كاتب، وأعطى ابن الخصيب ثلاثمائة ألف درهم، وأشياء أخرى وأمتعه، منها فرش الجعفري الذي كان للمتوكِّل، فحمل على نحو مائتين وخمسين حمل بعير، وزاد في إقطاعه بلاداً يغلُّ كل سنة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، وأقطع ابنه محمد بن أحمد الخصيب بلاداً تغلُّ في السنة مائتين وخمسين ألف درهم.

ومنهم:

[٣٥]
سعيد بن حُميد[(١)]

وكان المستعين استوزره لما قدم بغداد، وله بلاغة مشهورة، وكتب متداولة، وأشعار كثيرة متناقلة، فمنها قوله في جارية كان يحبها، وتتجافى عليه، فيكثر منه عتبها: [من الطويل]

فِدَاكِ أَبِي مالي أراكِ بَخِيلةً ... مُقيماً على علاَّتِهَا مُستزيدُها
فإنَّكِ كالدُّنيا تُذمُّ صُرُوفُها ... ونُوسِعُها عَيْنَاً ونحنُ عَبِيْدُها

ومنه قوله: [من الكامل]

خَلَتِ المنازلُ مِنْ أحِبَّتنا ... وَنَأتْ بِهِمْ عَنَّا يَدُ الدَّهْرِ
وأشَدُّ ما لا قَيْتُ بَعْدَهُمُ ... أنِّي فُجِعْتُ بهمْ وبالصَّبْرِ

/ ٧٩ـ قلت: وحضره جماعة من أهل الفضل والأدب عند انبلاج الصباح، والأفق قد حالت حالتُه، وحفَّت بالبدر هالتُه، والشُّعاع كأنَّه حسامٌ مُصلت يحاول دوسه، والبدر كأنَّه غلام من الترك على وجهة فرسه، فقال: صفراء على هذا الحال، فأخذوا في الفكر، فسبقهم، وقال: [من الرجز]

مَحَا دُجَى الليلِ أديمُ الفَجرِ ... ومَا انْمَحَى منه أديمُ البَدْرِ
كأنَّه لمَّا رَمَى شُعَاعَهُ ... مُهنَّدٌ يُسَلُّ فَوْقَ نَهْرِ

وانتبه يوماً والديك قد هبَّ من نومه، وهو سكران طافح، والشِّعرى أيام الجوزاء كرُخٍّ جرَّه رامح، وسهيل كأنَّه كرُظمآن في نهر الماء، والعَيُّوق سائق ظعنٍ قيد خطاه لا يتسرع، والجوزاء ترقص في مِنْطَقَةٍ مُذْهَبَه و... في جانب عذير معشبة، فقال: [من المنسرح]

تَنبَّهَ الديكُ للصُّبوحِ وَقَدْ ... تأهَّبَ اللَّيْلُ ثُمَّ ما ذَهَبَا
والأُفُقُ جَوزاؤه تُقابِلُهُ ... الشِّعْري كما قامَ رامِحٌ وَثَبَا

---

(١) سَعِيد بن حَمِيد بن سعيد، أبو عثمان: كاتب مترسل، من الشعراء. أصله من النهروان الأوسط، من أبناء الدهاقين. ومولده ببغداد، ثم كان يتنقل في السكنى بينها وبين سامراء. وقلده المستعين العباسي ديوان رسائله. توفي نحو ٢٥٠هـ/ نحو٨٦٤م. أكثر أخباره مناقضات له مع فضل الشاعرة. وشعره رقيق، كان ينحو فيه منحى ابن أبي ربيعة وأضرابه، وجمع معاصرنا يونس بن أحمد السامرائي البغدادي، ما وجد من «رسائله وأشعاره ـ ط» بغداد.

ترجمته في: الأغاني ١٧/ ٢ـ٨، والمورد ٣/ ٢/ ٢٢٨، الذكريات ١/ ٧٤، مصادر الدراسة ٣/ ٣٥٠ وهو فيه «سعيد بن إبراهيم» خطأ، الأعلام ٣/ ٩٣ـ٩٤، معجم الشعراء للجبوري ٢/ ٣٢٢، رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ١٢٥ برقم ١٢.

وَقَدْ رَمَى على محربه العُـ ـظَمَى سُهَيْلٌ فغَبَّ أو سَرَبَا
ومُسْتَنِيرُ العَيُّوقِ حيثُ دَنا كعاجِزٍ رامَ نهضةً فَحَبَا
وَخِلْتَ قَبْلَ الصَّبَاحِ... تَدَرَّعَ اللَّيْلُ لِلْوَغَى...

ومنهم:

[٣٦]

أحمد بن إسرائيل[1]

ولما استقامت الأمور للمعتزِّ وزره، وألقى إليه مقاليد أموره، ووزره، وأخرجَ نظراه وصدره.

وحكى عنه إبراهيم بن زكريا النصراني المتطيب، قال: غمزت رجليه ليلتين فوهب لي ستة آلاف دينار، ثم قال لي: أقصص هذا المال لا يطير. فلم أدرِ ما أرادَ، فاسْتَفهمته إياه، فقال: تبتاع بع عقاراً يُنتفع بفضله، ويبقى عليك وعلى أهلك أصله. قال: وكان في حضرته بعض كتابه، فقال: يا سيدي هنا / ٨٠/ ضياع خراب تبتاعها وتعاونه عليها، فقال له: افعل، فابتاعها لي بسبعة آلاف دينار من مال أحمد بن

---

(١) أحمد بن إسرائيل بن حسين، أبو جعفر الكاتب: وزير المعتز بالله، الأنباري، ولي ديوان الخراج للمتوكّل وللمنتصر، ثمّ ولي كتابة المعتزّ قبل خلافته. فلمّا ولي الخلافة استوزره، وكان يحبّه ويركن إليه في الأمور، فخلع عليه للوزراة في شعبان سنة ٢٥٢هـ.
وكان أحمد بن إسرائيل من أذكياء العالم لا يسمع شيئاً إلا حفِظَه. وكان [إليه المنتهى] في حساب الديوان. وأوّل من قدّمه وأظهره محمد بن عبد الملك الزيّات.
قال الصُّوليّ: حدَّثني الحسين بن عليّ الباقطائيّ قال: قال لنا أحمد بن إسرائيل: كنت في الديوان [أيام محمد الأمين] فما كان أحدٌ من أهل الدّيوان أصغر مني. ولقد كنت أنسخ الكتاب، فلا أُفْرِغُهُ حتى أحفظ ما فيه حرفاً حرفاً. فعلتُ هذا مرّاتٍ كثيرة. وسمعت أحمد بن إسرائيل ينشد:
لا يكون السَّريُّ مثلَ الدَّنيّ لا ولا ذُو الذَّكاء مثل الغبيّ
قيمةُ المرءِ مثل ما يُحسن المرء قضاء من الإمام علي
ولم يزل أحمد بن إسرائيل وزيراً للمعتزّ إلى سنة ٢٥٥هـ، وكانت وزارته دون ثلاث سنين. قتله صالح بن وَصِيف بالضَّرْب في المصادرة، فهلك تحت الضَّرْب في سنة ٢٥٥هـ.
ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٨٧، ٥٠٤، ٥٠٥، والبيان والتبيين ٣/ ٤٥، والتنبيه والإشراف ٣١٦، ومروج الذهب ١٧٥٠، ٢٨٣٤، ٣١٢٣، والعقد الفريد ٤/ ١١٦، وإعتاب الكتّاب (انظر فهرس الأعلام)، وثمار القلوب للثعالبي ٤١، وربيع الأبرار ٤/ ٢٣٩، والوزراء والكتّاب ٦٥/ ٦٦، والهفوات النادرة ٣٥٦، ونثر الدرّ للآبي ٤/ ٨٣، والعصا لابن منقذ ٣٠٤، والتذكرة الحمدونية ١/ ٤٤٠، والفخري في الآداب السلطانية ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٣١، وتاريخ الطبري ٩/ ١٢٥، ٢١٧، ٣٢٤، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، =

إسرائيل، وعمرتها، وعلم العامل بعنايته بي، فتجافى لي عن حقّ بيت المال، فاستغللتها لي جملة عظيمة، ثم صارت تزيد غلاَّتها، فقال لي يوماً: أيُّ شيء خبرُك في ضياعك، فقلت له: خير، قد ملأت يدي غلَّتها، ووصلت إلى أملي بفضلك، وطاب قلبي لعواقتي بحسن نظرك، وأخذت في الشكر له، فقال: دع عنك هذا، وخذ في بيعها، فلا يبقى والله عليك، ولا على غيرك من جماعة السلطان شيء. فقلت له: ولم أعزَّك الله لما تقصده هذه المرأة في الأتراك، يعني قبيحة أم المعتز.

* * *

= ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٦، والوزراء للصابي ٢١٢، والفرج بعد الشدّة ١/ ١٠٥، ٢١١، ٢/ ٩٢، ١١٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٣/ ٢٧٥، ٢٧٨، ٤/ ١٢٥، وتجارب الأمم ٦/ ٥٢٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣ رقم ١٢٩، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٤٣ـ ٢٤٤، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٦، ونصوص ضائعة من الوزراء والكتّاب ٦٥ـ٦٨، ٧٥، ٨٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١ـ٢٦٠هـ) ص٣٣ رقم ٣ .

[بنو وهب]

ومنهم: بنو وهب، الأخوان:

[٣٧ـ ٣٨]

سليمان[١] والحسن[٢]

وكانوا سادة، وكبراء، وكتاباً ووزراء، وتقدَّموا تقدَّماً أخَّر الأقران والنُّظراء، وقعدوا وأوقفوا أقدامهم الأمراء، ولاقوا للمدائح، واستقطَروا بها الشعراء، حتى كان ابن المعتز ممن مدحهم، وتقلَّد منهم، وأخذ منحهم. وفيهم يقول[٣]: [من الطويل]

لآلِ سليمانَ بنِ وهبٍ صنائعٌ　　عليَّ ومعروفٌ لديَّ تقدَّما
هُمْ علَّموا الأيامَ كيفَ تسرُّني　　وهُمْ رَحَضُوا عَنْ ثوبِ والديَ الدَّما

ولما توفي الحسن بن عبيد الله، كتب ابن المعتز إلى أبيه الوزير عبيد الله: [من الكامل]

قل للوَزِيرِ: لئِنْ أُصِبْتَ بحادِثٍ　　لَمْ نَخْلُ مِنْ جزْعٍ ومِنْ إقْلاقِ
فَلَقَدْ عتبتُ الدهرَ إذْ شاطرتُهُ　　بأبي الحسينِ كَفىً بِهِ مِنْ بَاقِي

وكتب أيضاً معزيه عن ابنه الحسن[٤]: [من الكامل]

قُلْ للوَزِيْرِ هُوَ الزَّمانُ وصَرْفُهُ　　وَالمَرْءُ... رَاحِلٌ يصيرُ إليهِ
فَلَقَدْ عَتَبْتُ الدَّهرَ إذْ شاطَرْتُهُ　　بأبي الحسينِ وقَدْ برحْتُ عَلَيْهِ
وأبو محمدٍ الجليلُ مصابُه　　لَكِنْ يمينُ المَرءِ خَيْرُ يَدَيْهِ

ولم يكن منهم إلاَّ كل جوادٍ كريم، ثم حادث من السؤدد وقديم.

---

(١) سليمان بن وَهْب بن سعيد بن عمرو الحارثي: مرّت ترجمته برقم (٣٠).

(٢) الحَسَن بن وَهْب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي، أبو علي: كاتب، من الشعراء. كان معاصراً لأبي تمام، وله معه أخبار. وكان وجيهاً، استكتبه الخلفاء، ومدحه أبو تمام. وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي) مات نحو سنة ٢٥٠هـ/ نحو ٨٦٥م ورثاه البحتري.
ترجمته في: فوات الوفيات ١/ ١٣٦، وسمط اللآلي ٥٠٦، الأعلام ٢/ ٢٢٦.

(٣) شعر ابن المعتز ٣/ ٦٥ برقم ١١٨٣.

(٤) شعر ابن المعتز ٣/ ١١٢ برقم ١٢١٨.

/ ٨١/ وفي عبد الله يقول ابن الرومي: [من الطويل]

إذا ما عبيدُ اللهِ ضاهاهُ قاسمٌ فَتَمَّ قديمُ المَجْدِ ضَاهَاهُ حادِثُهْ
فَتًى قبلَ الأموالَ في سُبُلِ العُلا ليُؤثرهُ المجد السَّنيَّ مَوَارِثُهْ
تَرَى صاحِبَيْه ذا سؤالٍ تمنعه فواضلُه أو ذا سؤالٍ يباحِثُهْ
ولا يَجتَني المستورَ مَنْ لا يزورَه ولا اللُّؤلُؤ المنثورَ مَنْ لا يُحادِثُهْ
فما فضلُهُ والمدحُ دَعوَى ومُدَّعٍ ولكِنْ هُما مِسْكٌ ذَكِيٌّ ومائِثُهْ[1]

وفيهم يقول: [من الخفيف]

آلَ وَهْب هُنِّئْتُمُ نعمةَ اللهِ فَمَا زِلْتُمُ لها أشْكالا
كانتِ الأرضُ ظُلْمَةً وَحَرُوراً أوْسَعَ النَّاس فِتْنَةً وضَلالاَ
فاخْتَرَعتُم مِنَ الذَّكاءِ شُموسَاً وابْتَدَعتُمْ مِنَ السَّماحِ ظِلالاَ
سادَةُ النَّاسِ كالجبالِ وأنتمْ كالنُّجوم التي تفوقُ الجِبالاَ[2]

ومن بني وهب:

[٣٩]

أحمد بن سليمان بن وهب[3]

ذكر صاحب بغية الألباء، وعده في أفاضل الأدباء، وقال، إنَّه تصرف في الأعمال، ونظر السلطان في جناية الأموال.

وأنشد له: [من الكامل]

حُفَّتْ بِسَرْوٍ كالقِنَانِ تَلَحَّفَتْ خُضْرَ الحَرِيْرِ على قَوام مُعْتَدِلْ
فَكَأنَّها والرِّيْحُ حِيْنَ تُمِيْلُهَا تنوي التعانقَ ثم يَمْنَعُهاَ الخَجَلْ

ومن نثره جواب كتبه هو:

«وصلت رقعتك، أعزك الله ـ وكانت كوصلٍ بعد هجر، وغنًى بعد فقر، وظَفَرٍ بعد صبر، ألفاظها درّ مَشُوف، ومعانيها جوهر موصوف، قد أبحنا أحسن صحبة، وتألفنا أقرب ألفة لا يمحوها إلاَّ دان، فلا تتعب بها الأذهان».

* * *

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٤٠٤ـ٤٠٦ رقم ٣٣٨.
(٢) من قصيدة قوامها ١٠٢ بيتاً في ديوانه ٥/ ١٩١ـ ٢٠٠ برقم ١٤٨٢، ط دار الجيل ـ بيروت.
(٣) أحمد بن سليمان بن وَهْب، أبو الفضل: كاتب له شعر، من أهل بغداد، من بيت وزارة وفضل. تقلّد أعمالاً منها النظر في جباية الأموال. توفي سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م. له «ديوان شعر» و«ديوان رسائل».
ترجمته في: معجم الأدباء ١/ ١٣٦، الأعلام ١/ ١٣٢.

ومنهم:

[بنو ثوابة]

بنو ثوابة، كتبوا ثم كانوا فرسان كتابة، استكتبهم عبد الله بن القاسم. وكان أحمد /٨٢/ خمارويه بن أحمد بن طولون لما نقل ابنته إلى المعتضد، كتب إليه يذكره بحرمة سلفها بسلفة... ويذكر ما ترد عليه من أبهة الخلافة، وروعة الملك، وسأله إيناسها وبسطها، فأراد عبيد الله أن يجيب عن الكتابة بخطِّه، فسأله جعفر بن محمد بن ثوابه أن يؤثره بالجواب، فأنعم له بالإجابة، وكتب على البديه كتاباً قال فيه:

«فأمَّا الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك، عناية بها، واحتفاء بسببها، وحياطة عليها، ورعاية لمواتك فيها، ولعمرك أنها الدرَّة الثمينة، استودعت اليد الأمينة. ثم قال ابن ثوابة للوزير: تسميتي لها الوديعة ـ أعزَّ الله الوزير ـ نصف البلاغة».

قلت: ولقد أمرت وأنا بدمشق بكتابة كتاب عن كافة الممالك بها إلى الأمير بكتمر الساقي بملاحظة بنت له كان زوجُها يقرب للأمير قوصون، فكتبت عنها في الكتاب بهذه اللفظة، فقلت: وديعة إحسانه، ولم أكن وقفتُ على ما ذكره ابن ثوابة، وأنا ذكرت هذه الاتفاق توارد الخواطر.

وفي بني ثوابة أهاجٍ منها قول أحمد بن علي: [من البسيط]

قالوا: ثوابةُ أضْحتْ وهيَ ساخطةٌ ... قدْ قدَّتِ الجَيْبَ مِنْ غَيْظٍ ومِنْ ضَجَرِ
لا تعْجَبُوا لِقميصٍ قُدَّ من قُبَلٍ ... فإنَّ صاحبَهُ قَد قُدَّ مِنْ دبُرِ

ومنهم:

[٤٠]

إسماعيل بن بلبل[1]

وزير المعتمد، وكان أخوه الموفق عليه يعتمد، وشرَّفه بالمصاهرة، وخلط نسبه بأنسابه الطاهرة.

---

(١) ترجمته في: المختار ١٦، ١١٧، (١، ٤، ٢١، ٤٨، ٤٩، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ١٠٠، ١٠٢، ١١٣، ١٢١ـ١٢٤، ١٣١، ١٣٥، ١٤٤، ١٥٩، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٤)، زهر الآداب ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٢٧٢، ٢٧٤، ٣٤٨، ٨٤٣، (١ـ٧، ٢١، ٢٢، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٤٨، =

ولما قدم ابن بلبل دار الخلافة، ارتجت الدار، وخرج إليه الموفق بنفسه، وأخذ في زيادة أنسه، ثم كانت المصاهرة.

قال ابن عبدوس: حدَّثني من كان يكتب لإسماعيل بن بلبل أنه لما وقع الصهر بينه وبين الموفق وزوج عبد الواحد بابنته، أمر بتقدير ما يحتاج إليه للمطبخ، فكان مما يقدر ثمانمائة جدي، فكتب إلى ضياعه بحملها، فيما يحمل منها إليه، وقرب وقت الحاجة، ولم تصل، فاستأذنه كاتبه في ابتياعها، هي وبقية /٨٣/ ما طلب، ولم يصل، فأذن له، فابتاعه، ثم وصل المطلوب، فاستأذنه في ردِّ ما أخذه على أصحابه للاستغناء عنه، فقال: هذه نذالة، بل اذبح الجميع، ووسع على الناس.

وقال ابن عبدوس كلاماً مختصره: قد كان أيام كتابته لعبيد الله بن سليمان قد قطع على عيسى بن الشيخ في معنى تعلقاته مائة ألف دينار لعبيد اله بن سليمان، وعشرين ألف دينار لنفسه، فلما تم الأمر استأذنه عيسى بن الشيخ في حمل المال فقال: معاذ الله، والله لا أخذت على معروف صنيعة، ثم قال: إنما أردت ـ بما كنت قررته لي عليه من المال ـ علامة بمقدار ما فعلته معه.

وفيه يقول ابن الرومي[(١)]: [من البسيط]

قالوا: أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيبانَ، قلتُ لهمْ: ... كَلاَّ لَعَمْرِيْ وَلَكِنْ مِنْهُ شَيبانُ

وَكَمْ أبٍ قَدْ عَلا بابنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كما عَلَتْ بِرسُولِ اللهِ عَدْنانُ

ولَمْ أقصِّر بشيبانَ الَّتي بلغتْ ... مِنها المبالغُ أعْرَاقٌ وأغْصَان

تلقَاهُمُ ورماحُ الخطِّ دونَهمُ ... كالأسْدِ ألبَسَهَا الآجامُ خُفَّانُ

سُودُ السَّراوِيلِ مِنْ طُولِ ادِّرَاعِهِمْ ... بيضُ المحاسنِ والأعراضِ عنوانُ

لا يوحشُ المجدُ مِنْ شيبانَ أنَّهم ... قومٌ يكونونَ حيثُ المجدُ مذ كانُوا

المُنْعِمُونَ وما منُّوا على أحَدٍ ... يوماً بنُعْمَى وَلَو مَنُّوا بِما مَانُوا

= ٤٩، ٦٦، ٦٧، ٧٣، ٩٢، ١٠٠، ١٢١، ١٢٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٦١، ١٦٢، ١٣١)، الموشح ٢٨١، ٤٣٤، ٥٤٥، (١ـ٦، ٨٦ ـ ٨٩)، محاضرات الأدباء ١/ ٢١٠، (٨٧ ـ ٨٨)، يتيمة الدهر ٢/ ١٢٢، ٤، الرسالة الموضحة ١٢٤، (٥٩)، سمط اللآلي ٦٣٥، ١٦١، شروح سقط الزند للبطليوسي ١١٥١، (١٦٢)، ثمار القلوب ١٨/ ٥٢٠، (١ـ٨، ٨٦، ٨٧)، نهاية الأرب ٢/ ٦٣، (٥٣، ٥٥، ٥٦)، خزانة الأدب ٤/ ٤١١، (٨٦ ـ ٨٧)، هدية الأمم ٥٠٩، (٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٠، ١٢١، ١٢٣)، مجموعة المعاني ١٧٤، (٢١٧ـ ٢١٨).

(١) من قصيدة قوامها ٢٣٥ بيتاً في ديوانه ٦/ ٢٤١٩ـ٢٤٣٥.

قــومٌ يُـعِـيْـرونَ مَـا كَـانَـتْ مُـغـالـيـةً حـتَّـى إذا قَـدَرَتْ أيـديـهـمُ هـانُـوا

وفيه يقول(١): [من البسيط]

يـفـدي أبـا الـصَّـقـرِ إن قـامـوا بـفِـدْيَـتـهِ قَـومٌ إذا مـدفـت أفـعَـالُـهُـمْ صـرُحـا
مـهـمـا أتـى الـنَّـاسُ مِـنْ طَـوْلٍ وَمِـنْ كَـرَم فـإنَّـمـا دخـلُـوا الـبـابَ الَّـذي فَـتَـحَـا
يُـعطي الـمُـزَاحَ ويُـعْـطِـي الـجِـدَّ حَـقَّـهُـمـاً فـالـموتُ إن جَـدَّ والـمعروفُ إن فَـرِحَـا
فـي كـفِّـهِ قَـلَـمٌ نـاهِـيْـكَ مِـنْ قَـلَـم نَـيْـلاً ونَـاهِـيْـكَ مِـنْ كـفٍّ بـهـا اتَّـشَـحَـا
يَـمـحُـو ويـكـتـبُ أرزاقَ الـعِـبـادِ بِـهِ فَـمَـا الـمَـقـادِيْـرُ إلاَّ مَـا وَحَـى وَمَـحَـا

ومنهم:

[٤١]

العباس بن الحسن بن أيوب(٢)

/ ٨٤/ وزر للمكتفي، ثم كان به يكتفي، لا يفضِّل عليه أحداً، ولو ظهر فضله عليه كالصباح إذا بدا.

وكان كاتباً بليغاً، غضَّ الأدب قدر الذهب، حلو الكلام كأن جنى النحل في عبارته، وغمزَ لواحظ الغيد في إشارته، يتلعب لفظه بالعقول تلعب الرياح، وتتغلب على الأفهام تغلُّب النهار على ضوء المصباح، ببدائع تهجر بها وشي الربيع، وتفخر على لألاء الفجر الصديع.

ومما كتبه إلى صديق يستدعيه إلى مجلس أنس انقطع للراحة فيه:

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٥٠٦ـ٥٠٧.

(٢) العباس بن الحسن بن أيوب الجرجرائي أو المادراني، أبو أحمد: من وزراء الدولة العباسية. كان أديباً بليغاً. ولد سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م. استوزره المكتفي، بعد وفاة القاسم بن عبيد الله، وكان القاسم يعجب من سرعة قلمه، ويقول: تسبق يده لفظي. ولما مات المكتفي قام العباس بالبيعة للمقتدر، وانفرد بأعمال الدولة إلى أن قتله حسين بن حمدان من رجال ابن المعتز غيلة سنة ٢٨٦هـ/ ٩٠٩م.

ترجمته في: تاريخ الطبري ١٠/ ١٤٠ـ ١٤١، ومروج الذهب ٣٣٥٨، ٣٣٩٧، ٣٤١٠، ٣٤١٤، ٣٤١٥، ٣٤٢٢، والتنبيه والإشراف ٣٢٧، والهفوات النادرة ١٦٠ـ ١٦١ رقم ١٦٢، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٥١ـ١٥٣، والفخري في الآداب السلطانية ٢٥٨ـ ٢٥٩، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ١٧١، والوزراء للصابي ٤، ١٠، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٥٠، ٨٠، ٨١، ٩٠، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١٣٠، ١٣٣، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٨، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٨٧ـ٣٩١، والعيون والحدائق ج٤ و٣/ ١٩٣، وثمار القلوب ١٩٥، ٦٨٧، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٣٩ـ ٢٤٠، ووفيات =

«كتبتها ـ أعزَّك الله وأدام إمتاعي بك إليك ـ وقد انتظم شملنا في بكرة، هذا اليوم الغنج البهج، ... والسماء كما ترى قد اكتنفتها سحب لا تنجلي ولا تمطر. لا تعرف سحّاً ولا طلاًّ، ولا تسكب رذاذاً، ولا وبلاً، ونحن في مجلس دارتْ كوبه علينا، وأُهديتْ كؤوسه إلينا، تُزفّ فيها عروس المدام كأنها خدود غلام. وعندنا شادٍ لا يعرف أيهما ألعب بنا نغمه، أم الكؤوس؟ وأوضح وجهه المنير، أم الشموس؟ فبحق ما بيننا من عهود الشباب، وحقوق اللذَّات والأتراب إلا ما كمَّلتَ طربنا بحضورك، ووصلت سرورنا بسرورك».

ومما كتبه إلى صديق له في منحةٍ سلة فيها:

«إنَّ الله تعالى ليمتحن العبد لكثرة التواضع له والاستعانة به، ويجد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدَّته؛ لأنَّ دوام النعمة والعافية كلاهما ينظر الإنسان، فيعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربِّه».

وقال محمد بن يحيى: ركب العباس بن الحسن بعد وفاة القاسم بن عبد الله: بيوم ـ وأنا معه ـ فاجتاز بدار القاسم، فرأى بابه خالياً فقال: لئن خلا هذا الباب لطالما امتلأ بالناس. قال: فقلت له: كأنَّ الوزير نطق بلسان ابن ناجية حيث يقول: [من الطويل]

وإن يُمْسِ وحشاً بابُهُ فلربَّما تَنَاطَحُ أفْوَاجَاً إليهِ المَواكِبُ
يُحَيُّونَ بأسَاً مّا كأنَّ جَبِيْنَهُ هِلالٌ بَدَا فانجابَ عنَه السَّحائِبُ
وما غائِبٌ مَن كانَ يَرْجُو إيَابَهُ وَلكنَّهُ من ضُمِّنَ اللَّحْدَ غائِبُ

/ ٨٥/ واستعدى ندماءه إلى روضة يكاد يذري الدمع نرجسها إذا أَضحى، ويقطر من شقائقها الدم لا يرقى، جرجار المدام قد طافت به الجواري، ولؤلؤ الطلِّ تضاحك صباب كؤوسها، ويخلط بلحن أنجمه ذهب شموسها، فقال لندماه كلاماً معناه:

هل رأيتم أحسن من يجري دمعته وهو يضحك، أو أعجب من المدام يحيي النفوس وأوداج أباريقه تسفك، فهل من قائل في ذلك؟، قالوا السيد أحق، فقال: [من المنسرح]

= الأعيان ٣/ ٤٢٦ـ٤٢٧، ٥/ ٥٧، والكامل في التاريخ ٨/ ١٤٨، وإعتاب الكُتّاب ١٨٦، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٥١ـ٥٥ رقم ٢٥، والوافي بالوفيات ١٦/ ٦٤٨ـ٦٥١ رقم ٦٨٩، وانظر: صلاة عُرَيب ٢٥ـ٣٣، وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ١٩١ـ١٩٥، ٣٩٨، ٤١٩، وتجارب الأمم ١/ ٥، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٨٦، الأعلام ٣/ ٢٥٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ـ٣٠٠هـ) رقم ٢٣١ .

انـظـر إلـى الـنَّـورِ مُـعْـرِبـاً ضَـحِـكَـا إذْ أسْـبَـلَ الـنَّـوُّ جَـفْـنَـهُ وَبَـكَـى
وانـظُـر إلـى الـكـأس إذ نَـعِـيـشُ بِـهِ وقَـد أطَـحْـنَـا لَـهُ دمـاً سُـفِـكَـا

وكتب العباس إلى زيادة الله الأغلب ـ صاحب المغرب ـ يرغِّبه في الطاعة، ويخوِّفه بالمكتفي، وملأ عليه منه، فوجه إليه ابن الأغلب برسل وهدية فيها مائة خادم، وخيل مختارة، وبزٍّ كثير، وعشرة آلاف درهم، وألف دينار في كل دينار عشرة دنانير، وعلى الدنانير والدراهم مكتوب من أحد الجانبين: [من الكامل]

يـا سـائِـراً نـحـوَ الـخـلـيـفـةِ قـل لـه نَـمْ قـد كَـفَـاكَ الـلـهُ أمـرَكَ كُـلَّـهُ
بـزيـادة الله بـنِ عـبـدِ الـلـهِ سـيْـ ـفِ الـلـهِ مَـنْ دونَ الـخَـلـيـفَـةِ سَـلَّـهُ

ومن الجانب الآخر: [من الكامل]

مَـا يَـنْـبَـرِي لـكَ بـالـشِّـقـاقِ مُـنـافِـق إلاَّ اسـتَـبَـاحَ حَـرِيْـمَـهُ وَأذَلَّـهُ

ووجه إلى العباس بهدايا كثيرة، فلما كان بعد شهر، ورد الخبر بانهزام ابن الأغلب من الخارج عليه بالقيروان، ومجيء ابن الأغلب إلى مصر، وإن تعجب بنفسه ورجاله.

[بنو الفرات]

بنو الفرات، وهم كبراء الوزراء والكتاب الذين تلقوا أمر الخلافة، وأطربوا ببدائعهم لا بالسلافة، وتنقلوا في الممالك فكانوا نواها، وتتبعوا خللها، وكادوا لأُواها. وضعوا الأَيَّام بالميراث، وسعوا بالشام المشوات، وخدموا الملوك، ونظموا السلوك، وأفادوا مناً جساماً، وكشفوا البدور وجوهاً وساماً، فما حلُّوا في إقليم إلاَّ /٨٦/ وحلُّوا بحلولهم كنفه، وزلُوا أقمارهم تحفه، وتدفق في كل مربع منهم عدن فرات، وتأنق كما نشرت عليه خيرات.

[٤٢]

[محسن ابن الفرات]

إلاَّ أنَّ محسن بن الفرات[1] كان لا يحسن في فعله، ولا يحسب حساب أحدٍ من جهله، وغرَّته مسالمة الأيام، ومساعدة الزمان، وكان يحمله على هذا الأسباب سكران سكر سعادة... وسباب، فلهذا كان إذا ذكر عيبه ندم، وإذا أظهر سعته لا يلم، وكان من يقصده لحاجة ترتقت عينا، فإذا أعاب عرض حاجة، ليكون قضاؤها أسهل عليه، وأنهل إلى حمل من يحمله إليه، فإنه كان قصده عن حوائج الناس ويوقف قلمه أن يجري إلاَّ لمبيع، ويصل لا يقطع، فقلَّ موقعه، وتمنُّوا زوال زمانه، ودانوا في... سوء محضره فعاد شؤمه على ابنه، ورأى به ما كره في نفسه وفيه.

---

(١) المحسِّن بن علي بن محمد ابن الفُرات: من أبناء الوزراء. في سيرته عسف وجبروت. ولد سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. كان مع أبيه ببغداد. وولاه أبوه «ديوان المغرب» سنة ٢٩٧ وعزلا معاً ونكبا سنة ٣٠٦ ثم عاد أبوه إلى الوزارة (سنة ٣١١هـ) وهي وزارته الثالثة، فأطلق يد «المحسن» في أمور الدولة، فبالغ في الانتقام من خصومه وخصوم أبيه، وعذب وغرب. ولم تطل مدتهما. وكان الخليفة (المقتدر العباسي) مغلوباً على أمره لهما ولغيرهما من خاصته وغلمانه، فتحوّل عن رأيه فيهما، وأباح القبض عليهما، ثم أمر بقتلهما، وجيء برأسيهما. ووضع الرأسان في مخلاة وألقيا في دجلة وذلك سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م.

ترجمته في: صلة تاريخ الطبري ٣٤، ٧٣، ٧٤، ١١١-١٢١، وفيات الأعيان ١/ ٣٧٢-٣٧٣ في ترجمة أبيه «علي بن محمد»، الأعلام ٥/ ٢٢٨.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني، قال: قال لي أبو عبد الله يحيى الكاتب: إليَّ يكتب أبو الحسن بن الفرات أبا علي بن مقلة في رواية الثالثة، ولم أدخل إليه، ولا كاتبه متوجعاً له، ولا راسلته في شيء خوفاً من ابن الفرات مع ما بيني وبين ابن مقلة من ... الكوفة الأكيدة، فلما طال تمكينه كتب إليَّ رقعة في أولها: [من الطويل]

أبِنْ لِيْ أمِ القِرطاسُ أصْبَحَ غَالِيَا ... تُرَى حُرِّمَتْ كُتْبُ الأخِلاَّءِ بينَهمْ
وقد دهمَتْنَا نَكْبَةٌ هِيَ ما هِيَا ... فمَا كانَ لوْ سأَلْتَ كيفَ حَالُنا
وكُلٌّ تَراهُ في الرَّخاءِ مُرَاعِيَا ... صَدِيْقُكَ مَنْ راعاكَ عِنْدَ شِدَّةٍ
يكادُ الأعاديْ يَرْحَمُونَ الأعَادِيَا ... فَهَبْكَ عَدُوِيْ لا صَدِيْقِي فرُبَّما

ثم عطفها على رقعة إلى الوزير فيها: أقصرت أطال الله بقاء الوزير، ولا امتحن له صبراً عن الاستعطاف والشكوى حتى تناهت المحنة والبلوى في النفس والمال والجسم والحال إلى ما فيه شفاء للمنتقم، وتقويم للمحترم، وحتى أفضيت إلى الحَيْرَة والتبلُّد وعيالي إلى الهلكة والتلدُّد، وما أقول إن حالاً أتاه الوزير ـ أيده الله في أمري ـ إلا بحق واجب، وظن صادق غير كاذب، إلا أن القدرة تذهب الحفيظة والاعتراف، وتزيل الافتراق، وربّ المعرفة تورثه أهل الفضل والدين والإحسان إلى المسمى من أفعال /٨٧/ المتَّقين على كل حال، فلي ذمام وحرمة، وتأميل وخدمة، إن كانت الإساءة تصنعها، فرعايته الوزير أيده الله بحفظها، وإن رأى الوزير أن نلحظ عنده بعض رأفته، وينعم بإحياء مهجته، وبتخلُّصها من العذاب الشديد، والجهد الجهيد ويجعل له من معروفه نصيباً، ومن البلوى فرجاً قريباً، فعل إنْ شاء الله.

قال يحيى الكاتب: فأقامت الرقعة في كمي أياماً لا يمكن من عرضها إلى أن خلوت به يوماً، ثم قلت له: قد عرف الوزير ـ أيده الله ـ ما بيني وبين [ابن] مقلة من الألفة التي جمعتنا عليها خدمته، والله ما كاتبته، ولا راسلته، ولا قضيت له حقاً بمعونة، ولا غيرهما منذ سخط الوزير عليه، وهذه رقعته بدن عليه، وطيّها رقعة إلى الوزير إن أذن عرضها عليه. فقال: هاتهما فأخذهما فقرأهما، فقلت: اسأل الوزير أن يكتم عليَّ ذلك عند أبي أحمد ـ يعني المحسن أبيه ـ فإني أخافه، فقال: أفعل، ثم قال: والله يا أبا عبد الله لقد تناهى هذا الرجل في السعي على دمي ومالي وأهلي، ثم قال: والآن، وحق محمد وآله ـ عليهم السلام ـ لا جرى على ابن مقلة مكروه بعد هذا، وأنا آخذه من يد المحسن، وأنفذه مع سليمان بن الحسن إلى فارس، وأجريه مجراه في الأمر بحراسة نفسه، وباقي حاله. فلما كان في غد أنفذ من انتزعه من حبس المحسن، وأخرجه إلى فارس هو وسليمان، فسلما، وأمسك المقتدر علي بن محمد بن الفرات

وانتُهبت أمواله، وحصل منها سبعة آلاف ألف دينار، وأبقى عليه أملاكه، وكانت غلاتها في السنة ألف ألف دينار، فكان يشغلها وهو معزول. وذكر ذلك ابن عبدوس في كتاب الوزراء.

وكان أبو محسن ضجوراً، وكانت أولاده قد تحمل عليه، وكلٌّ منهم يسعى لمن يرتشي منه، وكان يتولى العمل الواحد عدَّة من العمال في الأيام القليلة، حتى أنه ولّي مياه الكوفة، في شهر واحد، سبعة من العمال، فقيل فيه: [من الوافر]

وزيرٌ قد تكاملَ في الرَّقاعَهْ يُولِّي ثُمَّ يعزلُ بعدَ ساعَهْ
وإنْ هلُ الرَّشَا اجتمعوا عليهِ فخيرُ القومِ أوفَرَهُم بِضاعَهْ

ومنهم: / ٨٨/

[٤٣]

علي بن عيسى بن داود بن الجراح بن الحسن البغدادي الكاتب(١)

وزير المقتدر والقاهر.

وزير جل ماله، وكل أعماله حفظ حين أضيعت المناصب، وبقي ماله له حين ارتجع مال الغاصب، وكان لا يزال مطفياً لمواقع شرار، ومخفياً لطوائع سرار، يرى خير أيامه لا يوم نَدًى عرفه ساكب، وجولة طلبة علم المواكب، وكان في أيام عطلته، وزمان تعرِّي منكبه من حلسه، أكثر مما هو موسوم الأيام محل المعاطف بالرتبات

---

(١) علي بن عيسى بن داود ابن الجَرَّاح، أبو الحسن البغدادي الحسني: وزير المقتدر العباسي والقاهر. وأحد العلماء الرؤساء، من أهل بغداد. فارسي الأصل. ولد سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٩. نشأ كاتباً كأبيه. وولي مكة. واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠هـ، فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحمدت سيرته. ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤ وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ ومنها إلى صنعاء. وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ فعاد. وولي فيها الاطلاع على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما. وأعاده المقتدر إلى الوزارة فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ ونقم عليه سنة ٣١٦ فعزله وقبض عليه. ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨، وهكذا كانت حياته ملؤها الاضطراب. وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م. له كتب منها «ديوان رسائل» و«معاني القرآن» أعانه عليه ابن مجاهد المقري، و«جامع الدعاء» و«كتاب الكتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء». وللكاتب الإنكليزي هارولد بوين Harold Bowen كتاب في «حياة علي بن عيسى وعصره» بالإنكليزية سماه: «The life and times of Ali ibn Isa, the good vizier» طبع في كمبردج سنة ١٩٢٨م، في ٤٢٠ صفحة.

المعجم الصغير للطبراني ١/ ١٩٩، وإعتاب الكتّاب ١٨٦-١٨٩، والفهرست لابن النديم ٨٦، والعيون والحدائق ج٤ ق٢/ ١١، ٢٧، ٣٦، ٣٧، ١٠٥، ١٢٤، ١٥١، والوزراء للصابي (انظر =

العظام، لوفور دخل لا يكاثر، ولا يقاس بالسحاب الممطر إن كاثر.

قال الفاضل أبو الصفاء الصفدي[١] : كان على الحقيقة غنياً، شاكراً، صدوقاً، ديناً، خيِّراً، صالحاً، عالماً، من خيار الوزراء. وهو كثير البرِّ والمعروف والصلاة والصيام، ويجالس العلماء. توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ووزر للمقتدر مرتين، وكان يستغل ضياعهُ في السنة سبعمائة ألف دينار، ويخرج منها في وجوه البر ستمائة ألف دينار، وينفق أربعين ألف دينار على خاصته، وكانت غلّته عند عطلته ولزوم بيته نيِّفاً وثمانين ألف دينار، ينفق على نفسه وخاصته ثلاثين ألف دينار، ويصرف الباقي في وجوه البر.

= فهرس الأعلام) ٤٢٨، والهفوات النادرة ٢٩٤، وتاريخ الأنطاكي ٤٢، ومروج الذهب ١٠، ٢٣٥، ٧٢٣، ١٣٧٧، ٣٤٢٢ـ٣٤٣٤، والتنبيه والإشراف ٣٣٧، ٣٣٤، وتكملة تاريخ الطبري (انظر فهرس الأعلام) ١/ ٢٥٧، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ١٧٦، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٣٢، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥، ٢/ ٤٥، ٤٨، ٥١، ٥٦، ٦٣، ٧٦، ١٣٢، ١٣٦، ١٤١، ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٦٢٤، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٧٩، ٣/ ١٨٩، ١٩١، ١٩٤، ١٩٧، ٤/ ٣٥٢، ٣٦٤، ٣٧٠، ونشوار المحاضرة، له ١/ ١١، ٢٢، ٢٥، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٥، ٨٤، ٨٥، ١٠٠، ١١٧، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢/ ٢٩، ٣١ـ٣٥، ٥٨، ٨٩، ١٣٤، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ٢٤٣ـ٢٤٥، ٣/ ٣٥، ٤٠، ٤١، ٧٢، ٩٥، ٩٦، ١٧٨، ٤/ ١٩ـ٢٢، ٢٩ـ٣٤، ٤١، ٤٧، ٥٤، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٨٣، ١٠٧، ١٧٥، ١٧٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٥/ ٥٠، ٥٤، ٧٨، ٨٠ـ٨٤، ٢٠٩، ١/ ٨٠، ٨١، ٧/ ٤٦، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٥، ٨/ ١٠، ٢٥، ٣٢، ٤٩ـ٤١، ٥٤، ٦٠، ٨٥ـ٨٨، ٩٣، ٩٦، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١٢١ـ١٢٦، ١٢٨ـ١٣٠، ١٣٣، ١٣٩، ١٣٩، ١١٤٣، ١٤٧، ١٨١، ١٩٠، ١٩١، ١٩٦، وخاص الخاص ٦١، ٦٢، ٦٥، ٩٢٨٨، وتحفة الأمراء ٢٨١ـ٣٦٤، وتاريخ بغداد ١٢/ ١٤ رقم ٦٣٧٣، الوافي بالوفيات، ط دار الفكر ١٤/ ٤٧٤ـ ٤٧٥ رقم ٢١٢١، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٥٣، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، وتحفة الوزراء ١٥/ ٥٤، ٥٥، ١١٦، ١١٧، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ٤٣/ ١٢٠ـ ١٢٧ رقم ٤٩٩٥، والمنتظم ٦/ ٣٥١ـ٣٥٥ رقم ٥٦٩، ومعجم الأدباء ١٤/ ٦٨ـ٧٣، والكامل في التاريخ ٨/ ١٧٤، ١٨٣، ٤٠٥، ٤٦٥ وما بعدها، والفخري ٢٣٦، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٩٦، ودول الإسلام ١/ ٢٠٨، والعبر ٢/ ٢٣٨، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٨ـ٣٠١ رقم ١٤٠، ومرآة الجنان ٢/ ٣١٦ـ ٣١٧، والبداية والنهاية ١١/ ٢١٧ـ ٢١٨، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٧٩ـ ٢٨٠، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٨ـ ٢٨٩، وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٦، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٣٧، ٢٤١، ووفيات الأعيان ٢/ ١٠٩، ١٣٣، ١٤٢، ٣/ ٣٠٢، والتذكرة الحمدونية ١/ ٤٤٣، ولباب الآداب ١١٥/ ١١٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ودرة الغواص للحريري ٧٤، الأعلام ٤/ ٣١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٣١ـ٣٥٠هـ) ص١٠٦ رقم ١٤٤.

(١) الوافي بالوفيات ١٤/ ٤٧٤، ط دار الفكر.

قال الصولي: لا اعرف أنَّه وزر لبني العباس وزير يشبهه في زهده، وعفته، وحفظ القرآن، وعلمه بمعانيه، وكان يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا أعلم أني خاطبت أحداً أعلم منه بالشعر.

وكان يوقع بيده في جميع ما يحتاج إليه، ولما عزل في وزارته الثانية، وولي ابن الفرات، لم يقنع المحسن بن الفرات إلا بإخراجه عن بغداد، فتوجه إلى مكة وأقام به مهاجراً.

وقال في نكبته: [من الطويل]

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سائِلاً لِشَماتَةٍ لِمَا نَالَنِي أوْ سامِعاً غَيْرَ سائِلِ
فقدْ أبرزتْ منِّي الخُطوبُ بِزَجْرَهِ صَبُوراً عَلى الأهْوالِ تِلْكَ الزَّلازِلِ
إذا سُرَّ لمْ يُبْطِىء وليسَ بنَكْبَةٍ إذا نزلتْ بالخاشِع المُتَضَايِلِ

ولما حبس كان يلبس ثوبه، ويتوضأ للصلاة، ويقوم ليخرج لصلاة الجمعة، فيمنعه الموكلون، فيرفع يده إلى السماء، ويقول: اللهم اشهد لي أنني أريد طاعتك، ويمنعني هؤلاء. وأشار /٨٩/ على المقتدر أن يقف العقار ببغداد على الحرمين والثغور، وعليها ثلاثة عشر ألف دينار في كل شهر، والضياع الموروثة بالسواد، وعليها نيف وثمانون ألف دينار، ففعل ذلك وأشهد على نفسه وأفراد ابده الموقوف ديواناً، وسمَّاه ديوان البر. وخدم السلطان سبعين سنة لم يُزِلْ فيها نعمةً عن أحد، وأُحصي له أيام وزارته نيف وثلاثون ألف توقيع من الكلام السديد، ولم يقتل أحداً، ولا سعى في دمه.

وكان على خاتمه مكتوب:

«للـه صنـع خفـي في كل أمر نخاف»

وعزى ولد القاضي أبي الحسن عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف، فلما أراد الانصراف قال: مصيبة قد وجب أجرُها خير من نعمةٍ لا يؤتى شكرها.

وكان يُجري على خمسة وأربعين ألف إنسان خيراتٍ تكفيهم[(١)] .

---

(١) إلى هنا ينتهي المنقول عن الوافي.

ومنهم:

[بنو مقلة]

بنو مقلة، وقد صاروا مثلاً يُضرب إذا قيل لأحدٍ، خطّك ما هو مليح، أو لفظك ما هو فصيح، قال: كأني ابن مقلة.

ورأيت لهم كتابة يأخذ بالعين حسنُها، ورأيت منها دُرجاً بقلم التوقيعات الكبير على ورق الموز ما رأيت أحلى من ورقه موقعاً منها، ولا أعلق بالقلوب من حسنها، حلّت القلوب في شغافها، وأخذت من المحاسن بمجامعها لا بأطرافها، وهي على الطريقة القديمة، لا تخلو من آثار التوليد من الكوفي في غاية من تحرير السطور والحروف المناسبة في المقادير والبياضات.

ومنها خلص علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب[1] طريقه، ولخص أقلامه، مع ما زاد من تهذيب، وأبدع من تذهيب، ثم خالف أوضاعها وسمّاها.

ولبني مقلة، مع جودة الخط، جودة اللفظ الفائق نثراً ولفظاً، الرائق مُدام لَمَاهُ لِمَنْ وشقَّا... فيما كتبه أبو علي، إذ كان الشكر ترجمان النية، ولسان الطوية، وسبباً إلى الزيارة، وطريقاً إلى السعادة، فألبس آثارها على الساكن مع الصحب أفصح من لسانه، وبيانها عند الجحود أبلغ من شأنه، والوزير يسع العالم بإحسانه، ويستغرق الشكر بامتنانه، ويستخدم الدهر عزمه، ويؤدب الأيام حزمه، وهو ـ أيده الله ـ كعبة الفضل،

---

(١) علي بن هلال، أبو الحسن المعروف بابن البَّواب: خطاط مشهور، من أهل بغداد. هذب طريقة ابن مقلة وكساها رونقاً وبهجة. توفي سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م. وفي رثائه قال الشريف المرتضى قصيدته التي مطلعها:

مِن مثلها كنت تخشى أيها الحذر ... والدهر إن همَّ لا يبقي ولا يذر

نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة، إحداها بالخط الريحاني لا تزال محفوظة في مكتبة «لاله لي» بالقسطنطينية.

كتب عنه الأستاذ هلال ناجي رسالة طبعت ببيروت.

ترجمته في: وفيات الأعيان ١/ ٣٤٥، ومفتاح السعادة ١/ ٧٧، والبداية والنهاية ١٢/ ١٤، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٠٣، وقيل: وفاته سنة ٤١٣ أو ٤١٠ وديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٦، والمنتظم ٨/ ١٠، الأعلام ٥/ ٣٠ـ٣١.

وغمامة /٩٠/ وبل. الليالي بأفعاله مشرقة، والأقدار من خوفه مطرقة، يحمده أولياؤه، ويشهد له بالفضل أعداؤه، ولا يصل الشك إلى سريرته، ولا ترقد عن الحق غير بصيرته، كالقمر السعد، والأسد الوَرْد.

وفيه يقول:

إنْ سَارَ سارَ لواءُ النَّصر يقدمهُ أو حلَّ حلَّ بِهِ الإقْبالُ والكَرَمُ

يَلقى العدول العدا بجيوش لا يقادمها كثرُ العَساكِر إلاَّ أنَّها هِمَمُ

وقد حكى أبو علي بن مقلة[1] قال: من ظريف ما اتفق في نكبتي التي أخرجت منها إلى الوزارة، أني أصبحت، وأنا محبوس مقيد في حجرة من دار ياقوت ـ أمير فارس ـ وقد لحقني من اليأس من الفرج، وضيق الصدر ما أقنطني، وكاد يغلب على

(١) محمد بن علي بن الحسين بن مُقْلَة، أبو علي: وزير، من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل. ولد في بغداد سنة ٢٧٢هـ/ ٨٦٦م. وولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس. ثم استوزره المقتدر العباسي سنة ٣١٦هـ، ولم يلبث أن غضب عليه فصادره ونفاه إلى فارس (سنة ٣١٨) واستوزره القاهر بالله سنة ٣٢٠ فجيء به من بلاد فارس. فلم يكد يتولى الأعمال حتى اتهمه القاهر بالمؤامرة على قتله، فاختبأ سنة ٣٢١ واستوزره الراضي بالله سنة ٣٢٢ ثم نقم عليه سنة ٣٢٤ فسجنه مدة، وأخلى سبيله. ثم علم أنه كتب إلى أحد الخارجين عليه يطمعه بدخول بغداد، فقبض عليه وقطع يده اليمنى، فكان يشدّ القلم على ساعده ويكتب به، فقطع لسانه سنة ٣٢٦ وسجنه، فلحقه في حبسه شقاء شديد حتى كان يستقي الماء بيده اليسرى ويمسك الحبل بفمه. ومات في سجنه. سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م قال الثعالبي: من عجائبه أنه تقلد الوزارة ثلاث دفعات، لثلاثة من الخلفاء، وسافر في عمره ثلاث سفرات اثنتان في النفي إلى شيراز والثالثة إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات.
ترجمته في: الفرج بعد الشدّة ١/ ٣١، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٢/ ٥٢، ٥٥/ ٥٦، ٩٦، ٣/ ٣١، ٧٩، ٨٠، ١٩٧، ٤/ ٧٠، ١٨٨، ٢٣٤، ٢٩٣، ٥/ ٤٦، ٧٥، ونشوار المحاضرة له ١/ ٤٨، ٤٩، ٦٤، ٨٣، ١٦٤، ٢٣١، ٢٤٩، ٢٦٠، ٢٧٧، ٢٨٤، ٣٢٢، وانظر فهرس الأعلام ٣٩٥، ٣/ ٣٩٣، ١٧٨، ٢٥٤، ٤/ ٣٤، ٤٧، ٦٤، ٦١، ٥/ ٥٧، ٦٢، ٧٣، ٧٥، ٧/ ٤٩، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٦١، ٨/ ١٠٦ـ١٠٨، ٢٦٣ـ ٢٦٤، والتنبيه والإشراف ٣٣٦، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٣٤٢٤، ٣٤٤٢، ٣٤٦٧، وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ١٨، ١٩، ٣٢، ٤١، ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٥٩ـ٦٣، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٣ـ٩٤، ٩٨، ١٠٩، ١١٠، وتجارب الأمم ١/ ١٨٣، وما بعدها، والوزراء للصابي (انظر فهرس الأعلام) ٤٢٨، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٨٧، وصلة تاريخ الطبري لعريب ١١/ ٢٨، ٢٩، ٣٠، ١٠١، والعيون والحدائق ج٤ ق٢/ ١٣، ١٤، ٢٦ـ٢٨، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٥٥ـ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٧١، ٩٢، ٩٣، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٦١ـ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، وتحفة الوزراء ١١٧، وثمار القلوب ٢١٠ـ٢١٢، والأمالي للقالي ٣/ ١٨٧، والكامل في التاريخ ٨/ ٣٦٥، والمنتظم ٦/ ٣٠٩، ٣١١، ووفيات الأعيان ٥/ ١١٣، والفخري ٢٧٠/ ٢٧٣، وزبدة =

عقلي، وكان معي رجل آخر في المجلس إلاَّ أنا على سبيل برمه وأكرم، فدخل علينا كاتب لياقوت كان يأتينا من جهته، فقال الأمير يقرأ عليكما السلام، ويتعرف أخباركما، ويسأل هل لكما حاجة؟ فقلت له: اقرأ عليه السلام، وقُل له: قد اشتهيت والله أن أشربِ على غناء طيب، ورأيه في ذلك. فأقبل المحبوس معي يخاصمني، ويقول لي: يا هذا ما في قلوبنا فضل والله لهذا، فقلت للكاتب: أبلغ عني ما قلت لك. فذهب، ثم جاء وقال: الأمير يقول لك كرامة وغزارة، أي وقت شئت، فقلت: الساعة، فلم يمضِ ساعة حتى جاءوا بالطعام، فأكلنا. ثم أتوا بالمشام والفاكهة والنبيذ والمغنى، وصفف المجلس، وجلست والمحبوس معي مقيد، وقلت له: تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغنى به لنا في سرعة الفرج مما نحن فيه، فعلَّه يصح لنا الفأل، فقال: أما أنا فلا أشرب فلم أزل أرفق به حتى شرب، وغنَّت المغنية، فكان أول صوت غنَّته: [من الطويل]

تـواعـدَ لِـلـبَـيْـنِ الـخَـلِـيْـطُ لـيـنـبـتُّـوا وقـالـوا لِـدَاعِـيْ الـدُّودِ مَـوْعِـدُكَ الـسَّـبْـتُ
ولـكـنَّـهُـمْ بـانُـوا ولـمْ أدْرِ بـغْـتَـةً وَأقـطـعُ شـيءٍ حـيـنَ فـاجـأكَ الـبَـغْـتُ

فقال لي: ما هذا مما يتفاءل به، فقلت: إن هو إلاَّ مُبارَك، ولعل الله تعالى أن يمنَّ علينا بالفرج /٩١/ يوم السبت، قال: ثم شربنا يومنا وسكرنا، وانصرفت المغنية، ومضت بقية أيام ذلك الأسبوع، فلما كان يوم السبت لم يمض من النهار إلاَّ دون الساعتين، فإذا بياقوت قد دخل علينا، فارتعت، وقمت إليه، فقال لي: أيها الوزير اللهَ اللهَ، في واحد يهنيني بالوزارة، ولم يكن قد تقدمت عندي مقدمة علم بشيء من ذلك، فأخرج لي كتاباً من القاهر، يعلمني فيه بتقليدي الوزارة، ويأمرني بالنظر في أمر فارس، واستصحاب ما يمكن من المال، فحمدت الله وشكرته، وإذا الخادم واقف، فتقدَّمت إليه، ففكَّ قيدي، وقيد الرجل، وخرجت، فجلست، فنظرت في الأعمال والأموال، وجمعت مالاً جزيلاً في أيام يسيرة، وقررت أمر

= الحلب ١/ ٩٨، ١٠٧، ١٢٢، وتاريخ مختصر الدول ١٥٩ـ١٦٣، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، والعبر ٢/ ٢١١، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٢٤ـ٢٣٠ رقم ٨٦، ودول الإسلام ١/ ٢٠١، ومرآة الجنان ٢/ ٢٩١ـ٢٩٤، والوافي بالوفيات ٤/ ١٠٩ـ١١١، والبداية والنهاية ١١/ ١٩٥ـ ١٩٦، ومآثر الإنافة ١/ ٢٨٧ـ ٢٨٩، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٩٣، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨، وشذرات الذهب ٢/ ٣١٠ـ٣١٢، وديوان الإسلام ٤/ ٢٦٣ رقم ٢٠١٨، والأعلام ٦/ ٢٧٣، ومعجم المؤلفين ١٠/ ٣١٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٢١ـ٣٣٠هـ) ص٢٣٩ رقم ٢٤٠.

البلد، وسرت، وذلك الرجل معي، وقد فرج الله عني.

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة قطعت يد الوزير أبي علي بن مقلة وكان سببه أنه سعى في القبض على ابن رائق، وأقامة بحكم موضعَه، وأعلم ابن رائق بذلك، فجسه الراضي لأجل ابن رائق، وترددت الرسل بين الراضي وبين ابن رائق، وآخر الأمر أنهم أخرجوا ابن مقلة وقطعوا يده في منتصف شوال، وعولج فبرىء، وعاد يسعى إلى الوزارة، وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب.

ثم بلغ ابن رائق سعيه، وأنه يدعو عليه، فقطع لسانه، وضيق عليه في الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه، ومات في شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ودفن بدار الخلافة.

ثم أنَّ أهله سألوا فيه، فنبش، وسلِّم إليهم، ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث مرات، لثلاث من الخلفاء: المقتدر، والقاهر، والراضي، وسافر ثلاث مرات: اثنتين إلى شيراز وأخرى في وزارته إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات، ونبش.

ومنهم:

[٤٤]

رئيس الرؤساء، أبو القاسم، علي بن مسلمة(١)

كان لا يبارى له قلم، ولا يجارى له إلى موقف نصرٍ علم، ولا تقعد به همته عن ورود المجرَّة، وقعود عليائه على الأسرَّة، وإنما غلبت عليه شهوة سابق القدر، وراشق

---

(١) علي بن الحسن بن أبي الفرج بن محمد بن عمر بن الرفيل. أبو القاسم، المعروف برئيس الرؤساء ابن المسلمة: من خيار الوزراء علماً وعدلاً.

من بيت رياسة ومكانة ببغداد. ولد سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م. سمع الحديث في صباه، وتضلع في علوم كثيرة، وصار أحد المعدّلين. واستكتبه القائم بأمر الله العباسي، ثم استوزره (سنة ٤٣٧هـ) ولقَّبه «جمال الدين، شرف الوزراء، رئيس الرؤساء» وكان سديد الرأي وافر العقل. يرى بعض المؤرخين أنه بسياسة التقرب من زعماء الأتراك، والاستعانة بهم، أفسد خطط الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية. واستمر إلى أن كانت فتنة استيلاء البساسيري (أرسلان بن عبد الله) على بغداد، ودعوته للفاطميين، وكان شديد البغض لابن المسلمة، لأمور سبقت بينهما، فقبض عليه ومثل به أفظع تمثيل ثم صلبه حتى مات سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٩م، وله من العمر ٥٢ سنة و٥ أشهر، ومدة وزارته ١٢ سنة وشهر.

ترجمته في: تاريخ بغداد ١١/ ٣٩١ـ ٣٩٢، والمنتظم ٨/ ٢٠٠ـ ٢٠١ رقم ٢٦٤، ١٦/ ٤١ـ٤٣ رقم ٣٣٥٩، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ١٨٨ـ١٩٥، وتجارب السلف ٢٥٤ـ ٢٥٥، =

القضاء الذي لا ينفع معه حذر، فجرَّ عليه البلاء سخفه، وجرى عليه حتفه، وأوقعه في مصيبة تردّ صخورها عظامه، ويحل مقدورها نظامه. وزر للخليفة القائم بعد عميد الرؤساء بسعي ذي السعادات / ٩٢/ ، وزير الملك أبي كاليجار؛ لأنه كان سيء الرأي، فسعى فهدَّ الأمر سعيه حتى أبرمه.

وانتـمى رئيس الرؤساء إلى السلطان طغرلبك، وردت في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وأربعمائة إلى الخليفة جواباً عن رسالة الخليفة، وشكر إنعام الخليفة، عليه بالخلع والألقاب، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة عشرين ألف دينار عيناً وأعلاقاً نفيسة من الجوهر، والثياب، والطيب، وغير ذلك وأرسل إلى الحاشية خمسة آلاف دينار، وألفي دينار لرئيس الرؤساء، فأنزل الخليفة الرسل بباب المراتب وأمرهم بإكرامهم.

وكانت سبب وحشة البساسيري من رئيس الرؤساء أنَّ قريش بن بدران كان قد سار إلى حلل الباسيري، وكبس أصحابه، ونهب أمواله، وفتح السوق، وأسرف في إهلاك الناس.

ثم إنَّ قريش بن بدران بعث صاحبيه أبا الغنائم وأبا سعيد المحليان إلى الخليفة القائم في رمضان سنة ثلاث وأربعين، فاستوحش البساسيري، وأراد أخذهم، فلم يمكن منهم، فبدت الوحشة والبغضاء بينهم، ونسب الأمر كله إلى رئيس الرؤساء، لأن القائم كان لا يخرج عن رأيه، ولا يورد ويصدر إلاَّ به، فرأيت على هذا الأمر ما رأيت من خلع القائم، وإقامة الخطبة للمستنصر العبيدي، حتى آل الأمر إلى خروج القائم من بغداد، واستجارته، وتمادى الحال إلى سنة حتى عاد الأمر لطغرلبك، ولما دالت الدولة للبساسيري، أمسك رئيس الرؤساء.

= لهندوشاه نخجواني، وزبدة النصرة ١٥ـ ١٦ للبنداري، والإعلام بوفيات الأعلام ١٨٦ـ ١٨٧، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٣٩٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٨٠، والكامل في التاريخ ٩/ ٥٣٠، ٦٤٠ـ٦٤٤، والمنتظم ٨/ ١٩٦ـ ١٩٧، ٢٠٠ـ ٢٠١، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٧٧ـ ١٧٨، والفخري ٢٩٥، والعبر ٣/ ٢٢١، ودول الإسلام ١/ ٢٦٤، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢١٦ـ٢١٨ رقم ١٠٤، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٥٧ـ٤٥٩، ٤٦٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ٦، ٧، ٦٤، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٧٨، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٩، ٢٠، والأعلام ٤/ ٢٧٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٤١ـ٤٦٠هـ) ص٢٥٠ رقم ٣٤٩ .

ومنهم:

[٤٥]

فخر الدولة ابن جهير(١)

أفق سماءٍ لا يعدّ نجومه، ونور سماح لا يردّ سجومه، تآلفت أقمار بينه وأشرقت مفاخر بيته لمبتنيه، وطلعت بنوره بدور أندية، وصدور مواكب واليه. دنت له سحب الخلافة، ثم أقلعت، وأعنتها إليهم منصرفة، وأسنتها لديه معترفة وسرف بصهر ما وطدت الممالك، ولا وطئت المسالك إلاَّ لقدمه، فكان لا يحوز زنده إلاَّ وقد، ولا يحفو أحد إلاَّ وقد، حتى آلت به الوزارة إلى الملك، وآت يجري بسعادته الفلك، وكان رجل دهر لا يفلفل له رجل، ولا يقل له مساقاً على قدم إلاَّ والهلال خجل، بعزائم لا سهه(٢)، وعظائم لا تشبه. وزر للقائم، ثم عزل ثم أعيد في سنة إحدى وستين وأربعمائة.

ولما عاد مدحه صرّدرّ(٣) /٩٣/ بقوله: [من الرجز]

قــدْ رجــعَ الــحــقُّ إلــى نِــصــابِــهِ . . . .

القصيدة المعروفة.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد، أبو منصور عميد الدولة ابن فخر الدولة ابن جَهير: وزير. ولي الوزارة ببغداد لثلاثة من الخلفاء. وكان خبيراً مدبراً فصيحاً مترسلاً، مهيباً، مدحه عشرة آلاف شاعر، بمئة ألف بيت! وانتهى أمره بأن حبسه الخليفة «المستظهر» في داره، واستصفى أمواله وأموال من يلوذ به، ثم قتله في سجنه سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م. قيل: أمر خمسمائة خادم أن يصفعوه بنعالهم إلى أن مات.

ترجمته في: الأنساب ٣/٣٩٦، والمنتظم ٩/ ٥٤ رقم ٨٧، ١٦/ ٢٩٠ـ ٢٩١ رقم ٣٦٠٩، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٠١ـ ٢٠٢، والكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣، ٥٧ـ٥٩، ١٠٩ـ١١١، ١٢٩، ١٣٤ـ١٣٦، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٨، ١٨٢، ١٨٣، واللباب ١/ ٣١٨، وتاريخ دولة آل سلجوق ٨٠، ووفيات الأعيان ٥/ ١٢٧ـ١٢٤، والفخري ٢٩٣ـ٢٩٥، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٠٩ـ ٢١٠، ٢١٣ـ٢١٥، ٢١٨، وزبدة الحلب ٢/ ٨٤ـ ٨٥، ١٠٨، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٧٠، وتاريخ الفارقي (انظر فهرس الأعلام) ٣٠٤، والأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ٤٨، ١٠٣، ٢١٧، ٢١٨، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٠ـ ٣٧١، ٣٨٤ـ ٣٩٢، ٣٨٦، ٣٨٩ـ٣٩٣، ٤٠٤، وق ٢/ ٥٥٢، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٩٩، والعبر ٣/ ٣٠٤، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٠٨ـ ٦٠٩، رقم ٣٢٤، والإعلام بوفيات الأعلام ١٩٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٤، والوافي بالوفيات ١/ ١٢٢ـ١٢٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٦ـ ١٣٧، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٢٠ـ ٣٢١، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٠، وشذرات الذهب ٣/ ٣٦٩ـ ٣٧٠، والأعلام ٧/ ٢٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٨٠ـ٤٩٠هـ) ص١١٨ رقم ١٠٥.

(٢) كذا وردت في الأصول. (٣) ديوان صرّدر ٦٣ـ ٦٦.

وتزوج ابن جهير بنت نظام الملك بالري، وعاد إلى بغداد، وكان هذا سبب عوده إلى الوزارة حتى قال القائل: [من البسيط]

قُلْ للوزير: لا يفر عَنْ هَيْبَتِهِ وإنْ تَعَاظَمَ واسْتَعْلَى بِمَنْصِبِهِ
لولا ابْنَةُ الشيخِ ما اسْتُوزِرْتَ ثانِيَةً فَاشْكُرْ جَزَا صَوْتِ مَولانَا الوَزِيْرِ بِه

ثم علت مكانته عند القائم، واعتمد عليه وأسرَّ بواطنه إليه، وقرَّب أقرباءه، وبعث ولده عميد الدولة بن جهير بالخلع إلى السلطان ألب أرسلان، وإلى ولده ملك شاه.

وكان السلطان قد طلب من الخليفة أن يجعل ولده ملك شاه ولي عهده، فأذن له، وسيرت له الخلع من عميد الدولة، وأمر بأن يخطب سفر خاتون ابنة السلطان ألب أرسلان لولي العهد المقتدي، فلما حضر بحضرة السلطان خطبها فأجيب، وعقد النكاح بظاهر سينابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح للمقتدر، ونظام الملك الوكيل في العقد قِبَلَ السلطان، ونثرت الجواهر والذهب.

ثم عاد عميد الدولة من عند السلطان إلى عند ولده ملك شاه، وهو ببلاد فارس، فلقيه بأصبهان، فأفاض عليه الخلع، فلبسها، وسار بها إلى أبيه، ثم أتى عهد الدولة بغداد، وكان ذلك كله سنة أربع وستين وأربعمائة.

ولما بويع المقتدي قام فخر الدولة بأخذ البيعة له في جماعة كانوا معه، فأقر فخر الدولة على الوزارة، وسيّر ابنه عميد الدولة إلى السلطان ملك شاه لأخذ البيعة له، وأرسل معه من خالص ماله من أنواع الهدايا والتحف ما يجلّ عن وصفه.

ولما توفيت بنت نظام الملك زوجة فخر الدولة دفنت بدار الخلافة إكراماً لأبيها وزوجها، وجلس للعزاء لها ثلاثة أيام، ودام على وزارته وأمور الخلافة تمضى بإشارته حتى قدم أبو نصر القشيري بغداد سنة إحدى وسبعين، وذكر مذهب الأشعري فقامت عليه الحنابلة، وظهرت دفائن الإحَن، وقامت الفتن ونسب أصحاب نظام الملك هذا إلى الوزير بن جهير لميله إلى الحنابلة فكتب / ٩٤/ أبو الحسن الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك: [من الرمل]

يا نِظَامَ المُلْكِ قَدْ حَلَّ ببغداد النِّظَامُ وَابْنُكَ القاطِنُ فيها مُستَلانٌ مُسْتَضَام
وبِهَا أوْدَى لَهُ قَبْلاً غُلامٌ وَغُلامُ والَّذي مِنْهُمْ تَبَقَّى سَالِمَاً فيهِ سِهَامُ
يا قَوامَ الدِّينِ لَمْ يَبْقَ بِبغْدادَ مَقامُ عَظَمَ الخَطْبُ فللحَرْب اتِّصالُ وَدَوَامُ
فَمَتَى لَهُ يحسم الرَّأْي أيادِيْكَ الجِسَامُ وَيَكِفُّ القَوْمَ في بغدادَ قَتْلٌ وانْتِقَامُ

فلما سمع نظام الملك ما جرى، وقصد مدرسته، والقتل بجوارها، مع كون ابنه

مؤيد الملك فيها، عظم عليه، فبعث رسالة إلى المقتدي تتضمن الشكوى من ابن جهير، ويسأل عزل فخر الدولة، وأمر كوهرانين الشحنة، بأخذ أصحاب ابن جهير، وإيقاع المكروه بهم، فأتى الخبر بني جهير، فسار عميد الدولة إلى العسكر؛ لاستعطاف نظام الملك، وتجنب الطريق، وسلك الجبال خوفاً من لقاء كوهرانين.

وأتى كوهرانين بغداد، واجتمع بالمقتدي، وأبلغه رسالة نظام الملك، فأمر ابن جهير بلزوم بيته، ووصل عميد الدولة والعسكر السلطاني.

ولم يزل نظام الملك يستصلح، حتى عاد إلى ما ألفه منه، وزوَّجه بابنته ـ بنت له ـ وعاد إلى بغداد، على أنَّ الخليفة يردّ أباهُ إلى الوزارة، فلم يردَّه واستوزر أبا شجاع محمد بن الحسين.

ثم إن نظام الملك أرسل الخليفة في إعادة بني جهير، وشفع إليه فيهم، فاستوزر عميد الدولة، وأذن لأبيه فخر الدين في فتح بابه والتصرف في نفسه، وذلك في سنة اثنتين وسبعين، ثم عزل في سنة خمس وسبعين، وتوجه بأهله كلهم إلى نظام الملك، لطلب منه لهم، فأكرمهم وفوَّض السلطان إلى فخر الدولة ديار بكر، وخلع عليه وأعطاه الكوسات، وسيَّر معه العساكر، وأمره بأن يأخذها من بني مرون ويخطب بها لنفسه.

ثم إنَّ السلطان أمدَّه بولده عميد الدولة، وبعث معه قسيم الدولة آقسنقر ـ جدّ نور الدين ـ فأخذ الموصل وغيرها، وانقرضت دولة بني مرون.

وكان عسكره قد أوقعوا بحلل العرب نحو آمد حتى ٱفْتَكَّ سيفُ الدولة صدقة نساءَهم وأولادهم، وأسدى مكرمة شريفة مدح بها.

ومما قال السنبسي: [من الوافر]

كَمَا أحْرَزْتَ شكرَ بَنِي عقيْلٍ ... بآمدَ حينَ كظَّهُمُ الحذار

/٩٥/ غَداةَ رمَتْهُمُ الأتْرَاكُ طُرّاً ... بشُهْبٍ في حَوافِرِها ازْوِرَارُ

فما جَبَنُوا ولكنْ فاضَ بحرٌ ... عظيمٌ ما يقاومُهُ البِحارُ

فَحِينَ تنازلوا تحتَ المنايا ... وفيهنَّ الرزيةُ والدّمَارُ

مَنَنْتَ عليهمُ وَفَكَكْتَ عنهمْ ... وفي . . . . انتشارُ

ولولا أنْتَ لم يَنْفَكَّ مِنْهُمْ ... أسيرٌ حينَ أعقلَهُ الإسَارُ

ولد بالموصل سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وتوفي بها سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

ومنهم:

[٤٦]

أبو شُجَاع، محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم ظهير الدين الرُّوذاوري(١)

قرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق، وتأدَّب، ووزر للمقتدي، بعد عميد الدولة ابن جهير، وأخمل ذكره الشهير، وخطا والبرق على أثره، وسرى [و] الجوزاء قرط في لجامه أو عدّة أيام في الوزارة سنين ثم عزل عنها، وأنشد لما عزل: [من الوافر]

تـولاَّهـا ولـيـسَ لـهُ عَـدُوٌّ وفـارقـهـا ولـيـسَ لـهُ صـديـقُ!

وكان أمره مع الناس بخلاف ما ظنَّ.

حكى ابن خلكان: أنه خرج بعد عزله ماشياً يوم الجمعة إلى الجامع من داره، فانثالت عليه العامة تصافحه، وتدعو له، وكان ذلك سبباً لإلزامه بالقعود في داره.

ثم أخرج إلى روذاور، فأقام مدَّة، ثم خرج حاجاً، فخرجت العرب على الركب الذي هو فيه، بقرب الربذة، فلم يسلم من الرفقة، فحجَّ وجاور بالمدينة الشريفة حتى مات، ودفن عند القبة التي فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وكان سبب عزله أنه كان ينتقص بالسلطان، وبنظام الملك، ويتكلَّم فيهما.

[ولما] جاءت البشرى بأنَّ السلطان فتح سمرقند، قال: أي بُشرى هذه؟! كأنه

---

(١) أبو شجاع، محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله، الروذاوري، الملقب بظهير الدين: وزير، من العلماء. ولد بالأهواز، أو بقلعة كنكور (من أعمال همذان) سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م. وولي الوزارة للمقتدي العباسي سنة ٤٧٣هـ فعمرت العراق في عهده ـ كما يقول الذهبي ـ وعزل سنة ٤٨٤ وحج سنة ٤٨٧ فجاور بالمدينة إلى أن توفي. ودفن بالبقيع سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. حسنت سيرته في الوزارة. وكان وافر العقل، عالماً بالأدب، له شعر رقيق. وصنّف كتباً، منها «ذيل تجارب الأمم لمسكويه ـ ط». وكان يكتب على طريقة ابن مقلة. نسبته إلى «الروذاور» من نواحي همذان، أصله منها.

ترجمته في: المنتظم ٩/ ٩٠ـ٩٤ رقم ١٣١ (١٧/ ٢٢ـ٢٧ رقم ٣٦٥٢)، وخريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق) ١/ ٧٧ـ٨٧، والتدوين في أخبار قزوين للرافعي ٣/ ١٨٠، وتاريخ دولة آل سلجوق ٧٧ـ ٧٨، والكامل في التاريخ ١٠/ ٢٥٠، ووفيات الأعيان ٥/ ١٣٤ـ١٣٧ رقم ٧٠٢، والفخري ٢٩٧ـ٢٩٩، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢١٤، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٧ـ٣١ الرقم ١٧، والوافي بالوفيات ٣/ ٣ـ ٤ رقم ٨٥٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٥٧، والبداية والنهاية ٢/ ١٥٠ـ ١٥١، وكشف الظنون ٣٤٤، الأعلام ٦/ ١٠٠ـ١٠١، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٨١ـ٤٩٠هـ) ص٢٦٢ رقم ٢٨٣.

فتح بلاد الروم، أو قاتل كفار اليهود. جاء إلى قوم مسلمين استباح نساءهم وأموالهم، وأخذ ملكهم وديارهم، فأرسل إلى الخليفة في عزله، فعزله.

قال العماد الكاتب: ولما كان عصره أحسن العصور، وزمانه أقصر الأزمان، ولم يكن في /٩٦/ الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً ليناً في أمور الدنيا، لا يأخذه في الله لومة لائم.

ثم قال: ذكر ابن الهمداني في المذيل، فقال: كانت أيامه في الأيام سعادة للدولتين، وأعظمها بركة على الرعية، وأعمَّها أمناً، وأشملها رخصاً، وأكملها، ولم يعادلها سرور، ولم يغادرها بؤس، ولم يشنها مخافة، وقامت للخلافة في نظره من الحشمة والاحترام ما أعادت سالف الأيام، وكان أحسن الناس خطّاً.

قال ابن السمعاني: وكان يرجع إلى فضل كامل، وعقل وافر، ورزانة ورأي صائب، وكان له شعر رقيق مطبوع.

وقال: سمعت من أثق به، أنَّ الوزير أبا شجاع وقت أوان ارتحاله من الدنيا حمل إلى مسجد رسول الله ﷺ فوقف عند الحضيرة وبكى وقال: يا رسول الله، قال الله تعالى: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» ولقد جئتك معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك، وبكى، ورجع، وتوفي من يومه.

ومن شعره: [من الكامل]

لأُعَذِّبَنَّ العينَ غيرَ مُراقبٍ ... فِيها بَكَتْ بالدمعِ أمْ فاضتْ دَمَا

وَلأَهْجُرَنَّ من الرُّقادِ لذيذَهُ ... حَتَّى يعودَ على الجفونِ مُحرَّمَا

هِيَ أوقعتني في حبائلِ فِتْنَةٍ ... لوْ لمْ تَكُنْ نَظَرَتْ لَكُنْتُ مسَلَّمَا

سَفَكَتْ دَمِي فلأَسْفِكَنَّ دُمُوعَها ... وهيَ التي بدأتْ فكانتْ أظْلَمَا

ومنه قوله: [من الطويل]

أيذهبُ جُلُّ العُمْرِ بيني وبينَكُمْ ... بغَيْرِ لقاءٍ إنَّ ذا لَشَدِيْدُ

فإنْ سَمَحَ الدَّهْرُ الخَؤُونُ بوَصْلِكُمْ ... على فَاقَتِي إنِّي إذاً لسعيدُ

وله تصانيف منها «ذيل تجارب الأمم».

قال عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير: رجل لو لم يجن عليه لسانه، ومهن بقبيح إساءته إحسانه، لما جاذبته السعاة عنانها، ولا جاوزته عيانها، ولو لم يكن نوادر كلامه بوادر كلامه، ولا أخذ بلفتات /٩٧/ اللسان الطائحة، وصفحات البغضاء

اللائحة حتى لقم جر الأوزار، ونفح إلى دار البوار.

وزر للمقتدي بعد عزل أبي شجاع، وكان السلطان ونظام الملك يذكران أبا شجاع، كما تقدم ذكره في ترجمته.

[٤٧]
أبو سعيد بن موصلايا(١)

ولما عُزل أبو شجاع، استناب المقتدي أبا سعيد بن موصلايا كاتب الإنشاء في الوزارة، وطلب عميد الدولة ليوزره، فسُير إليه، وركب إليه نظام الملك وهنياهُ بالعودة إلى الوزارة، وأكثر الشعراء تهنئة، فأخذ في العمارة، وتعمير البلاد، وتوطين الرعايا، وبنى سور الحريم، وأمر فزينت بغداد لفراغه.

وكان عادلاً، حليماً، كريماً، إلاَّ أنَّه كان عظيم الكِبْرَ يكاد يعدّ كلامه، وكان إذا كلَّم إنساناً كلاماً هنَّأ ذلك الرجل بكلامه، إلاَّ أنه كان يهب الألف عيناً من الذهب، والخيل المسومة، والأقمشة الثمينة حتى ذهب الكرم بماله كلّه، ولم يزل على جاهه ووجاهته... طرفه ونباهته، حتى عادى الدولة السلجوقية، فعمل عليه، ورمي بسهامها، فما أخطأت لَبَّتَه ونحره، فعُزل في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، وقبض عليه وعلى أخوته، وأخذ عليه خمسة وعشرون ألف دينار.

ولم يزل محبوساً بدار الخلافة إلى أن توفي في سادس عشر شوال منها، ومولده سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة.

---

(١) العلاء بن الحسن بن وهب البغدادي أبو سعيد (وفي بعض المصادر: أبو سعد) ابن المُوصَلاَيا، الملقب أمين الدولة: من أكابر الكتّاب في العهد العباسي. كان يقال له منشيء دار الخلافة، ولد سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. خدم الخلفاء خمساً وستين سنة، ابتداؤها في أيام القائم بأمر الله سنة ٤٣٢هـ. وكان نصرانيّاً، فأسلم سنة ٤٨٤ على يد المقتدي، لما ألزمت الذمية بلبس الغيار (وهو علامة لهم كالزنار ونحوه) واستنيب في الوزارة مدة. وكفَّ بصره في أواخر أيامه. وتوفي ببغداد فجأة في جمادى الأولى سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م. له رسائل وتوقيعات كثيرة جيدة. وهو خال هبة الله بن الحسن الملقب بتاج الرؤساء.

ترجمته في: المنتظم ١٩/ ١٤١ رقم ٢٢٥ (١٧/ ٨٩ رقم ٣٧٤٧)، وخريدة القصر جريدة العصر (قسم شعراء العراق) ١/ ١٢٣، ١٣٢، ومعجم الأدباء ١٢/ ١٩٦-٢٠٥ رقم ٤٩، والكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٧-٣٣٨، ومرآة الزمان ج٨ ق١/ ١١-١٢، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٨٠، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ١٢٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٦، وعيون التواريخ (مخطوط) ١٣/ ١٢٢-١٢٥، ونكت الهميان ٢٠١، والبداية والنهاية ١٢/ ١٦٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٩، الأعلام ٤/ ٢٤٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٩١-٥٠٠هـ) ص٢٦٠ رقم ٢٨٢.

ومنهم:

[٤٨]

سديد الملك، أبو المعالي بن عبد الرزاق، الملقب عضد الدين(١)

غزٌّ لم تره التجارب، ولم ترضه المآرب، ولم تروه الأيَّام وما فيها ريّ لشارب، ولم ترمه مطالبة على أمله ولا ما يقارب، لم تسع دائرة تدبير الخلافة همته، ولا مضت على قدر سيوفها عزمته، فجذب رداؤه الذي تقمص جلبابه، وتقلَّص ظلَّه الذي يُقيل سحابه، واستمطر ربابه.

ووزر للخلافة سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وورد عليه أهله من أصفهان، وتصرَّف، ولكن لم يبسط له يد.

ثم قبض عليه في منتصف رجب سنة ست وتسعين، ونقل إليه أهله إلى دار محبسه، ولم يضيق عليه؛ لأنه لم يعد له ذنب إلاَّ جهله بقواعد ديوان الخلافة؛ لأنه قضى عمره في أعمال السلاطين، وقواعد لا تشبه قواعد الخلفاء، وكان قد سكن في دار عميد الدولة بن جهير، وجعل لهُ فيها مجلساً عاماً يحضره الناس لوعظ المؤيد عيسى الغزنوي، فلما /٩٨/ رآه المؤيد في دار بني جهير أنشده ارتجالاً: [من الوافر]

سديدَ المُلكِ سُدْتَ وخُضْتَ بحراً ... عَميقاً فاحفظ فيه زوجك

وأَحيِ معالِمَ الحِراب واجْعَلْ ... لسانَ الصَّدقِ في الدنيا فُتوحكْ

وفي الماضيْنَ مُعْتَبَرٌ فأسرِحْ ... مروجَكَ في السَّلامةِ جموحكْ

---

(١) المفضَّل بن عبد الرزاق، ، سديد الدين، أبو المعالي الأصبهاني، صاحب ديوان الحَسَن ببغداد.
ولد بعد ٤٤٠هـ، وتفقَّه على: أبي بكر محمد بن ثابت الخُجَنْدي.
وولي ديوان العرض، ورأى من الجاه والمال ما لم يكن لعارض.
قدِم بغداد مع السلطان بَرْكْيَارُوق سنة ٤٩٤هـ فأقام بها، فسفَر له أبو نصر بن المَوْصِلايا كاتب الإنشاء في الوزارة، وطلب، وخلع عليه خِلَع الوزارة.
وكان ابن المَوْصِلايا يجلس إلى جانبه فيسدّده، لأنه كان لا يعرف الاصطلاح، ثم عُزل بعد عشرة أشهر. وكانت حاشيته سبعين مملوكاً من الأتراك، فاعتُقل بدار الخلافة سنةً، ثمَّ أُطلِق بشفاعة بِرْكْيَارُوق، فتوجّه إلى المعسكر، فولاّه السلطان الاستيفاء، ثمّ صودر، وجرت له أمور.
توفي في ربيع الأول سنة ٥٠٧هـ. ورّخه أبو الحسن الهمداني.
ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٢٩، خريدة القصر (قسم شعراء العراق) ١/ ٩٣-٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٠١-٥٢٠هـ) ص١٩٠ رقم ٢٠٢.

ثم قال له: يا سديد الملك من شرب مزنة السلطان احترق شفتاه، ولو بعد زمان، ثم أشار إلى الدار، وقرأ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾(١).

قال: فقبض على سديد الملك بعد أيام قلائل، وبقي في الاعتقال، وهرب ولحق بالحلة السيفية. ثم وصل إلى مخيم السلطان بركياروق فولاّه الإشراف على ممالكه.

ومنهم:

[٤٩]

زعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير

ركن من البيت الجهيري، ثم يحل من طائف، ولم يخلُ من لطائف، نهضت به جدود الآمال العواثر، وعمرت معالم الأفضال الدوائر، بهمة يحلّق حيث حلّق العقاب، ويحلُّ حيث لا تصل الرؤوس منه إلى مواطىء الأعقاب، لا يضيق به فتر عن مسير، ولا مدى سير عن مصير.

لما قبض المستنصر على سديد الملك استقدمه من الحلة، وكان قد لجأ إلى سيف الدولة صدقة، وكان قد فرَّ إليه من ثغر السور في حال غفلة، فلمَّا قدم بغداد خرج إليه جميع أرباب الدولة واستقبلوه، فلما مثل بين يدي الخليفة ورآه، خلعت عليه الخلع التامَّة، ولقَّب قوام الدين، فخرج وجلس في الديوان، وقرىء عهده بحضوره.

وتوفي سنة سبع وخمسمائة، ووزر بعده الرئيس أبو منصور بن أبي شجاع.

ومنهم:

[٥٠]

جلال الدولة أبو علي ابن صدقة(٢)

وزير يفرح له الدست، ويطرب صرير قلمه طرب الرست، تقلَّبت به أحوال الدهر تسقيه شهداً وصابا، وتريه سروراً ومصابا، آونةً تدعوه في الكفاءة مهذباً، وآونة تدعه في الفلاة مزيداً، فذاق طعم يومِه، وتقلب تحت حكمه.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٥.

(٢) الحسن بن علي بن صَدَقَة، أبو علي، عميد الدولة جلال الدين: وزير الخليفة المسترشد بالله العباسي. كان عاقلاً، حسن السيرة، ممدوحاً. ولد بنصيبين سنة ٤٥٩هـ. استوزره المسترشد سنة ٥١٣هـ، وصرفه سنة ٥١٦ وأعاده سنة ٥١٧ فظل في الوزارة إلى أن توفي ببغداد في رجب سنة =

ثم كان انتهاؤه إلــى أحسن حالة، وأنعم، وأكرم... من كان يؤمل أن يصير إليه، /٩٩/ وكان المسترشد به يسترشد، وبسببه يستنجد، وكان لا يعقد له راية بيد، يميناً باعقد وسقنا به لا يفعل ما ينتقل.

ثم قبض المسترشد عليه واستناب في الوزارة النقيب شرف الدين علي بن طرَّاد الزينبي.

وأرسل السلطان إلى الخليفة، ليوزّر نظام الدين، وزير السلطان وهو أخو شمس الملك عثمان، فاستوزر في شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة.

وكان قد وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة، ثم عزله، ولزم داراً استخدمها ببغداد، فلما خلع على نظام الدين، وجلس في الديوان، طلب أن يخرج ابن صدقة عن بغداد، فطلب ابن صدقة من الخليفة أن يسير إلى الحديثة، عند سليمان بن مهارش، فأجيب سؤاله، فخرج عليه في الطريق إنسان من التركمان المفسدين اسمه يونس الخرامي، فأسره، ونهب أصحابه، فخاف الوزير أن يعلم به دبيس، فيبذل له مالاً، ويأخذه منه للعداوة السابقة بينهما، فقرر أمراً مع يونس على ألف دينار، حمل إليه منها ثلاثمائة دينار، وأخذ البقية على أنه يرسلها إليه من الحديثة، وأرسل إلى عامل بلد الفرات في تخليصه، وإنفاذ من يضمن الباقي الذي عليه، فأعمل الحيلة له وأحضر إنساناً فلاحاً، وألبسه ثياباً فاخرةً وطيلساناً، وأركبه وسيَّر معه غلماناً، وأمره أن يمضي إلى يونس، ويدعي أنه قاضي بلاد الفرات، ويضمن الوزير منه على ما بقي من المال، فسار إليه، وضمن الوزير، وقال له: أقيم عندك إلى أن يصل المال مع صاحب لك تنفذه مع الوزير، فاعتقد يونس صدق ذلك. وأطلق الوزير، ومعه جماعة من أصحابه، فلما وصل إلى الحديثة قبض على من معه منهم، فأطلق يونس ذلك الفلاح، وأعاد المال الذي أخذه، وعلم أن الحيلة قد تمت عليه.

= ٥٢٢هـ/١١٢٨م.

ترجمته في: خريدة القصر ١/ ٩٤ـ٩٦، تاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٨١، (وتحقيق سويم) ٤٣، والكامل في التاريخ ١٠/ ٦٥٢ـ ٦٥٣، وذيل تاريخ دمشق ٢٢٤، والمنتظم ١٠/٨ـ ٩ (١٧ـ٢٤٩)، والفخري ٣٠٤، ومرآة الزمان ج٨ ق١/ ١٢٧، وخريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق) ١/ ٩٤ـ ٩٦ وفيه: «الحسن بن صدقة»، والمنتظم ١٠/ ٩ـ ١٠ رقم ٧ (١٧/ ٢٥٠ رقم ٣٩٤٩)، والعبر ٤/ ٥١، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٠٠ـ ٢٠١، والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٣، وشذرات الذهب ٤/ ٦٦، الأعلام ٢/ ٢٠٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ) ص ٧١ رقم ١٥. وفيه اسمه: «الحسين».

وكان الوزير لما سار من عند يونس، لقي إنساناً أنكره، فأخذه فرأى معه كتاباً من دبيس إلى يونس يبذل له ستة آلاف دينار، ليسلم الوزير إليه، فكان خلاصه من أعجب الأشياء.

ثم إن السلطان نقم على وزيره شمس الملك بن نظام الملك وقتله، وكان قريبه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر قد مات بعزل المسترشد نظام الدين أحمد. وعاد ابن صدقة إلى وزارته، وأحلَّه في دست صدارته في سنة سبع عشرة وخمسمائة.

/ ١٠٠/ وتوفي مستهل رجب سنة ثلاث وعشرين، وكان حميد الطريقة، متواضعاً، محباً لأهل العلم، مكرماً لهم، وله شعر متوسط.

ولما مات استنيب ابن طرَّاد الزينبي في الوزارة، وخلع عليه، ولما طالب بظالم ابن صدقة، كتب إلى المسترشد: [من الطويل]

بقسم امرىء فيكَ كيفَ نَسِيْتَنِي وأنتَ... رعي الحقوق حَقِيْقُ
ومَا ذاكَ إلاَّ أن شِيْمَتَكَ العُلاَ وليسَ لها يوماً إليَّ طريقُ

فلما وقف عليها، وصله بمال، ووعد بظهور الإنعام عليه.

ثم خُلع المسترشد حين عاد من جهة دبيس، وكان قد هرب إليه، فلما دخل عليه أنشده: [من الطويل]

بَدَأتَ بِنُعْمَى ثُمَّ وَالَيْتَ فِعْلَها وواصَلْتَهَا في حالةِ البُعدِ والقُرْبِ
ولم تُخْلِنِي منْ حُسْنِ رأيكَ إذ سَطَا بي الدهرُ واسودَّتْ لهُ أوْجهُ الخَطْبِ
فأقْرَرْتَ عينَ الأولياء بأوْبَتي وأرْغَمْتَ أعْدائِي وأوطأتَهُم عَقْبِي

فلما وصل دبيس مع الملك طغرل من مصر، خرج المسترشد لدفعهم، وأقام ابن صدقة في العسكر مقابل شهربان إلى أن تفرَّق العسكر عن دبيس، وانفصل عن الملك، وأتى الحريان دبيساً، وصل إلى حلوان مصعداً فكتب ابن صدقة إلى المسترشد: [من البسيط]

وَلَّى وقدْ ألجَمَ الخطِّيُّ منطقَهُ بسكْنَةٍ تَحْتَها الأحشاءُ في صَخَبِ
مُوَكَّلاً ببقاعِ الأرضِ يشرفها مِنْ خِفَّةِ الخَوفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ

أصله المملوك هذه الخدمة من مقابل شهرايان، وقد لاذ العدو بأكنافِ حلوان مستعداً سلامته، مسترخصاً مهجته، يقول لمن غرَّه بجلائه، وجمعه بإفكه وكذابه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

وحكى ابن النجار، قال: لما خرج الوزير ابن صدقة من محبسه إلى الدار المعروفة بالزينبي، استأذن في الدخول أولاده وخواص أصحابه، قال: فدخلنا عليه، وسألناه عن حاله، فقال: لما حُملت إلى دار السياطة، جاءني خادم معه للمسترشد مكتوب الخليفة بإطابة قلبي، وأني ما نقلت إلى دار إلاَّ... وحفظاً بمهجتي، وأحضرني دواة ودرجاً، لأستدعي ما أحتاج إليه، فسألت /١٠١/ إنفاذ مصحف، ومصلًّى، وشي من المجاميع، فجاءني خادمان بذلك، فمددت يدي إلى أخذ المجلدات، فإذا هو بخط أبي عبد الله بن مقلة، وعلى ظهره مكتوب لأخي أبي علي: [من الوافر]

أُفَكِّرُ فـي الَّـذي أَلْـقَـى وَصَـبْـرِي فـأَحْـمَـدُ هِـمَّـتِـي وَأَلُـومُ دَهْـرِيْ
وَمَـا قَـصَّـرْتُ فـي حَـالـي وَلَـكِـنْ لِـرَبِّ الـنَّـاسِ أَمْـرٌ فَـوقَ أَمْـرِيْ

فعجب من الاتفاق.

ثم أخذ مجلداً آخر فإذا على ظهره مكتوب بخط المستظهر: [من الرجز]

مَـا هُـوَ إلاَّ الـلـه فَـارْفَـعْ طَـرْفَـكَـا
يَـكْـفِـيْـكَ رَبُّ الـنَّـاس مـا أَهَـمَّـكَـا

فأعجبني، وسكنت إلى الفأل، وأيقنت بالخلاص، وكان الخليفة قصد إنفاذ هذه الكتب، ولم أعرف إن كان قصدها، فسألته: إن حسن... وإن كان اتِّفاقاً فهو أحسن.

ولوى ابن الإقفاصي قبره فلثمه وانشد: [من الطويل]

يَـزُوْرُكَ فِـي نـوى خـشـوع وذلَّـة كـأَنَّكَ تُرْجَى في الضَّرِيح وتَرْهَبُ
وتـرى بـمـا قـد كـتـبـت مُـمْـتَـدِحـاً بِـهِ فَـيُـحـزِنُـنَـا مـنْـكَ الـذَّي كـانَ يـطـرب

ومنهم:

[٥١]

أنو شروان بن خالد شرف الدين(١)

وزير كان لا يعبأ بمنصبه، على أنه كان خليل ولا يرفع على مخصبه، ومرآهُ جميل، وكان له ببديع الأدب اعتناء، ومن فروع الطلب اجتناء، حتى كانَ ناديه لا يزال

(١) أنوشروان بن خالد بن محمد. الوزير، أبو نصر القاشانيّ، القِينيّ، وقِين: من قُرى قاشان.
وزير الدولتين جميعاً للخليفة المسترشد، وللسلطان محمود بن محمد.
قال ابن السمعاني: كان قد جمع الله فيه الفضل الوافر، والعقل الكامل، والتواضع، والخيريّة، ورعاية الحقوق. أدركتُه ببغداد وقد كبر وأسنّ وتضعضع، وأقعده العجز في داره بالحريم =

للأدباء مجمعاً، وللأولياء مرتعاً، وسحاب كرمه ينهمر، وحرم بيته للحاج المعتمر. وزر للمسترشد والسلطان محمود، وللسلطان مسعود، وكان مستقيل من الوزارة إلى ذلك، ثم يُخطب لها فيجيب كارهاً، وهو الذي كان السبب في عمل المقامات الحريرية.

وكان رجلاً عاقلاً، شهماً، ديِّناً، خيِّراً، وكان يتشيع إلاَّ أنه لم يظهر عنه غُلُوٌّ ولا سبٌّ، ولا تعصُّبٌ لأجل ذلك.

وكان إذا وَلِيَ عَدَل وأنْصَفَ، وكشف ظلمَ من جار وأجحف، ثم إذا نزع رداء الوزارة على معاناة الأدب، وله فيه يد ليست بالعليا.

وتوفي في صفر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة، فَمَنْ دونَه، ودفن في داره، ثم نقل إلى الكوفة، فدفن بمشهد علي ـ كرم الله وجهه ـ.

/١٠٢/ ومنهم:

[٥٢]

الشريف علي بن طرَّاد الزينبي(١)

شرف الدين أبو الحسن، من بيت الشرف الرفيع، ولؤلؤ النسب الشريف لا

=

الظاهرية. عاقني المرض عن الحضور عنده.

وقد حدَّث عن: عبد الله بن الحَسَن الكامخيّ العبّاديّ.

وسمع منه جماعة من أصحابنا. وكان هو السبب في إنشاء «مقامات الحريري»، وكان يميل إلى التَّشيُّع.

قال ابن الجوزي: كان عاقلاً مهيباً، عظيم الخِلْقة. دخلتُ عليه فرأيت من هيبته ما أدهشني. وكان كريماً.

ولد بالري في رجب سنة ٤٥٩هـ. ووزّر ثم عُزل، ثم أُعيد. توفي في رمضان سنة ٥٣٢هـ، ودفن بداره، ثم نقل بعد ذلك إلى الكوفة، فدفن بمسجد علي كرم الله وجهه. وقيل توفي في ١٢ صفر سنة ٥٣٣هـ.

ترجمته في: المنتظم ١٠/ ٧٧ـ ٧٨ رقم ١٠٠ (١٧/ ٣٣٣ـ ٣٣٤ رقم ٤٠٤٦) وفيه: «أنو شروان»، والإنباء في تاريخ الخلفاء ٢١٧ـ ٢١٨، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٢٣، وخريدة القصر (قسم شعراء العراق) ج١/ ٢٤٤، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٨٨، ٣١٦، ٣٣٩ـ٣٤١، ٣٥٨، والفخري ٢٧٣، والتاريخ الباهر ٣٥، ٤٩، والكامل في التاريخ ١١/ ٧٠ـ ٧١، ووفيات الأعيان ٤/ ٦٤ـ ٦٧، ٥/ ٢٠٠، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٣٠، ٣٤١، وفيه: «أنو شروان»، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٤، وشذرات الذهب ٤/ ١٠١، وشرح مقامات الحريري للشريشي ١/ ١٢، وزبدة النصر (انظر فهرس الأعلام) ٢٠٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ ص٣٠٤ رقم ١٢٠).

(١) علي بن طِرَاد بن محمد بن علي الزَّيْنَبي الهاشمي، أبو القاسم شرف الدين: وزير، من العقلاء =

الصدف الوضيع. طلع قمراً في الأسوة العلوية، وكوكباً في أفق الذرية الدلاية، وشد عضد الخلافة العباسية، منه شقيق نسب وشقيق قربى كلامها الأدب.

ولم تزل الوزارة تعرض عليه عقيلتها، وتبث لديه عقيدتها حتى وسمها بسمته، وعقد عليها، وأصبحت في عصمته.

وزر مراتٍ. وزر للمسترشد، والراشد، والمقتفي، وكان تارة يكون نائباً عن الوزارة، وتارة وزيراً مستقلاً بالوزارة، وكان هو أحد من أشار بخلافة المقتدي على ما هو مذكور، وتخالف هو والسلطان على إقامته، واتخذت بينهما الصداقة.

ولما تزوج الخليفة بفاطمة أخت السلطان مسعود على صداق مبلغه مائة ألف دينار، كان الوكيل في قبول النكاح عن الخليفة وزيره الشريف ابن طرَّاد المذكور، والوكيل عن السلطان في العقد وزيره كمال الدين الدركرسي.

قال ابن الأثير: جرى بين المقتفي وبين ابن طرَّاد منافسة. وسببها أنَّه كان يتعرض على الخليفة في كل ما يأمره به، فنفر الخليفة منه، فغضب، ثم خاف، فقصد دار السلطان في سمرية، وقت الظهر، ودخل إليها، فاحتمى بها، فأرسل إليه الخليفة في العود إلى منصبه، فامتنع فكانت الكتب تصدر باسمه.

واستنيب قاضي القضاة الزينبي ـ وهو ابن عم الوزير ـ وأرسل الخليفة إلى السلطان رسلاً في معنى الوزير، فرخص له السلطان في عزله، فأسقط اسمه من الكتب، ورفع يد نائبه وأقام بدار السلطان.

ثم توفي ابن طرَّاد في رمضان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة معزولاً. ودفن بداره، بباب الأزج، ثم نقل إلى الحرمة.

= العارفين بسياسة الملك وتدبيره. ولد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م. ولاه المستظهر العباسي نقابة النقباء ولقّب بالرضي ذي الفخرين (النقابة والفضل) ثم استوزره الخليفة المسترشد بالله وخلع عليه سنة ٥٢٣هـ. قال ابن الأثير: ولم يوزر للخلفاء من بني العباس هاشمي غيره. ولما صارت الخلافة إلى «المقتفي لأمر الله» حدثت بينهما وحشة كان سببها اعتراضه الخليفة في شؤون أمر بها، فاستقال سنة ٥٣٤ ولزم بيته ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م.

ترجمته في: الأنساب ٦/ ٣٤٦، والمنتظم ١٠/ ١٠٩ رقم ١٥١، ١٨/ ٣٤، ٣٥ رقم ٤٠٩٩، وتاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٩٨ (وتحقيق سويم) ٥٨، والكامل في التاريخ ١١/ ٩٧، والفخري ٣٠٥ـ ٣٠٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٤٩ـ١٥١ رقم ٩٠، ودول الإسلام ٢/ ٥٦، والعبر ٤/ ١٠٤، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٩، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٧٨ـ ٣٧٩، وذيل تاريخ بغداد (مخطوط)، ورقة ١٣٧أ، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٣ـ ٢٧٤، وشذرات الذهب ٤/ ١١٧، الأعلام ٤/ ٢٩٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ) ص٤٦٩ رقم ٣٧٣.

ومنهم:

[٥٣]

يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن(١)

من ولد ابن هبيرة الشيباني، عون الدين أبو المظفر الحنبليُّ، فرد في الأئمة الأعلام. كان يتمذهب للإمام أحمد بن حنبل، وله تصانيف مشهورة مفيدة، لا أدعي حضورها لأنها عديدة، وقد /١٠٣/ شدَّ الله به أزر الخلافة بعد أن كانت تهَلْهَلَ بردُها، وتناثر عِقْدُها، قام مع المقتفي قيام أبي مسلم مع المعرق في خؤولة عبد المدان، وابن العاصي مع ابن أبي سفيان، وشمر له تشمير كاتبان في نصر افريدون، وطاهر بن الحسين في قتل أعداء المأمون، حتى سلَّ مهج السلجوقية، وحطَّ درج الدولة الشرقية،

---

(١) يحيى بن هُبَيْرة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، عون الدين: من كبار الوزراء في الدولة العباسية. عالم بالفقه والأدب. له نظم جيد. ولد في قرية من أعمال دجيل بالعراق سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م. ودخل بغداد في صباه، فتعلم صناعة الإنشاء، وقرأ التاريخ والأدب وعلوم الدين. واتصل بالمقتفي لأمر الله، فولاه بعض الأعمال، وظهرت كفاءته، فارتفعت مكانته. ثم استوزره المقتفي (سنة ٥٤٤هـ) وكان يقول: ما وزر لبني العباس مثله. وهو الذي لقبه بعون الدين؛ وكان لقبه جلال الدين؛ ونعته بالوزير العالم العادل. وقام ابن هبيرة بشؤون الوزارة حكماً وسياسة وإدارة، أفضل قيام. وتوفرت له أسباب السعادة. ولما توفي المقتفي وبويع المستنجد، أقره في الوزارة، وعرف قدره؛ فاستمر في نعمة وحسن تصرف بالأمور، إلى أن توفي ببغداد سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م. وكان مكرماً لأهل العلم، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم. وصنف كتباً، منها «الإيضاح والتبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين ـ خ» و«الإشراف على مذاهب الأشراف ـ خ» فقه، و«الإفصاح عن معاني الصحاح ـ ط» الجزآن الأول والثاني، و«المقتصد» في النحو، شرحه ابن الخشاب في أربع مجلدات، و«العبادات» في الفقه على مذهب أحمد، و«اختلاف العلماء ـ خ» في خزانة بغدادلي وهبي أفندي. رقم ٤١١ عمومي. وأرجوزة في «المقصور والممدود» وأرجوزة في «علم الخط» واختصر «إصلاح المنطق» لابن السكيت. وأخباره كثيرة جداً. ولابن المرستانية (عبيد الله بن علي) كتاب في «سيرته» نقل عنه ابن خلكان وابن رجب. وكان ابن الجوزي من تلاميذه، فجمع بعض فوائده وما سمع منه، في كتاب «المقتبس من الفوائد العونية» نسبة إلى لقبه «عون الدين» وأورد له كلمات مختارة، منها: «احذروا مصارع العقول، عند التهاب الشهوات» وذكر له شعراً، منه قوله:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

وأشار «ابن رجب» إلى كثرة ما مدحه به الشعراء، وأن قصائدهم جمعت في مجلدات، فلما بيعت كتبه، بعد موته، اشتراها حاسد له، فغسلها.

ترجمته في: الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٢٥ـ ٢٢٦، وخريدة القصر (قسم العراق) ١/ ٩٦، والمنتظم ١٠/ ٢١٤ـ٢١٧، والكامل في التاريخ ١١/ ٣٢١، وزبدة التواريخ للكازروني ٢٣١، =

وجدَّ لبلوغ الأرب، وأسجد سحبان العجم لعمائم العرب، وجلا عن أقطار بغداد أمها وأجلى عن نهار دجلة المشرق ظلمها، حتى أجلى للمقتفي ذرى منبره، وجلى للمقتفي بذي كوثره، وكان على شغله الشاغل بحمل هذه الأثقال، ومدافعة تلك السحب الثقال، لا يزال منتاب الأندية بالعلماء، معمور الأفنية، لإفاضة النعماء، ومع هذا كلّه يقوم بالعبادة دجى الليلة الظلماء، وبكل ما وليه من أهل الأرض إلى ربِ السماء، ولا ير ى ما أدركه بجميل سعيه إلا بأسنة المقادير، وأدنته منه سابق المشقة لا التدبير، وقد مرَّ في ذكر المقتفي من حاله ما حلا، وظنّ من خلايا الفعل منه ما حلا.

قال ابن خلكان: إنَّ أصله من قرية، من عمل دجيل تعرف الآن بدور الوزير، نسبة إليه، دخل بغداد، واشتغل بها، وجالس الفقهاء، والأدباء، وسمع الحديث، وتفنن وحفظ ألفاظ البلغاء، وتعلم الإنشاء، وقرأ الأدب على ابن الجواليقي، والفقه على ابن الفراء، وصحب الزبيدي الواعظ، وسمع الحديث من ابن ملَّة الأصفهاني، وأبي القاسم بن حصين الكاتب، ومَنْ بعدهما، وحدَّث عن المقتفي وغيره، وسمع منه خلق كثير منهم: أبو الفرج بن الجوزي. وتنقَّل في الوظائف حتى ولي ديوان الزمام، ثم ترقى إلى الوزارة.

قال: وكان سبب توليته أنَّ السعودي ويلدكز السلطان قصد بغداد بجموع كثيرة، وصدرت منه فتن عظيمة، فشرع الوزير ابن صدقة في تدبير الحال، فأخفق مسعاه، فاستأذن الخليفة ابن هبيرة في أمرهم، فأذن له يخاطب هؤلاء، وأحسن التدبير حتى

= ٢٣٣، ومرآة الزمان ٨/ ٢٥٥ـ٢٦١، وكتاب الروضتين ٢/ ٣٤٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٣٠ـ٢٤٤، وتاريخ إربل ١/ ١٩٦، ٢٤٣، ومفرّج الكروب ١/ ١٤٧، والفخري ٣١٢ـ٣١٥، وتلخيص معجم الألقاب ج٤ ق٢/ ٩٨٨ رقم ١٤٦٤، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٦٧ـ ٣٦٨، والتذكرة الفخرية ٩٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٢، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٧٦ـ٢٧٨، وتراجم ابن عبد الهادي (مخطوط) ٢/ ١١٠، والعبر ٤/ ١٧٢، والمعين في طبقات المحدّثين ١٦٨ رقم ١٨٠٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣١، والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي ٣/ ٢٤٨ رقم ١٣٥٨، ١٧٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٢٦ـ٤٣٢ رقم ٢٨٢، ودول الإسلام ٢/ ٧٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٦، ومرآة الجنان ٣/ ٣٤٤ـ٣٤٦، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥١، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٥١ـ٢٨٩ رقم ١٣١، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٤، ومطالع البدور ٢/ ١٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٩ـ ٣٧٠، وتاريخ الخلفاء ٤٤٤، والدر المنضّد في رجال أحمد للعليمي (مخطوط) ورقة ٧١ بـ و٧٢ أ، وكشف الظنون ٣٣، ١٠٣، ١٤٦٢، وشذرات الذهب ٤/ ١٩١ـ١٩٧، وإيضاح المكنون ١/ ٢٥٥ و٢/ ٧٧، وهدية العارفين ٨/ ١٥٩ـ١٦٣، الأعلام ٨/ ١٧٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ٥٦٠هـ) ص٣٢٨ رقم ٣٧٠.

كفَّ شرّهم، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامةُ أموالَهم. وجرت المقادير في هذا لرفع ابن هبيرة، ووضع ابن صداقة، فلما انقضى هذا / ١٠٤/ المهم استدعى المقتفي ابن هبيرة بكتاب على يد أميرين، فركب إلى دار الخلافة، وتسامع الناس بوزارته، فلمَّا وصل إلى باب الحجرة، استدعي فدخل، وقد جلس له المقتفي بمَيمنة التاج، فقبَّل الأرض وسلَّم وتحدَّثا ساعة، ثم خرج، وقد جهز له الشريف على عادة الوزراء، فلبسه ثم استدعي ثانياً، ودعا بدعاء، أعجب الخليفة، ثم انشد يقول: [من الطويل]

سَأشكُرُ عَمْراً مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جلَّتِ
رَأى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُها وكَانَتْ بِمَرْأى مِنْهُ حتَّى تَجَلَّتِ

وهذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي، وإنما غير عجز البيت الثاني؛ لأن أصله «وكانت قذى عينيه» فلم يرد مخاطبة الخليفة.

قال: ثم خرج، فقُدِّم له حصان أدهمَ الغرَّة، محجَّل، كامل العدَّة بالحلي، وخرج بين يديه طائفة من الأمراء، وأرباب المناصب، والخدم، والحجاب، والطبول تُضرب أمامه، والمسند محمول وراءه على عادتهم في ذلك، ودخل الديوان، ونزل على طرف الإيوان، وجلس في الدست، وقرأ ابن الأنباري العهد، ثم قرأ القرآن، وأنشد الشعراء، وذلك يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وكان عالماً، فاضلاً، ذا رأي صائب، وسريرة صالحة،. وظهر منه في أيام ولايته ما شهد له بكفايته، وحسن مناصحته، فشكر له ذلك، ولحظ بعين الرعاية، وتوفرت له أسباب السعادة.

وكان مكرماً لأهل العلم، يحضر مجلسه بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره، وصنَّف كتباً منها: الإفصاح في شرح معاني الصحاح، وشرح الجمع بين الصحيحين، وكتاب المقتصد، وغير ذلك.

ولمَّا أتى السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه، وزين الدين علي أبو المظفر - صاحب إربل - لحصار بغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، جدَّ المقتفي في حفظ البلد، وقام ابن هبيرة في هذا القيام الذي يعجز عنه غيرُه، وأمر المقتفي، فنودي ببغداد من جُرح له خمسة دنانير، فحضر بعض العامة عند ابن هبيرة مجروحاً، فقال له: هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً، فعاد إلى القتال، فضرب في جوفه، فجرحت أمعاؤه، / ١٠٥/ فعاد إلى ابن هبيرة، وقال: يا مولانا أبصر يرضيك هذا؟ فضحك منه، وأمر له بصله، وأحضر له من عالجه.

ومضت أيام المقتفي وابن هبيرة نظام جمعها، وتمام طاعتها، فلمَّا آل الأمر إلى

المستنجد دخل عليه ابن هبيرة وبايعه ـ وكان خائفاً منه ـ فأقرَّه على وزارته وأكرمه، ثم لم يزل على منصبه حتى أتاه أجله.

وحكى ابن الأثير: أنَّ ابن هبيرة ولي يوم الأربعاء رابع ربيع الآخرة سنة أربع وأربعين، كان القمر على تربيع، قيل له: لولا أخرت لبس الخلافة لهذه التربيعات، فقال: وأي سعادة أكثر من وزارة الخليفة في ذلك اليوم.

ومنهم:

[٥٤]

أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن البلدي شرف الدين(١)

تحمل بالوزارة إثماً، وابتدع... سوَّدت الصحف والأيام، وسوَّلت الحتف والآثام، وأعادت ما كان نُسي من المظالم، فتقرب به ما أبعده، وقام بما أقعده، فسلب ما لَبِسَ له جِلْدَ النَّمْرِ، وحُصِرَ لا يُؤذن له فيعترف، ولا يُقبل منه فيعذر.

قال ابن الأثير: كان ناظراً بواسط، فبان عن همَّة عالية، وسيرة سديدة في تعميرها، وتشميرها، وسداد عملها. فأحضر المستنجد وزيره سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وكان عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء قد تحكَّم تحكُّماً عظيماً، فأمر الخليفة ابن البلدي بكفِّ يده وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك، ووكل بتاج الدين أخي أستاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، وكان يتولاَّه من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصل أموالاً جمَّة، وخاف أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاً كثيراً.

قال غير ابن الأثير: ملأ الخزائن، وعمَّر البلاد، وثمَّر الأموال، إلاَّ أنَّه قاد

---

(١) أحمد بن محمد بن سعيد بن إبراهيم. الوزير أبو جعفر ابن البلديّ، وزير المستنجد بالله، فلمّا تُوفي المستنجد وبويع المستنصر في نفس السنة كان المتولّي لعقد بيعته أبو الفرج محمد بن عبد الله ابن رئيس الرؤساء. ثمّ إنَّه استوزره أبا الفرج، فانتقم من ابن البلديّ وقتله. وكان في وزارته قد قطع أنف امرأةٍ ويد رجل لجناية جرت، فسُلِّم إلى أولئك، فقطعوا أنفه ثم يده، ثم ضُرِب المسكين بالسيوف، وأُلقي في دجلة في ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ.

وكانت وزارته ستة أعوام.

ترجمته في: المنتظم ١٠/ ٢٣٣، والوافي بالوفيات ٧/ ٤٠١ـ ٤٠٢ رقم ٣٤٠٠، والكامل في التاريخ ١٨/ ٣٦١ـ ٣٦٢، ومرآة الزمان ٨/ ١٧٨، والعبر ٤/ ١٩٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٨٧ رقم ٣٦٨ وانظر ٢٠/ ٥٠٦، والفخري ٣١٧ـ ٣١٨، وفيه: «شرف الدين أبو جعفر محمد بن أبي الفتح بن البلدي»، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٧٨، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٣٥/ ٢٣٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٦١ـ٥٧٠هـ) ص٢٤٣ رقم ٢١٧.

الناس بالعنف، وحكم بالعسف، وامتدَّ في غلوِ الجور، فاتفق عليه ابن رئيس الرؤساء ويزدن المقتفوي، لما كان قد استحكم بينهما وبينه من العداوة؛ لأنَّ المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها، فيظنان أنه هو الذي سعى بها، فلما مرض المستنجد، وأرجف بموته، ركب الوزير بن البلدي، معه الأمراء والأجناد بالعدَّة، ولم يتحقَّق خبر موته، فبعث ابن رئيس الرؤساء يقول له: إنَّ أمير المؤمنين قد خفَّ ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير من دخول دار الخلافة بالجند، فعاد إلى داره، وتفرَّق من كان /١٠٦/ معه.

وكان ابن رئيس الرؤساء ويزدن قد استعدَّ لما ركب الوزير بالعسكر خوفاً منه، فلما عاد غلق أستاذ الدار باب الدار، وأظهر وفاة المستنجد، وبايعا المستضيء، وبلغ الخبر ابن البلدي، فأُسقط في يده، وقرع بعوده سنَّه ندماً حيث لا ينفعه الندم، فجاء من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضي إلى دار الخلافة، فصرف إلى مكان، وقُطِّع قطعاً، وألقيَ في دجلة وأخذ جميع ما في داره، فرئي فيها خطوط المستنجد يأمره بالقبض عليهما، وخط ابن البلدي الوزير يراجعه في ذلك، ويصرفه عنه. فلما وقف ابن رئيس الرؤساء ويزدن عليهما، علما ببراءته مما كانا يظنان به، وندما على التعجيل عليه.

[٥٥]

ابن رئيس الرؤساء(١)

ووزر بعده ابن رئيس الرؤساء، ثم لم يلبث حتى عزل؛ لأن قايماز أكره المستضيء على عزله، فعزله، ثم أمر المستضيء بإعادته إلى الوزارة، فمنعه يزدن، وأغلق باب النوبى وباب العامة، وبقيت دار الخلافة كالمحاصرة، فأجاب المستضيء إلى ترك وزارته، فقال يزدن: لا أقنع إلاَّ بإخراجه من بغداد، فأُمر بالخروج منها، فلجأ إلى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذ إلى رباطه، ونقله

(١) عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء: وزير. كان فاضلاً عاقلاً، له علم بالأدب، وشعر. قتلته الباطنية وهو خارج إلى الحج في أيام المستضيء العباسي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م.
ترجمته في: خريدة القصر (قسم شعراء العراق) ١/ ١٥٠ـ١٦٢، والذيل على الروضتين ٨ وفيه: «عبيد الله»، وتكملة إكمال الإكمال ٨ـ١٠ رقم ٤، والمختصر المحتاج إليه ٢/ ١٦٩ـ ١٧٠ رقم ٨٠٨، والتكملة لوفيات النقلة ٢/ ١٣ـ ١٤ رقم ٣١٥، والوافي بالوفيات ١٧/ ٦٢٦ـ ٦٢٧ رقم ٢٥٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١ـ٦٠٠هـ) ص٩٤ رقم ٧٥.

إلى دار أقام بها، ثم عاد إلى بيته.

ثم لما آل الأمر إلى إقامة يزدن بالحلة، خلع المستضيء على ابن رئيس الرؤساء وأعاده إلى الوزارة، وذلك سنة سبعين وخمسمائة.

ومنهم:

[٥٦]

محمد بن علي بن أحمد بن المبارك، مؤيد الدين، أبو الفضل المعروف بابن القصاب[(١)]

الوزير، وزير الإمام الناصر، وحلَّ من الأيام محلَّ الروح الباصر، وكان من الدولة العباسية في سويداء إقبالها، وسواد شعارها، وخب خلبها، بعزم يسري منه في جحفل لَجِب، وبحزم يرى بصره ما يخفى ويحتجب.

وكان قد كتب الأشياء بالديوان العزيز، وكتب من شاء بالتقدم والسرير، وكان ذا فضل متناصر، وفعل غير قاصر.

---

(١) محمد بن علي بن أحمد بن المبارك، أبو الفضل، مؤيد الدين، ابن القصاب: وزير عصامي من الكتّاب ذوي الرأي. ولد سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، استقدم سنة ٥٨٤ من شيراز إلى بغداد، فولي ديوان الإنشاء، وتقدم إلى أن ردت إليه الدواوين كلها. ثم خلع عليه بالوزارة سنة ٥٩٠، وانتدب لإصلاح خلل طرأ على بلاد خوزستان وتستر، فخرج متنقلاً متفقداً، فما وافى بلداً إلا جاءه أهلها طائعين، فتسلمها وأقام بها من الأمراء من رآه أهلاً للعمل. ثم توجه إلى همذان والريّ وأصبهان، فتسلمها جميعاً وأصلح أمورها. وعاد ووجهته همذان، فتوفي على بابها سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م. وكان أبوه قصاباً بسوق الثلاثاء (المسماة اليوم سوق الحيدرخانة) ببغداد. قال ابن قاضي شهبة: لما مات أخفى موته، ثم ظهر الأمر ونبشه خوارزمشاه وحز رأسه وطاف به في بلاد خراسان.

ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٢/ ١٢٤، الفخري في الآداب السلطانية ٣٢٤، وفيه: أبو المظفر محمد بن أحمد بن القصاب، والوافي بالوفيات ٤/ ١٦٨ـ ١٦٩ رقم ١٧٠٥، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٤٥٠ـ ٤٥١، والتكملة لوفيات النقلة ١/ ٢٦٢ رقم ٣٤٩، وتاريخ ابن الدبيثي (مخطوط شهيد علي) ورقة ٨٧، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٤٥٠ـ ٤٥١، وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٨٣، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٥٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٠، وإنسان العيون، ورقة ٢٥١، وذيل الروضتين ٩، والمختصر المحتاج إليه ١/ ٩٦، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٢٣ـ ٣٢٤ رقم ١٦٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٠٧ـ ٣٠٨، والوافي بالوفيات ٤/ ١٦٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٢، ومآثر الإنافة ٢/ ٥٨ـ ٥٩، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٣٩، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٢٠٩، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٣٦، وشذرات الذهب ٤/ ٣١١، الأعلام ٦/ ٢٧٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١ـ٦٠٠هـ) ص١١١ رقم ٩٩.

ومن نثره قوله:

«وسالك موهبة خصَّتك، وعمَّت الورى، وأولتك يداً أَهزلها الغمام والنهى، وأولتك نعماً لا أَصنعها إلاَّ أنها كما ترى».

/١٠٧/ وقوله:

«وأقبل الأخوان بقبل بسمة، يراك ودخان النرجس لا يفتح على أحد عنسه، حتى رآك وأكل المشور أصابعه، ومما يندم ودح الشقيق وامتلأت ثيابه من دم فعجل ولا يفرح، وأسرع ولا ينتظر القدح».

ومن شعره قوله: [من السريع]

طَالَ مُقَامِي بِثَرَى فَارِسٍ ... مِنْ غَيرِ نَفعٍ فَالرَّواحَ الرَّواحْ
مَا آفَةُ الإنسَانِ إلاَّ المُنَى ... طُوْبَى لِمَن طَلَّقَهَا واسْتَرَاحْ
أمَّلْتُهُم ثُمَّ بَالتهم ... وَلاَحَ لِيْ أنْ لَيْسَ فِيْهِمْ فَلاَحْ

وتوفي في أوَّل شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ومنهم:

[٥٧]

ابن مهدي العلوي، نصير الدين

وزير لو أنصف، لكان خليفة، ولو وصف، لكان البحر حليفه، ومن خالص تلك السلامة، وخالد تلك الجلالة، أغرق في الشرف نسباً، وأشرق في السدف كوكباً، وهطلت أنواؤه، وبطلت أسنة النجوم لما بطلت أضواؤه، وطالما علقت به آمال، وعبقت به صَباً وشَمال، وأملت له أيام كان يظن أن يزل منها ما فات أباه، ويدرك منها ما يرد الآفات شباه، وتعجل منه مهدي الأمة المنتظر، ويورد منه شربه المحتضر، ويردّ الخيل تدمى نحورُها، والجيوش تنتظم بحورها، لولا ما عُرِف من تنكر الأيام، وتعدد المطالب على الكرام، وهي الليالي «والسيل حرب للمكان العالي».

قال ابن الأثير: فيه من الرأي من بيت كرم، وقدم بغداد أيام مؤيد الدين بن القصاب الوزير، ولقي من الخليفة قبولاً كثيراً، جعله نائب الوزارة، ثم جعله وزيراً وحكَّمه، وجعل ابنه صاحب المخزن.

وقال غيره: وبسط يده وتصرَّف وأُعطيَ فأسرف، وحصل مالاً طائلاً، وجملاً جزيلة، وكانت أعداؤه توصل إلى الخليفة أمره، وتعري خاطره عليه.

قال ابن الأثير: فلما كان في الثاني والعشرين، من جمادى الآخرة سنة خمس

وستمائة عزله /١٠٨/ وأغلق بابه.

وكان سبب غلق بابه أنَّه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة، منهم سنقر وجه السبع، أمير الحاجب، فهرب من يده إلى الشام سنة ثلاث وستمائة، وأرسل يعتذر من هربه، ويقول: إنني هربت من يد الوزير أن لا يبقى أحد في خدمة الخليفة من مماليكه، ولا شك أنه يريد يدَّعي الخلافة.

وقال الناس في ذلك، فأكثروا: [من الطويل]

أَلا مُبْلِغ عَنّي الخَلِيْفَةَ أَحْمَداً تَوَقَّ وُقِيْتَ السُّوْءَ مَا أَنْتَ صَانِعُ
وَزِيْرُكَ هَذَا بَيْنَ أَمْرَيْنِ فِيْهُمَا فَعَالُكَ يَا خَيْرُ البَرِيَّةِ ضَائِعُ
فَإِنْ كَانَ حَقّاً مِنْ سُلاَلَةِ أَحْمَدٍ فَهَا وزير فِي الخِلاَفَةِ طَامِعُ
وإِنْ كَانَ فِيْمَا يَدَّعِي غَيْرَ صَادِقٍ فَأَضْيَعُ مَا كَانَتْ لَدَيْهِ الصَّنَائِعُ

فعزله.

وقيل في سبب ذلك غير ما ذكرناه.

ولما عزل أرسل إلى الخليفة يقول له: إني قدمت، وليس لي دينار، ولا درهم، وقد حصل لي من الأموال والأعلاق النفيسة ما يزيد على خمسمائة ألف دينار، وأسأل أن يؤخذ مني الجميع، وأمكن بالمقام بالمشهد أسوة بالعلويين. فأجابه الخليفة: بأننا ما أنعمنا عليك بشيء، فنوينا استعادته منك، ولو كانت ملءَ الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله وأماننا، ولم يبلغنا ما يستوجب ذلك غير أن الأعداء قد أكثروا فيك، فاختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً محترماً، فاختار أن يكون تحت الاستنظار في جانب الخليفة، لئلا يتمكن منه عدو فيذهب نفسه، ففعل ذلك.

وكان حسن السيرة قريباً إلى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم، عفيفاً عن أموالهم غير ظالم لهم، فلمَّا قبض عاد وجه السبع من مصر وكان في خدمة الملك العادل، وعاد قشتمر، وأقيم في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن أسنا إلاَّ أنَّه لم يكنْ متحكِّماً.

ثم عزل وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة.

ومنهم:

[٥٨]

ابن العلقميّ[١]

محمد بن أحمد بن علي، مؤيد الدين، أبو طالب وزير ليته لا وزر، وارتفع ليته

---

(١) ابن العلقميّ، محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي: وزير المستعصم العباسي. =

رضَّ بالحجر، وتصرَّف ليته صرف، وجهل أمره وليته عرف، وكمن كمون الأرقم، وسقى /١٠٩/ الناس من كأسه العلقم، وحمله تحامله على أهل السابقة الأولى على قطع شجرة الإسلام، وقلع مذن دار السلام، إذ كان في أهل من كبراء الدولة من يقف في طريق رفضه ويردُّ عن كل ما ردّه السيء أو بعضه، وهو يأبى إلاَّ أن يزيد في غُلُوِّه، ليبدل الإسلام كفراً، وأخذ في ممالأة التتار، وموالاة ما يعجل الدمار، حتى كانت تلك الكتابة التي هي في صحيفة عمله، وجرَّ تلك البلية بحبل حيله، وجلب تلك الرزايا، وصبّ تلك البلايا، وفعل في أكثر الدنيا ما لم يفعل بختنصر في البيت المقدس، ولا الضحاك بن الهراسب حين يمجس، وكلَّف أمَّة محمَّد ﷺ ما لم يكلفه فرعون لبني إسرائيل، ولا سامه أهل مكة إبرهة عام الفيل، فإنه لم يكن يقيم بلية مثل بليته، ولا عرفت في قضايا الأيام مثل قضيته، فكم من نفوس ذهبت، ونفائس نُهِبَتْ، ونعم أُجفيت، وحُرم سُبيتْ، وأبكار افتُضَّتْ، وأموال من الذهب ذهبت ومن الفضة فُضَّت، ونجوم من القصور أُهويَت، وأبنية نُقِضت، وأفنية مع سكانها مضت، حتى بكت عروس الخلافة، وذهبت بقايا أهل الرحمة والرأفة. كل هذا بسوء فعل هذا المجرم والكافر

= ولد سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م. اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢ فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به المستعصم فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء. اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني «العباب» وابن أبي الحديد «شرح نهج البلاغة» ونفى عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المخامرة على المستعصم حين أغار هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ وقال بعضهم أنه مالأه، وولي له الوزارة مدة قصيرة وتوفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٥٨م. ودفن في مشهد الإمام موسى بن جعفر (الكاظمية) ببغداد، وخلفه في الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد» وهناك روايات بأن مؤيد الدين أهين على أيدي التتار، بعد دخولهم، ومات غماً في قلة وذلة.

جاء في العسجد المسبوك أنه «كان عالماً أديباً، حسن المحاضرة، دمث الأخلاق، كريم الطباع، خيّر النفس، كارهاً للظلم، خبيراً بتدبير الملك، ولم يباشر قلعَ بيتٍ ولا استئصال مالٍ، اشتغل بالنحو وعلم الأدب في شبيبته...».

ترجمته في: العبر ٥/ ٢٣٥ـ ٢٣٦، والحوادث الجامعة ١٦٢، ودول الإسلام ٢/ ١٦١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠١، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٣٣ و١٣٦ و١٩٣، والفخري في الآداب السلطانية ٢٣٦ـ ٢٣٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٢ـ ٢١٣، وفيه: «محمد بن أحمد بن محمد بن علي»، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٠ـ٩٢، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢١ـ ٤٤٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣٧، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٤٠ـ ٦٤١، وجامع التواريخ ج٢ ق١/ ٢٦٢ـ٢٦٤، وعقد الجمان (١) ٢٠٢ـ ٢٠٣، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٨، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٨٣، ٢٨٩، الأعلام ٥/ ٣٢١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ٦٦٠هـ) ص٢٩٠ رقم ٣١٥.

المقرّ بالشهادة، كأنه مسلم، وزير التدمير لا التدبير، وعون إبليس في التَّعكيس، وما... من الخطر وكان فيه على الإبر، وسلط فيه عقاربه الضارية، وبثَّ إليه مصائبه السارية، وما جرأه عليه إقدامه من سفك الدماء المحرَّمة، وجناه على كل مسلم ومسلمة، وتهوّر فيه تهوُّر من لا تعاودُه الندامة، وتصور أنه إذا بات لا يبعث يوم القيامة، وهو آخر وزراء القوم، ومن أرَّخ عليه اللَّعنة إلى اليوم.

ولي وزارة المستعصم بعد ابن الناقد في ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكان فاضلاً، رئيساً، عالي الهمَّة، مغالياً في التَّشيُّع، وذلك الذي حمله على فعل ما فعل، فإنه حصل بينه وبين الدوادار شحناء بسبب المذاهب، لأن الدوادار كان مغالياً في السنَّة، وعضده بعض أولاد الخليفة، فحصل عن ابن العلقمي الوزير الضغن، ما حمله على السعي في دمار الإسلام، ولم يُراقب الله تعالى، وانضم إلى هذا ركون الخليفة له، وعدم تيقظه، فتمَّ للوزير مرادُه.

/ ١١٠/ ثم ندم على فعله، لأنه كان قد تقرر بينه وبين هولاكو؛ لأنَّ هولاكو إذا ملك العراق... فيه، ويقتل الخليفة وحاشيته... لا غير، فلما جرى ما هو مشهور عومل الوزير، بأنواع الهوان من صغار التتر، فضلاً عن الكبار منهم.

حكى أنه كان قاعداً في الديوان لتنفيذ الأشغال، فدخل بعض من لا يوبه إليه من التتار راكباً فرسه إلى أن وقف بفرسه على البساط الذي الوزير عليه جالِس، وخاطبه بما يريد، واتفق أن بال الفرس على البساط فصاب رشاش البول ثياب الوزير.

وكان مع هذا الهوان يظهر قوة النفس، لكونه بلغ مقصوده ممن أراد.

وحكى بعض البغاددة، قال له: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية للشيعة، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب الفواحش من ألوف من نسائهم، وافتضت الأبكار من بنات الشرفاء مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فضلاً عن غيرهم. فقال: بعد أن قتل الدوادار، ومن كان على رأي مثله، لا مبالاة بذلك.

ولم يظلّ مدّة بعد واقعة بغداد، وقدم على قدم، وكانت له يد في صناعة الإنشاء، حكى ابن الأثير: إنه أول ما كان كاتباً للإنشاء، ثم استنيب في الوزارة، ثم وزر للمستعصم، وبعث المستعصم إليه بشدَّة أقلام، قيل: فكتب إليه: قبَّل المملوك الأرض شكراً للأنعام بأقلام قلمت عنه أظفار الحدثان، وقامت له حرب صرف الزمان مقام عواسل المران، وأجنته ثمار الأوطار من أغصانها، وحازت له قصبات السبق يوم رهانها، فيا لله كم... ذمام عقدها، وكم بحر سعادة أصبح في مدادها ومدّها، وكم منآدِ خطّ استقام بمثقفاتها، وكم صوارم خطوب فُلَّتْ مضاربُها بمرهفاتها، والله ينهض

المملوك بفروض دعائه، ويوفقه للقيام بشكر ما أولاه من جميل رأيه، وجزيل حَبائه: [من البسيط]

خَوَّلَتَنِي نِعَماً كَادَتْ تُعِيْدُ لَنَا عصرَ الشَّبَابِ وتُدْنِي منْه أيَّامَا
تُعْطِي الأقَالِيْمَ مَنْ لَمْ يُبْدِ مَسْأَلَةً يوماً فَلا عَجَبٌ أن يُعْطَ أقلاما
إذَا نُسِبْنَ إلى خَطٍّ فإنَّ لَهَا سنًى إذا عَمِلَتْهُ يَخْرِقُ الهَامَا
بالحَمْدِ والشُّكْرِ أُجرِيْها لِدَوْلَتِكُمْ فَالرَّأيُ يَحْصُدُ مِنْ أعْدَائِهَا الهَامَا

/ ١١١/ وكتب إلى التاج محمد بن الصلايا العلوي، يخدمه بدعاء ليليّ، وثناء عطر مندليّ، وينهي أنه خدم بها من النيل إلى سامي مجدك الأثيل، ومحل سوقه يغني عن التفصيل، وإبان شدَّة القرم إلى شريف تلك الشِّيم، ويعرض بعد الدُّعاء لأيامه، لا أخلى الله من إنعامه، وقد نهب الكرخ المكرم، وديس البساط النبوي المعظم، وقد نهبوا العترة العلوية، واستأسروا العصابة الهاشمية، وقد حسن التمثل بقول شاعر من غيره: [من الوافر]

أُمورٌ تَضْحَكُ السُّفهاءُ منها ويَبْكِي من عواقِبِها اللَّبِيْبُ

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حرمه، وأريق دمه، ولم يعثر فمه.

أَمَرْتُهُمُ أمري بِمُنْعَرَجِ اللِّوى فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغَدِ

وقد عزموا - لا أتمَّ الله - عزمهم، ولا أنفذ أمرهم - على نهب الحلَّة والنيل، بل سوّلت لهم أنفسهم أمراً فصبرٌ جميلٌ، وينهي أن الخادم أسلف لهم الإنذار، وعجّل لهم الإعذار وخاطبهم إسراراً، وراسلهم جهاراً: [من الوافر]

أرى تحتَ الرمادِ وميضَ نارٍ ويوشِكُ أنْ يكونَ لها ضَرَامُ
وإن لم يُطْفِهَا عُقلاءُ قومٍ يكونُ وَقُودُهَا جُثَثٌ وَهَامُ
فقلتُ مِن التَّعجُّبِ لَيْتَ شِعْرِيَ أَيَقْظانٌ أُمَيَّةُ أم يَنامُ

وكان جوابي بعد خطابي: لا بدَّ من الشَّنيعة، ومن قتل جميع الشيعة، ومن إحراق كتابي الوسيلة والذريعة.

وكنْ لما نقول سميعاً ولما نأمر مطيعاً، وإلا جُرِّعنا الحِمام تجريعاً، بكلامك كلام، ولسلوتك سلام، ولنتركنَّ في بغداد أجمل من الحناء عند الأضلع، والخاتم عند الأقطع، ولتنبذنّ نبذ الفلاسفة محذورات الشرائع، وتلقى إلقاءَ أهل القرى أسرار الطبائع، فلأفعلنَّ بك كما قال المتنبي: [من البسيط]

قَوْمٌ إذا أَخَذُوا الأقلامَ عَن غَضَبٍ ثُمَّ استَهَدُّوا بِها ما بالمنيَّاتِ
نالُوا بِها مِنْ أعَادِيْهِمْ وإنْ بَعُدُوا مَا لا يُنَالُ بِحَدِّ المَشْرِفِيَّاتِ

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾(١) : [من الكامل]

وَوَدِيْعَةٍ مِنْ آلِ بيتِ مُحَمَّدٍ أَوْدِعْتَها إذْ كُنتُ مِنْ أُمَنائِها

/ ١١٢/ فإذا رأيتَ الكوكبين تَقَارباً فالجَدْيُ عِنْدَ صَبَاحِهَا ومَسَائِهَا

فَهُنَاكَ يُؤخَذُ ثَأرُ آلِ مُحَمَّدٍ بِطلابِها بالتُّركِ مِنْ أعدائِهَا

وكن لهذا الأمر بالمرصاد، وترقب أول النحل وآخر صاد، والمساعدة بالدعاء والخير يكون إن شاء الله تعالى.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

مَنْ لَمْ يَرَ الوَجَناتِ أوَّلَ نَظْرةٍ والكأسُ مُتْرَعةٌ بِكَفِّ السَّاقِي

وَتَغازُل الألحَاظِ عِنْدَ فُتُورِها لَمْ يَدْرِ كيفَ مَصَارِعُ العُشَّاقِ

وقوله: [من السريع]

قدْ عُقْرِبَتْ صُدْغَاهُ واسْتُجْمِعَتْ عَسَاكِرُ النَّملِ عَلَى الأشْنَبِ

فقد الحاجِبِ للعارِضِ أن يكتب الأسودُ في الأشهبِ

يا أُمَراء الحُسْنِ لا تَرْكَبُوا فالقَمَرُ الأرضيُّ في عَقْرَبِ

وتوفي يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة سنة ستٍ وخمسين وستمائة(٢).

/ ١١٤/ فمنهم:

[٥٩]

أبو سعيد [ميمون] عبد الواحد بن علي بن ماكولا

كان له أدب كأنما فتق عنه الكمام، أو مجَّ الندى عليه الغمام، ولم يزل عقده وثيق السبب، وعهده وريق الجنى، كأنما صُبَّ عليه الغيث من صَبَب.

وزر لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه، وهو من بيت كتابة، وفضيلة، وأدب، ومجد، وسؤدد، وعلوّ رتب.

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٧.

(٢) جاء في نهاية النسخة ـ وهي حسب تجزئة المؤلف ـ ما نصّه «آخر الجزء الثاني... ويتلوه في.... إن شاء الله تعالى، وهذا آخر مشاهير وزراء الخلفاء بالجانب الشرقي.... يلحقهم من مشاهير وزراء الملوك ومن ينظم جوهرة في هذا السلوك فمنهم أبو سعيد، ويتلوه القسم الثالث». وبعدها بياض بمقدار ٦ أسطر. تتلوه الصفحة رقم / ١١٣/ و١١ سطر من بداية الصفحة / ١١٤/.

وكان أبو سعيد عارضاً لعضد الدولة في ديوان جيشه، ثم نقم عليه جلال الدولة، وقبض عليه، وأخذ له ثلاثمائة ألف دينار عيناً غير الخيل، والقماش، وسائر العروض.

وتوفي في ذي القعدة سنة عشر وثلاثمائة.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

وإنَّ لـقـاء الـشـجـاع لـهـيِّـن وَلـكـنْ جَـمِـيْـلُ الـضَّـيْـم مِـنـه شَـدِيْـدُ
إذا كَـانَ قَـلْـبُ الـقِـرنِ يَـنْـبُـو عَـنِ الـوَغَـى فـإنَّ جَـنَـانِـي جَـلْـمَـدٌ وشَـدِيْـدُ

ومنهم:

[٦٠]

ابن العميد

أبو الفضل، محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب(١)

ولي الوزارة / ١١٥/ وشرَّفها في أمورها، وصرَّفها، وساد الكبراء، وسام درر الكواكب يبغي السراء، وترك سعي الربح وراءه خافقاً... الغمام خلفه دافقاً، حتى حطَّ بالسماء، رجل رحلته، رجل داره البدر، وداس بحوافر خيله على ساحته.

وكان أبوه عميد خراسان، ... ما سنَّ فيها من إحسان، صدراً من صدورها، وبدراً من بدورها.

---

(١) محمد بن الحسين العَمِيْد بن محمد، أبو الفضل: وزير، من أئمة الكتاب. كان متوسّعاً في علوم الفلسفة والنجوم، ولقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله. ولي الوزارة لركن الدولة البويهي، وكان حسن السياسة خبيراً بتدبير الملك، كريماً ممدوحاً. قصده جماعة من الشعراء فأجازهم، ومدحه المتنبي فوهبه ثلاثة آلاف دينار. له «مجموع رسائل ـ خ» في مجلد ضخم، وشعر رقيق. قال ابن الأثير: اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك والكتابة التي أتى فيها بكل بديع، مع حسن خلق ولين عشرة وشجاعة تامة ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة البويهي ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء. وكانت وزارته أربعاً وعشرين سنة، وعاش نيفاً وستين. ومات بهمذان سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م. وللسيد خليل مردم «ابن العميد ـ ط» رسالة.

ترجمته في: العبر ٢/ ٣١٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٣٨١ رقم ٨٥٢، شذرات الذهب ٣/ ٣١، وفيات الأعيان ٥/ ١٠٣ـ ١١٣ رقم ٦٩٧، النجوم الزاهرة ٤/ ٦٠، تكملة تاريخ الطبري ١/ ٢٠٥، الكامل في التاريخ ٨/ ٦٠٥، الإمتاع والمؤانسة ١/ ٦٦، تجارب الأمم ٦/ ٢٧٤ـ٢٨٢، يتيمة الدهر ٣/ ١٥٤ـ١٨٨، معاهد التنصيص ٢/ ١١٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٧ـ ١٣٨ رقم ٩٥، هدية العارفين ٢/ ٤٦، الأعلام ٦/ ٥٩٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ٣٨٠هـ) ص١٩٣، ٢١٥.

ثم كان ابنه مطر قحوطها، ووطر شروطها، وعماد دولها، وعتاد دخولها، لا تصدأ أوامر الملوك إلا تابعه لآرائه، رابعة على خطر آيه، تناضل بسهامه، وتناصح بسهامه، وتدخر منه للنوائب فرَّاجاً للكرب، وولاَّجاً على الأدب، ومجلِّياً للغماء، ومجليَاً بالنعماء، وكان رحيب الفِناء، قريب الغناء، مُدْنِياً للمنى، ومحياً للغنى، لا يستأذن على ماله... بآماله، وكانت كوكب السابع، وخاطر أحفظ من الوعاء الصحيح، ختم عليه بالطابع.

قال ابن خلكان[1]: نعت والده بالعميد، على عادة أهل خراسان في مجرى التعظيم، وكان فيه أدب.

وكان ولده أبو الفضل هذا وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه. وزر له بعد وفاة الوزير أبي علي التميمي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل، فلم يقاربه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني، وكان كامل الرئاسة جليل المقدار.

وقال الثعالبي: كان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

ولما رجع الصاحب بن عباد من بغداد، قال له ابن العميد: كيف وجدت بغداد؟ قال: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، وكان يقال له: الأستاذ.

وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة، ومدحوه بأحسن المدائح، وورد عليه أبو الطيب المتنبي أرجان بقصائد وإحداها التي أولها:

بَـادٍ هَـوَاكَ صَـبَـرْتَ أمْ لـمْ تَـصْـبِـرَا وَبُـكَـاكَ إنْ لَـمْ يَـجْـرِ دَمْـعُـكَ أوْ جَـرَى

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار.

وورد عليه أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي الذي /١١٦/ امتدحه بقصيدة أولها:

بَـــرْحُ اشـــتـــيـــاق وادكـــار ولـــهـــيـــب أنـــفـــاسٍ حِـــرَارُ

فتأخرت صلته عنه، فشفع هذه القصيدة بأخرى، وأتبعها برقعة، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابه، فتوسَّل إلى أن دخل عليه يوم المجلس، وهو حافل بأعيان الدولة، ومقدمي أرباب الديوان فوقف بين يديه، وأشار

(١) وفيات الأعيان ٥/ ١٠٤ـ ١٠٧.

بيده إليه، وقال: أيها الرئيس إني لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك، والله ما بي من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء، قوم نصحوني فاغتششتهم، وصدقوني فاتهمتهم، فبأي وجه ألقاهم، وبأي حجة أقاومهم؟ ولم أحصل من مديح بعد مديح، ومن نثر بعد نظم، إلاّ على ندم مؤلم ويأس مسقم؟ فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما هي؟ إن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وإن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمنكبك أعظمهم سناماً، وأنورهم شعاعاً، وأشرفهم بقاعاً.

فحار ابن العميد وشُدِهَ، ولم يدرِ ما يقول، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة، وعن الإطالة مني في المعذرة، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه.

فقال ابن نباتة: أيها الرئيس، هذه نفثة صدرٍ دَوِيَ منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر، والغني إذا مطل لئيم.

فاستشاط ابن العميد، وقال: والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى، ولقد نافرت ابن العميد من دون ذا حتى دفعنا إلى قرًى عائم ولجاج قائم، ولست ولي نعمتي فأحتملك، ولا صنيعتي فأغضي عليك، وإن بعض ما أقررته في مسامعي ينقض مرّة الحليم، ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقامتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحي، ولا كلفتك تقريضي.

فقال ابن نباتة: صدقت أيها الرئيس، ما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتني برسول، ولا سألتني مدحك، ولا كلفتني تقريضك، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك، وقلت: لا يخاطبني أحد إلاّ بالرياسة، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة، فإني كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتني بلسان الحال، ولم تدعني بلسان المقال. فثار ابن العميد مغضباً، وأسرع في صحن داره إلى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن العميد ابن نباتة، وهو في صحن الدار ماراً يقول: والله إنَّ سفَّ التراب، والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له، ومشتريه مماكساً فيه، فلما سكن غضب ابن العميد، وثاب إليه حلمه، التمسه من الغدِ، ليعتذر إليه، ويزيل آثار ما كان فيه، فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها، وكانت حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات في صفر، وقيل في المحرم بالريّ، وقيل ببغداد سنة ستين.

وذكر أبو الحسن الصابي أنه توفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وكان أبو الفرج حمد بن محمد الكاتب مكيناً عند مخدومه ركن الدولة، وله الرتبة العالية لديه، وكان ابن العميد لا يوفِّيه حقه من الإكرام، فعاتبه، فلم يفد، وكتب إليه: [من السريع]

مـالُـكَ مـوفـورٌ فَـمَـا بـالُـه أكسَبَكَ التِّيهَ على المُعْدِمِ
وَلِـمْ إذا جِـئْـتَ نَـهَـضْـنـا وَإنْ جِئنا تَطاوَلْتَ [وَلَمْ] تتمم
إنْ كُنْتَ ذا علْمٍ فَمَنْ ذَا الَّذي مِثْلَ الَّذي تَعْلَمُ لِمْ يَعْلَمِ
وَلَسْتَ فِيْ المعَايِر في دَوْلَةٍ ونَحْنُ مِنْ دُوْنِكَ في المقسم
وَقَدْ وَلِيْنَا وَعُزِلْنَا كَمَا أنْتَ فَلِمْ نَصْغُر وَلَمْ نَعْظُمِ
تَكَافَأتْ أحْوَالُنا كُلُّها فَصِلْ على الأطْرافِ أوْ فاصْرِمِ

/١١٨/ وللصاحب بن عباد فيه مدائح كثيرة، وكان ابن العميد قد قدم مرةً إلى أصبهان والصاحب بها فكتب إليه: [من مجزوء الكامل]

قـالُـوا: رَبِـيـعـكَ قَـدْ قَـدِمْ قُـلْـتُ: الـبِـشَـارَةَ أنْ سَـلِـمْ
هـذا الـرَّبِـيْـعُ أخُـو الـثَّـنـا أم الـرَّبِـيْـع أخُـو الـكَـرَمْ
قـالُـوا: الَّـذي لَـيْـسُـوا لَـهُ أمـنَ الـمُـقِـلّ مِـنَ الـعَـدَمْ
قُـلْـتُ: الـرَّئـيـسُ ابـنُ الـعَـمِـيْـدِ إذاً، فَـقَـالُـوا لِـيْ: نَـعَـمْ

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم: [من الطويل]

وَجَاءتْ إلَى سِتْرٍ على البابِ بَيْنَنا نَخَافُ وَقَدْ نَامَتْ عليهِ الوَلائد
لتَسْمَعَ شِعْرِي، وَهْوَ يَقْرَعُ قَلْبَهَا بِوَحْيٍ تُؤدِّيْهِ إليَّ القَصَائِدُ
إذا سَمِعَتْ معنًى لَطِيْفَاً تَنَفَّسَتْ لَهُ نَفَسَاً يَنْقَدُّ مِنْهُ القَلائِدُ

ولابن العميد شعر منه قوله:

رأيـت فـي الـوجـه طـاقـة سـوداء عـيـني بـحـبـهـا رؤيـتـهـا
فـقـلـتُ: لـبـيـض... بـالـلـه إلاَّ رحـمـت وحـدتـهـا
فـقـلـت: لـسـت الـسـواد يـكـون فـيـه الـبـيـضـاء ضـرَّتـهـا

ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

آخ الـرِّجَـالَ مِـنَ الأَبَـا عِـدِ والأقـارِبَ لا تُـقَـارِبْ
إنَّ الأقَـارِبَ كـالـعَـقَـا رِبِ بَـلْ أضَـرُّ مِـنَ الـعَـقَـارِبْ

ومنه قوله: [من البسيط]

لَو كُنْتُ أمْلِكُ قَلْبِي كُنْتُ أعْذِلُهُ أوْ كُنْتُ أمْلِكُ رُوْحِي كُنْتُ أنْهَاهَا

أَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مِنْ عَيْنَيَّ دَمْعَهُمَا لَمَا بَكَيْتُ بِهَا مَنْ لَيْسَ يَهْوَاهَا

وقوله وقد قُدِّمت إليه أترجة: [من الطويل]

وأتْرُجَّةٍ فيها طَبَائِعُ أَرْبَعٌ وللشُّرْبِ في حَالاَتِهَا لِلْهَوى جَمْعُ
وَما اصفَرَّ منها اللَّونُ لِلْحُبِّ وَالنَّوَى وَلَكِنْ أَرَاهَا لِلْمُحِبِّيْنَ تَجْزَعُ

وحكي أن الصاحب بن عباد عبر على باب دار ابن العميد بعد وفاته /١١٩/، فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يغصُّ بالزحام فأنشد: [من الخفيف]

أَيُّهَا الرَّبِيْعُ لِمْ عَلاَكَ اكْتِئَابُ أَيْنَ دارُ الحِجَابِ والحُجَّابُ
أَيْنَ مَنْ كانَ يَفْزَعُ الدَّهْرُ مِنْهُ فَهُوَ اليَوْمَ في التُّرابِ تُرَابُ

ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده [ذا] الكفايتين أبا الفتح علياً مكانه في دست الوزارة.

وكان جليلاً، نبيلاً، سريّاً، ذا فضائل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية، وهي(١):

[بِكُتْبِ الأَنَامِ كِتَابٌ وَرَدْ فَدَتْ يَدَ كاتِبِهِ كُلُّ يَدْ
يُعَبِّرُ عَمَّا لَهُ عِنْدَنا، وَيَذْكُرُ مِنْ شَوْقِهِ ما نَجِدْ
فَأَخْرَقَ رَائِيَهُ ما رَأى، وَأَبْرَقَ نَاقِدَهُ ما انتَقَدْ
إذَا سَمِعَ النَّاسُ أَلْفَاظَهُ خَلِقْنَ لَهُ في القُلُوبِ الحَسَدْ
فَقُلْتُ، وَقَدْ فَرَسَ النَّاطِقِينَ كَذَا يَفْعَلُ الأَسَدُ ٱبنُ الأَسَدْ]

وذكر الثعالبي أنَّ أباه كان قد بالغ في تهذيبه وتأديبه، وجعل عليه عيوناً، لينظر ما يصدر عنه فأعلمه أنَّه استدعى شراباً من صديق له ليلة أنس، فوجَّه إلى ذلك الشخص، واستدعى الرقعة التي كتب فيها، فوجد فيها: قد اغتنمتُ الليلة ـ أطال الله بقاءك ـ رَقْدَةً من عين الدهر، وانتهزت فرصة من فرص العمر، وانتظمتُ مع أصحابي في سلك الثريا، فان لم تحفظ علينا النظام بإهداء المدام، و[عُدْنا كبنات نعشٍ]، فاستطار أبوه فرحاً وإعجاباً بهذه الرقعة، وقال: الآن ظهر أثر براعته، ووثقتُ بجريه في طريقي، ووقع له بألفي دينار.

ولم يزل أبو الفتح في وزارة ركن الدولة إلى أن توفي، وقام بالأمر بعده ولده مؤيد الدولة، فاستوزره أيضاً عليه فظهر له منه الشكر... وقبض عليه سنة ست وستين وثلاثمائة.

---

(١) لم يورد المؤلف الأبيات، ولعله كان يأمل أن يذكرها واستطرد بحديثه، وقد أوردتها هنا بين معقوفتين لتتم الفائدة، وهي من ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٢/ ١٥٩ـ ١٦٠.

قال الثعالبي: ماله وقطع في العقوبة أنفه وجر لحيته، وقيل قطع يديه، فلما آيس من نفسه... فتق جيب جُبَّة كانت عليه، واستخرج رقعة فيها يذكر بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر والدفاتر وألقاها في النار، فلما احترقت، قال للموكل به: إفعل ما أمرت به، فوالله لا يصل إلى صاحبك من أموالنا درهم واحد، فما زال يعرضه على العذاب حتى تلف، وكان القبض عليه في ربيع الآخر سنة ست وستين وثلاثمائة.

وفيه يقول بعض أصحابه: [من الكامل]

آلَ العميدِ وآلَ بَرْمَكَ ما لَكُمْ ... قَلَّ المُعِيْنُ لَكُمْ وَذَلَّ النَّاصِرُ

/١٢٠/ كانَ الزَّمانُ يُحِبُّكُمْ فَبَدَا لَهُ ... أنَّ الزَمَانَ هُو المخُوفُ الغَادِرِ

وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدَّة قد لهج بإنشاد هذين البيتين وهما:

دَخَلَ الدُّنْيَا أُنَاسٌ قَبْلَنَا ... رَحَلُوا مِنْهَا وَخَلَّوهَا لَنَا

وَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوا ... وَنُخَلِيْهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا

وتولَّى بعده الصاحب بن عباد.

ومنهم:

[٦١]

الصاحب بن عَبَّاد(١)

صحب ابن العميد فسميَ الصَّاحب، ومشى على طريقه اللاحب، وكان ينتحل طريقته، ويتمحل خليقته، نشأ في نعمائه، وكلأ بنظره شرح سمائه، حتى تكيَّف بخلائقه، وتحيَّف أكثر حقائقه، وأشرقت عليه سماؤه، وصدمت أسماؤه وحذا حذوه، وجرى وراءه، وما لحق منه خطوة، إذ كان يفرط به الإعجاب، ويسقط بإذنه وفور

---

(١) الصَّاحِب ابن عَبَّاد، إسماعيل بن عبَّاد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني: وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨ وإليها نسبته، وتوفي بالري سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة، منها «المحيط ـ ط» في اللغة، وكتاب «الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ـ ط» و«الإقناع في العروض وتخريج القوافي ـ خ» و«عنوان المعارف وذكر الخلائف ـ ط» رسالة، و«الأعياد وفضائل النيروز» وقد جمعت رسائله في كتاب سمي «المختار من رسائل الوزير ابن عبّاد ـ ط» وله شعر في «ديوان ـ ط» وتواقيعه آية الإبداع في الإنشاء. وللشيخ محمد حسن آل ياسين، كتاب «الصاحب بن عباد، حياته وأدبه ـ ط» ولخليل مردم بك «الصاحب بن عباد ـ ط» مدرسي. =

الحجاب، فإنه كان لا يكثر الجلوس، ولا يكثر أن يدير له الشموس. هذا على أنه من نبلاء الوزراء وفضلاء الكبراء في صدر الدست إذا جلس، وعلى رأس الجوزاء إذا لمس يغضي له السيف حياءً، ويخور الرمح إعياء ويقتصّ على البحر آثاره، ويفضل على الزمان آناءه، ويعقد به الأهوية، وتطمح مكارمه في اليسر به، وتُهرع الخلائق إليه. كان كل أيامه يوم التروية، وله من العلم طراز مرقوم العلم، مركوم السحاب أبان العدم، فلم ينقص له من علم من فضل نصيب موفور، ولا حظّ صنيع، الأيام فيه غير مكفور، إلاّ أنه مال إلى أهل الاعتزال، وبان على الاعتدال، ومال على اعتقاده الصحيح، وأدخل عليه الاعتدال، وكان غير وقور، ولا يربأ أحياناً أن يكون غير عقور، كان كثيراً ما يحرِّك رأسه وكتفيه، ويعجب بأكثر مما لديه فطاشت كفَّة ميزانه، وعرفت خفَّة أوزانه، ونسب في عقله إلى اختلال، وفي أدبه ال الإخلال، وأصبح يحلِّقُ إلى مرمى ابن العميد، فيقع، ويستسقي نسور شربه.

ولما توفي مؤيد الدولة بجرجان سنة / ١٢١/ ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ولي بعده فخر الدولة أبو الحسن، فأقرَّه على الوزارة، وبالغ في تعظيمه.

وكان عالماً بفنون كثيرة من العلم، لم يرَ أنه في ذلك أنه وزير، وكان أفضل وزراء الدولة الديلمية، وأغزرهم علماً، وأوسعهم أدباً، وأوفرهم محاسن.

وكان فصيحاً مفوَّهاً، لكنه يتقعر في خطابه، ويستعمل وحشي اللغة حتى [في]

= ترجمته في: يتيمة الدهر ٣/ ١٦٩ـ٢١٥، معجم الأدباء ٦/ ١٦٨ـ٣١٧، نزهة الألبّاء ٣٩٧ـ٤٠١، إنباء الرواة ١/ ٢٠١ـ٢٠٣، المنتظم ٧/ ١٧٩ـ١٨١ رقم ٢٨٩، مرآة الجنان ٢/ ٤٢١ـ٤٢٦، ذيل تجارب الأمم ٢٦١، البداية والنهاية ١١/ ٣١٤ـ٣١٦، الكامل في التاريخ ٩/ ١١٠ـ ١١١، دول الإسلام ١/ ٢٣٤، العبر ٣/ ٢٨، وفيات الأعيان ١/ ٢٢٨ـ٢٣٣ رقم ٩٦، الوافي بالوفيات ٩/ ١٢٥ـ١٤١ رقم ٢٠٤٢، المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣٥، طبقات النحويين واللغويين لابن قاضي شهبة ٢١٩ـ٢٢٦، لسان الميزان ١/ ٤١٣ـ٤١٦ رقم ١٢٩٥، مآثر الإنافة ١/ ٣٢١ـ ٣٢٢، بغية الوعاة ١/ ٤٤٩ـ٤٥١ رقم ٩١٨، النجوم الزاهرة ٤/ ١٦٩ـ١٧١، شذرات الذهب ٣/ ١١٣ـ ١١٦، نشوار المحاضرة ٤/ ٩٤، كشف الظنون ٣٠، ٦١٩، ٧٩٦، ٩٠١، ١٢٧٨، ١٣٧٦، ١٣٩١، ١٣٩٤، ١٣٩٨، ١٤٦٩، ١٤٩١، ١٦٢١، روضات الجنات ١٠٤ـ١١٠، تنقيح المقال ١/ ١٣٥، منتهى المقال ٥٦، أعيان الشيعة ١١/ ٣٢٢ـ٥٧٥، الأعلام ١/ ٣١٢، معجم المؤلفين ٢/ ٢٧٤، تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٨٩، تاريخ ابن الوردي ١/ ٣١٢، الإمتاع والمؤانسة ١/ ٥٣، الفهرست ١٩٤، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٦٦، معاهد التنصيص ٤/ ١١، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥١١ـ٥١٤ رقم ٣٧٧، الأعلام ١/ ٣١٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٨١ـ٤٠٠هـ) ص٩٢.

انبساطه، وكان يعيب التيه ويتيه، ولا ينصف من ناظره.

وقيل: كان مشوَّه الصورة، وصنَّف في اللغة كتاباً سمَّاه «المحيط» في سبع مجلدات، وله كتاب «الكافي»، وكتاب «الأعياد»، وكتاب «الإمامة» ذكر فيه فضائل علي، وثبت إمامة من تقدَّمه، وكتاب «الوزراء»، وكتاب «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي»، وكتاب «أسماء الله وصفاته».

وكان شيعياً جلداً، كآل بويه، معتزلياً، ولم يُنقل عنه سب، وله شعر مدوَّن، ومن بديع نظمه قوله: [من الوافر]

تَبَسَّمَ إذ تَبَسَّمَ عَنْ أقَاحِ ... وأسْفَرَ حيْنَ أسْفَرَ عَنْ صَبَاحِ
وأحسِي بكَأْسٍ من نصابٍ ... وكأسٍ مِنْ جَنَى وَرْدٍ وَرَاحِ
لَهُ وَجْهٌ يدُلُّ على تمر حنه ... فيسْكَرُ كلُّ صباح صَاحي
حبيبكَ والمقلَّدُ والثَّنَايَا ... صَبَاحٌ في صَبَاحٍ في صَبَاحِ

وقوله: [من المنسرح]

الحُبُّ سُكْرٌ خُمارُهُ التَّلَفُ ... يحسُنُ فيه الذُّبُولُ والتَّلَفُ
عَابُوهُ اذ زَادَ في تَصَلُّفِهِ ... والحُسْنُ ثوبٌ طِرازُهُ الصَّلَفُ

وقوله: [من الكامل]

قَامَتْ تُظَلِّلُني مِنَ الشَّمْسِ ... نَفْسٌ عَلَيَّ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِي
قَامَتْ تُظَلِّلُني ولا عَجَبٌ ... شمسُ تُظَلِّلُني مِنَ الشَّمْسِ

وقوله: [من الكامل]

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ ... وتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
وَكَأَنَّهَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّهُ قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

/١٢٢/ وعنوان نثره قوله:

«وأما هذا الفتح فأوصافه لا تدرك بالعبارات آثار المهدي بعد الظلام، وتأهب بأيامه الأيام، فاعتذر الدهر الخؤون من نوائبه، واسترجع الدين ضالته به، فتباشرت بورود أخباره المنابر، وشهدت بفضله البواتر، ووفت فيه الخيل معتقدة الضمان، وناب الخوف به عن ملاقاة الأقران، وجاء والحمد لله بادرة في الزمان».

وقوله:

«نحن سيدي في مجلس غنيّ إلاَّ عنك، ... شاكرٌ إلاَّ منَّك، قد تفتَّحت فيه عيون النرجس، وتورَّدت في خدوده البنفسج، وزاحت مجامر الأترج، وفتقت فارات

النارنج، وانطلقت ألسُنُ العيدان، وقامت خطباء الأوتار، ونفق سوق الأنس، وقام منادي الطرب، وامتدَّ سماء الند... إلاَّ ما حضرت، فقد أبت راح مجلسنا أن تصفو إلاَّ أن تتناولها يمناك، وأقسم غناؤه، لا يطيب حتى تعيه أذناك، فخدود نارنجه قد احمرَّت خجلاً لإبطائك، وعيون نرجسه قد حَدَّقَتْ تأميلاً للقيائك».

وكان الوزير أبو الفتح ابن ذي الكفايتين قصد ابن عبّاد وأزاله عن الوزارة، ثم نصر عليه، فذكر التنوخي في كتاب «الفرج بعد الشدَّة»، أنَّ أبا الفتح هيأ مجلساً عظيماً بآلات الذهب والفضة، والمغاني والفواكه، وشرب بقية يومه، وعامة ليله، ثم عمل شعراً وغنى به يقول فيه: [من المتقارب]

إذا بلغَ المرءُ آمالَهُ   فليسَ لِما بعْدَها مُنْتَزَحْ

وكان هذا بعد تدبيره على الصاحب، حتى أبعده عن مؤيد الدولة، وسيَّره إلى أصبهان، وانفرد بالدست، ثم طرب بالشعر، وشرب إلى أن سكر، وقال: مطوا المجلس لأصطبح عليه غداً، وقال لندمائه: باكروني، ثم نام، فدعاه مؤيد الدولة في السحر، /١٢٣/ فقبض عليه، وأخذ ما يملكه، ومات في النكبة.

ثم عاد الصاحب إلى الوزارة، وبقي فيها ثمانية عشر عاماً، وفتح خمسين قلعة، وسلمها إلى فخر الدولة، لم يجتمع منها عشرة لأبيه.

وفيه يقول أبو سعيد الرستمي: [من الكامل]

وَرِثَ الوزارةَ كابِراً عَنْ كابرٍ   مَوْصُولَةَ الإسْنادِ بالإسْنادِ
يروي عن العبَّاسِ عَبَّادٌ وزا   رَتَهُ وإسْماعِيلُ عَنْ عبَّادِ

وكان الصاحب محبّاً للعلماء، وكان ينفذ في السنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرَّق على الفقراء والأدباء، وكان يبغض من يميل إلى الفلسفة.

وقيل إنّ نوح بن منصور الساماني كتب إليه يستدعيه ليفوض إليه وزارته، فاعتلّ بأنه يحتاج لنقل كتبه خاصة أربعمائة حمل، فما الظنّ بما يليه من التجمل.

وعقد مجلساً للإملاء بعدما تاب إلى الله تعالى، واتخذ لنفسه بيتاً سمَّاه بيت التَّوبة، ولبث أسبوعاً على الخير، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، وخرج متحنّكاً متطلساً بزي العلماء، وحضر خلق، وكان المستملي الواحد يقوم بالإملاء حتى انضاف إليه ستة، كل مبلغ صاحبه فكان الأول ابن الزعفراني الحنفي.

ومرض الصاحب بالأهواز بالإسهال، كان إذا قام عن الطَّست، ترك إلى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم أحد من الخدم. فكانوا يودون دوام علَّته. ولما عُوفي تصدَّق

بنحو من خمسين ألف دينار.

وكانت وفاته بالري ليلة الجمعة في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، ونقل إلى أصبهان، ودفن في باب درمة، وأغلقت مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره، وحضر مخدومه، وسائر الأمراء، وغيروا لباسهم، ولما خرج صاح الناس صيحة واحدة، وقبّلوا الأرض، ومشى مخدومه فخر الدولة أمام نعشه، وقعد للعزاء.

ومنهم:

[٦٢]

الوزير /١٢٤/ أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي الأزدي(١)

من ولد المهلب بن أبي صفرة، وممن وجد الكرم من مواريث تلك الأسرة.

وزر لمعز الدولة بن بويه بعد ضائقة علت بإكفاف يديه، وملت بها نفسه، وهي أحب ما إليه، وقرت بها أيامه ضياعاً، وهي محسوبة عليه.

وكان قد سافر أيام إملاقه سفرة احتاج فيها إلى نفاضة المزاود، واحتال في قطع أميالها، وهي أبكى في عينيه من حمى المراود، وقَرِمَ يوماً إلى اللحم، فلم يجد درهماً يشتري ما يسدّ شبعه، ويشدّ ما وهن من القوة أن يتماسك معه، فاشترى له رفيق كان معه لحماً بدرهم، ثم قرَّبه إليه، فأكل منه حتى قضى نهمته، وأرضى شهوته البشرية لا، ... وكان قد قال في ذلك الحال:

---

(١) الوزير المُهَلَّبي، الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون، من ولد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو محمد: من كبار الوزراء، الأدباء الشعراء. اتصل بمعز الدولة بن بويه، فكان كاتباً في ديوانه، ثم استوزره. وكانت الخلافة للمطيع العباسي. فقربه المطيع، وخلع عليه، ثم لقبه بالوزارة. فاجتمعت له وزارة الخليفة ووزارة السلطان، ولقب بذي الوزارتين. وكان من رجال العالم حزماً ودهاءاً وكرماً وشهامة. وله شعر رقيق، مع فصاحة بالفارسية وعلم برسوم الوزارة. ولد بالبصرة سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م، وتوفي في طريق واسط سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م. وحمل إلى بغداد. جمع المعاصر جابر بن عبد الحميد الخاقاني، ما وجد من شعره في ١٣ صفحة كبيرة، في مجلة «المورد» ٣/ ٢/ ١٤٥.

ترجمته في: المنتظم ٧/ ٩، يتيمة الدهر ٢/ ٢٢٣، الفهرست ٢٠٠، معجم الأدباء ٩/ ١١٨، الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٢٣ رقم ٢٠٣، وفيات الأعيان ٢/ ١٢٤، فوات الوفيات ١/ ٢٥٦، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٠٣-١٠٦، البداية والنهاية ١١/ ٢٤١، العبر ٢/ ٢٩٤، مرآة الجنان ٢/ ٣٤٧، الكامل في التاريخ ٨/ ٥٤٦، دول الإسلام ١/ ٢١٩، تجارب الأمم ٢/ ١٩٦، تكملة تاريخ الطبري ١/ ١٨٥، شذرات الذهب ٣/ ٩-١١، الأعلام ٢/ ٢١٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١-٣٨٠هـ) وأخباره في كتب التاريخ والأدب العامة.

ألا مـوتٌ يُـبـاعُ فـأشـتـريـهِ فـهـذَا الـعَـيْـشُ مـا لا خَـيْـرَ فـيْـهِ
أذَا أبْـصَـرْتُ قـبـراً مـنْ بـعـيـدٍ وَدِدْتُ لَـوَ أنَّـنِـي مِـمَّـا يَـلِـيْـهِ
ألا رَحِـمَ الـمُـهَـيْـمِـنُ نَـفْـسَ حـرٍّ تـصـدَّقَ بـالـوفـاةِ عـلـى أخـيْـهِ

ثم جاء سنته المخاض، ولا عاجل سنته من غيره الكرى لانتهاض، حتى وزر لمعز الدولة وقهر بعزّ الصولة، وبلغ ما خيار إليه صاحبه انفق عليه فأتاه قاصداً، وتقصد أو توصل إليه، حتى وقف ناشداً ومنشداً:

ألا قُـلْ لِـلـوَزِيـرِ ـ فـدَتْـه نـفـسـي ـ مـقـالَ مـذكِّـرٍ مـا قـد نـسـيـهِ
أتـذكـرُ إذْ تـقـولُ لـضـنـكِ عـيـشٍ ألا مَـوتٌ يُـبـاع فـأشـتـريـهِ

فلما نظر في رقعته تذكره، وقصَّت عينه أثره، وأقبل على شأنه، وقضى دينه بإحسانه، وهم الكرام كالشجرة الطيبة إذا نما فرعها، واستطال رعى للأرض حق... فاكتنفها من الهجير بظلال، وأمر له بسبع مائة درهم دارّاً بما اتبعها عنه اللهم. ووقع على رقعته... ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1] ويوفي السبعة / ١٢٥/ من الأعداء لهذا الاستشهاد.

ثم دعا به، فأفاض عليه خِلعاً، وقلَّده عملاً متَّسعاً، وكان معه كنزيل آبائه المهالبة الأول، أو كالشمس نادت الربيع لما نالت الحمل.

وكان هذا الوزير ـ على استغراق وقته في التدبير ـ له صدر يسع من الإحسان ما يقصر عنه المزن، ويضيق الزمان، ويد تفل...، وتكف الظلم وعدوله غاية في الأدب تفوت، ونهاية الكمال إلاَّ أنَّه يموت، لقلبه إلى أهل الفضل روع، ولخاطره بالندى والبيان ولوع، أنساس قلب عطارد، أو تكلم فكأنه يطارد... على قالب الإحسان مصبوب، فيختلس.

وبشعره يضرب المثل في الرقة، فيسهل فيطمع، لولا ما طريق تلك للسهولة من المشقة، كما قال القائل: [من الخفيف]

يـا مـن إذا أراد سـراري عَـبَّـرَتْ أنـفـاسُـهُ عـنْ عَـنْـبَـرِ
وَسَـبَـانِـي ثَـغْـرٌ كَـدُرٍّ نَـظِـيْـم تَـحْـتـهُ مَـنْـطِـقٌ بِـنَـثْـرِ نَـشِـيْـرِ
ولـه طَـلْـعَـةٌ كـنَـيـلِ الأَمَـانِـيً أو كَـشِـعْـرِ الـمُـهـلَّـبـيِّ الـوزيـرِ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

ومن شعره قوله: وترقت إلى الوزارة قدمه، وكتب له جملة لما كنت قلته: [من مجزوء الكامل]

رَقَّ الزَّمَانُ لِفَاقَتِي ورقَى لِطُوْلِ تَحَرُّقِي
فأنَالَنِي ما أرْتَجِي وَأجَارَنِي ما أتَّقِي
فَلأَصْفِحَنَّ عَمَّا أتَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ السُّبَّقِ
حَتَّى جِنَايَتهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيْبُ بِمَفْرِقِي

وكان لمعز الدولة غلام تركي أمرد يكاد لترفه يعقد فلا يسره العين، وفراقاً ... فإن الشعرى في انفه، وقلوب البشر... وقد أنهمك على الشرب فلا يعفيه، وجانب الخمر الجائل في صحن خدِّه يكفيه، وكان به كثير الإعجاب، شديد /١٢٦/ المحبة له، متى دعاه أجاب، فجعله رئيس سريَّةٍ جرَّدها لحرب بعض بني حمدان، وأبرز للناس آية من قمر يطيف به من كل نجم سنان.

وكان عند المهلبي غلام يستحسن صورته جداً، ويستظرفه توجداً كاد يكون وجداً، ويرى أنه: من مدَدِ الهوى إذا التوى، لا من عدد الوغى فيما سعى، فقال فيه المهلبي: [من مجزوء الكامل]

طِفلٌ يَرِقُّ الماءُ في جَنَبَاتِه وَيَرُوقُ عُوْدُهْ
ويَكادُ مِنْ شَبَهِ العَذَ ارَى فيهِ أن تَبْدُو نُهُوْدُهْ
نَاطُوا بِمَقْعَدِ خَصْرِهِ سَيْفَاً ومِنْطَقَةً تَؤُدُهْ
جَعَلُوهُ قائِدَ عَسْكَرٍ ضَاعَ الرَّعِيْلُ وَمَنْ يَقُوْدُهْ

فكانت... المهلبي حرمة ولت حماسة على عقبها، وانقلبت بالهزيمة شر منقلبها،

ومن شعر المهلبي قوله في بعض غلمانه: [من الكامل]

خطط مقومة وَمَفْرِقُ طُرَّةٍ وكأنَّ سُنَّةَ وَجْهِه محْرَابُ
وربت عَنْ كَشْفِ الَّذي ألْقَى بِهِ فَتَعَطَّلَ النَّمامُ والمُغْتَابُ

ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

يا مَنْ لَهُ رُتَبٌ مُمَكَّنَةُ إلاّ وَآخى في الفُؤادِ
أيَحِلُّ أخْذَ المَالِ [من] مُتلهِّبِ الأحْشَاءِ صَادِي

ومنه قوله المجيد في وصف كتب ابن العميد: [من مجزوء الكامل]

وَرَدَ الكِتَابُ مُبَشِّرَاً نَفْسِي بِأَبْرَادِ السُّرُوْرِ
وَفَضَضْتُهُ فَوَجَدْتُهُ لَيلاً عَلى نَفَحَاتِ نُوْرِ

بِـنِـظَـامِ دُرٌّ كـالـثُّـغُـو رِوكـالـعُـقُـودِ عـلـى الـنُّـحُـورِ
مـثـلَ الـسَّـوالِـفِ والـخُـدُو دِ الـبِـيْـضِ زِيْـنَـتْ بـالـشُّـعُـورِ

وقوله: [من مجزوء الكامل]

يـا عَـارِفـاً بـالـدَّاءِ مُـطَّـ ـرِحَ الـسُّـؤَالِ عـنِ الـدَّواءِ
الـعِـلْـمُ عِـنْـدِي كـالـغِـذَا ءِ فَـهَـلْ تـعـيـشُ بِـلاَ غِـذَاءِ

وقوله: [من المتقارب]

هَـبِ الـبَـعْـثَ لـمْ تـأتِـنَـا بـدره وأنَّ لَـظَـى الـنَّـارِ لـمْ تُـضْـرَمِ
أَلَـيْـسَ بـكـافـي الَّـذي فِـكْـرُهُ حَـيَـاءُ الـمُـسِـيءِ من الـمُـنْـعِـمِ

/ ١٢٧/ وقوله في وقت ضائقة: [من الوافر]

وَلَـوْ أنِّي اسْـتَـزَدْتُـكَ فَـوْقَ مَـا بِـي مِـنَ الـبَـلْـوَى لأَعْـوَزَكَ الـمَـزِيْـدُ
وَلُـو عُـرِضَـتْ عَـلَـى الـمَـوْتَـى حَـيَـاةٌ بِـعَـيْـشٍ مِـثْـلَ عَـيْـشِي لَـمْ يُـرِيْـدُوا

وقوله: [من الخفيف]

طَـلَـعَ الـفَـجْـرُ من كِـتَـابَـكَ عِـنْـدِي فـمـتـى بـالـلِّـقـاء يـبـدو الـصـبـاح
ذَاكَ إنْ تَـمَّ لِـي فَـقَـدْ عـدَّ بـهِ الـعـيشُ ريش الـمنى وريش الـجَـنَاح

ومنه قوله: [من الكامل]

وَرَدَ الـكِـتَـابُ فـدَيْـتُـهُ مِـنْ وارِدٍ فـيـهِ لِـقَـلْـبِـي مِـنْ حَـيَـاتِـي مَـورِدُ
فَـرَأيْـتُ دُرّاً عِـقْـدُهُ مـنـتـظـمٌ فـي كـلِّ فـضـلٍ مِـنْـهُ فَـصْـلٌ مُـفْـرَدُ

ومنه قوله: [من الطويل]

إذا اخـتـصـر الـمـعـنى فَـشُـرْبَـةُ حَـائِـمٍ وإنْ رَامَ إسْـهَـام إلى الـفَـيْـضِ بـالـمَـدِّ

وقوله: [من الكامل]

وَكَـأنَّ فِـطْـنَـتُـهُ شِـهَـابٌ ثَـاقِـبٌ وَكَـأنَّ نـقـد الـحُـسْـنِ مـنْـهُ مـعـينُ

ومنه قوله في جارية اسمها تجنى: [من الحفيف]

رُبَّ لَـيْـلٍ لَـبِـسْـتُ فـيـهِ الـتَّـصَـابِـي وَخَـلَـعْـتُ الـعِـذَارَ فـي الـلَّـهْـوِ عَـنِّـي
فـي مَـحَـلٍّ تَـحِـلُّـهُ لَـذَّةُ الـعَـيْـ ـشِ وَمَـجْـنـى سُـرُورِهِ مِـنْ تَـجَـنِّـي

وقوله فيها: [من المنسرح]

مَـرَّتْ فَـلَـم تَـنْـثَـنِـي تِـيْـهَـا يَـحْـسُـدُهـا الـغُـصْـنُ فـي تَـثـنِّـيـهَـا
تِـلْـكَ تَـجَـنِّـي الَّـتِـي حَـيِـيـتُ بـهـا أعـاذَنِـي الـلـهُ مِـنْ تَـجَـنِّـيْـهَـا

ومنه قوله فيها : [من الخفيف]

كُلَّمَا سِرْتُ في فِرَاقِكِ مِيلاً مال سيل في بهجتي منك فريق
فَحَيَاتِي مَصْرُوْفَةٌ في طَرِيْقٍ لِلْمَنَايَا عَلَيَّ فِيْهَا طُرُوقٌ

وقوله فيها : [من الطويل]

لقَدْ رَضِيتْ نفْسِي عَلَى الحُبِّ في الهَوَى لإنِسَانِةِ تَرْعَى الهَوَى وَتُوَاظِبُ
صَفَا لِيَ فِيْهَا العَيْشُ والشَّيْبُ شَامِلٌ كَمَا كَانَ يَصْفُو والشَّبابُ مُصاحِبُ

وقوله : [من الوافر]

أرَانِي اللهُ وَجْهكَ كَلَّ صُبْحٍ يوم صباح للتيمُّن والسرور
وَأَمْتَعَ نَاظِرِيَ بِصَفْحَتَيْهِ لأقرَا الحُسْنَ مِنْ تِلْكَ السُّطُورِ

/١٢٨/ وقوله في غلام اسمه غريب : [من الوافر]

رَعَى الرَّحْمَنُ قَوْماً مَلَّكُونِي رَشَا قصرٍ بَلَغْتُ بِهِ المُرَادَا
وَسَمُّوهُ مَعَ القُربى غَرِيْباً كَنُوْرِ العَيْنِ سَمَّوهُ سَوَادَا

وقوله : [من الكامل]

الوَرْدُ بَيْنَ مُضَمَّخٍ ومُضَرَّجٍ والزَّهْرُ بَيْنَ مُكَلَّلٍ وَمُتَوَّجِ
وَالثَّلْجُ يَسقطُ كالنَّدَى فَقُمْ بِنَا نَلْتَذُّ بابْنَةِ كَرْمَةٍ لَمْ تُمْزَجِ
طَلَعَ النَّهارُ فَلاَحَ نَوْرُ شَقَائِقٍ وَبَدَتْ سُطُورُ الوَرْدِ بَيْنَ بَنَفْسَجِ
فكَأنَّ يَوْمَكَ في غِلالَةِ فِضَّةٍ والنَّبْتُ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى فَيْرُوْزَجِ

وقوله : [من الطويل]

ألاَ يا مُنَى نُفْسِي وإنْ كُنْتُ ... وَمَعْنَايَ في سِرِّي وَمَغْزَايَ فِيْ جَهْرِي
تَصَارَمَتِ الأجْفَانُ مُنْذُ صَرَمْتِنِي فَمَا نَلْتَقِيْ إلاَّ عَلَى عَبْرَةٍ تَجْرِي

وقوله : [من السريع]

يا شَادِناً جدد حيالـه مِنْ بَعْدِ سَالِفٍ سَاجِي
بِلِحْيَةٍ قَدْ وَاصَلَتْ جُمَّةً مِثْلَ اتِّصَالِ الطَّوْقِ بالتَّاجِ

وقوله في غلام أبلَّ من علَّة : [من مجزوء الكامل]

نَهَضَ العَلِيْلُ، فَقُلْتُ حِيْنَ بَدَا الغُصْنُ مَائِلِ
طَلَعَ الهِلالُ لِلَيْلَةٍ بَيْضَاءِ بَدْرٍ كَامِلِ

وقوله : [من الخفيف]

قَالَ لِي مَنْ أُحِبُّ واللَّيْلُ قَدْ حدر دنبي بواصل الشهيق

مـا الَّـذي فـي الـطَّرِيـقِ تَـصْـنَـعُ بَـعْـدِي قـلـتُ: أَبْـكِـي عَـلَـيْـكَ طُـوْلَ الـطَّـرِيْـقِ

وقوله: [من البسيط]

ولِـي حَـبِـيْـبُ أُلُـوذُ فِـيْـهِ بـأَوْصَـافٍ وَفَـحْـوَاهُ فَـوْقَ مَـا أَصِـفُ
كَـالـبَـدْرِ يَـعْـلُـو أو الـشَّـمْـسِ تُـشْـرِقُ والـغَـزَال يَـعْـطُـوا وَيَـنْـعَـطِـفُ

وقوله: [من الكامل]

إنْ كُـنْـتِ أزْمَـعْـتِ الـرَّحِـيْـ ـلَ فَـإنَّ رَأيِـي فـي الـرَّحِـيْـلِ
/١٢٩/ أوْ كُـنْـتِ قَـاطِـنَـةً أقَـمْـ ـتُ وإنْ مَـنَـعْـتِ لَـذِيْـذَ سُـوْلِـي
كـالـنَّـجْـمِ يـصْـحَـبُ فـي الـمَـسِـيْـ ـرِ وَلا يَـزُوْلُ لِـذِي الـنُّـزُوْلِ

وقوله: [من الكامل]

عَـزْمِـي وَعَـزْمُ صَـحَـابَـةٍ رَكَّـاضَـةٍ مَـوْصُـولَـةِ الإلْـجَـام بـالإسْـرَاجِ
كـالـنَّـبْـلِ عَـامِـدَةً إلـى أهْـدَافِـهَـا والـطَّـيْـرَ قَـاصِـدَةً إلـى الأبْـرَاجِ

وقوله: [من الطويل]

وَذِيْ جِـيْـدٍ أحَـلَّ مـا يـريـده لأُصْـبِـحَ... بـقَـبْـضِ دِنَـانِـي
وَلَـمْ أعْـطِـهِ جَـهْـلاً وَلَـكِـنْ سَـحَـابَـتِـي تَـعُـمُّ ذَوِيْ الإخْـلاصِ والـشَّـنْـآنِ

وقوله:

لـلـصـاب بـرد... تـمـيـزهُ فـإنَّـنِـي لِـمَـقـام الـحـل أرْتَـحِـلُ
ألـذّ كـرى وإن أضـحـى أنْ نَـسْـتَـرِيْـحَ وأنْ يَـكـفِـيْـكَ الـطَّـلَـلُ

ومنهم:

[٦٣]

أبو القاسم، علي بن عبد الله الجويني

شُدَّت الوزارةُ بمعاقده، ومهدت الدارةُ لمقاعده، وأمنت علامة بأسائه لا خورا ينوب، ولا ضجر رأي في إقالة يوم حرب... لو لامس الضَّجر، لتفجَّر، أو الجهام لا عن جار. هو أول وزير وزر لطغرلبك، ثم وزر بعده لنظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أوَّل من لقب نظام الملك، ثم وزر عميد الملك الكندري وهو أشهرهم.

ومنهم:

[٦٤]

عميد الدولة[1] الكندري[2]

وزير لا وزر عليه، ولا كبر يُنسب إليه، وسع صدره الخلق، ووقع تدبيره الحرق، وقمع ضبطه العدا، ورفع صوته بالردى، وأصبح والأمم دون قدره. والظلم لا يجلى إلا ببدره.

وزر لطغرلبك بعد نظام الملك الدهستاني، وكان عميد الدولة أشهر وزرائه. وإنما اشتهر؛ لأن طغرلبك عظمت دولته، وهو مستمر على وزارته، ووصل إلى العراق، وخطب له بالسلطنة.

---

(١) محمد بن منصور بن محمد الكُنْدُري، أبو نصر، عميد الملك: أول وزراء الدولة السلجوقية (التركمانية)، ولد سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. كان يقطن نيسابور في بدء أمره، ولما وردها طُغرل بك (أول سلاطين الدولة السلجوقية في أيام القائم بأمر الله العباسي) احتاج إلى كاتب يجمع بين الفصاحتين العربية والفارسية، فدُلّ على صاحب الترجمة، فدعا به إليه وقرَّبه ثم جعله من وزرائه وثقاته ولقبه بعميد الملك. وكان يقوم بالترجمة بين السلطان طغرل بك والخليفة القائم. له مواقف وأخبار كثيرة في عهد تأسيس الدولة التركمانية. ولما توفي طغرل بك وخلفه السلطان عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي، أمر عضد الدولة بالقبض على عميد الملك، وأنفذه إلى «مرو الروذ» حيث مكث معتقلاً عاماً كاملاً، ثم دخل عليه غلامان وهو محموم فقتلاه وحملا رأسه إلى عضد الدولة وهو بكرمان سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م. ودفن جثمانه في قبر أبيه بكندر (من قرى نيسابور). وكانت مدة وزارته ثماني سنين وشهوراً. وكان يرجع إلى حسب ونبل وأدب وفضل.

ترجمته في: تاريخ دولة آل سلجوق ١٢، الهفوات النادرة ٧ـ ٨، ودمية القصر ٣/ ٧٩٦ـ٨١٣، والأنساب المتفقة ١٣٢، والمنتظم ٨/ ٢٣٨ـ ٢٣٩ رقم ٢٩٠، ١٦/ ٩٢ـ ٩٣ رقم ٣٣٨٥ في المتوفين سنة ٤٥٧هـ، ومعجم الأدباء ١٣/ ٣٤ـ ٤٣، وآثار البلاد ٤٤٧، والأنساب ١٠/ ٤٨٢ـ ٤٨٣، واللباب ٣/ ١١٤، والكامل في التاريخ ١٠/ ٣١ـ٣٤، وزبدة التواريخ ٦٧ـ ٦٨، ومعجم الأدباء ٣٣/ ٤٠ـ٤٥ في ترجمة الباخرزي، وتاريخ دولة آل سلجوق ٢٩، ووفيات الأعيان ٥/ ١٣٨، ١٤٣ رقم ٧٠٣، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٤، ونهاية الأرب ٢٦/ ٣٠٤، والعبر ٣/ ٢٤٠ـ ٢٤١، والإعلام بوفيات الأعلام ١٨٩، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ١١٣ـ١١٥ رقم ٥٥، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٥٥٧ـ ٥٥٨، والوافي بالوفيات ٥/ ٧١ـ٧٤، وراحة الصدور للراوندي ١٨٦ـ ١٨٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٩٢ـ ٩٣، وفيه: منصور بن محمد، والنجوم الزاهرة ٥/ ٧٦، وشذرات الذهب ٣/ ٣٠١ـ٣٠٤، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٣٣٨، الأعلام ٧/ ١١١ـ١١٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٤١ـ٤٦٠هـ) ص٤٢٢ رقم ١٧٩.

(٢) الكُنْدُري: بضم الكاف وسكون النون وضم الواو وكسر الراء المهملتين. نسبة إلى كُنْدُر من أعمال طريثيث ويقال لها: تُرْشيش، من نواحي نيسابور. (الأنساب ١٠/ ٤٨٢ـ ٤٨٣) وقيل إنه ينسب إلى بيع الكندر. (المنتظم).

ومنهم:

[٦٥]

الوزير نظام المُلْك(١)

وزير تمَّ السلك بنظامه، وفخر الملك بإعظامه، وتاهت به / ١٣٠/ الدولة السلجوقية، حتى شمخ أنف سريرها، وأرجف صوت زئيرها، وطال لسانها، واستطال سنانها، وسرى في القلوب رعنها، وساوت السماء سحبها، وأخافت بوارقها، ... بها تيجان الملوك مفارقها، وطفقت صرخات سيوفها على بعد المسافة، تسقط أجِنَّة الحوامل، وتقصف أسنَّة العوامل، ولم يكن بين قلمه وسيف ملكه فرق، ولا تميز بينهما ديمة وبرق، ولم يزل يَدرِّي بلطف تدبيره الفوارس، وينمي بحسن تعهده المغارس إلى أن جال خيل سلطانه بأقصى المشرق، وعجاجها بأقصى المغرب، معقودة السماء،

---

(١) نِظَام الملك، الحسن بن عليّ بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين، وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طوس. ولد سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م. تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين. ومات إلب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت والصيد. وأقام على هذا عشرين سنة، وكان من حسنات الدهر. قال ابن عقيل: كانت أيامه دولة أهل العلم. واغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. ودفن في أصبهان، ومن المنشورات الحديثة «أمالي نظام الملك في الحديث ـ ط».

ترجمته في: الأنساب ٦/ ٣٧، والمنتظم ٩/ ٦٤ـ٦٨ رقم ١٠٣ (١٦/ ٣٠٢ـ٣٠٧ رقم ٣٦٢٥)، وأخبار الحمقى والمغفلين ٩٠، وزبدة التواريخ للحسيني ١٣٩ـ١٤٦، وتاريخ دولة آل سلجوق ٨١، وتاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٥٦ (وتحقيق سويم) ٢٢، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ٢٠٤، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ١٢١، وتاريخ الفارقي ٢٢٩، ومعجم البلدان ٣/ ١٣ و٤/ ٥٠، والمنتخب من السياق ١٨٩ رقم ٥٣٣، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤١٩ـ٤٢٢، والكامل في التاريخ ١٠/ ٢٠٤ـ٢٠٦، والتاريخ الباهر ٩ـ ١٠، ورحلة ابن جبير ٢٠٥، والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ٢٥ـ ٢٦، ٦٢ـ٦٤، وبغية الطلب لابن العديم (تراجم عصر السلاجقة) ٨٦ـ٩٣، وطبقات النووي (مخطوط) ورقة ٧٣ـ ٧٤، ووفيات الأعيان ٢/ ١٢٨ـ١٣١، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٩٢ـ١٩٥، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٠١، ٣٠٢، ٣٣٨، ٣٥٣، ٣٩٧، ٢١١، ٤٤٧، ٤٧٤، ٦٠٢، ونهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٥١، ٢٦/ ٣٣٠، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٠٢، والفخري ٢٩٦ـ ٢٩٧، ودول الإسلام ٢/ ١٣، والعبر ٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٩٤ـ٩٦ رقم ٥٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥، والدرّة المضيّة ٤٣٦، والوافي بالوفيات ١٢/ ١٢٣ـ١٢٧، ومرآة الجنان ٣/ ١٣٥ـ =

ممدود الظلماء، قد ملك الأرض من أكثر أطرافها، وسلك خوفه قلوب أشرافها، وكان لدى الخلافة محمود الأثر، ممدوح السير، يجلّه آجال سلطانه، ويحلّه قريباً من مكانه، والخليفة يستزير بصباحه، ويستمير من رياحه، ولا يزال بينهما رسل تتردد لحوائج وأمور على حكم إشارته تمضي، وسياجه من الدين يحوط نواحيه، ويحيط من يلاحيه، ويوجب له على أعدائه ذلّ الرقاب، وتحصيل جلّ الرغاب، أصله من طوس الدهاقين، وزالت نعمة أبيه، وماتت أمه، وكان أبوه يطوف على المرضعات، فلمَّا آن له، سمع الحديث وتفقه، وعُدَّ من الفضلاء.

واشتغل بخدمة السلطان، والدهر يعلو به وينخفض حتى وزر لألب، وكان ملكه يتعدَّى خراسان، وظهرت له منه كفاية لا تظنُّ في غيره.

وكان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن أهل الذنوب والجرائم، طويل الصمت، ظاهر الورع، وأمر ببناء المدارس، لا يزال مجلسه عامراً، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرها، وكان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن لما أتولاّه، ولكني أحبُّ أن أجعل نفسي على قطار نَقَلَة حديث رسول الله ﷺ.

وكان إذا سمع المؤذن، يمسك عن كلِّ ما هو فيه ويجيبه، ثم لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن، ودخل الوقت، يأمره بالآذان محافظة على حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات.

وأسقط المكوس في الضرائب، وأزال لعن الأشعرية على المنابر؛ لأنَّ الوزير عميد الملك الكندري كان قد حسن للسلطان / ١٣١/ طغرلبك لعن الرافضة، فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع، ولهذا فارق إمام الحرمين والقشيري وغيرهما بلادهم، فلما ولي نظام الملك لألب أرسلان، أسقط هذه الفضيحة الفظيعة، والقبيحة الشنيعة، وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

وكان إذا دخل عليه إمام الحرمين والقشيري، يقوم لهما، ويجلس إلى مسنده، فإذا دخل عليه أبو علي الفارمدي، يقوم إليه، ويجلسه، ثم يجلس بين يديه، فقيل له في

= ١٣٨ وفيه: «الحسين»، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ١٣٥، والبداية والنهاية ١٢/ ١٤٠-١٤١، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ١٣٥، ٥/ ١١-١٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٦-١٣٧، وشذرات الذهب ٣/ ٣٧٣-٣٧٥، وروضات الجنات ٢٢١، وأعيان الشيعة ٢٢/ ٢٢٥، والأعلام ٢/ ٢٠٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٨١-٤٩٠هـ) ص١٤٢ رقم ١٤١ .

ذلك، فقال: لأن أولئك ينسبون عليَّ بما ليس فيَّ، فأزداد عجباً وتيهاً، وهذا يذكِّرني لي أنِّي من عيوب نفسي فأنكسر.

وقيل: إنه كان ليلة يأكل الطعام، وإلى أحد جانبيه أخوه، وإلى الآخر عميد خراسان، وإلى جانبه فقير مقطوع اليد. فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمر بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع اليد إليه فأكل معه.

وكانت عادته يحضر الفقراء طعامه، ويقرِّبهم إليه، ويدنيهم منه، ومحاسنه مشهورة مشكورة، ألفت فيها الكتب، وجالت في كل مسمع، وقطعت عن رجاء اللحاق به كل مطمع.

ولما مات أرسلان، وعهد إلى ابنه ملكشاه، قام الوزير نظام الملك بتدبيره وزاد الجند سبع مائة ألف دينار على إقطاعاتهم، ثم داخل الجند الطمع فمدُّوا أيديهم إلى أموال الرعية، وتبسطوا فيها، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا إلاَّ نظام الملك، فذكر نظام الملك ذلك للسلطان وبيَّن له ما في هذا من الوهن، وذهاب السياسة، وخراب البلاد، فقال له: افعل ما ترى، فقال نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل شيئاً إلاَّ بأمرك، فقال له السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها لك، وأنت الوالد، وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان بيده، من جملته طوس وبلادها، وخلع عليه ولقب ألقاباً من جملتها: «أتابك» ومعناه الأمير الوالد. وظهر من كفايته، وشجاعته، ما هو مشهور.

قال /١٣٢/ ابن الأثير[١]: وكان يغشى مجلس أبي الحسن بن طلحة الداودي، وكان عالماً، عابداً، خيراً، وكان يأتيه، ويجلس بين يديه، فيعظه، فيبكي حتى تبلَّ دموعه لحيته.

ولما دخل ملكشاه بغداد أول قدمة قدمها، نزل بدار المملكة، أرسل الخليفة إليه هدايا كثيرة، وأرسل فرساً منها لنظام الملك، وطلب نظام الملك إلى نظام الخلافة ليلاً فمضى في الزَّبْزَب، وعاد من ليلته، ثم سار مع السلطان إلى جهة البرية للصيد، فلما عاد وأدخل السلطان على الخليفة، فخلع عليه الخلع السلطانية، ثم لمَّا خرج من عنده، لم يزل نظام الملك قائماً يقدم أميراً أميراً إلى الخليفة، ويقول: هذا العبد فلان على نظام الملك خلعاً جليلة تقارب خلع السلطان.

وذكر ابن الأثير ـ ما معناه ـ: أنَّ نظام الملك لما اتسع ذيل تحكمه، وتسلَّط بنوه،

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠/ ٤١٩.

وتفرّد كل منهم ملك جليل، بعث السلطان، فلذلك حكمه، وإن كنت نائبي وبحكمي عظيمة، وولي ولاية كثيرة، ولما يقنعهم حتى تجاوزوا أمر السياسة وفعلوا وصنعوا، فلما بلغته هذه الرسالة، قال: قولوا للسلطان: إن كنت علمت أني شريك في الملك، فاعلم، فانك ما نلت هذا الأمر إلاَّ بتدبيري ورأيي. أما تذكر حين قتل أبوه، فقمت في أمره يتمسك بي، ولا يخالفني، فلما قدمت الأمور إليه، جمعت الكلمة عليه، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يجني لي الذنوب، ويسمع فيَّ السعايات، فقولوا له: إنَّ ثبات ملكه تلك القلنسوة معدودة بتلك الدواة، وإنَّ اتفاقهما رباط كل رعية، وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه، زالت تلك، والحال القول في هذا ومثله ما وقع عليه التدبير حتى أتاه ديلمي في صورة صوفي مستميح، فلمَّا التفت إليه ليكلمه، ضربه بسكين، فقتله وهرب، فعثر بطنب خيمة، فأدركوه، فقتلوه، وهاج العسكر، فركب السلطان، وسكَّنه.

ثم مات السلطان بعده بخمسةٍ وثلاثين يوماً، وانحلَّت الدولة، ووقع السيف. وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له.

ومما رثي به قول ابن عطية: [من البسيط]

/١٣٣/ كانَ الوزيرُ نظامُ المُلكِ لُؤلؤة يتيمةً صاغَها الرَّحمان مِنْ شَرَفِ
بَدَتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الأيامُ قيمَتَها فَرَدَّها غَيْرُهُ مِنْهُ إلى الصَّدَفِ

ووزر بعده ابنه عزّ الملك بركياروق، وكان عزّ الملك حاكماً بخوارزم، وإليه كل أمورها، وكان قد أتى مؤدياً خدمة السلطان، وزائراً لأبيه، فلمَّا قتل أبوه، ومات السلطان أقام بأصبهان، فلمَّا حضرها بركياروق، وكان معظم جيشة النظامية، خرج إليه عزّ الملك وأخوته، فأكرمه، واحترمه، ووزره، وفوَّض إليه أمور دولته، وحضر عند المقتدي.

ومنهم:

[٦٦]

فَخْر المُلْك، أبو المظفر [ابن]، نظام المُلْك[1]

فريد من نظام، ووحيد من أبناء الكرام، عظام بحلي يعبق بعطر برديه، وكرم

(١) فَخْر المُلْك، علي بن الحسن بن علي بن إسحاق، أبو المظفر فخر الملك ابن نظام الملك: وزير، أصل أبيه من طوس. ولد سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م. تولى الوزارة للسلطان بركيارق سنة =

يعطل فيض السحب بيديه، وحب لأهل الخير سكن حبَّة قلبه، وسكت البحر مضالا عند قلبه، فطالما عمروا أنديته الفساح، وصبَّ عليهم سجال النوال، فساح، وعمّر على هذا، وقضى شهيداً، وأبقى عليه حزناً شديداً.

وزر سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة لبركياروق، ، ثم لـمَّا فارق وزارته، قصد نيسابور، وأقام عند السلطان سنجر بن ملكشاه، ووزر له، وكان يتوالى آل بيت محمد ﷺ فعظم أهل السنَّة، وأكرم الأئمة والعلماء من مذهب الإمام الشافعي - رضي الله عنه - هذا إلى صدقة سرر المحافظة على صدقات كثيرة.

وأصبح يوم عاشوراء سنة خمسمائة صائماً، وتصدَّق بجملة كثيرة من حلِّ ماله، وقال لأصحابه، إني رأيت الليلة في المنام الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وهو يقول: عجِّل إلينا وليكن إفطارك عندنا. وقد اشتغل فكري، ولا محيد عن قضاء الله وقدره، فقالوا: ينجيك الله ويبقيك. والصواب أن لا تخرج اليوم من دارك، فأقام يومه يصلي، ويقرأ القرآن، ويتصدَّق حتى أنفذ شيئاً كثيراً. فلمَّا كان وقت العصر خرج من الدار التي كان بها يريد دار النساء، فسمع صياح متظلِّم شديد الحرقة، وهو يقول: ذهب المسلمون، ولم يبقَ /١٣٤/ منهم من يكشف مظلمة، ولا يأخذ بيد ملهوف، فأحضره عنده رحمة له، فلما حضر لديه، قال له: ما شأنك؟ فدفع إليه رقعة، فبينما فخر الدين يتأملها إذ ضربه بسكين، فقضى عليه، فأخذ الباطني الضارب له، وحُمل إلى السلطان سنجر، فأقر على جماعة من أصحاب السلطان كذباً منه عليهم، وقال: إنَّهم هم جهزوني على قتله، وما أراد بهذا إلاَّ قتلهم، وكانوا براء، فعلم السلطان سنجر هذا من الباطني، فأمر به، فقتل.

وكان عمر فخر الدولة نحو ثلاثين سنة.

ومنهم أخوه:

[٦٧]

ضياء الملك، أبو نصر، أحمد بن نظام الملك الوزير(١)

كان لا يبعد أنَّه يؤاخيه ودام على هذا حتى مضى في سبيل أخيه، قُتل مُغتالاً،

= ٤٨٨هـ، ثم فارقه قاصداً نيسابور، فاستوزره صاحبها الملك سنجر، فاغتاله فيها أحد الباطنية سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م. وكان أكبر أولاد نظام الملك.

ترجمته في: المنتظم ٩/ ١٤٨ (١٧/ ٩٩)، الكامل في التاريخ ١٠/ ٤١٨- ٤١٩، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٢١، البداية والنهاية ١٢/ ١٦٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧- ١٨، النجوم الزاهرة ٥/ ١٩٤، الأعلام ٤/ ٢٧٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٩١-٥٠٠هـ) ص٧٥.

(١) أحمد بن الحسن بن علي بن إسحاق.

=

وقُصف حضه، وما جرَّ ذيله مختالاً، وعلى هذا مات أبوه، وانقرض به الجود، فلا أحد يوصف به، ولا أحد يرجوه.

وزر للسلطان محمد بعد سعد الملك أبي المحاسن حتى اتهمه وأخذ ماله وصلبه، ولما أمسك سعد الملك استشار فيمن يوزره، فذكرت له جماعة، فقال السلطان: إنَّ آبائي رأوا على نظام الملك البركة، وله عليهم الحق الكثير، وأولاده أعديا نعمتنا، ولا نعدله عنهم.

وكان أبو نصر هذا قد قدم باب السلطان شاكياً على الشريف أبي هاشم رئيس همدان؛ لأنه لما رأى أبو نصر انقراض دولة أهل بيته لزم داره بهمدان، فآذاه ربيبهما المذكور، وأقام في جواره، وهو يجور، ، فلما أَنْكَتْهُ جراح أذيته، وأبلته صراح بليته، فقصد السلطان متظلِّماً منه، فصادف السلطان في هذه النية التي تحدَّدت بها معالم البيت النظامي، وانتظمت أموره، فحال ما وصل لديه ولآه الوزارة، وخلع عليه، وحكَّمه في ما لديه، وفي هذا زيادة على ما يحكى في «الفرج بعد الشدَّة».

ثم كان السلطان يقدِّمه على الجيوش، ويبعثه على العساكر حيث يتعذر عليه المسير، وبعثه لقتال الألموت، وبها الحسن بن صباح، فهجم الشتاء عليه، ولم يبلغ منها /١٣٥/ مبلغاً، فلمَّا أتى ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسمائة، قصد نظام الملك أبو نصر الجامع، فوثب به الباطنية، فضربوه بالسكاكين، وجرح في رقبته، وبقي مريضاً مدَّة، ثم برىء. وأخذ الباطني وسقي الخمر حتى سكر، ثم سئل عن أصحابه، فأقر على جماعة بمسجد المانوية، فأخذوا وقتلوا. واستمر نظام الملك على وزارته إلى سنة أربع وخمسمائة، ثم عزله السلطان محمد، واستوزر بعده الخطير محمد بن الحسين الميبذي[(١)].

ومنهم:

[٦٨]

الأعزّ، أبو المحاسن، عبد الجليل الدهستاني

وزير ملأ القلوب شغلاً، وأدفأ البلاد شعلاً، وأتقن أمور التدبير، فلم يهتبل

= **ترجمته في**: المنتظم ٩/١٦٣ (٧/١١٧)، الكامل في التاريخ ١٠/٤٧٨، نهاية الأرب ٢٦/٣٦٩، البداية والنهاية ١٢/١٧١، تاريخ دولة آل سلجوق ٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٠١_٥٢٠هـ) ص١٨.

(١) انظر: تاريخ دولة آل سلجوق ٩٩_١٠٣.

مالاً، ولم يدع إلاَّ مالاً.

وكان في دولة بني سلجوق أعزّ وزارئها، وأعزم آرائها وزر لبركياروق، ونظم الشتات، وثمَّر الأموال، وردَّ الأمور إلى قوانينها، وأعاد الحرمة إلى حالها، وأوقد جمرة السلطنة بعد أن خمدت، وأجرى يد الوزارة بعد أن خمدت، وأتى الدولة وقد اضمحلَّت، وشيَّد بنيانها، ومدَّ الأعناق لوطأة قدمها، وخفض جناح النسر الطائر لعلو همَمِها،

وأسر في الوقعة الكائنة بين بركياروق وأخيه محمد على بغداد، فحمل إلى مؤيد الملك بن نظام الملك، فأكرمه ونصب له خيمات، وضرب له خركاه، وحمل إليه ما يحتاج إليه من الفرس والكسوة، وضمنه عمارة ما خرب من بغداد، ثم أطلق سراحه. وكان مغرى بهلاك الباطنية يزل معهم يسعى بهم حتى أمر السلطان بقتلهم، وجهد لو استطاع في اجتثاثهم من أصلهم، وقد غبرت تلك الأيام مدة عدها لا يخرج السلطان، ولا الوزير الأعزّ، فمن دونهما إلاَّ وهو في درع مضاعفة خوفاً منهم، فلما نزل السلطان لحصار أصفهان، وكان قد ركب من خيمة إلى خدمة السلطان، فجاءه شاب أشقر، قيل: كان من غلمان أبي سعيد الحداد، وكان... الوزير الأعزّ فانتهز الفرصة في الوزير وقتله، وقيل، كان باطنياً، فجرحه عدة جراحات، وتفرَّق أصحابه عنه، ثم عادوا إليه، فجرح أقربهم منه جراحات أثخنته، /١٣٦/ وعاد إلى الوزير فتركه سامي رمق.

وكان كريماً، واسع الصدر، حسن الخلق، كثير العمارة، وفعل أول وزارته لإقامة الحرمة ما خافه الناس بسببه. وكان حسن المعاملة مع التجار... منه خلق كثير حتى كانوا يسألونه أن يعاملهم، فلما قتل ضاع لهم مال كثير.

حكي أنَّ بعض التجَّار باعه متاعاً بألف دينار، وقال له: خذ بها حنطة من الزاد، إنَّ كل كرٍّ بعشرة دنانير، فامتنع التاجر وقال: لا أريد غير الدنانير. فلما كان من الغد دخل إليه التاجر، فقال له: يهنيك يا فلان، قال: وما هو؟ قال: فائدة حنطتك، فقال: ما لي حنطة، ولا أريدها، فقال: بلى، قد بعت كل كرّ بخمسين ديناراً، فقال: أنَّى لي بهذا، وأنا لم أتقبل، فقال له الوزير: ما كنت لأرجع عن قول قلته. فأخرج ما قبض ثمن الحنطة. بارك الله لك.

وكان مع وفور عقل الوزير، وما عرف به من التدبير، قد نفق عليه عمل الكيمياء، ولم يصح له شيء منها.

قال ابن الأثير ـ عقيب ذكره حادثة يعتبر بها ـ قال: في سنة ثلاث وتسعين بِيع رحل بني جهير ودورهم بباب العامة، ووصل ثمن ذلك إلى مؤيد الملك ثم قتل المؤيد،

وبِيع ماله، وأخذ ثمن الجميع، وحمل إلى الأعزّ، وقتل الأعزّ، وحمل ماله، وبِيع رحله، واقتسمت أمواله، وأخذ السلطان، ومن ولي بعده، أكثرها، وتفرَّقت أيدي سبا، وهذه عاقبة خدمة الملوك.

ومنهم:

[٦٩]

أبو طالب السُّمَيْرَمي[١]

وزير حلَّق كثير على الجوزاء، ويحلُّ عند الملوك محل الأعزاء، وكان أرزن من الطود، وأرزم من الجود، على عميق باطن أكثر غرراً من البحر، وأعظمه ضرراً من حط الخنجر من النحرير أي أتعب من الزاد، وامض... من العناد، لو جلبب الليل، لاضمحلَّت أواليه... على الصخر لانحلّ، حكي أنه ما تخلَّى من ظلامة، ولا تحرز من ملامة /١٣٧/ طلباً لتوسعة... الحال، وترقيع كلف أيامه بالمحال، فمقت وبغض، ووقت عليه زمانه حتى رفض.

ثم أخذ من... بما لا يخطىء من سهام المساعي، ولا يبطىء من سمام الأفاعي، حتى أخذ من صدر رتبته بين أحبته، وحطَّت عليه السكاكين بالعذاب، وصبَّ عليه ما لو أصاب الحجر لذاب.

---

(١) أبو طالب السُّمَيْرَمي، علي بن أحمد بن حرب، وزير السلطان محمد.
كان مجاهراً بالظُّلم والفُسْق، بنى ببغداد داراً فظلم الناس، وأخرب محلّة التُّوثَةِ، ونقل آلتها، فاستغاث أهلُها، فحبسهم وغرّمهم.
وهو الذي أعاد المُكُوس بعد أربع عشرة سنة. وكان يقول: قد فرشت حصيراً في جهنم، وقد استحييت من كثرة الظُّلْم.
قال هذا في الليلة التي قُتِل في صبيحتها. ركب في موكب عظيم وحوله السيوف المسلّلة، فمرّ بمضيق، فظهر رجل من دكّة فضربه، فجاءت في البغلة، فهرب، فتبِعه الأعوان والغلمان، وبقي منفرداً، فوثب عليه آخر فضربه في خاصرته، وجذَبه ورماه، ثم ضربه عدة جراحات ثم ذبحه. وقُتِل ذلك الرجل فوق الوزير، وقُتِل اثنان من أصحاب الوزير، وقُتِل ثلاثة كانوا مع قاتله يقاتلون الغلمان فقُتلوا. وذلك في سَلْخ صَفَر سنة ٥١٦هـ.
وسُمَيْرم: قرية من قرى أصبهان.
ترجمته في: تاريخ دولة آل سلجوق ١٠٦ـ١٠٩، المنتظم ٩/ ٢٣٧ـ٢٤٠ (١٧/ ٢٠٩ـ٢١٣)، ذيل تاريخ دمشق ٢٠٦، مرآة الزمان ج٨/ ق١/ ١٠١، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٠١ـ٥٢٠هـ) ص٢٩٥، ٤٠٢ رقم ١١٥.

استوزره السلطان بعد ربيب الدولة، وزير السلطان محمود، وكان والد الربيب وزير له للمسترشد.

وكانت السميرمي رجلاً ظالماً، جباراً، عسوفاً، حسن للسلطان أخذ حقَّ البيع، وتجديد المكوس بالعراق... هذا برأيه، وأشغلتهما شواغل القدرة بوقوع الحريق المتتابع، وسببه أن جارية للسلطان كانت تختضب بدار... التي بناها السلطان محمد، فأسندت شمعة إلى الخيش، فاحترقت، وعلقت النار منه في الدار كلّها... حيطانها، واحترق فيها من الجواهر والحلي والفرش والثياب ما لا يقوَّم، ولم يسلم من الجوهر إلاَّ الياقوت الأحمر.

ثم أمر السلطان [أهل] الذمة بلبس الغيار، فاقتدوا منه بمال قرر عليهم بإشارة من الوزير.

وامتدَّ في الظلم إلى فوق، فعطس أنفه، وخاض في الجو إلى الحلقوم، فسكنت بغضته، ودارت مذمته على الألسنة، ووقع في أيامه في سنة خمس عشرة وخمسمائة ثلج عظيم غمر العراق جميعه، من البصرة إلى تكريت، وبقي به على الأرض خمسة عشر يوماً، وسمكه فوق ذراع، وهلك به أكثر الشجر، فقال بعض الشعراء يذكر ذلك، ويعرِّض بظلمه: [من الخفيف]

يَا صُدُورَ الزَّمَانِ لَيسَ بِثَلْجٍ ... مَا رَأَيْنَاهُ مِنْ نَواحِي العِرَاقِ
إنَّما عَمَّ ظُلْمُكُمْ سَائِرَ الحَلْقِ ... فَشَابَتْ ذَوَائِبُ الآفَاقِ

فلما مضى صفر سنة ست عشرة، قتل الوزير السميرمي وأراح الله منه.

وكان... مع السلطان يسير إلى همدان، /١٣٨/ فدخل الحمام، وخرج بين يديه الرجالة، والخيالة، وهو في موكب عظيم ملوكي، فاجتاز بسوق المدرسة الخمارتكينية في مكان ضيِّق فيه حظائر سوك، فتقدَّم أصحابه لضيق الموقع، فوثب عليه باطني، فضربه بسكين، فوقعت في البغلة، وهرب إلى دجلة، وتبعه الغلمان، فخلا الموضع، فوثب عليه رجل آخر بسكين، فضربه في خاصرته، وجذبه، فألقاه إلى الأرض، وضربه عدَّة ضربات. وعاد أصحاب الوزير، فحمل عليهم رجلان باطنيان، فانهزموا منهما، ثم عادوا، وقد ذبح الوزير ذبح الشاة، والدم قد سهم ودام، ... فحُمِل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جرحاً، وقتل قاتلوه.

ولمَّا كان في الحمام كان المنجمون يأخذون له الطالع، ليخرج، فقالوا: هذا وقت جيد، وإن تأخرت، فات طالع السعد. فأسرع وركب، وأراد أن يأكل طعاماً، فمنعوه، لأجل الطالع، فقتل، ولم يغنِ عنه شيء، وأخذ السلطان خزائنه، وانتهب

ماله، وكانت زوجه الكمال قد خرجت في هذا اليوم في موكب كبير في مائة جارية، وجمع كثير من الخدم، الجميع بالخيول المثمنة، والمراكب الذهب في ثياب الوشي والحرير، ونفائس الدر والجوهر، فلما سمعت بقتله رجعت بمن معها من الجواري حافيات حاسرات، وقد تبدلن بالعزاء هواناً، وبالمسرة أحزاناً، فلما قتل، أبطل السلطان ما كان أحدثه من المظالم، وجدده من المكوس، ووضعه على التجار والباعة من العكوس، وأزال الله ذلك السقم، وشفى النفوس.

ومنهم:

[٧٠]

الصاحب جمال الدين، رئيس الشام(١)

أبو القاسم عمر ابن القاضي أبي الحسن أحمد بن أبي الفضل هبة الله بن أبي غانم محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة القيسي العقيلي الحلبي الحنفي الكاتب المؤرخ المعروف بابن العديم.

من بيت / ١٣٩/ تتعلق آماله، وتتحقق نقص البدر عن كماله، ضرب عرقه إلى معد بن عدنان، ولمع برقه في أسرة ابن غيلان، وأشرق في أهله مضر، وأغدق نوؤه

---

(١) عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العَدِيم: مؤرخ، محدث، من الكتَّاب. ولد بحلب سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م. من كتبه «بغية الطلب في تاريخ حلب ـ خ» كبير جداً، اختصره في كتاب آخر سماه «زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ط» المجلد الأول منه، و«سوق الفاضل ـ خ» منه مجلدين في مكتبة عارف حكمت بالمدينة، و«الدراري في الذراري ـ ط» و«وصف الطيب ـ خ» رسالة، و«الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة» و«دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ـ ط». ما وجد منه، و«التذكرة ـ خ» أجزاء منها. وله شعر حسن.

ترجمته في: ذيل الروضتين ٢١٧، قلائد الجمان لابن الشعار ٥/ ٢٣٢ـ ٢٣٨ رقم ٥٤٢، ومعجم الأدباء ١٦/ ٥ـ٥٧ رقم ١، وتالي كتاب وفيات الأعيان للصقاعي ٩٥ـ ٩٦ رقم ١٤٣، وحوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري (مخطوطة كوبريلي) ورقة ٣٩٥ حسب ترقيم المخطوط، في ذكر الأناشيد، آخر وفيات سنة ٧٣٥هـ، وذيل مرآة الزمان ١/ ٥١٠ و٢/ ١٧٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٥ـ ٢١٦، وفيه: «كمال الدين عمر بن عبد العزيز»، ونهاية الأرب ٣٠/ ٧٧، ودول الإسلام ٢/ ١٦٦، والمعين في طبقات المحدِّثين ٢١٠ رقم ٢٢٠٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٦، والعبر ٥/ ٢٦١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٨ـ٢٧٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٥، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٨ـ ١٥٩، والوافي =

فلما عدل عن عامر قيل عمر.

وكان لا يجلس أحد فوقه إذا حضر في مجلس السلطان، ولا يضرب معه بأعطان، وكان الملك الناصر بن العزيز يخاطبه بالوالد، ويحطم الألف منه بواحد، وكان محله منه محل الفتح بن خاقان من المتوكِّل جارياً مجرى الوزارة، وإن كان لا يتقلدها، أو يطلق فيها أوامرها، ولا يقيدها. هذا إلى أدب لو هب نسيمُه على المخمور لأفاق، ولو شبه نظمه بالدر لما سمح فيه الإنفاق. هذا مع حظ ما وشي بقتله ديباج الخدود، ولا عطفت زرده أصداغ الغواني بزروده، خصوصاً قلم النسخ الذي كأنه ما رقمت به صحف الجمال والحواشي، ولا بمثل خدّ العذراء من خط الكمال.

ولد سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، وكان من رجال الدهر، علماً، ونبلاً، وذكاءً، ومنظراً، وبهاءً، وسؤدداً، وفقهاً، وكتابة، وإنشاء.

ودرَّس، وأفتى، وترسل عن الملوك، وبحسن خطه يضرب المثل واليه يشير الصاحب فتح الدين بن القيسراني: [من الوافر]

بِـوَجْـهِ مُـعَـذِّبِـي آيَـاتُ حُـسْـنٍ فَـقُـلْ مَـا شِـئْـتَ فِـيْـهِ وَلا تُـحَـاشِـي
فَـنُـسْـخَـةُ حُـسْـنِـهِ قَـرُبَـتْ وصَـحَّـتْ وَهَـا خَـطُّ الـكَـمَـالِ عَـلَـى الـحَـوَاشِـي

ذكره الدمياطي، فقال: ولي القضاء بحلب خمسة من أيامه متتالية، وله الخط البديع، والحظ الرفيع، والتصانيف الرائقة، منها «تاريخ حلب». أدركته المنية قبل إكمال تبييضه. وكان غزير العلم، خطير القد والأصل.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: من نظر في تاريخه، علم جلالة هذا الرجل، ورتبته في العلم، وقد ناب في دمشق بالسلطنة عن الناصر، وقام عنه إذ سار إلى مصر.

= بالوفيات ٢١/ ٤٢١ـ٤٢٦ رقم ٣٠٣، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٧٥، وفوات الوفيات ٢/ ٢٠٠ وفيه وفاته سنة ٦٦٦هـ، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٦، والجواهر المضيّة ١/ ٣٨٦، وعقود الجمان للزركشي، ورقة ٢٣٧ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٧٦، والنجوم الزاهرة٧/ ٢٠٨، وحسن المحاضرة ١/ ٤٦٦، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٦، وعقد الجمان (١) ٣٣٩ـ٣٤٢، وتاج التراجم لابن قطلوبغا ٤٨ رقم ١٤٣، وكشف الظنون ٣٠، ٢٤٩، ٢٩١، ٣٣٧، ٧٢٩، ٧٥٧، ٩٥٢، ١٠٩٠، ١٤١٦، وهدية العارفين ١/ ٧٨٧، وفهرس المخطوطات المصورة ٢/ ٢٠، ٧٩، وأعيان الشيعة ٤٢/ ٢٢٢، وفهرس مخطوطات الموصل ١٢١، وديوان الإسلام ٣/ ٣٣٠ـ ٣٣١ رقم ١٥٠٥، والأعلام ٥/ ٤٠، ومعجم المؤلفين ٧/ ٢٧٥، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤٤٤ـ٤٧٢ رقم ٢٥١، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ٣٠، الأعلام ٥/ ٤٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ٦٦٠هـ) ص٤٢١ رقم ٥٤١.

وحكى في تاريخه أنه دخل مع والد علي صاحب حلب الملك الظاهر غازي، وأنه هو الذي /١٤٠/ حسَّن له جمع التاريخ.

ومن بديع نظمه قوله[(١)] : [من الطويل]

فَوَا عَجَباً مِنْ رِيْقِهِ وَهوَ طَاهِرٌ حَلاَلٌ وَقَدْ أَمْسَى عَلَيَّ مُحَرَّمَا
هُوَ الخَمْرُ لكِنْ أيْنَ للخَمْرِ طعمُهُ وَلَذَّتُهُ مَعْ أَنَّني لَمْ أَذُقْهُمَا

وقوله: [من الكامل]

وَكَأَنَّمَا قَمَرُ السَّمَاءِ لِسَبْعَةٍ مُوسَى مِنَ الفُولاَذِ ذاتُ صِقَالِ
وَكَأَنَّ سَعْدَ الذَّابِحَ اسْتَنْضَاهُ مِنْ عَمَلِ الدُّجُنَّةِ قَاطِعَاً لِوِصَالِ

فنظم ولده مجد الدين هذا المعنى فقال: [من البسيط]

يَا لَيْلَةَ الهَجْرِ بَلْ يَا أَنْكَدَ العُمُرِ مَا كَانَ ضَرَّكِ لَو وَافَيْتِ بالسَّحَرِ
قَدْ فَرَّقَ الخَوْفُ ثوبَ النَّوْمِ مِنْ ضَجَرٍ لَمَّا بَدَا لابِسَاً ثَوْبَاً مِنَ السَّهَرِ
وَكُنْتُ أَحْسَبُ أنَّ النَّوْمَ يُنْقِذُنِي فَقَدْ غَدَا هَارِبَاً مِنْ شِدَّةِ الحَذَرِ
خَافَ الدُّنوَّ لِسَعْدِ الذَّبْحِ حُقَّ لَهُ فَقَدْ بَدَا قَابِضَاً مُوسَى مِنَ القَمَرِ

وأهدى الأمير سيف الدين المشد إلى الصاحب كتاب الأنواء لأبي حنيفة الدينوري، فارتجل: [من مجزوء الرجز]

يَا مُوْلِيَ الآلاءِ ومُسْبِغَ النَّعْمَاءِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ سَمَاءً مَا جُدْتَ بالأَنْوَاءِ

ومن شعره قوله يفخر[(٢)] : [من الطويل]

سَأُلزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَا جَنَى عَلَيَّ وأعفُو عِفَّةً وَتَحَلُّمَا

منها:

وَقَائِلَة، يا ابْنَ العَدِيْم إِلَى مَتَى تَجُودُ بِمَا تَحْوِي سَتُصْبِحُ مُعْدِمَا
فَقُلْتُ لَهَا: عَنِّي إِلَيْكِ فَإِنَّني رَأَيْتُ خِيَارَ النَّاسِ مَنْ كَانَ مُنْعِمَا
أَبَى اللُّؤمَ لِيْ أصْلٌ كَرِيمٌ وأُسْرَةٌ عُقَيْلِيَّةٌ سَنُّوا النَّدَى والتَّكَرُّمَا

وقوله: [من المنسرح]

يشبه خدّه جلنار في غُصْنٍ شَاهِقٍ مَنِيْعِ
تَمَلَّكَ القَلْبُ وَهْوَ بَعْضٌ فَكَمْ سَرَى الرِّقُّ في الجَمِيْعِ

---

(١) قلائد الجمان ٥/ ٢٣٥.
(٢) قلائد الجمان ٥/ ٢٣٥ـ ٢٣٦.

فأمَّا من بعده من وزراء الدولة الجنكيزخانية، فنقول: إنَّ رتبة الوزارة لم تزل تتماسك ربعها إلى انقضاء دولة الخلافة.

ثم آخر ما حفظت هذه الرتبة العلية الشامية في ممالكه بيت هؤلاء طولي بن جنكيز خان، /١٤١/ فإن الوزراء عندهم هم السلطان حقيقة، لا يشاور القان إلاَّ في الأمور الكليَّة، وهو المصرّف في البلاد، والممالك كيف شاء: يولِّي ويعزل، ويسمن ويهزل.

فمنهم:

[٧١]

شمس الدين، أبو المكارم، محمد بن محمد بن محمد الجويني(١)

وزير هولاكو الصاحب الوزير، وزير قام في زمن الغدر بالوفاء، وأحيا في أيام التتار سنَّة الخلفاء، أمسك بيد الثريا اعتلاقا، وحكى سميته الشمسَ انبلاقا، فانسكب جودُه اندفاقا، وحسن به جودُه اتفاقا، لم يزل يهب المواهب إرفاقا، ويبدِّد الأموالَ إنفاقا، ويصل دولة الاسلام حباً، والتتار نفاقا، ووظف عليه الوظائف، وأورف مما لديه من الطَّرائف، ومدَّ ظِلال النِّعم، واستجدَّ الإحسان فوق ما ظنَّ مكحوله. وزر لأبغاقا خان في أول تلك الدولة، وجمرتها تتلظَّى، ومرتها تعلق بإسكان الرِماح فتتشظَّى، في زمان كان السيف يقطرُ فيه دما، وكاد الوجود فيه يعد عدما، وملوك المغل تغلي مراجلهم حنقا، ويشغل حبائلهم حرقا، ودم الإسلام بعد ما جمع، وصوت الآذان إذ ذاك ما سمع، وأشلاء الخلافة مزقاً كقُزَع السحاب، وفرقاً بأيدي النّهاب، فألانَ بتلطُّفه تلك القسوة، وصان بتعطُّفه تلك الأُسوة، وزوج ابنه بنتاً من البيت العباسي، جمع بها نسائب تلك النساء، وسمع بها من صريح أول الآباء صريح النداء، فكأنَّما ردَّ ذاهب العصور، واستجدَّ لبغداد دولة المنصور، وقطع على هدى يبدي زمانه، وهو جارٍ في طلقه، سار في أفقه والأيام لعنانه سلسة القياد، منبجسة الأيادي بأكثر مما حصل

---

(١) محمد بن محمد بن محمد، شمس الدين، أبو المكارم الجُوينيّ، الوزير الكبير. وزير الدولة التتارية والحاكم في المغول، نفذت أقلامه في الأقاليم، وله رسائل وأشعار.
قتل بنواحي أبهر بعد أن كتب وصيته بيده في ٤ شعبان ٦٨٣هـ.
ترجمته في: تاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١ـ٦٩٠هـ) ص١٦٨ رقم ٢٠٧.

لابن أبي دؤاد في أياد، إلى أن نكر له الدهر معروفه، وكرّ عليه صروفه، ورماه... لا يدري، وأتاه وكان يظن أن لا يستجزي... شمسه، وعمر بحلوله رمسه، واستل له سيفاً قتل به بأمر سلطانه الذي كان به ينتصر، وبسببه إذا حلَّق على النجوم، قالوا له: إنَّه مقصِّر، فقُدَّ بالسِّيف قدة أُلقي بها طريحاً، وغودر بها جسداً لا يقلَ روحاً، تصرَّف في الأقاليم بأقلامه، وترسل، ونظم، ونثر، /١٤٢/ ورزق صاحب الديوان، فكان جواداً مُمَدَّحاً، ينطوي على إسلام وخيرٍ في الجملة.

ولم يزل في رفعة وارتقاء إلى أن ولَّتْ سعادته، وتنمَّر عليه القان، فقتل في رابع شعبان سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ولما تسلطن أرغون، سار إلى ركابه الوزير شمس الدين، فصلح منه أياماً، ثم تنمر له، وعذَّبه، وأخذ أمواله، وقتله.

ولقد كتب وصية يقول فيها: وإن رأى الوصي خللاً، فليعذر، فإنِّي سطَّرتها وأنا عريان، والسيف مشهور.

ومنهم:

[٧٢]

أخوه الصاحب علاء الدين[١]

صدر العراق، صاحب الديوان، عطا ملك ابن الصاحب بهاء الدين محمد بن محمد الجويني، تتبع كرم سجايا أخيه، حتى كان شقيق نوضه، وشقيق روضه، ومتمم مكارم أخلاقه، ومتمَّ سوابق أطواقه، طلع من شمسه نهاراً، وجمع من غرسه ثماراً، هذا

(١) عطا مَلِك بن محمد بن محمد، الأجلّ، علاء الدين، صاحب الديوان، ابن الصّاحب بهاء الدين الجُوينيّ، الخُراساني، أخو الصّاحب الكبير الوزير شمس الدين.
كان إليهما الحلّ والعقد في دولة أبغا، ونالا من الجاه والحشمة ما يتجاوز الوصف.
وفي سنة ٦٨٠هـ قدم بغداد مجد الدين العجميّ، فأخذ صاحب علاء الدين وغلّه وعاقبه، فلما عاد منكوتمر من الشام مكسوراً حمل علاء الدين معهم إلى همدان، وهناك مات أبغا ومنكوتمر وكان قد انصلح أمر علاء الدين في أيام الملك أحمد. فلما ملك أرغون بن أبغا طلب الأخوين فاختفيا، فتُوفي علاء الدين في الاختفاء بعد شهر، ثم أخذ ملك اللور يوسف أماناً من أرغون للصاحب شمس الدين، وأحضره إليه، فغدر به أرغون وقتله بعد موت أخيه بقليل.
ثم فوّض أرغون أمر العراق إلى سعد الدين العجميّ والمجد ابن الأثير، والأمير علي جكينان، ثم قتل أرق وزير أرغون الثلاثة بعد عام.
وكان علاء الدين وأخوه فيهما كرم وسُؤدد وخبرة بالأمور، وفيهما عدل ورفق بالرعيّة وعمارة للبلاد.
ولي علاء الدين نظر العراق سنة نيّف وستين بعد العماد القزويني، فأخذ في عمارة القُرى، =

إلى ما جُبِلَ في طباعه، وجُهل فلم يعرف إلاَّ باتِّباعه، ... أصل حتمه، وفضل...، كان ببلاد العراق يجير حلها، ويجاري دجلتها من بغداد، فامسك ربقها، وملك حللها ورتقها، ولحق... وتلافى وأدرك آخرها، وقد كان يذهب تلافاً، وقد كان عهد ببغداد قريباً بالخلافة، ونصرة إمامها ومسيرة أيامها، ورونق زمانها، ونواصي الدهر بأيدي خلفائها، وعاصر الدول من خلفائها، وكرم سجايا الخلائف، ورقة الأسمار لا تقاس

= وأسقط عن الفلاحين مغارم كثيرة إلى أن تضاعف دخل العراق، وعظُم سوادها، وجرّ نهراً من الفرات مبدأه من الأنبار ومنتهاه إلى مشهد علي، رضي الله عنه، وأنشأ عليه مئة وخمسين قرية.
ولقد بالغ بعض الناس وقال: عمّر صاحب الديوان بغداد حتى كانت أجود من أيام الخلافة.
ووجد أهل بغداد به راحة. وحكى غير واحد أنّ أبغا قدِم العراق، فاجتمع في العيد الصّاحب شمس الدين وعلاء الدين ببغداد، فأُحصيت الجوائز والصلات التي فرَّقا، فكانت أكثر من ألف جائزة.
وكان الرجل الفاضل إذا صنَّف كتاباً ونسبه إليهما تكون جائزته ألف دينار.
وقد صنّف شمس الدين محمد بن الصَّيْقل الجَزَري خمسين مقامة، وقدّمها، فأُعطي ألف دينار.
وكان لهما إحسان إلى العلماء والصُّلحاء، وفيهما إسلام، ولهما نظر في العلوم الأدبيّة والعقليّة.
وقد أورد المؤرخ العلاّمة أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد ابن الفُوَطيّ مؤرخ عصره، في مجمع الألقاب ترجمة علاء الدين مستوفاة: هو الصدر المعظّم، الصّاحب، علاء الدين، أبو المظفَّر، عطا مَلِك ابن الصاحب بهاء الدين محمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن أيوب بن الفضل بن الربيع الجُوينيّ، أخو الوزير شمس الدين.
يقول الذهبي: قرأت بخط الفُوَطيّ: كان جليل الشأن تأدّب بخُراسان، وكتب بين يدي والده، وتنقَّل في المناصب إلى أن وَلي العراق بعد قتل عماد الدين الدّويني، فاستوطنها وعمّر النواحي، وسدّ البُثُوق، ورفد الأموال، وساق الماء من الفرات إلى النجف، وعمل رباطاً بالمشهد. ولم يزل مطاع الأمور، رفيع القدر، إلى أن بلي بمجد الملك في آخر أيام أباقا بن هولاكو. وكان موعوداً من السلطان أحمد أن يعيده إلى العراق، فحالت المنيّة دون الأُمنية، وسقط عن فرسه فمات ونُقل إلى تبريز فدُفن بها.
وله رسائل ونظم، كتب منشوراً بولاية كتابة التاريخ بعد شيخنا تاج الدين علي بن أنجب.
وكان مولده في سنة ٦٢٣هـ، ومدة ولايته على بغداد ٢١ سنة و١٠ أشهر.
وقرأت بخطّة وفاة علاء الدين في ٤ ذي الحجة سنة ٦٨١هـ.
ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٤/ ٢٢٤ـ٢٣١ (في وفيات سنة ٦٨٣هـ)، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١١٢ـ ١١٣ رقم ١٦٩ـ ١٧٠، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٣١٦ـ ٣١٧ (في وفيات سنة ٦٨٣هـ)، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ١٦ (وفيه توفي سنة ٦٨٠هـ)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢٧ وهو يتابع المختصر، والعبر ٥/ ٣٤٣، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ٦٧ وفيه وفاته سنة ٦٨١هـ. والعبر ٥/ ٣٤٣ (في وفيات سنة ٦٨٣هـ) وفيه «عطا مالك»، وعيون التواريخ ٢١/ ٣١٨ـ ٣١٩، وله فيه شعر، والسلوك ج١ ق٣/ ٧١١، وتذكرة النبيه ١/ ٧٦، ٧٧، «تاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١ـ٦٩٠هـ) ص٨٠ ـ٨٣ رقم ٣٤».

إلاَّ بحفائها، وفرقة الكفار لا يذهب سيل دجلة إلا بجفائها، وسيوف الإسلام لو أغفت معها عيون الأعداء، لروعتها في إغفائها، ولو عفَّت عن ولوغ الدماء لما سُلَّتْ إلاَّ في إعفائها، يقذف بريح تلك العدَّة وقارب في تفريج تلك الشدة، وفعل كلَّ جميل، وفضل كرمه على تأميل.

وكان الجويني ينفخ عقيب تلك الجيف الداهية الذاهية عطراً، وتسفح مثل عونه الغمام قطراً،وبيد المارين، وينشد من شداه ما يعلم به أن جوين مالا يوجد في دارين، وعلى هذا.

وكان أديباً يقسم البصر إن مثل سلكه، وإن مثلكما... لا يقدر عليه البشر؛ لأنه عطا ملك إلاَّ أنه أماق /١٤٣/ له الأجل، إناء مفعماً مثلما وهب لا يقدر عليه، وفرش له القبر حسن الجندل بعد أن كان منعماً، وأرت المنايا به المصرع، لو كان من يتبصر من عمى.

تأدَّب بخراسان، وكتب بين يدي أبيه، وتنقل إلى أن ولي ممالك العراق بعد القزويني، فعمر القرى، ووفر الأموال، وأسقط المغارم عن الفلاحين، ولم الناس، وعمرت بغداد به، ولم يزل في ارتقاء إلى [أن] قدم مجد الملك فأمسكه وصادره وزالت أيامه.

وله النظم، والنثر، والمكارم، والسؤدد، فيه رفق عظيم بالرعية حفر نهراً مبدؤه من الأنبار، ومنتهاه مشهد علي، تجدد عليه مائة وخمسين قرية.

وقدم القان أبغا العراق، فاجتمع الأخوان علاء الدين وشمس الدين، فأحصيت جوائزهما في العيد، فبلغت ألف جائزة.

وكان الفاضل إذا ألَّف كتاباً وعمله باسمهما، كانت جائزته ألف دينار، ولهما إحسان على الفقهاء والصلحاء، ولهما يد في المعقول والآداب، ويرجعان إلى إسلام. قدم مجد الملك سنة ثمانين، فعلم صاحب الديوان، فأخذ أمواله وعقاره وعذَّبه، ثم بعد أباقا عظم دست الأخوين، وسلم مجد الملك إلى علاء الدين، فقتله وسلخه، وأنفذ إلى بغداد نائباً له، فحكم أشهراً، ثم مات النائب نجم الدين الأصغر، وله سيرة طويلة، قتل مجد الملك قتلةً شنيعة، سلخه هارون بن الصاحب، وشربوا الخمر في جمجمته، فلم لسن بعد علاء الدين.

ولما عاد مكسوراً مهزوماً من الشام، حمل صاحب الديوان إلى همدان، فهلك أبغا ومنكوتمر، واختفى الأخوان، فمات علاء الدين في الخفية سنة إحدى وثمانين وستمائة عن ثمانٍ وخمسين سنة، ثم ظفر آرغون بالوزير، فقتله.

ومن محاسن علاء الدين أنه بنى مساكن كثيرة بظاهر بغداد، وهو الكشك الذي

بين باب الحلية وباب الظفرية، لينزله أعيان التتار.

وكانت بغداد ـ على ما ذكر ابن النجار ـ في أيام السلجوقية، إذا قدمها العسكر من العجم ودخلوها، ونزلوا في بيوت الرعية وخالطوهم، وامتزجوا بأهاليهم، وتصرَّفوا في القماش، والحريم، فخربت بغداد، ونزح كثير منها، لهذه المفسدة الكبرى، فأنشأ عطا ملك للمغول هذه الأماكن الفسيحة كفاً، لأذى العسكر.

ثم أنشأ رباطاً كبيراً بالمشهد النجفي، وأجرى / ١٤٤/ إليه الماء، وإلى جامع الكوفة، وأنشأ المدرسة العصمتية على المذاهب الأربعة.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة كان القحط بالعراق، فعمل دار مضيف للضعفاء، وبر للمستورين، وهمَّ بإنشاء قناطر على دجلة، فقال المعمار: يزيد ذلك مائتي ألف دينار، فأمر بعمل بركة وسط المستنصرية يصعد إليها بدار بعد أن يحمل الماء إلى المدرسة في القرب.

وكان له مجلس يجتمع فيه العلماء يتناظرون، ويبحث معهم ويكرمهم. وقال البهاء علي بن عيسى الكاتب: كاتبني الصاحب عطاء ملك، والغل في عنقه ويده، في يوم بارد، وهو جالس على الرمل، وعليه قميص، وهو صابر حامد الله: [من الكامل]

لا تَعْجَبَنَّ لِمَا جَرَى ... فالخَيْرُ فِيهِ لَعَلَّهُ
قَدْ كُنْتَ عَبْدَاً آبِقَاً ... يَعْصِي الإلَهَ فَغَلَّهُ

قال ابن عيسى، وعمل الصاحب أيضاً: [من الوافر]

لَئِنْ نَظَرَ الزَّمانُ إليَّ شَزْرَاً ... فَلاَ تَكُ ضَيِّقَاً مِنْ ذَاكَ صَدْرَا
وَكُنْ بِاللهِ ذا ثِقَةٍ فإنِّي ... أرى للهِ في ذَا الأمْرِ سِرَّا
زَمَانِي إذْ رَمَانِي لا أُبَالِي ... فَقَدْ مَارَسْتُهُ عُسْراً ويُسْرَا
وقَدْ صَاحَبْتُهُ سِتِّيْنَ عَامَاً ... مَضَيْنَ وَذُقْتُهُ حُلْوَاً ومُرَّا
سَلَكْتُ فِجَاجَهُ حَزْنَاً وَسَهْلاً ... وَخُضْتُ غُمَارَهُ مَدّاً وَجَزْرَا
رأيتُ الدَّهْرَ لا يَبْقَى بِحالٍ ... يُرِيْكَ الوَجْهَ ثُمّ يُرِيكَ ظَهْرَا
إذا دُكَّتْ جِبَالُ الصَّبْرِ دَكَّاً ... تَرَى مِنِّي فُؤَادَاً مُسْتَقِرَّا
فَفِي البَأسَاءِ لَمْ أَخْضَعْ لِبُؤْسٍ ... وَفِي السَّرَّاءِ لَسْتُ أطِيْشُ كِبْرَا

في أبيات:

ومن شعره: [من الطويل]

رَعَى اللهُ أيَّاماً لَنَا ولَيَالِيَا ... تَقَضَّتْ وبُرْدُ العَيْشِ صَافٍ مُفَوَّفُ

يَدُوْرُ عَلَيْهَا الكَأْسُ كَأْسُ فكاكه ... يَلَذُّ لَدَيْنَا لاَ حُمَيَّا وَقَرْقَفُ
نَأَيْتُمْ فَلا العَيْنُ القَرِيْحةُ بعْدَكُم ... رَقَى دَمْعُهَا يوماً وَلا انْفَكَّ يَذْرِفُ
عَصَيْنَا أحَادِيْثَ العَذُوْلِ عَلَيْكُمُ ... وَغَيَّرَكُمْ قَوْلُ الحَسُوْدِ المُحَرَّفُ
وَكَمْ حَنَّ لِلْقَلْبِ الحَزِيْنِ مُقَرْطَقٌ ... عَزِيْزٌ كَمَا شَاءَ الجَمَالُ مُشَرَّفُ
مِنَ التُرْكِ أمَّا قَلْبُهُ فِيْهِ قَسوَةُ الحَديد ... وَأمَّا جِسْمُهُ فَهْوَ مُتْرَفُ
يَرُوْمُ وِصَالاً مِنْ فُؤَادٍ مُعَذَّبٍ ... بِحُبِّكُمُ فَانْصَاعَ لا يَتَوَقَّفُ
وَلَوْلاَ هَوَاكُمْ لَمْ أكُنْ عَنْهُ عَادِلاً ... وَلاَ بِتُّ مِنْ تَقِرِيْبِهِ أَتَعَفَّفُ
تَعَالَوا بِنَا نَسْرِقْ منَ العُمْرِ سَاعَةً ... فَنَجْنِيْ ثِمَارَ الوَصْلِ فِيهَا وَنَقْطِفُ
/ ١٤٥/ وإنْ كُنْتُمُ تَلْقَوْنَ مِنْ ذَاكَ كُلْفَةً ... دَعُوْنِي أمُتْ وَجْداً وَلا تَتَكَلَّفُوا

وقوله: [من الطويل]

لِذِكْرِ الحِمَى يَصْبُو الفُؤَادُ المُشَوَّقُ ... وَذِكْرُ الحِمَى يُضْنِيْ المُحِبَّ وَيُقْلِقُ
إذا هَمَّ طُولَ العَهْدِ يُبْدِي تَسَلِّيَاً ... أبَتْ كَبِدٌ حَرَّى وَجَفْنٌ مُؤَرَّقُ
وَكَيْفَ وَمِنْ أَيْنَ السُّلُوُّ لِعاشِقٍ ... يُجَنُّ إذا نَاحَ الحَمَامُ المُطَوَّقُ
تَكَادُ إذَا مَا الوَجْدُ جَدَّدَ ذِكْرَهَا ... وَكَيْفَ وَلا إنْسَان نَفْسِيَ تَزْهَقُ
سَقَاهَا الحَيَا رَبْعاً وَدَهْراً قَدِ انْقَضَى ... ولِلْعَيْشِ مِنْ مَاءِ الشَّبِيْبَةِ رَوْنَقُ
ولِلْقَلْبِ مِنْ بعْدِ النَّوائِبِ مَغْرِبٌ ... وَلِلْعَيْنِ مِنْ وَجْهِ الأحِبَّةِ مَشْرِقُ
فَيَا طِيْبَ ذَاكَ العَيْشِ لَوْ كَانَ دَائِمَاً ... وَيَا طِيْبَ لَيْلِ الوَصْلِ لَوْلاَ التَّفَرُّقُ

وقوله: [من البسيط]

أحْبَابِنَا لَو دَرَى قَلْبِيْ بِأنَّكُمُ ... تَدْرُوْنَ مَا أنَا فِيْهِ لَذَّ لِي تَعَبِي
لَكِنْ تَعْظَّمَ مَا ألْقَاهُ مِنْ ألَمٍ ... أنِّي أمُوْتُ وَلا تَدْرِيْ الأَحِبَّةُ بِيْ

وقوله: [من الطويل]

أَبَادِيَةَ الأَعْرَابِ عَنِّي فَإنَّنِي ... بِحَاضِرَةِ الأَتْرَاكِ نِيْطَتْ عَلاَئِقِي
وأهْلَكِ يَا نَجْلاَ العُيونِ فَإنَّنِي ... فُتِنْتُ بِهَذا النَاظِرِ المُتَضَايِقِ

وقوله: [من الكامل]

مَضَتِ الشَّبِيْبَةُ وانْمَحَى أثَرُ الهَوَى ... وَالعَيْشُ مِنْ فَقْدِ الشّبَابِ مُكَدَّرُ
إنَّ الشَّبِيْبَةَ جَوْهَرٌ وأرَى الهَوَى ... عَرَضَاً يَزُوْلُ إذا يَزُولُ الجَوْهَرُ

[٧٣]

رشيد الدين الهمداني[(١)]

خواجا رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير بن عالي الهمداني، الطبيب، العطار والده، واهب دهيا وادعيا، وبلية لا تطاق، ومصيبة لا يحل لها نطاق، وسم... متجرّعه، وأرقَم لا يتجنب موضعه، أسدٌ مُفتَرس، وذئب مختلس، ... يحلق بالمنون، وعقاب يأخذ بالظنون، ورجل دهر لا يتبدل له حصاه، ولا يتقيد الأجل أولاً إلا من عصاه.

خدم السلطان محمود غازان بالطب إلاَّ أنه سلَّم إليه روحه، وذلل له جموحه، وكان لا يأكل ولا يشرب إلاَّ من يده، وكان يطبخ له الطعام في قدر فضة أعدَّها، فإذا فرغ منه غَرَفَه في أواني من ذهب، وتولى عمله وغَرَفَهُ بيديه، ثم حمله /١٤٦/ معه على رأس ابنه إليه، ثم هو الذي يلقمه، ويقطع له منه ويطعمه، وغازان لا يمسّ بيد، ولا يأكل إلاَّ من يد خواجا رشيد أو ولده.

---

(١) فضل الله (رَشِيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير (عماد الدولة) ابن علي (موفق الدولة)، أبو الفضل الهمذاني: وزير، من المشتغلين بالفلسفة والطب والتاريخ. اتصل بملك التتار «محمود غازان» وخدمه بطبه إلى أن ولي الوزارة له، ثم لأخيه «خدابنده» من بعده. وقام بكثير من أعمال البرّ في «تبريز» كالخوانك ـ جمع خانكاه ـ والمدارس. وصنف كتاباً في «تفسير القرآن» على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد. ومرض القان «خدابنده» فاشترك رشيد الدولة في علاجه، فمات، فقالوا إنه كان سبب موته، فقتلوه وفصلت أعضاؤه وأرسل إلى كل بلد عضو منها. وحمل رأسه إلى «تبريز» ونودي عليه: هذا رأس اليهودي الملحد وذلك سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م. وقالوا: إن أباه كان يهودياً عطاراً، وإنه، أي رشيد الدولة، أسلم قبل أن يتصل بغازان. وقد احترقت ـ أو أحرقت ـ كتبه بعد قتله، وبقي منها «جامع التواريخ ـ ط» أربع مجلدات، بالعربية والفارسية، طبعت النسخة الفارسية منه باسم «تاريخ غازاني» و«مفتاح التفاسير ـ خ» في دار الكتب، مقدمة لتفسير له يعرف بالتفسير الرشيدي، و«الأسئلة والأجوبه الرشيدية ـ خ» في استنبول، و«التوضيحات ـ خ» في استنبول، ويسمى «جامع التصانيف الرشيدية» و«مجموعة رسائل ـ خ» تشتمل على ٥٢ رسالة، جمعها كاتبه شمس الدين محمد الأبرقوئي وصدرها بمقدمة. قال الذهبي: كان له رأي ودهاء ومروءة. عاش نحو ٧٥ سنة.

ترجمته في: المقتفي ٢/ورقة ٢٨٧ ب، وتالي وفيات الأعيان ١٨٣ـ ١٨٤ رقم ٣١٢، ونهاية الأرب ٣٢/ ٢٩٢ـ ٢٩٣، ودول الإسلام ٢/ ٢٢٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٦٨، والبداية والنهاية ١٤/ ٨٧، ونثر الجمان ٢/ورقة ١٢٢ب، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ٢١٦، وتذكرة النبيه ٢/ ٩٧ـ ٩٨، والسلوك ج٢ ق١/ ١٨٩، والدرر الكامنة ٣/ ٢٣٣ رقم ٥٩٠، ومعجم الأطباء ٣٣٩، وأعيان العصر ٤/ ٤١ـ ٤٤ رقم ١٣٤٧، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٧٨، وشذرات الذهب ٦/ ٤٤، الأعلام ٥/ ١٥٢، ذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦هـ) ص١٤٨ رقم ٤٨٦.

وكان له مع هذا بلدان يستغلُّهما، ويأخذ منهما كثير الأموال ويستقلهما، وكان له مع هذا جوار وإدرارات، ورواتب ومقررات تفيض على مائة كاتب، هذا مع نظر الأوقاف الغازانية، وهي ممالك وجمل يقال فيها، وهي أضعاف ذلك.وكان كالمشير والجليس للملك إذا وقف الوزير، وكانت الوزراء معه في مثل حلقة الخاتم، وسببه طاعة الخادم، لا يتعرف لهم متصرف إلاَّ بمراجعته، ولا يسعه غير الانقياد إلى مطاوعته، وبقي على هذا إلى آخر أيام غازان، وصدراً من دولة أخيه على ما كان.

وحكى لي شيخنا أبو الثناء الأصفهاني ـ أدام الله بقاءه ـ أنَّ خواجا رشيد جمع أنواعاً من الحكم ضمها في تأليف، ورسمه باسم السلطان غازان، ثم أتى إليه، وقال له: أيها القان، أنت أعظم من الإسكندر، وأنا أفضل من أرسطو، وقد كان أرسطو صنف كتاباً، فأجازه عنه ألف ألف دينار، فأجازه بذلك فأخذ به أملاك خربة في أقطار البلاد ثمنت عليه بقيمة الخراب بالمبلغ، ثم عمَّرها لجاهه، فصارت لا قيمة لها، ولا يحصى ما يستغل منها.

وقد حكى حسن الإربلي المتطبب المؤرخ ـ رحمه الله ـ ما معناه: أنه لما ضاق باع الوزراء، وضاع بتدبيرهم معه أن... رشاشه، أو أحرقتهم شراره، فقسمت بينه وبين علي شاه التوريزي شطرين، وسلمت إليهما قطرين.

وكان علي شاه وهو الساعي في هذا، بعد أن كان به منفرداً، فأظله السجسج متبرداً، إلاَّ أن خواجا رشيد كان فيما هو أجلّ من الوزارة موضعاً، وأقدر على ما يوعى به السلطان مسمعاً، فكان لا يزال يرميهم بالأوابد، يصميهم بالسهام إصماءَ اللوابد لما يجده من السبيل إليهم، ..... بالتصرف في الأموال عليهم، وهو مما يدخل تحت أيديهم بريء الساحة، ، نقي الراحة، لا يقام منه جليس، ولا يقال إلاَّ أنه أنيس، لا سيما وهو مع هذا طبيب، وسمير إلى القلوب حبيب، فلما دخل في الوزارة، وحمل أحمالها، وقلّد أعمالها، وصار يطلب بالمال، ويلام بخيبة الآمال، سكت لسان دلعه، وتحقق بيان طلعه، ولزمه حكم ما هم عليه، ولم يبق إلاَّ ما ينسب إليهم /١٤٧/ وإليه، فانقاد صعبه الأَرِن، وذلّ أنفه الشامخ، وسلم حطامه إلى يد الممتهن، وذلك أيام السلطان خدا بنده، ومواهبه بحار، ومطاياه في عطاياه بحار، ودام في مقالبة الأحوال، ومقابلة الأهوال، إلى أن أعطى السلطان خدا بنده دواء سهلاً في مرضةٍ مرضها، ونوبة رمى بها من يديه الحياة الدنيا، ورفضها، فلما جرعن سريره، ونقل إلى حفرة مصيره وجد علي شاه سبيلاً إليه لم نحط مقتله، ولم يعد وقته المؤقت أجله، فحين قضى نحبه، وأخلى من الفضاء رحبه، دس طبيبه المباشر لعلاجه، والمثابر على تعرُّف أحوال مزاجه،

فخرج وقد سوَّد ثيابه، وأعلى بكاءه وانتحابه، حتى سمع ولده السلطان أبو سعيد بها دِرخان الخبر، ورأى من تصنع ذلك الطبيب العبر، وكان عراكم سطر بمكائد الأعداء، ولا يعرف مقدار ما يستشري، من الداء، فجازت عليه خدع باطلة، واستحالت خلائق باسلة، وأمر بأن يقتل هو وولده، ويؤخذ طارف ماله وتالده، فأسرع علي شاه وأمضى الأمر، وأوقد بها حرارة في قلوب كثيرة لا يطفأ لها جمر.

اشتغل رشيد الدولة في الطب، وفي علم الأوائل، وأسلم. ومات أبوه على يهوديَّته، واتَّصل هو بغازان وخدابنده، وعظم شأنه جداً وكثرت أمواله، وصار في رتبة الملوك.

ولما طبب خدابنده، فهلك، شغب عليه أحد الوزراء علي شاه، فدرأ عن نفسه بقناطير من الذهب وجواهر، فيقال: أخذ منه النائب جوبان ألف ألف مثقال، ثم قتلوه، وقتلوا ابنه قبله، ولما طلبوا إلى الخدمة، قيل: أنت قتلت القان، قال: أنى يكون ذلك، وقد كنت عطاراً طبيباً خاملاً، فصيَّرني متصرِّفاً في الممالك، وحصلت الأموال العظيمة؟ فأحضر الطبيب جلال الدين بن الخزَّان، وسألوه فقال: لعلها أفرطت الحيضة بالقان، فاجتمع الأطباء بحضور هذا، ورأوا أن يعطوه مقبِّضاً، فقال الرشيد عنده امتلاء، ويحتاج تنفيسه، فسقيناه مائة سهلاً خارت منه قواه، فقال الرشيد: صدق، فقال جوبان: فأنت قتلته يا رشيد، وصوَّت علي شاه: يا سلطاناه، فقتلوه وابنه إبراهيم ابن ست عشرة سنة، وطيف في رأسه في نصف /١٤٨/ جمادى الأولى سنة ثماني عشرة وسبعمائة، وسُرَّ بمصرعه خلق، وتوجَّع آخرون، وفصلت أعضاؤه، وبعث بكل عضو إلى بلد، واحترقت جثته.

وخلَّف عدَّة بنين وبنات، وعمائر فاخرة، وأموالاً... منحصرة، وكان فيه حكم وتواضع وسخاء، وبذل للعلماء والصلحاء، وله رأي، ودهاء، ومروءة، وله تصانيف واهية أحرقت بعده، وقد فسَّر القرآن وأدخل في ذلك فلسفة.

وكان الشيخ تاج الدين أفضلي يدينه، ويرميه بدين الأوائل فحلم عنه وصفح.

وقيل: كان جيد الإسلام، وعاش بضعاً وسبعين سنة.

ومنهم:

[٧٤]

علي شاه

وزير لا ينكر كحلقة، وهو الحسن وقد أصلح الله [به] بين فئتين، ولا لفعله وهو الجميل، إذا عمَّر الجمعتَين، قام بالصلح بين الجانبين، وتكفل برضا المتخاصمين، وأحسن كل الإحسان، وأراد الإحسان بين اثنين، فعم كل إنسان، وذلك بعد تمادى

مدد لم تضع فيها الحرب أوزارها، ولا أطفأت السيوف أُوارها، ولا باتت فيها خيل تعثر على مرابط، ولا ليل ليس فيه لسرى الغارات خابط عدد سنين شيَّبت الأطفال، وسبيت بالأجفال، وقطعت الأطراف، وهتمت الثغور، وأغلقت المعاقل، وأخافت الرعايا، وأنابت على الوجل، وبتَّتْ حبال الأمل، دعته إليها نية صالحة، وسريرة صحيحة وهمَّة قادرة، وحزمة حاضرة، وفكرة في عواقب الأمور ناظرة، وبذل فيها ذخائر الأموال، ونفائس الجواهر، وسعى لها سعيها، وبذل لها فوق الجهد حتى استمرَّ مريرها، واستقر لا بغير تقديرها، فهذا الوساد وهُدَّ ولله الحمد الفساد.

حكى لي الخواجا الكبير السفير مجد الدين إسماعيل السلامي، أن دمشق خواجا بن جوبان وهدنا في تلك الدولة... والأكابر كلَّهم منهما وأشرف الملوك من تقبل قدمهما، كان قد برأ منه من نزق الشبيبة ما فيه يبغض بالوزير علي شاه، فبلغ ذلك أباه جوبان ـ وحرمته في زمانه تقارب حرمة جنكز خان ـ فعظم عليه ما فعله دمشق خواجا ابنه، وضاق به ذرعاً لما عنده من عظيم حرمة الوزارة فأخذ ابنه، وركبا إلى رطاق / ١٤٩/ الوزير، فخرج إليهما، وتلقَّاهما، فاحلف جوبان أنه لا يجلس إلاَّ بين يديه، ثم أخذ يعتذر لابنه، ويسأله الصفح والعفو.

فلما انصرفا لام ابنه، وقال له: أنت مجنون بلا عقل، ما تعرف المقادير؟ من نحن حتى نتجرأ على الوزير؟.

ومنهم:

[٧٥]

محمد بن خواجا رشيد[١]

فقام بأمر السلطان، وأشبه الملك، فعوذ من الشيطان، وساس البلاد فعمر الأوطان، وأفاض الكرم حتى ضرب الناس بأعطان، بلغ ما لم يبلغه وزير، ولا يسوغه إلاَّ من هو للمؤمنين أمير. قاد الجيوش وليس غير الرماح أسطان، ومدَّ الأسباب وليس

(١) محمد ابن الوزير المشير رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير بن علي الهمدانيّ، وزير الممالك المشرقية، خواجه غياث الدين.
وُلد هذا في الإسلام، ولما نُكب والده وقُتل سَلِم هذا، واشتغل مدّة، وصحب أهل الخير. فلما تُوفي علي شاه الوزير طُلب أبو سعيد هذا وفوّض إليه الوزارة ومكّنه وردّ إليه مقاليد سائر الأمور، وحصل له من الارتقاء والمُلْك ما لم يبلغه وزير في هذه الأزمان، فكانت رتبته من نوع رتبة نظام المُلك في وقته. =

غير النهار خيطان. ولي والسلطان أبو سعيد في غفلات لهوه، وغلبات زهوه، فاستقلّ بالأمور، واستقبل سرور أيامه الجمهور، فحفظ الممالك وساسها، وحطّم الأعداء وداسها، وحمى الأطراف، ورمى بكل شراره كالطراف، والسلطان أبو سعيد تحت قفل عناقه، وبين خاتونه وأنياقه، مكباً على الذماء، ومنصباً إلى ما يصبُّ الزق له من الدماء، لا ينطق لديه إلاَّ نايٌ ووتر، ولا يسبق رأي إلاَّ إلى وطر، واتفق له خلو الدست من جوبان وبنيه، وهم السلعة التي كانت تتحامى، والسهام التي كانت تترامى، فسرح في سوام الملك، ورتع وامتدّ له طالع النهار، ومنع وكان هو السلطان، والمسمّى أبا سعيد، والخليفة، وإن لم يكن ابن زبيدة، فإنه ابن الرشيد، وتجاوز قدره أمر الألوس، وشمخ، وانحطت رؤوس، وسارت وراءه العساكر، وحمد آراءه الشاكر، وكان ممن قرأ العلم، ووقرَّ بالحلم، ورقى وهو لا يفكر في سلم إلاَّ لحرب، ولا في حرب إلاَّ لسلم، أو الداخل إلى الأندلس لمّا رضي عن ذلك الجانب بما قسم، والمعصوم المتميِّز بأصحابه العشرة إلى الجبل، لحصل الإجماع على أنه عصم، بل لو كان حصل لأخي بني سهم لأصاب من بالعراق ورامية بذي سَلَم، أو صاحب الرُّبى، لبلغ مرامه، ولم يخدع له في غير سه[1] سمسم، وقطع المدَّة مع ملوك جانبنا على المداهنة، ودفع بالمواعيد عن الساعة الراهنة.

ثم لم يزدد بعد موت سلطانه، إذ ملك أرتاكاون إلاَّ تسلّكاً ولا قبض يده إلاَّ متبسِّطاً، ولا أرهب إلاَّ بالسَّيف، لا بالسطا، ولا طلب أمراً فأغلق دونه بابه، ولا قيدت له خطى.

= وكان من أجمل الناس صورة، وأمّه تركيّة، وله عقل ودهاء وغور، مع ديانة، وحُسن إسلام، وكرم، وسؤدد، وخبرة بالأمور.
كان خيراً من أبيه بكثير. له آثار جميلة. خرَّب كنائس بغداد، وردَّ أمر المواريث إلى مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وغيره. وفي الجملة له ذنوب ومع هذا فهو خير وزراء وقتنا.
وكان إليه تولية نوّاب الممالك وعزلهم، ولا يخالفه القان في شيء أبداً. فلما احتضر القان أبو سعيد نهض الوزير غياث الدين محمد وعمد إلى شاب من بقايا النسل الطاهر يقال له أرباخان فسَلْطَنه، وأخذ له البيعة على الأمراء واستوثق أمره، فخرج عليهم علي باشا وابن بيدو فانفلّ الجمع وقُتل أرباخان والوزير غياث الدين في رمضان ٧٣٦هـ.
ترجمته في: دول الإسلام ٢/ ٢٤٣، ذيل العبر ١٩٣، نثر الجمان ٣/ورقة ٥٦أ، التاريخ الغياثي ٦٥، ٦٧-٧١، أعيان العصر ٥/ ٥٨-٦٠ رقم ١٧١٥، الوافي بالوفيات ٤/ ٢٢٩، ٩٤/ ١٣٥، «تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ) ص٣١٨ رقم ٩٦٥».

(١) كذا في الأصول.

/ ١٥٠/ ثم يكن بأعجل مما دهي، وضربت عنقه وهو غافل يلتهي، ولد في الإسلام، ولما نكب والده وقتل، سلم هذا واشتغل مدة، وصحب أهل الخير فلما توفي علي شاه الوزير، طلب أبو سعيد محمداً هذا، وفوَّض إليه الوزارة، ومكنه، وردَّ إليه مقاليد سائر الأمور، وحصل له من الارتقاء والملك ما لم يبلغه وزير في هذه الأزمان.

وكانت رتبته من نوع رتبة نظام الملك في وقته، وكان يتصرف في أمر اليوسفي تصرُّف القان، يقرِّب منهم إلى الأرد من شاء. ولا يترك رسول إلاَّ ببابه، ولا ثياب بثوابه، ولا يرد إلاَّ بكتابه، ولا يصدر إلاَّ بجوابه.

وكان من أجمل الناس صورة، وأمه تركية، وله عقل، ودهاء، وغور، مع ديانة، وحسن إسلام، وكرم، وسؤدد، وخبرة بالأمور، وله آثار جميلة، خرَّب كنائس بغداد، وردَّ أمراء المواريث إلى مذهب أبي حنيفة وغيره.

وفي الجملة له ذنوب، ومع هذا فهو خير وزراء وقتنا وكان إليه تولية نواب الممالك وعزلهم، ولا يخالفه القان في شيء أبداً.

ولما احتضر القان أبو سعيد، نهض الوزير محمد إلى شاب من بقايا النسل يقال له أرماخان فسلطنه، وأخذ له البيعة على الأمراء، واستوسق أمره، فخرج عليهم... وقاتل الجميع، وقتل أرماخان والوزير في رمضان سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

وأما من نذكره من وزراء الدولة التركية بالشام، فمنهم:

* * *

[وزراء الدولة التركية في الشام]

[٧٦]

ابن مَطرُوح[1]

أبو الحسين، يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين جمال الدين.

وزير حلَّ من الدولة محل العقود من الترائب، والعهود من السحائب حتى صار ذكره مسكاً في فم كل ناطق، وملكاً لا يسمح به لكل المناطق.

ولد بالصعيد ونشأ، وصاح الفريد، وأنشأ، واعتنى بالأدب حتى اقتاد وافره،

---

(١) ابن مَطرُوح، يحيى بن عيسى بن إبراهيم، جمال الدين: شاعر أديب مصري، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م. خدم الملك الصالح أيوب، وتنقل معه في البلاد، فأقامه الصالح ناظراً على الخزانة بمصر سنة ٦٣٩ ثم نقله إلى دمشق. واستمر في الأعمال السلطانية إلى أن مات الملك الصالح، فعاد إلى مصر. وأعرض عنه خلفاء الصالح، فأقام مخمولاً ـ كما يقول سبط ابن الجوزي ـ إلى أن مات. له «ديوان شعر ـ ط».

ترجمته في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٨ـ ٧٨٩ وفيه وفاته سنة ٦٥٥هـ، وقلائد الجمان لابن الشعار ١٠/ ١٣ـ ٣٢ رقم ٩٢٦، وذيل الروضتين ١٨٧ في وفيات سنة ٦٥٠هـ، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٨ـ٢٦٦ رقم ٨١١، وصلة التكملة للحسيني، ورقة ٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣١، والمشتبه ١/ ١١٧، ٢/ ٤٨١، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ٣٩٨ـ٣٠٢، والعبر ٥/ ٢٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٧٣ـ ٢٧٤ رقم ١٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٧ـ ١٨٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٢ (في المتوفين سنة ٦٥٠هـ)، ومرآة الجنان ٤/ ١١٩ـ ١٢٠، والدرّة الزكية ٢٠ـ ٢١، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٨٢، وعقد الجمان (المطبوع) ١/ ٥٩ـ٦٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٥٤ـ٦١، والعسجد المسبوك ٢/ ٨٥٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٤ (في حوادث سنة ٦٤٩هـ) و٧/ ٢٧ (في حوادث ووفيات سنة ٦٥٠هـ)، وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧ رقم ٤٨ وفيه وفاته سنة ٦٥٤هـ، وهو غلط، وثمرات الأوراق لابن حجّة الحموي ١٥، وتاريخ ابن سباط (بتحقيق التدمري) ١/ ٣٦١، وإنسان العيون لابن أبي عُذيبه، ورقة ٣٩٤، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤٧ـ٢٤٨، وكشف الظنون ٧٦٨، وديون الإسلام ٤/ ٢٨٨ رقم ٢٠٥٤، والأعلام ٨/ ١٦٢، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٤٠ـ٦٥٠هـ) ص٤٣٣ رقم ٥٨٣.

واجتلى سوافره، وراض حتى الضرغام الأسد، فما سنَّ أنيابه ولا حدَّ أظافره.

وكان هو وبهاء الدين زهير الكاتب رضيعي لبان، وخليعي عذار وعنان.

وكانا يتنازعان المعاني كؤوساً دهاقاً، ويتسارعان إلى المعالي فيها لحاقاً، وكانا رسة نصرهما، وشغل أهل /١٥١/ عصرهما، وشعرهما دوس أهل ذلك الزمان، ودور ما كانت تتعاطاه الندمان، وبينهما من المراجعات ما يكفل للعشيان بأن لا تهجع الزمان بمثله فآلى ألاَّ يرجع. خدم في الدواوين، يخلع وظيفة، ويلبس وظيفة، ويباشر رتبها خاضعة ومنيعة، واتصل بالخدمة الكاملية اتصالاً ظهر سعده في ابنه الصالح، وبهر مجده رماح الصائح، وولي وزارة الشام مدَّة كأنها أحلام نائم، أو أوقات لائم، إلى أن فطن الدهر، وقد كان عقل، وآب تصرفه، وكان قد قفل، فعزل وتعزلت الدنيا من أيامه الحسان، ورحل ومعه جملة الإحسان.

اتصل بخدمة الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بحال نيابته عن أبيه الكامل بالديار المصرية.

ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد الشرقية، فصار له آمد، وحصن كيفا، ومران، والرها، ورأس عين، وسروج، وما انضم إلى ذلك، سيَّر إليها ابنه الصالح نائباً عنه سنة تسع وعشرين وستمائة، وكان ابن مطروح ـ المذكور معه ولم يزل ينتقل في تلك البلاد إلى أن وصل الصالح إلى مصر مالكاً لها سنة سبع وثلاثين، ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة، فرتبه السلطان ناظراً في الخزانة.

ولم يزل يقرب منهن ويحظى عنده إلى أن ملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية سنة ثلاث وأربعين، ورتب لدمشق نائباً، فكان ابن مطروح في صورة وزير لها، وحسنت حاله، وارتفعت منزلته.

ثم إن الصالح توجه إلى دمشق، فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين، وجهز عسكراً إلى حمص، لاستنقاذها من نواب الناصر يوسف فسير ابن مطروح مع العسكر المتوجه إلى حمص، وأقام الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص، فبلغه أنَّ الفرنج اجتمعوا بجزيرة قبرص، عل قصد الديار المصرية، فسيَّر إلى عسكره المحاصرين بحمص، وأمرهم أن يتركوا ذلك القصد، ويعودوا، فعاد بالعسكر، وابن مطروح في الخدمة، والملك الصالح متغير عليه، متنكر له لأمور نقمها.

وطرق الفرنج البلاد سنة سبع وأربعين وملكوا دمياط وخيَّم الصالح بعسكره على المنصورة، وابن مطروح /١٥٢/ مواظب [على] الخدمة مع الإعراض عنه.

ثم مات الصالح في نصف شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة ووصل ابن مطروح إلى مصر وأقام بداره إلى أن مات ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة.

ومولده يوم الاثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكانت أدواته جميلة، وخلاله حميدة، جمع بين الفضل والمروءة، والأخلاق الرضية.

وله ديوان شعر، فمن مختار شعره قوله من قصيدة يمدح بها الإمام المستنصر بالله أبا جعفر أمير المؤمنين[1]: [من الكامل]

شَرَفاً بَنِي العَبَّاسِ، ما أبْقَيْتُمُ فَخْراً لِمُفْتَخِرٍ بِهِ يتَبَجَّحُ
لَكُمُ المَقَامُ وَيَثْرِبٌ دُونَ الوَرَى إرْثٌ، وَمَكَّةُ والصَّفَا والأبْطَحُ
أوَ لَيْسَ جَدُّكُمُ الذي اسْتَسْقَى بِهِ عُمَرٌ؟ فَجادَ لَهُ الغَمامُ الدُّلَّحُ
لا يَدَّعِي هذي المَنَاقِبَ مُدَّعٍ فالبَيْتُ أمْلَكُ، والسَّجِيَّةُ أسْجَحُ
فَوْقَ السَّماءِ خِيَامُهُمْ مَضْرُوبَةٌ فَلِخَيْلِهِمْ مَسْرًى هُنَاكَ ومَسْرَحُ
حيثُ النُّجُومُ تُعَدُّ مِنْ حَصْبَائِهَا والبَرْقُ مِنْهَا بالسَّنابِكِ يُقْدَحُ
أخلِيْفَةَ اللهِ الرِّضَا هَلْ لي إلى بُحْبُوحَةِ الفِرْدَوْسِ بَابٌ يُفْتَحُ؟
حَتَّى أطُوفَ بِذَلِكَ الحَرَمِ الذي مَا فَازَ إلاَّ مَنْ بِهِ يَتَمَسَّحُ
وأقومَ أنْشُدُ ما يَكادُ مُبَالِغٌ إنْ لَمْ يَطِرْ طَرَباً لَهُ يَتَرَنَّحُ
هذا الذي نَزَلَ الكِتَابُ بِمَدْحِهِ فَبِأيِّ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ يُمْدَحُ؟!
هذا هو المُلْكُ الذي لا يَنْبَغِي لِسِوَاكَ والشَّرَفُ الذي لا يُرْجَحُ
لا دَرَّ درِّي إنْ وَنَتْ بِيَ هِمَّةٌ عَن قَصْدِ دَارٍ ظِلُّهَا لا يَمْصَحُ
وإلى أميرِ المؤمنينَ رَفَعْتُها عَذْرَاءَ تَنْفِرُ مِن سِوَاهُ وتَجْمَحُ
مَحْجُوبَةٌ وَحَدِيْثُهَا بَيْنَ الوَرَى إنَّ الإناءَ بِمَا وَعَاه يَنْضَحُ
تَسْرِي الكَواكِبُ طَالِبَاتٍ شأْوَهَا وتَبِيْتُ في نَهْرِ المَجَرَّةِ تَسْبَحُ
حَتَّى وَصَلْتُ بِها سُرادِقَ أبْلَجٍ مِن وَجْهِهِ سِرُّ النُّبُوَّةِ يُلْمَحُ
مَنْ مُبْلِغٌ قَوْماً بِمِصْرَ تَرَكْتُهُمْ فرداً، وأعْيُنُهُم لِعَوْدِيَ تَطْمَحُ
ما نِلْتُ مِنْ شَرَفٍ ومَجْدٍ باذخٍ وَعُلاَلَها وَفَوْقَ الكَواكِبِ مَطْرَحُ
/١٥٣/ فِبِذَلِكَ الشَّرَفِ الذي أُوْتِيْتُهُ وَبِحُسْنِ مُنْقَلَبِي إذنْ فَلْيَفْرَحُوا

---

(١) في قصيدة قوامها ٥٥ بيتاً في شعره ٢٧٨ـ٢٨١، وديوانه ١٠٧ـ١١٣.

إنِّي لأرْبَحُ مَتْجَراً مِنْ مَعْشَرٍ	أضَحَتْ بَضَائِعُهُمْ تُذالُ وتُطْرَحُ
جَلَبُوا الذي يَفْنَى وَيَنْفَدُ عاجِلاً	وَطَلَبْتُ ما يَبْقَى، فَمَنْ هُو أرْبَحُ؟
اللهُ حَسْبُكَ يا بْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ	فَلِسِمْطِ مَدْحِكَ ذِي اللآلىءُ تَصْلُحُ
لا ثُلَّ عَرْشُ خِلافَةٍ مُذْ حُطْتَها	قَرَأَتْ على أعْدائِها لَنْ تُفْلِحُوا
إنَّ الخِلافَةَ لَمْ تَكُنْ إلاَّ لَكُمْ	مِنْ آدم وَهَلُمَّ جَرًّا تَصْلُحُ

وقوله يمدحه من أخرى[1]: [من مجزوء الكامل]

عَذَلُوا عَلَيْكَ فَأكْثَرُوا	لَوْ أنَّني أتَأثَّرُ
وتَحَيَّرُوا حَتَّى رأوْ	كَ، فَمُذْ رَأوكَ تَحَيَّرُوا
بُهِتُوا لِحُسْنِكَ وَانْثَنَى	مَنْ كانَ يَعْذِلُ يَعْذِرُ
قُلْ لِلْعَوَاذِلِ طَوِّلُوا	إن شِئْتُمُ أو قَصِّرُوا
لا أنْتَهِي لا أنْثَنِي	لا أرْعَوِي، لا أصْبِرُ
قَالُوا وَقَدْ نَظَرُوكَ بَعْـ	ـدَ الشَّمْسِ هَذَا أكْبَرُ
أغْنَيْتَنِي وَسَبَيْتَنِي	فَأنَا المُقِلُّ المُكْثِرُ
يَا دَهْرُ لا تَمْدُدْ إلَيَّ	يَداً فَبَاعُكَ أقْصَرُ
اللهُ لِي مِنْ كُلِّ مَا	أخْشَاهُ والمُسْتَنْصِرُ

وقوله يمدح الملك الكامل بن العادل من أبيات[2]: [من الكامل]

إنَّ المُلوكَ بأسرِهم خَوَلٌ لهُ	حاشَى أبِيهِ ـ كِلاهُما سِيَّانِ
صَانَ المَعَالِي حَيْثُ كانَ لها أباً	وكذا تكونُ حميةُ الغَيْرانِ

وقوله يمدح الملك الأشرف بن العادل من أبيات[3]: [من الكامل]

وَافَى وأقْبَلَ في الغِلالَةِ يَنْثَنِي	فأزَالَ حظَّ المُجْتَلِي والمُجْتَنِي
وَرَنَا فمَا تُغْنِي التَّمَائِمُ والرُّقَى	ـ وأبِيْكَ ـ مِن لَحَظَاتِ تِلْكَ الأعْيُنِ
قُلْ لِلْعَوَاذِلِ في هَوَاهُ ألا انْتَهُوا	لاَ أنْتَهِي لاَ أرْعَوِي لاَ أنْثَنِي
وَيَلِيَّتِي مِنْ صَائِدٍ لِي نَافِرٍ	وَمَتَى يُنَالُ الوَصْلُ مِنْ مُتَلَوِّنِ
عَهْدِي بِهِ وَيَدِي مَكَانَ وِشَاحِهِ	والوَجْدُ بَاقٍ والتَصَبُّرُ قَدْ فَنِي
وَشَدَا بِشِعْرِي فَافْتَتَنْتُ، وَيَالَهَا	مِنْ فِتْنَةٍ شَنْعَاءَ لَوْ لَمْ أُفْتَنِ

---

(١) من قصيدة قوامها ١٤ بيتاً في شعره ٣٦٨، وديوانه ١٥٢ـ١٥٣.

(٢) من قصيدة قوامها ٢٢ بيتاً في شعره ٢٨٢ـ٢٨٤، وديوانه ٢٣٨ـ٢٤٠.

(٣) من قصيدة قوامها ٣٥ بيتاً في شعره ٢٨٤ـ٢٨٧، وديوانه ٢٤١ـ٢٤٥.

شِعْرِي ومَحْبُوبِي يُغَنِّيْنِي بِهِ ... وَهُنَاكَ تَحْسُنُ صَبْوَةُ المُتَدَيِّنِ
لا شَيْءَ يُطْرِبُ سَامِعاً كَحَدِيْثِهِ ... إلاَّ الثَّنَاءُ عَلَى عُلا شَاه ارْمَنِ
الأشْرَفِ المَلِكِ الكَرِيْمِ المُجْتَبَى ... مُوسَى ويمّم بالكَرِيْم المُحسِنِ
مَلِكٌ إذا أنْفَقْتَ عُمْرَكَ كُلَّهُ ... في نَظْرَةٍ مِنْ وَجْهِهِ لَمْ تُغْبَنِ
/ ١٥٤/ وإذا انْتَخَبْتَ لهُ دُعاءً صالِحاً ... لَمْ تَلْقَ غَيْرَ مُشَارِكٍ وَمُؤَمِّنِ
يَا أيُّها المَلِكُ الذي مَنْ فاتَهُ ... نَظَرٌ إلَيْكَ فَمَا أرَاهُ بِمُؤمِنِ
أفْنَيْتَ خَيْلَكَ والصَّوارِمَ والقَنَا ... وَعِدَاكَ والأملاكَ ماذا تَقْتَنِي
أبْقَتْ لَكَ الذِّكْرَ الجَمِيْلَ مُخَلَّداً ... شِيَمٌ لَهَا الأمْلاكُ لَمْ تَتَفَطَّنِ
وَشَجَاعَةٌ رَجَفَ العِرَاقُ لِذكْرِهَا ... وتِهَامَةٌ وبِلادُ عَبْدِ المُؤمِنِ
ولّى الخَوارِزْمِيُّ مِنْهَا هارِبَاً ... وهلَمَّ جَرًّا قَلْبُه لِمْ يَسْكُنِ
ما كَانَ أشْوَقَنِي لِلَثْم بَنَانِهِ ... وَلَقَدْ ظَفِرْتُ بِلَثْمِهَا فَلْيَهْنِنِي
وَدَخَلْتُ مِنْ أبْوابِهِ فِي جَنَّةٍ ... يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بأنَّنِي
يَا مُكْثِرِي الدَّعْوَى احْفَظُوا أصْواتَكُمْ ... مَا كُلُّ رَافِعِ صَوْتِهِ بِمُؤَذِّنِ
أنَا مَنْ يُحَدِّثُ عَنْهُ فِي أقْطَارِهَا ... مَنْ كانَ فِي شَكٍّ بِه فَلْيُوقِنِ
مَلِكَ المُلوكِ إلَيْكَهَا مِنْ نَاظِمٍ ... مُتَرَسِّلٍ مُتَنَوِّعٍ مُتَفَنِّنِ
لا تُخْدَعَنَّ بِظَاهِرٍ عَنْ بَاطِنٍ ... قَد يُظْهِرُ الإنْسَانُ مَا لَمْ يُبْطِنِ
عاشَت عِدَاكَ ـ وَلا أشِحُّ عَلَيْهِمُ ... عُمْيَ النَّواظِرِ عَنْكَ خُرْسَ الألْسُنِ

وقوله من أخرى يمدح الملك المسعود بن الكامل من أبيات[1]: [من الطويل]

وإنِّي علَى ما فِيَّ مِنْ حَضَرِيَّةٍ ... لَيُعجِبُنِي ظِلُّ الخِبَاءِ المُشَرَّعِ
ومَا أنِسَ لاَ أنْسَ المَلِيْحةَ إذ بَدَتْ ... دُجًى فَأضاءَ الأفْقِ مِنْ كُلِّ مَوْضِعِ
فَمَا شَكَّ طَرْفِي أنَّها الشَّمْسُ أشْرَقَتْ ... وَلا أنَّنِي أُوتِيْتُ آيَةَ يُوشَعِ
تَمَنَّيْتُ مِنْها قُبْلَةً فَتَمَنَّعَتْ ... وجَادَتْ بِوَصْلٍ بَعْدَ طُولِ تَمَنُّعِ
وَعَانَقْتُهَا حَتَى تَنَاثَرَ عِقْدُهَا ... وَلَو رَضِيَتْ قَلَّدتُّهَا دُرَّ أدْمُعِي
وقَالَتْ وَعَقْدُ القَافِ مِنْهَا سَجِيَّةٌ: ... أقِمْ عِنْدَنَا مَا شِئْتَ غَيْرَ مُرَوَّعِ
وَوَاللهِ إمَّا أن يكُون كلامُهَا ... مِنَ السِّحْرِ، أوْ فَالسَّحْرُ خَامَرَ مَسْمَعِي

وقوله في ختان الغيث بن العادل من قصيدة[2]: [من الوافر]

(١) من قصيدة قوامها ١٦ بيتاً في شعره ٢٩٠ـ ٢٩١، وديوانه ١٧٥ـ١٧٧.
(٢) من قصيدة قوامها ١٠ أبيات في شعره ٢٩٢، وديوانه ٢٤٨ـ ٢٤٩.

فَـلَـولاَ أنَّـهُ فَـرْضٌ عَـلَـيْـنَـا … لَـمَـا مُـدَّتْ لِـخَـاتِـنِـهِ يَـدَانِ
فَـقَـطُّ الـشَّـمْـعِ يُـكْـسِـبُـهُ ضِـيَـاءً … وَقَـصُّ الـظُّـفْـرِ أطْـوَلُ لِـلْـبَـنَـانِ

وقوله يمدح الناصر بن يوسف بن العزيز بن ظاهر عند مسيره / ١٥٥/ إلى حلب سنة ثلاث وأربعين وستمائة[١]: [من الرمل]

لاَ وَعَـيْـنَـيْـكَ وَيَـكْـفِـي ذَا الـقَـسَـمْ … مَـا رَأتْ عَـيْـنَـايَ نَـومَـاً مـنْـذُ كَـمْ
أيُّـهَـا الـرَّاقِـدُ فـي لَـذَّاتِـهِ … نَـمْ هَـنِـيْـئَـاً إنَّ عَـيْـنِـي لَـم تَـنَـمْ
وَيْـحَ قَـلْـبِـي مِـنْ هَـوَى مُـسْـتَـهْـتِـرٍ … مَـا رَأى جـفـنَـاً بَـكَـى إلاَّ ابْـتَـسَـمْ
قَـمَـرٌ تَـمَّ عَـلَـى عُـشَّـاقِـه … كُـلُّ نـقـصٍ مـنْـهُ لـمـا قـيـلَ تَـمّ
أشـتـكـي سُـقْـمِـي إلـى أجـفـانـه … وَمَـتَـى يُـشْـفَـى سِـقَـامٌ بِـسَـقَـمْ
بَـدَوِيُّ الـزِّيِّ إلاَّ أنَّـهُ … لا يَـخَـافُ الـعَـارَ فـي نَـقْـضِ الـذِّمَـمْ
ربَّـمَـا هَـمَّ بِـلَـثْـمِـي هَـازِئَـاً … فـإذا مَـا سُـمْـتُـهُ الـلَّـثْـمَ الْـتَـثَـمْ
لا تَـرَاهُ نَـاسِـيَـاً لَـفْـظَـةَ لاَ … كَـصَـلاَحِ الـدِّيْـنِ لاَ يَـنْـسَـى نَـعَـمْ
عَـجَـبِـي مِـنْ قَـلَـم فـي كَـفِّـهِ … لَـيْـسَ يَـمْـضِـي الـسَّـيْـفُ إلاَّ إنْ رَسَـمْ
أنْـتُـمْ مِـنْ مَـعْـشَـرٍ ذِكْـرُ الـنَّـدَى … عِـنْـدَهُـمْ حَـتَّـى وإنْ كَـانُـوا رِمَـمْ
هُـمْ جِـبَـالُ الـحِـلْـم إنْ أغْـضَـبْـتَـهُـمْ … فَـإذَا اسْـتَـجْـدَيْـتَـهُـمْ كَـانُـوا دِيَـمْ
كُـلَّـمَـا مَـدَّ كَـرِيْـمٌ رَاحَـةَ … أخَّـرَتْـهَـا لِـلْـعُـلاَ مِـنْـكُـمْ قَـدَمْ
مَـنْ يَـرُدُّ الـغَـيْـثَ إنْ قِـيْـلَ هَـمَـى … مَـن يَـصُـدُّ الـلَّـيْـثَ إنْ قِـيْـلَ هَـجَـمْ
مَـلِـكَ الـعِـلْـمَ تَـرَاهُ أبَـدَاً … نَـاشِـرَاً مِـنْ عِـلْـمِـهِ أعْـلَـى عَـلَـمْ
حَـارَتِ الأفْـكَـارُ فِـي وَصْـفِ فَـتًـى … عَـلَـوِيِّ الـعِـلْـمِ عُـلْـوِيِّ الـهِـمَـمْ
حَـاوِلُـوا الـقِـسْـمَـةَ فِـي أمْـوَالِـهِ … وَدَعَـوا عَـلْـيَـاهُ لَـيْـسَـتْ تُـقْـتَـسَـمْ
يَـا وَزِيْـرَ الـدَّسْـتِ خُـذْهَـا جُـمْـلَـةً … فَـإذَا مَـا فُـصِّـلَـتْ كَـانَـتْ حُـلَـمْ
وَابْـقَ لِـلْـسُـؤْدَدِ سُـوراً لاَ وَهَـى … وَسِـوَاراً لِـلْـمَـعَـالِـي لاَ انْـفَـصَـمْ

وقوله من أخرى يمدح المظفر تقي الدين ويهنئة بمملكة حماه[٢]: [من الطويل]

سَـلاَ خَـاطِـرِي عَـن زَيْـنَـبٍ وَنَـوَارِ … مُـوَرَّدُ خَـدّ فَـوْقَ آسِ عِـذَارِ
وَأَصْـبَـحْـتُ بـالـظَّـبْـيِ الـمُـمَـنْـطَـقِ مُـغْـرَمَـاً … وَلاَ رَأيَ لِـي فِـي عِـشْـقِ ذَاتِ سِـوَارِ
وإنِّـي عَـلَـى حُـبِّ الـعِـذَارِ وَوَصْـفِـهِ … أعِـفُّ، وَإنْ قَـالُـوا: خَـلِـيْـعُ عِـذَارِ

(١) منها ١٠ أبيات في شعره ٢٨١ـ٢٨٢، وديوانه ٢١٤ـ٢١٥.
(٢) من قصيدة قوامها ٢١ بيتاً في شعره ٣٤٦ـ٣٤٨، وديوانه ١٥٥ـ١٥٨.

سَكِرْتُ بِكَأسٍ مِنْ بَدِيْعِ جَمَالِهِ وَمَا حُبُّ كَأْسٍ بِالجَّمَالِ بِعَارِ
/١٥٦/ وَعَهْدِي بِهِ يَجْلُو المُدَامَةَ بَيْنَنَا وَيَجْلُو الدُّجَى عَنَّا بِشَمْسِ عُقَارِ
سَقَى وَجْنَتَيْهِ الحُسْنُ والدَّمْعُ وَجْنَتِي فَيَا وَرْدَتَيْهِ رَحْمَةً لِبَهَارِي
وقَد خَيَّرَ السَّبْعُ الدَّرارِي بِحُسْنِهِ فَمَا هِيَ إلاَّ في هَوَاهُ جِوارِي
وَيَا عَاذِلِي فِي هَجْرِ هِنْدٍ وَزَيْنَبٍ وقَدْ لاَحَ عُذْرِي كَالصَّبَاحِ لِسَارِي
أتَرْضَى بأنْ أُمْسِي أسِيْرَ أسِيرَةٍ مُحَصَّنَةٍ أو مِنْ وَرَاءِ جِدَارِ
وما فَضْلُ رَبِّ الطَّيْلَسَانِ إذا غَدَا يَجُوزُ عَلَيْهِ حُكْمُ ذَاتِ خِمَارِ
... لاَ سُيُوف جُفُونِهِ وَلاَ جَفَتْ مستمتع بِغِرَارِ
وَتُغْضِي لَه الأبْصَارُ ثَمَّ مَهَابَةً فَتَلْقَاهُ وَهْوَ الطَّاهِرُ المِسْوَارِي

وقوله عندما أراه الدار التي بناها بقلعة، وكتبها على بعض نواحيها : [من مجزوء الكامل]

يَا دَارُ بِالمَلِكِ المُظَفَّرِ خَيَّمَتْ فِيْكِ السعادَهْ
مَلِكٌ غَدتْ في كُلِّ جِيْـ ـدٍ مِنْ صَنَائِعِهِ قِلادَهْ
الفَضْلُ طَبْعٌ والسَّمَا حُ ورَاثَةٌ وَالخَيْرُ عَادَهْ
شَرَفٌ لَعَمْرُ أبِيْكَ مَا فِيْهِ احتِمَالٌ لِلزِيَادَهْ

وقوله في الطواشي، صواب، عندما أرسله إليه الكامل وهو بحرَّان[١] : [من الطويل]

ولَمَّا تَيَمَّمْنَاكَ قَالَ رِفَاقُنا : إلى أيْنَ تَبْغِي؟ قُلْتُ : خَيْرَ جَنَابِ
وَقُلْتُ لِصَحْبِي: شَرِّقُوا تَبْلُغُوا المُنَى فَغَيْرُ صَوَابٍ قَصْدُ غَيْرِ صَوَابِ

وقوله يمدح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٢] : [من الكامل]

هِيَ رَامَةٌ فَخُذُوا يَمِيْنَ الوَادِي وَدَعُوا السُّيُوفَ تَقَرُّ في الأغْمَادِ
وَحَذَارِ مِنْ لَحَظَاتِ أعْيُنِ عِيْنِهِمْ فَلَكَمْ صَرَعْنَ بِهَا مِنَ الآسَادِ
مَنْ كَانَ مِنْكُمْ وَاثِقاً بِفُؤَادِهِ فَهُنَاكَ مَا أنَا وَاثِقٌ بِفُؤَادِي
وأغَنّ مِسْكِيِّ اللَّمَى مَعْسُولَةُ لَوْلا الرَّقِيْبُ بَلَغْتُ مِنْهُ مُرَادِي
ومِنَ المُنَى لَوْ دَامَ لِي فِيْهِ الضَّنَى لِيَرِقَّ لِي فأرَاهُ مِنْ عُوَّادِي
وَمُفَنِّدٍ لِي في هَوَاهُ ومَسْمَعِي وَالعَذْلُ فيهِ كَنَاظِرِي ورُقَادِي

---

(١) البيتان في شعره ٢٩٩، وديوانه ٩٥.
(٢) من قصيدة قوامها ٧٣ بيتاً في شعره ٣٠٢ـ٣٠٦، وديوانه ١٢١ـ١٣٠.

مَاتَتْ - يُطِيْلُ اللهُ عُمْرَكَ - سَلْوَتِي ... يَا عَاذِلِي فِيْهِ وَضَلَّ رَشَادِي
/١٥٧/ أَصْبَحْتُ مَا لِي في الصَّبَابَةِ مُشْبِهٌ ... وَكَذَاكَ فَخْرُ الدِّيْنِ في الأَجْوَادِ
مَلِكٌ تَمَلَّكَ بالشَّجَاعَةِ والنَّدَى ... قَلْبَ الخَمِيْسِ مَعاً وَصَدْرَ النَّادِي
لا آلُ بَرْمَكَ إنْ جَرَى ذِكْرُ النَّدَى ... بَلَغُوا مَدَاهُ، ولا بَنُو عَبَّادِ
مِنْ مَعْشَرٍ يَرْوِي العِدَا خَيْرَ العُلاَ ... عَنْهُمْ وَيُسْنِدُهُ إلى الحُسَّادِ
أَطْوَادُ أَحْلاَمٍ، غُيُوثُ مَوَاهِبٍ ... أَقْمَارُ أَنْدِيَةٍ، لُيُوثُ جِلادِ
مَيَّزْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ خَيْرَ الوَرَى ... والتِّبْرُ لا يَخْفَى على النُّقَّادِ
يَا دَهْرُ لا تَمْدُدْ لِظُلْمِيَ بَعْدَهَا ... كَفَّاً، فَمَا لَكَ طَاقَةٌ بِعِنَادِي
أَنَا فِي حِمَايَةِ وَاحِدٍ لَكِنَّهُ ... وَأَبِيْكَ - أَغْنَانِي عَنِ الأَعْدَادِ
بِقُدُومِهِ قَدِمَ السُّرُور كَأَنَّمَا ... كَانَا - فَلاَ افْتَرَقَا - عَلَى مِيْعَادِ
واسْتَبْشَرَتْ مِصْرٌ وَمَنْ فِيْهَا بِهِ ... بُشْرَى الثَّرَى بِحَيَا السَّحَابِ الغَادِي

وقوله يمدحه من أخرى[(١)]: [من الطويل]

أَخَنْسَاءُ مَا قَلْبُ المُتَيَّمِ مِن صَخْرٍ ... فَيَقْوَى عَلى حَمْلِ الصَّبَابَةِ والهَجْرِ
رُوَيْداً لِمُضْنًى فيْكِ، أَمَّا جُفُونُهُ ... فَغَرْقَى، وأَمَّا قَلْبُهُ فَعَلى الجَمْرِ
ومَاذَا الذِي يُجْدِي وسَالَمَكَ الرَّدَى ... عَلَيْكَ تِلاَفِي في هَوَاكِ وَمَا نَدْرِي
وَتَكْسِرُ لِي أَجْفَانَهَا عِنْدَ ضَمِّهَا ... فَتَجْبُرُنِي في ذَلِكَ الضَمِّ والكَسْرِ

وقوله يمدح الأمير مجد الدين إسماعيل اللمطي من قصيدة[(٢)]: [من الكامل]

لَمْ أَنْسَ مَا قَالَتْ وقَدْ لَمَسَتْ يَدِي: ... مَاذَا لَقِيْنَا مِنْهُ؟ أو مَاذَا لَقِي؟
خَافَتْ عَوَاقِبَ مِحْنَتِي من أَجْلِهَا ... فَبَكَتْ لِشَمْلِ دُمُوعِيَ المُتَفَرِّقِ
وَلَكَمْ بِهَا مِنْ خَلْوَةٍ لِيْ حُلْوَةٍ ... كَعِتَابِهَا كَرُضَابِهَا كَتَمَلُّقِي

وقوله في حمَّام عمرها عماد الدين بن شيخ الشيوخ[(٣)]: [من الكامل]

حَمَّامُ مَولاَنَا وسَيِّدِنَا ... شَيْخِ الشُّيُوخِ صَفَا لَهُ العُمُرُ
تَمَّتْ مَحَاسِنُهَا فَلَيْسَ بِهَا ... لِلْعَيْبِ لاَ عَيْنٌ وَلا أَثَرُ
تَزْهُو السَّمَاءُ بِأَنْ حَوَتْ قَمَراً ... وَبِكُلِّ نَاحِيَةٍ بِهَا قَمَرُ
قَالُوا: فَصِفْهَا، قُلْتُ مُخْتَصِراً ... هِيَ جَنَّةٌ، وسِرَاجُهَا عُمَرُ

(١) من قصيدة قوامها ٢٠ بيتاً في شعره ٣٢٤-٣٢٥، وديوانه ١٥٨-١٦١.
(٢) من قصيدة قوامها ٣٢ بيتاً في شعره ٣٢٦- ٣٢٨، وديوانه ١٨٦- ١٨٨.
(٣) القطعة في شعره ٣١٢، وديوانه ١٥٤.

وقوله ارتجالاً يهنىء أولاد الشيخ ليلة العيد: [من الرمل]

آلَ حَمْوَيْهِ وما أنْصَفَكُمْ مَن يُهَنِّيْكُمْ بِشَهْرٍ أو بِعِيْدْ

/١٥٨/ إنَّما الدَّهرُ حَقِيْقَاً عبدُكُم والمَوالِي لا تُهنَّى بالعَبِيْدْ

وقوله حين صادف الصاحب معين الدين بن الشيخ عند قبر الإمام الشافعي[1]: [من الكامل]

للهِ أيُّ فَضِيْلَةٍ أدْرَكْتُهَا في خِدْمَةِ المَوْلَى الوَزِيْرُ النَّاسِكِ

عِندَ الإمَامِ الشَّافِعيِّ وجَدْتُهُ فَظَفِرْتَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِمَالِكِي

وكتب إلى صديق أهدى له كساء: [من مجزوء الكامل]

مَولايَ عبدُكَ واثقٌ بِكَرِيم ودِّكَ والإخاء

فَلِذَاكَ أرْسَلَ مَا يلِيـ ـقُ مَنَ الهَدِيةِ في الشِّتاء

أنتَ الخليلُ حقيقةً فَجَمَعْتَ شَمْلَكَ بِالكِسَاء

وقال يشكر بعض الأمراء وقد أحسنَ إلى أهله في غيبته، ولم يمكنه الاجتماع عند حضوره: [من المنسرح]

يا مَن أيَادِيْهِ قبلَ رُؤْيَتِهِ رَاشَتْ جَناحِيْ وَطَوَّقَتْ عُنُقِي

مَا امْتَنَعَ العَبْدُ أنْ يَزُورَكُمُ لِكبرياءٍ فيهِ وَلا حَمَقِ

لكِنْ لِفَرْطِ السَّمَاحِ عندَكُمُ ألْبَسَنِي جُمْلَةً مِنَ الفرقِ

وَمَنْ يَرَ السَّيْلَ ثمَّ يَزْحَمُهُ فَاحْكُمْ عَلَيْهِ بسُرْعَةِ الغَرَقِ

وقال ارتجالاً في مرض القاضي الأشرف بن الفاضل: [من مجزوء الرمل]

لَيتَني كُنتُ فِداءً لِفَتَى عَبْدِ الرَّحِيْمِ

ذِي المَعَالِي والمَعَانِي والكريم ابنِ الكريمِ

وَلَئِنْ أضْحَى عَلِيلاً فَاسْتَمِعْ قولَ عَلِيمِ

دارُهُ الرَّوضةُ حُسنَاً وهوَ فيها كالنَّسِيْمِ

وكتب إلى من زاره فاحتجبَ عنه[2]: [من مجزوء الكامل]

لا غَرْوَ أنْ حُجِبَ الأمِيْـ ـرُ وَوَجْهُهُ بَدْرُ التَّمَامِ

فالبَدْرُ مِنْ عَادَاتِهِ أنْ يَخْتَفِي تَحْتَ الغَمَامِ

فَلْيَهْنِهِ إنْ كانَ قَدْ رَقَّتْ لَهُ شَمسُ المُدَامِ

(١) من قطعة قوامها ٣ أبيات في شعره ٣١٤، وديوانه ١٩٥.

(٢) القطعة في شعره ٣١٥، وديوانه ٢٢٧.

وَلْـيَـبْـقَ مَـحْـرُوسَ الـمِـزَا ... جِ مَـعـاً ومَـحْـرُوسَ الـنِّـظَـامِ

وقال يشكر البهاء زهير[١]: [من الوافر]

أقُولُ [وقَدْ تَوالَى مِنْكَ بِرٌّ] ... وَأهْلاً مَا بَرِحْتَ لِكُلِّ خَيْرِ
ألا لا تَذْكُرُوا هَرِمَاً بِجُودٍ ... فَمَا هَرِمٌ بِأكْرَمَ مِنْ زُهَيْرِ

وكتب إليه يستهديه ورقاً[٢]: [من المنسرح]

أفْلَسْتُ يا سَيِّدي مِنَ الوَرَقِ ... فابْعَثْ بِدُرْجٍ كَعِرْضِكَ اليَقَقِ
/١٥٩/ وإن أتَى بالمدَادِ مُقْتَرِناً ... فَمَرْحَبَاً بالخُدُودِ والحَدَقِ

وكتب إليه في المعنى: [من المتقارب]

وَلَمْ أرَ أعْجَبَ مِنْ كَاتِبٍ ... يُشاحِحُ إخْوَانَهُ في الوَرَقْ
فارْسِلْ بِهِ كَبَيَاضِ الثَّغرِ على ... بِمِثْلِ سِوادِ الحَدَقْ

وكتب صدر كتاب إلى محرص الصالحي[٣]: [من البسيط]

أصْدَرْتُها وَالعَوالِي فِي الطُّلَى تَرِدُ ... في مَوْقِفٍ فِيْهِ يَنْسَى الوَالِدَ الوَلَدُ
ومَا نَسِيْتُكَ والأرْوَاحُ سَائِلَةٌ ... عَلَى السُيُوفِ ونارُ الحَرْبِ تَتَّقِدُ

وكتب[٤]: [من الطويل]

أبَاعِثُهَا مِلْءَ المَسَامِعِ حِكْمَةً ... قَوافِيَ تُجْلَى كالعَذَارَى العَرَائِسِ
شَوارِدَ عَنْ أوهامِ قَومٍ شَوَارِدٍ ... أوَانِسَ تُزْرِي بالحِسَانِ الأوانِسِ
مُهَذَّبَةً جَاءَتْ لَنَا مِنْ مُهَذَّبٍ ... تَذِلُّ لَه كُلُّ القَوافِي الشَّوَامِسِ
تَعِزُّ عَلَى مَن رَامَهَا غَيْر رَبِّهَا ... وَتَطغَى فَمَا تُعْطِي قِيَاداً لِلامِسِ
سُدَاسِيَّةً لَوْ قَالَ آتِي بِسَابِعٍ ... لَها ابنُ سُلَيْمَانٍ أتَى بَعْدَ خَامِسِ
وَلَوْ رَامَها حصنُ العريضِ وحابسٌ ... لَمَا ظَفِرَا إلاَّ بحصنٍ وحابسِ
وحَاوَلْتُ مِنْها الرَّاءَ والسِّيْنَ فاحْتَمَتْ ... عَلَيَّ بِحَامٍ ذِي اقتِدارٍ وحَارِسِ
حَمَيْتَ حِمَاهَا ثُمَّ أغْلَقْتَ بَابَهَا ... وَحَصَّنْتَ منها كُلَّ بَيْتٍ بِفَارِسِ

وكتب إليه بعد ذلك من أبيات: [من الوافر]

أتَانِي مِن عُلاكَ بَدِيْعُ نَظْمٍ ... كَسِمْطِ الدُّرِّ في حُسْنِ اتِّسَاقِ
بُيُوتٌ سِتَّةٌ شَرُفَتْ عَلاءً ... عَلَى السِّتِّ الجِهاتِ بِلا اخْتِلاقِ

---

(١) البيتان في شعره ٣١٨، وديوانه ١٦٥. (٢) البيتان في شعره ٣١٨، وديوانه ١٩١.
(٣) البيتان في شعره ٣٢١، وديوانه ١٢٠.
(٤) من قطعة قوامها ٧ أبيات في شعره ٣٢٢، وديوانه ١٦٩-١٧٠.

وَلَـوْ أنَّ الـسُّـلافَـةَ مَـازَجَـتْـهَـا حَـلَـتْ بَـعْـدَ الـمَـرَارَةِ فـي الـمَـذَاقِ
وَلَـوْ كَـانَـتْ حَـصُـوراً... ... مُـلازمَـةَ الـعِـنَـاقِ

وقال يهنىء بتشريف: [من الكامل]

بِكَ أصْبَحَ التَّشْرِيْفُ يَشْرُفُ قَدْرُهُ يَا مَن بِهِ كُلُّ الـمَلاَبِسِ تَشْرُفُ
كَالبَيْتِ يُكْسَى لا لِرَفْعِ مَزِيَّةٍ لـكِـنَّـهَـا سُـنَـنٌ وَرَسْـمٌ يُـعْـرَفُ

وقال: [من الوافر]

/١٦٠/ أرَى قَلْبِي يَطِيْرُ إلَيْكَ شَوْقَاً وَمـا أنَـا مِـنْ لِـقَـائِـكَ بِـالـبَـعِـيْـدِ
كَـذَاكَ الـعِـيْـسُ أكْـثَـرُ مَـا يَـرَاهَـا حَـوَائِـمَ حِـيْـنَ تَـدْنُـو لِـلْـوُرُوْدِ

وقال[1]: [من السريع]

يَـا يَـومَ عَـاشُـوراءَ قَـدْ هِـجْـتَ لِـيْ حُـزْنَـاً وَكَـم أفْـرَحْـتَ مِـنْ مُـلْـحِـدِ
كُـلُّ قَـلِـيْـلِ الـذِّهـنِ إنْ قُـدْتَـهُ بِـمُـحْـكَـمِ الأرْسَـانِ لَـمْ يَـنْـقَـدِ
يـأتِـيْـكَ كَـالـقَـيـنَـةِ مَـكْـحُـوْلَـةً عَـيْـنَـاهُ مَـخْـضُـوْبَ بَـنَـانِ الـيَـدِ
يَـا ابـنَ رَسُـولِ الـلـهِ مَـنْ سَـرَّهُ يَـومُـكَ فَـالـوَيْـلُ لَـهُ مِـن غَـدِ

وقال[2]: [من السريع]

قَـالُـوا الـرَّشِـيْـديُّ عَـلَـى مَـا بِـهِ مِـنْ أُبْـنَـةٍ رُتِّـبَ لـلـشَّـدِّ
فَـقُـلْـتُ مِـنْ أعْـجَـبِ شَـيءٍ جَـرَى غَـزْلُـكُـمُ لـلـسَّـيْـفِ بـالـغِـمْـدِ

وقال[3]: [من السريع]

لا شَـقِـيَـتْ دَارَاً ولا أهْـلُـهَـا ولا ابـنُ قَـاضِـيْـهَـا الـوقَـاحُ الـبَـذِي
ولا رَعَـى الـلـهُ لَـهُ ذِمَّـةً أعْـنِـي شِـهَـابَ الـدِّيْـنِ ذَاكَ الَّـذِي

وقال: [من مجزوء الرجز]

وَدَوْلَـةٍ خَـالِـيَـةٍ مِـن كُـلِّ فَـنٍّ أو أدَبْ
الـفَـاعِـلُ رأسُـهـا وهـو كَـمَـا تَـدْرِي ذَنَـبْ

وقال: [من مجزوء الكامل]

يَـا مَـنْ تَـعَـصَّـبَ لِـلـئَـا م وظَـلَّ بـالـكُـرَمَـاءِ يَـعْـبَـثْ
بـالله قُـلْ لِـيْ هَـلْ تَـعَـصَّـبَ فِـي الـرِّجَـالِ سِـوى مُـخَـنَّـثْ

---

(١) الأبيات ٢ـ ٤ من قطعة قوامها ٤ أبيات في شعره ٣٣٨ـ ٣٣٩.
(٢) البيتان في شعره ٣٣٩، وديوانه ١٣٨. (٣) البيتان في شعره ٣٣٩، وديوانه ١٤٤.

وقال: [من مجزوء الرمل]

دَخَـلَ الـشَّـيْـخُ فُـلاَنٌ فِـي الـدِّيْـنِ بِـمَـرَّهْ
وَتَـعَـاطَـى الـزُّهْـدَ جِـدّاً فَـكَـفَـانَـا الـلـهُ شَـرَّهْ

وقال: [من الوافر]

أَتَـعْـبَـثُ وعِـرْضُـكَ مِـنْ زُجَـاجٍ عَـذَرْتُـكَ إنَّ وَجْـهَـكَ مِـنْ حَـدِيْـدِ
وَلَـيْـسَ بِـمُـنْـكَـرٍ فِـعـلٌ قَـبِـيْـحٌ أَتَـى مِـنْ عِـنْـدِ شَـيْـطَـانٍ مَـرِيْـد

وقال في صباه يذكر الداودي رئيس اليهود: [من مجزوء الكامل]

أَآبَـاءَ الـبَـيَـانِ وَمَـا دَعَـاكَـا إلـى الـتَّـحَـكُّـكِ بـالأفَـاعِـي
سِـرْ فـي الـوِهَـادِ وَخَـلِّ قَـوْ مَـاً سَـيْـرُهُـمْ فَـوْقَ الـيَـفَـاعِ
لا يَـجْـفُـلُـونَ بِـنَـابِـحٍ مـا لِـلْـكِـلابِ وَلِـلـسِّـبَـاعِ
قَـسَـمَـاً لـئِـنْ أحْـوجْـتَـنِـي فَـلأبـسِـطَـنَّ يَـدِي وبَـاعِـي

وقال: [من الخفيف]

مَـا ٱعْـتِـكَـافُ الـفَـقِـيْـهِ مِـنْ فَـرْطِ زُهْـدٍ ... يَـقْـضِـي بِـهِ رَمَـضَـانُ
هُـوَ شَـهْـرٌ تُـغَـلُّ فِـيْـهِ الـشَّـيَـاطِـيْـنُ ولا شَـكّ أَنَّـهُ شَـيْـطَـانُ

/ ١٦١/ وقال: [من البسيط]

وَلَـيْـلَـةٍ بـسـمـنّـودٍ شَـقِـيْـتُ بِـهـا لا بَـارَكَ الله يَـومـاً فـي سَـمَـنُّـودِ
بَـاتَـتْ بَـراغِـيْـثُـها تَـغْـدُو عـلى جَـسَـدِي فَـلَـمْ تَـدَعْ فـيـهُ عِـرْقَـاً غَـيْـرَ مَـفْـصُـودِ

وقال[1]: [من البسيط]

إذا قـرنْـتُ مَـعَ الـحُـسْـنَـى إلـيكَ أسًـى فـذاكَ مِـن شُـؤْم طَـبْـعٍ فِـيْـهِ قَـدْ حَـدَثَـا
فَـارفُـضْـهُ رَفْـضَ الـقِـلَـى، واهـجُـر مَـوَدَّتَـهُ هَـجْـراً بـجـدٍّ ولَا تَـسْـتَـعِـمِـلِ الـعَـبَـثَـا
فـالـمُـصْـطَـفَـى وإلَـيْـهِ كُـلُّ مُـعْـجِـزَةٍ تُـرْوَى، وعـنْـهُ الـهُـدى والـصِّـدْقُ قَـدْ وُرِثَـا
قَـدْ قَـالَ صَـلَّـى عَـلَـيْـهِ الـلـهُ فـي مَـلأٍ: مَـا طَـابَ مِـنِّـي ولـلـشَّـيْـطـانِ مَـا خَـبُـثَـا

وكتب إلى ابن القوصي: [من الرمل]

أَيُّـهَـا الـسَّـاحِـبُ بِـالـمِـفْـضَـلِ عَـلَـى سَـحْـبَـايَ ذَيْـلا
لَـسْـتَ بِـالـمَـجْـنُـونِ حَـاشَـا كَ فَـلِـمْ ذَا زُرْتَ لَـيْـلاَ

وقال[2]: [من الطويل]

(١) القطعة في شعره ٣٧٧، وديوانه ١٠٠.
(٢) البيتان في شعره ٤٠٤.

إذا ما سَقَانِي رِيْقَهُ وهْوَ بَاسِمٌ تَذَكَّرْتُ ما بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ
وَيُذْكِرُنِي مِنْ قَدِّهِ وَمَدامِعِي مَجَرُّ عَوَالِيْنَا ومَجْرَى السَّوَابِقِ

وقال في كتابٍ كتبه إلى أهله بالقاهرة: [من الوافر]

إذّا فَكَّرْتُ فِي زَمنِ اجْتِمَاعِي بِكُم وَذَكَرْتُ حادِثَةَ الفِرَاقِ
وَضَعْتُ يَدِي على قَلِبِي احتِرازاً مَخَافَة أن يَطِيْرَ مِنَ اشْتِيَاقِي

وقال: [من السريع]

يَا سَاكِني مِصْراً أمَا عِنْدَكُم مِن رَحْمَةٍ يَحْظَى بِها عاشِقُ
لاَ تُتْهِمُونِي بِهَوَى غَيْرِكُمْ كُلُّ هَوًى لِي غَيْرِكُمْ طَالِقُ

وقال: [من الكامل]

مَا زِلْتُ مُرْتَقِباً طُلُوعَكَ دَائِماً والنَّجْمُ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ أنْ يَطْلَعَا
حَتَّى أتَى عَنْكَ البَشِيْرُ فَيَا لَهَا مِنْ مِنَّةٍ وَيَدٍ إليَّ بِهَا سَعَى
فَلَوَ أنَّ قَلبِي في يَدِي لَوَهَبْتُهُ لِمُبَشِّرِي وَحَلَفْتُ أنْ لا يَرْجِعَا
هُوَ فِي رِكَابِكَ مُذْ رَحَلتَ مُلازِمٌ فَلِيَ الهَنَا... وبِهِ مَعَا

وقال في الأنس أصفر[1]: [من المنسرح]

أقْبَلَ يَخْتَالُ في غلائِلِه والسُّكْرُ بادٍ عَلَى شَمائِلِهِ
وَقَدْ غَدَا سَاحِباً ذَوائِبَهُ قُومُوا انْظُرُوا الظَّبْيَ في حَبَائِلِهِ
وَمَاسَ في حُلَّةٍ مُعَصْفَرَةٍ يَا مَنْ رَأى الغُصْنَ في أصَائِلِهِ
أسْألُهُ رَحْمَةً فَيَنْهَرُنِي مَا عِنْدَهُ رَحْمَةٌ لِسَائِلِهِ

/١٦٢/ وقال في ملسوع[2]: [من البسيط]

قَالُوا حَبِيْبُكَ مَلْسُوعٌ، فَقُلْتُ لَهُمْ: مِنْ عَقْرَبِ الصُّدْغُ أمْ مِنْ حَيَّةِ الشَّعَرِ
فَقِيْلَ: لاَ مِنْ أفَاعِي الأرْض، قَلْتُ لهُمْ: مِنْ أيْنَ تَرْقَى أفَاعِي الأرْضِ لِلْقَمَرِ

وقوله في صبي اسمه بَدْرُون وكان صاحياً: [من الطويل]

أيَا حَاجِبَ الوَالِي لَقَدْ فَعَلَتْ بِنَا لِحَاظُكَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ القَوَاضِبُ
تَرَفَّقْ عَلَى قَلْبِي لأنَّكَ حَاجِبٌ فَأنْتَ عَلَى عَيْنِي لأنَّكَ حَاجِبُ

---

(١) القطعة في شعره ٣٩٠، وديوانه ٢١٣.
(٢) البيتان في شعره ٣٣٦، وديوانه ١٦٥.

وقال فيه: [من السريع]

مَا ضَرَّ بَدْرُوْنَ عِذَارٌ لَهُ ... فَالوَرْدُ يَسْعَى فَوْقَهُ الأَرْقَمُ

فَخَدُّهُ لا شَكَّ دِيبَاجَةٌ ... وأحْسَنُ الدِّيْبَاجِ مَا يُرْقَمُ

وقال فيه[1]: [من مجزوء الرمل]

لَكَ يَا بَدْرُوْنَ وَجْهُ ... حَازَ عُنْوَانَ السَّعَادَهْ

لا تَخَفْ نَقْصاً وَمَحْقاً ... أَنْتَ بَدْرٌ وَزِيَادَهْ

قال في نصراني: [من المتقارب]

مِنَ القِبْطِ عُلِّقْتُهُ جُؤْذَراً ... حَوَى سِحْرَ بَابِلَ فِي جَفْنِهِ

مَضَى نَحْوَ بَيْعَتِهِ رَاجِياً ... حُصُولَ الثَّوابِ عَلَى ظَنِّهِ

يقرب لكن إلى مهجتي ... وقدس... لكنْ على حُسْنِهِ

وقال في ترجيح السمر[2]: [من الرمل]

أعْشَقُ البِيْضَ وَلَكِنْ ... خَاطِرِي بالسُّمْرِ أعْلَقْ

إنَّ فِي البِيْضِ لَمَعْنًى ... غَيْرَ أنَّ السُّمْرَ أرْشَقْ

وَظِلالُ الأَيْكِ عِنْدِي ... مِن هَجِيْرِ الشَّمْس أوْفَقْ

وَشَذَا العَنْبَرِ والمِسْـ ... ـكِ مِنَ الكَافُورِ أعْبَقْ

وَكَذَا التِّبْرُ مِنَ الفِضّـ ... ـةِ عِنْدَ النَّاسِ أنْفَقْ

وإذا أنْصَفْتَ فالإنْـ ... ـصَافُ بِالعَاقِلِ ألْيَقْ

فَبَدِيْعُ الحُسْنِ يُهْوَى ... كَيْفَمَا كَانَ وَيُعْشَقْ

وقال في تفضيل البيض: [من الرمل]

أسْمَعَنْ نُصْحِيَ يَا مَن ... مِنْهُ لِلعِشْقِ بَقِيَّهْ

لا يُحِبُّ البِيْضَ إلاَّ ... مَن فِيْهِ تَقِيَّهْ

وَالَّتِي جَاءَ بِهَا المُخْـ ... ـتَارُ بَيْضَاءُ نَقِيَّهْ

قال يتغزل في بدوي[3]: [من الكامل]

عُلِّقْتُهُ مِنْ آلِ يَعْرُبَ، لَحْظُهُ ... أمْضَى وأفْتَكُ مِنْ لِسانِ عُرَيْبِهِ

أسْكَنْتُهُ في المُنْحَنَى مِنْ أضْلُعِي ... شَوْقاً لِبَارِقِ ثَغْرِهِ وعُذَيْبِهِ

/١٦٣/ يَا غَائِبِي ذاكَ الفُتُورَ بِعَيْنِهِ ... خَلُّوْهُ لِيْ، أنَا قَدْ رَضِيْتُ بِعَيْبِهِ

لَدْنٌ ومَا مَرَّ النَّسِيْمُ بِعِطْفِهِ ... أرِجٌ ومَا عَبَقَ العَبِيْرُ بَجَيْبِهِ

---

(١) البيتان في شعره ٣٥٩، وديوانه ١١٩. (٢) القطعة في شعره ٣٩١، وديوانه ١٨٤.

(٣) القطعة في شعره ٣٨٦، وديوانه ٩٧.

وقال فيه أيضاً[١]: [من مجزوء الرمل]

بَـاتَ فـي أثـنـاءِ صَـدْرِي غُـصُـنٌ نِـيْـطَ بِـبَـدْرِ
بَـدَوِيٌّ نَـازِلٌ مِـنْ شَـعْـرِهِ فـي بَـيْـتِ شَـعْـرِ
حـامِـلٌ نَـجْـداً وغـوْراً مِـنْـهُ فـي رِدْفٍ وَخَـصْـرِ
مَـا رَنَـا واهْـتَـزَّ إلاَّ كَـانَ فـي بِـيْـضٍ وسُـمْـرِ
وَتَـعَـانَـقْـنَـا فَـمَـا ظَـنُّـكَ فـي مَـاءٍ وَخَـمْـرِ
وَتَـعَـاتَـبْـنَـا فَـقُـلْ مَـا شِـئْـتَ مِـن غُـنْـجٍ وسِـحْـرِ
ثُـمَّ لَـمَّـا أدْبَـرَ الـلَّـيْـلُ وَجَـاءَ الـفَـجْـرُ يَـجْـرِي
قَـالَ إيَّـاكَ رَقِـيْـبِـي بِـكَ يَـدْرِي، قُـلْـتُ: يَـدْرِي

وقال: [من الكامل]

قَـلْـبِـي أرَقُّ عَـلَـيْـكَ مِـنْ شِـعْـرِي أَعـدتْـهُ مِـنْـكَ مَـخَـافَـةَ الـحَـصْـرِ
أنْ لا يَـرِقَّ لِـعَـاشِـقٍ دَنِـفٍ حَـيِّ الـصَّـبَـابَـةِ مَـيِّـتِ الـهَـجْـرِ
مَـا كُـنْـتُ أعْـلَـمُ قَـبْـلُ مُـقْـلَـتِـهِ أنَّ الـجُـفُـونَ مَـعَـادِنُ الـسِّـحْـرِ
يَـا بَـدْرُ إنْ أنَـا مُـتُّ فِـيْـكَ هَـوًى لِـيْ أسْـوَةُ الـشُّـهَـدَاءِ فـي بَـدْرِ

وقال[٢]: [من الكامل]

بِـأبِـي غَـزَالٌ تَـائِـهٌ مُـتَـصَـلِّـفُ لانَـتْ مَـعَـاطِـفُـهُ ولا يَـتَـعَـطَّـفُ
حُـلْـوُ الـشَّـمَـائِـلِ والـتَّـثَـنِّـي والـلَّـمَـى مَـنْ يَـجْـتَـلِـيْ مَـن يَـجْـتَـنِـي مَـن يَـرْشُـفُ
شَـاكِـي الـسِّـلاَحِ وَمَـا تَـكَـلَّـفَ حَـمْـلَـهُ الـلَّـحْـظُ سَـيْـفٌ، والـقَـوَامُ مُـثَـقَّـفُ
هَـجَـرَ الـكَـرَى جَـفْـنِـي ووَاصـلَ جَـفْـنَـهُ يَـا قَـوم، حَـتَّـى الـنَّـوْمُ لـي يَـسْـتَـضْـعِـفُ
وَسَـرَى إلـى جَـسَـدِي ضَـنـى أجْـفَـانِـهِ لا، بَـلْ ضَـنَـى جَـسَـدِي أرَقُّ وألْـطَـفُ
لَـمَّـا بَـدَا لـلـغَـانِـيَـاتِ وقَـدْ بَـدَا مِـنْ حُـسْـنِـهِ مَـا لا يُـحَـدُّ وَيُـوْصَـفُ
أشْـكُـوا إلـيـهِ، وَمَـا عَـسَـى أنْ أشْـتَـكِـي هُـوَ بِـالَّـذِي ألْـقَـاهُ مِـنِّـي أعْـرَفُ
وَوَحَـقِّـهِ لَـمْ يَـبْـقَ فِـيَّ بَـقِـيَّـةٌ وَلَـقَـلَّـمَـا يَـبْـقَـى الـكَـئِـيْـبُ الـمُـدْنِـفُ
وإذَا سَـمِـعْـتَ بِـعَـاشِـقٍ مُـتَـعَـفِّـفٍ فـاعْـلَـمْ بِـأنِّـي الـعَـاشِـقُ الـمُـتَـعَـفِّـفُ

وقال[٣]: [من الكامل]

---

(١) من قصيدة قوامها ١٠ أبيات في شعره ٣٦٦ـ ٣٦٧، وديوانه ١٦١.
(٢) من قصيدة قوامها ١٣ بيتاً في شعره ٣٦٨ـ ٣٦٩، وديوانه ١٨٠.
(٣) من قصيدة قوامها ١١ بيتاً في شعره ٣٦٢، وديوانه ٢٥٨ـ ٢٥٩.

ذَكَرَ الحِمَى فَصَبَا وكَانَ قَدِ ارْعَوَى صَبٌّ على عرْشِ الغَرَام قد اسْتَوَى
/ ١٦٤/ تَجْرِي مدَامِعُهُ ويَخْفِقُ قَلْبُهُ فتَرَى العَقِيْقَ على الحقِيْقَةِ واللِّوَى
وأنَا نَذِيْرُ العَاشِقِيْنَ فَمَن يُرِدْ طُوْلَ الحَيَاةِ فَلا يَذُوْقَنَّ الهَوَى
قَالُوا: أفِيهِ سِوَى رَشَاقَةِ قَدِّهِ وَفُتُورِ عَيْنَيْهِ؟ وَهَلْ مَوْتِي سِوَى؟

وقال[١]: [من البسيط]

بِاللهِ يا بَانَة الجَرْعَاءِ والعَلَمِ هَلِ الأحِبَّةُ لي مُوفُونَ بِالذِّمَمِ
أمْ قَدْ تَغَيَّرَ مَا [قَدْ] كُنْتُ أعْهَدُهُ مِنْهُم، وإنْ كَانَ مَا بالعَهْدِ مِنْ قِدَمِ
وَما نَسِيْتُ وَلاَ أنْسَى لَهُمْ خُلَساً حَلَّتْ وَمَرَّتْ مرُور الطَّيْفِ في الحُلُمِ
وَمَجْلِساً طَلَعَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ بُدُورُ دَيَاجِيْهَا مِنَ اللِّمَمِ
وراحَ يَفْتِنُنِي مِنْ بَيْنِهِمْ صَنَمٌ يَا مَنْ رَأى مُسْلِمَاً يَصْبُو إلى صَنَمِ
وَخَلْوَةٍ فَسَقَتْ فِيْهَا نَوَاظِرُنَا وإنَّمَا طَهَّرَتْهَا عِفَّةُ الشِّيَمِ
هَذا هُوَ الحُبُّ، لا إثْمٌ يُدَنِّسُهُ أسْتَغْفِرُ اللهَ، مَا يَخْلُو مِن اللَّمَمِ
لَمَّا خَلَوْنَا تَعَاقَدْنَا يَدَاً بِيَدٍ عَلى الوَفَا، وَتَعاهَدْنَا فَمَاً لِفَمِ
وَكَيْفَ يَجْحَدُ [قَلْبِي] بَعْدَمَا شَهِدَتْ نَارٌ عَلَى خَدِّهِ قَدْ ضُرِّجَتْ بِدَمِ
يَا فَارِغَ القَلْب، قَلْبِي مِنْكَ في شُغُلٍ يَا نَائِمَ العَيْنِ، عَيْنِي فيكَ لَمْ تَنَمِ

وقال[٢]: [من مجزوء الكامل]

يَا قَلْبُ جَاءَكَ مَنْ تُحِبُّهْ وَحَنَا وَرَقَّ عَلَيْكَ قَلْبُهْ
أرْضَى وزَادَ عَلَى الرِّضَا فَحَسِيْبُ مَنْ أغْرَاهُ رَبُّهْ

وقال: [من الطويل]

أحِبَابَنَا ذاكَ الغَرَامُ بِحَالِهِ وإنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ زَادَ سِنّاً فَما نَقَصْ
أقُصُّ عَلَيْكُمْ مِنْ حَدِيْثِي عَجَائِباً فإنْ شِئْتُمْ أسْمَعْتُكُم أحْسَنَ القَصَص

وقال من أبيات[٣]: [من الكامل]

في كُلِّ مَتْنٍ حَيَّةٌ مِنْ شَعْرِهِ وبِكُلِّ خَدٍّ مِن عِذَارٍ أرْقَمِ
مِنْ كُلِّ رَامٍ حَاجِباً بِقِسِيِّهِ وَعلَى القِيَاسِ فَمُقْلَتَاهُ أسْهُمُ

(١) من قصيدة قوامها ١٨ بيتاً في شعره ٣٧٨ـ ٣٧٩، وديوانه ٢٢٣ـ٢٢٥.
(٢) من قطعة قوامها ٥ أبيات في شعره ٣٩٦، وديوانه ٢٦٨.
(٣) من قطعة قوامها ٩ أبيات في شعره ٣٧٩ـ٣٨٠، وديوانه ٢٢٠.

وقال: [من البسيط]

قَالُوا الشَّبابُ جُنُونٌ والمَشِيْبُ نُهًى ... فَقُلْتُ وَالقَولُ مِنِّي غَيْرُ مَرْدُودِ

/١٦٥/ الحَقَّ قُلْتُمْ وَلَكِنْ مَا يَفِيْدَكُمُ ... مَزِيَّةَ الحُكْم عِنْدَ الغَادَة الرُّوْدِ

فَيَا وَقَارَ مَشِيْبِي لَسْتَ مِنْ أَرَبِي ... وَيَا رُعُونَةَ أَيَّام الصِّبَا عُوْدِي

وقال من أبيات[1]: [من الطويل]

أُعَلِّلُ طَرْفِي عَنْكَ بالبَدْرِ طَالِعَاً ... وَبالظَّبْي وَسْنَانَاً وبالغُصْنِ يَانِعَا

أَفِي كُلِّ يَوم للتَّفَرُّقِ وَاقِفٌ ... يَرَى عِنْدَهُ للعاشِقِيْنَ مَصَارِعَا

كَأَنَّ النَّوَى يَبْغِي ذُحُولاً قَدِيْمَةً ... إِلَيَّ وإلاَّ يَقْتَضِيْنِي وَدَائِعَا

وَقَفْتُ أَحَلِّي الأَرْضَ مِنْ درّ أَدْمُعِي ... فَجَاءَ العَذَارَى يَلْتَقِطْنَ المَدَامِعَا

يغرن على تلك اللَّيالِي لأَنَّها ... بَقِيَّةُ مَا أَوْدَعْنَ مِنِّي المَسَامِعَا

وَمَا كَانَ ذَاكَ القُربُ إلاَّ لَدَى النَّوى ... فيَا لَيْتَ أَنَّ الدَّسْتَ أَصْبَحَ مَانِعَا

وقال من قصيدة: [من البسيط]

أَضْحَى مُعَنًّى وأَمْسَى وَالِهَاً قَلِقَاً ... وَرَاحَ مُصْطَبِحاً بالدَّمْع مُغْتَبِقَا

إِنْ فَاضَ سَيْلٌ فَقُلْ أَجْفَانُهُ ذَرَفَتْ ... أَوْ لاَحَ بَرْقٌ فَقُلْ قَلْبٌ لَهُ خَفَقَا

فَيَا ظُلُوعِي لَقَدْ أَشْعَرْتِني لَهَبَاً ... وَيَا دُمُوعِي لَقَدْ أَنْذَرْتِني الغَرَقَا

هَذَا حَدِيْثِيَ عَن يَقِيْني وَذَا خَبَرِي ... باللهِ مَنْ كَانَ مِثْلِي فَلْيَقُلْ صَدَقَا

أَسْتَوْدِعُ اللهَ مَنْ وَدَّعْتُهُ يَوْمَاً ... وَقَدْ يشرب مَتَى قَلْبُهُ حَنَقَا

وكَمْ شَرِقْتُ بِدَمْعِي عِنْدَ ذِكْرِهُمُ ... مِنْ يَشْرَبِ الدَّمْعَ مَعْذُورٌ إذا شَرِقَا

وقال في أرمد: [من الطويل]

رَقَتْ كُلُّ عَيْنٍ عين مَا... الشَّكْوَى ... وَقِيْلَ عُيُونُ النَّاسِ عَيْنِي وَمَنْ يَهْوَى

وَيَا رَبِّ عَجِّلْ بالشِّفَاء لِمُقْلَةٍ ... تَغُضُّ عَنِ الفَحْشَاءِ بالسِّرِّ والنَّجْوَى

وَمَا الرَّمَدُ العَادِي عَلَيْهَا بِمُبْتَغٍ ... أَذَاهَا ولكِنْ قَصْدُهُ شَرَفُ المَأْوَى

فَهلاَّ نَهَاهُ الحَاجِبَانِ فَطَالَمَا ... نَهَى الحاجِبُ الجَانِي فَهَلْ قَبِلَ الرّشْوَى

وَلَمْ أَرَ أَنْدَى مِنكَ عَيْنَاً لِسَائِلٍ ... لِكُلِّ أَخِي قَصْدٍ لِدَركِ الذي يَهْوَى

وَمُشْتَرِكِ الأَلْفَاظِ في العَيْنِ غَيْرَةً ... إلى أن غَدَا يَسْتَمْطِرُ... في الجَدْوَى

وقال: [من الطويل]

أما وقُدُودِ السُّمْرِ غَيْرِ الذَّوابِلِ ... وَلَكِنَّهَا مَا مَاسَ تَحْتَ الغَلائِلِ

---

(١) بيتان منها في شعره ٣٣٥.

/١٦٦/ وَسُودِ عُيُونٍ لو لَقِيتُ بِها العِدا أثْنَيْتُهُمُ عَنِّي بِبِيْضِ المَنَاصِلِ
لَقَدْ رَاعَنِي لِلْمَالِكِيَّةِ مَنْزِلٌ غَدَا مُقْفِراً مِن أهْلِهِ غَيْرَ آهِلِ
وَقَفْتُ بِهِ والدَّمعُ جارٍ مَسَايِلاً فَلَمْ أرَ في أطْلالِهِ غَيْرَ سَايِلِ

وقال: [من السريع]

يَا سَاقِيَ الرَّاحِ وَوَجْدي بِهِ أوْرَثَ لَوْني صُفْرَةً زَايِدَهْ
ارثِ لِحَالِي في الهَوَى وَاسْقِني مِنْ كُلِّ كأسٍ جَرْعَةً وَاحِدَهْ

وكتب إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ في يوم مطير: [من الكامل]

لا تَدَعْ يَومَكَ هَذَا عَاطِلاً بِاللهِ يَذْهَبْ
وَأدِرْ فِيهِ كؤوسَاً مِنْ مُدَامٍ تَتَلَهَّبْ
حُثَّهَا شَقْرَاءَ مَا دَا مَ أدِيْمُ اليَوم أشْهَبْ
فَلُجَيْنُ الكَأسِ لا يُعْـ جَبُ إلاَّ وَهْوَ مُذْهَبْ
وانْهَبِ العَيْشَ فَقَدْ أفْـ لَحَ مَن لِلْعَيْشِ يَنْهَبْ

وكتب إليه: [من الرمل]

مَا تَرَى الرَّوْضَ وَمَا أحْسَنَهُ مُزْنَةٌ تَبْكِي وَرَوْضُ يَضْحَكُ
فَهْيَ أرْوَاحُ النَّدامَى وَالَّتِي دَمُهَا مِن كُلِّ زِقٍّ يُسْفَكُ

وقال من أبيات[1]: [من الطويل]

خُذُوا حِذرَكُمْ مِن طَرْفِهَا فهو سِاحْرُ وليسَ بِناجٍ مَنْ دَهَتْهُ المَحَاجِرُ
فإنَّ العُيُونَ السُّودَ وَهيَ فَوَاتِرٌ تَفُلُّ السُّيُوفَ البِيْضَ وَهِيَ بَوَاتِرُ
ولا تُخْدَعُوا مِنْ رِقَّةٍ مِنْ حَدِيْثِهَا فإنَّ الحُمَيَّا لِلْعُقُولِ تُخَامِرُ
مِنَ القاصِراتِ الطَّرْفِ غَارَتْ لِحُسْنِها ضَرَائِرُهَا والنَّيِّرَاتُ الضَّرَائِرُ
بَعِيْدَةُ مَا بَيْنَ المُخَلْخَلِ والطُّلَى تَرَى الطَّرْفَ عَنْها يَنْثَنِي وَهْوَ حَاسِرُ
إذَا مَا اشْتَهَى الخَلْخَالُ أخْبَارَ قُرْطِهَا فَيَا طِيْبَ مَا تُمْلِي عَلَيْهِ الضَّفَائِرُ

وقال: [من مجزوء الكامل]

لَمْ أنْسَ لَيْلَةَ زَارَنِي واللَّيْلُ مَمْدُوْدُ الجَنَاحِ
فِي لَيْلَةٍ قَصُرَتْ فَكَا نَ عَشَاؤُهَا بَعْدَ الصَّبَاحِ
لَمْ ألْتَفَتْ لِلِقَائِهِ حَتَّى تَلَفَّتَ لِلرَّوَاحِ

---

(١) من قصيدة قوامها ١٢ بيتاً في شعره ٣٢٣ـ٣٢٤، وديوانه ١٥٠ـ١٥٢.

لَــوْ كُـنْــتَ حَــاضِــرَنَــا رَأيْــ ــتَ فُــنُــونَ جِــدٍّ فِــي مُــزَاحِ
وَرَأيْــتَ سُــلْــطَــانَ الــغَــرَا مِ أسِــيْــرَ سُــلْــطَــانِ الــمِــلاَحِ
/١٦٧/ خُــوِّفْــتُ فِــيْــهِ مِــنَ الــفَـضِـيْــ ــحَــةِ مَـا الـهَـوَى لَـوْلاَ افـتِـضَـاحِـي
وَنَــهَــى الــلَّــوَاحِــيْ عَــنْ هَــوَا هُ وَلا كَــرَامَــةَ لِــلَّــوَاحِــي

وقال: [من السريع]

بِـنْـتُـمْ فَـصَـبْـرِي بَـعْـدَكُـمْ مُـعْـوِزٌ وَسَـلْـوَتِـي لَـيْـسَ إلَـيْـهَـا سَـبِـيْـلُ
فَـيَـا جُـفُـونِـي أيْـنَ أيْـنَ الـكَـرَى وَيَـا فُـؤَادِي أيْـنَ صَـبْـرِي الـجَّـمِـيْـلُ

وقال[1]: [من الوافر]

فَــمُــذْ فَــارَقْــتُــهُ كُــرْهَــاً وأَعْــزِزْ عَــلَــيَّ بــأنْ أُفَــارِقُ عُــنْــفُــوَانِــي
فَـطَـرْفِـي وَالـكَـرَى طَـرْفَـا نَـقِـيْـضٍ وَدَمْـعِـي والـحَـيَـا فَـرَسَـا رِهَـانِ

وقال من أبيات[2]: [من الطويل]

حَذَارِ سُيُوفَ الهِنْدِ مِنْ أعْيُنِ التُّرْكِ فَـمَـا شُـهِـرَتْ إلاَّ لِـتُـؤْذِنَ بـالـفَـتْـكِ
وَرُبَّ غَـزَالٍ بَـاتَ مِـنْـهُـمْ مُـضَـاجِـعِـي وَقَدْ عَبِقَتْ مِنْهُ المَضَاجِعُ بِالمِسْكِ

وقال[3]: [من الكامل]

يَاَ مَنْ لَبِسْتُ عَلَيْهِ أثْوَابَ الضَّنَى صُـفْـرَاً مُـوَشَّـحَـةً بِـحُـمْـرِ الأدْمُـعِ
أدْرِكْ بَـقِـيَّـةَ مـهْـجَـة لَـو لَـمْ تَـذُبْ شَوْقَاً إلَيْكَ نَفَيْتُها عَنْ أضْلُعِي

وقال: [من الوافر]

قَـتَـلْـتَ الـخَـلْـقَ يَـا مَـلِـكَ الـمِـلاحِ وَلَـيْـسَ عَـلَـيْـكَ فِـيْـهِـمْ مِـنْ جُـنَـاحِ
بِـذَابِـلِ [نَـاظِـرٍ] وَحُـسَـامِ لَـحْـظٍ أمَـا أعْـيَـيْـتَ مِـنْ حَـمْـلِ الـسِّـلاَحِ

وقال[4]: [من الكامل]

عَـانَـقْـتُـهُ فَـسَـكِـرْتُ مِـنْ طِـيْـبِ الـشَّـذَا غُـصْـنٌ رَطِـيْـبٌ بـالـنَّـسِـيْـمِ قَـدْ اغْـتَـذَى
نَـشْـوَانُ مَـا شَـرِبَ الـمُـدَامَ وإنَّـمَـا أضْـحَـى بِـخَـمْـرِ رُضَـابِـهِ مُـتَـنَـبِّـذَا
كَـتَـبَ الـجَّـمَـالُ على صَـفِـيْـحَـةِ خَـدِّهِ يَــا حُــسْــنَــهُ لا بَــأسَ أنْ يَــتَــعَــوَّذَا
يَــا نَــاظِــرِي إمَّــا وَقَــدْ شَــاهَــدْتَــهُ وَالــلَّــهِ لا رَمَــدَاً تَــخَــافُ ولا قَــذَى

---

(١) من قصيدة قوامها ١٧ بيتاً في شعره ٣٤١ـ٣٤٢، وديوانه ٢٥٠.
(٢) من قصيدة قوامها ٢٢ بيتاً في شعره ٣٦٩ـ٣٧٢، وديوانه ١٩٢.
(٣) البيتان في شعره ٤٠٢، وديوانه ١٧٧.
(٤) القصيدة في شعره ٣٣٥، وديوانه ١٤٠ـ ١٤١.

مَـهْـمَـا اكْـتَـحَـلْـتَ بِـخَـدِّهِ وَعِـذَارِه — لَـمْ تَـلْـقَ إلاَّ عَـسْـجَـداً وَزُمُـرُّذَا
أضْحَى الجَمَالُ بِأسْرِهِ في أسْرِهِ — فَلأجْلِ ذَاكَ عَلى القُلُوبِ اسْتَحْوَذَا
وأتَى العَذُولُ يَلُومُنِي مِنْ بَعْدِمَا — أخَذَ الغَرَامُ عَلَيَّ فِيْهِ مَأُخَذَا
/١٦٨/ لاَ أنْتَهِي لاَ أرْعَوِي لاَ أنْثَنِي — عَنْ حُبِّهِ فَلْيَهْذِ فيهِ مَنْ هَذَى
إنِي لَيُعْجِبُنِي تِلاَقِي في الهَوَى — وَيَلَذُّ لي مَا قَدْ لَقِيْتُ مِنَ الأذَى
وَاللهِ لا خَطَرَ السُلُوُّ بِخَاطِرِي — مَا دُمْتُ في قَيْدِ الحَيَاةِ وَلا إذَا
إنْ عِشْتُ عِشْتُ عَلَى هَوَاهُ وإنْ أمُتْ — وَجْداً بِهِ وَصَبَابَة يَا حَبَّذَا

وقال من أبيات أولها[1]: [من الكامل]

هُزُّوا القُدُوْدَ وَاطْرَحُوا سُمْرَ القَنَا — . . . .
شَبَّهْتُهُ بالبَدْرِ قالَ ظَلَمْتَنِي — يَا عَاشِقِي وَاللهِ ظُلْمَاً بَيِّنَا
البدرُ يَنْقُصُ وَالكَمَالُ لِطَلْعَتِي — فَلِذَاكَ قَدْ أصْبَحْتُ مِنْهُ أحْسَنَا

وقال[2]: [من الوافر]

بِحَقِّكَ حَدِّثِ الأحْبَابَ عَنِّي — وَشَافِهْهُمْ بِمَا شاهدتَ مِنِّي
وَقُلْ لَهُمْ: لَقَدْ خَلَّفْتُ يَحْيَى — لِمَوتِ جَوًى، وَيَحْيَى بالتَّمَنِّي
وَكَم أشكُو إلى مَنْ لَيْسَ يَرْثِي — وَلاَ يَلْوِي عَلَى فَرَحِي وَحُزْنِي
عَذُولِي: إذ تُسَمِّيْهِ حَبِيْبَاً — أمِيْلُ إلَيْهِ، وَهْوَ يَمِيْلُ عَنِّي
جَفَاً وَقِلَّى وإعْرَاضَاً وَهَجْرَاً — هَوَانَا بالهَوَى كَمْ ذَا التَّجَنِّي

ومن أبيات[3].: [من المتقارب]

خُذُوا قَوْدِي مِن أسِيْرِ الكِلَل — فَوَاعَجَبَاً مِن أسِيرٍ قَتَلْ
وَقُولُوا عَلَيَّ إذَا نُحْتُمُ: — طَعِيْنُ القُدُودِ، جَرِيْحُ المُقَلْ
وَبِي قَمَرٌ مَا بَدَا في الدُّجَى — وأبْصَرَهُ البَدْرُ إلاَّ أفَلْ
فَيَا خَجْلَةَ البَدْرِ مِنْ حُسْنِهِ — ألَمْ تَرَ فِيْهَا اصْفِرَارَ الخَجَلْ
فَعُمَّتْ مَعَاطِفُهُ بالنَّشَاطِ — وَخُصَّتْ رَوَادِفُهُ بالكَسَلْ
أحِنُّ إلى الغَوْرِ مِنْ خَصْرِهِ — وَأصْبُو إلى نَجْدِ ذَاكَ الكَفَلْ
وَجَادَ الزَّمَانُ بِهِ لَيْلَةً — وَعَمَّا جَرَى بَيْنَنَا لا تَسَلْ

---

(١) من قصيدة قوامها ١٤ بيتاً في شعره ٣٤٥ـ٣٤٦.
(٢) من قطعة قوامها ٦ أبيات في شعره ٣٨٤ـ٣٨٥، وديوانه ٢٥٢.
(٣) من قصيدة قوامها ٢١ بيتاً في شعره ٣٧٤ـ٣٧٥، وديوانه ١٩٦ـ١٩٧.

فــأنْــحَــلْــتُ قَــامَــتَــهُ بــالــعِــنَــاقِ وَذَبَّــلْــتُ مَــرْشِــفَــهُ بــالــقُــبَــلْ
/١٦٩/ وَكَمْ تِهْتُ في غَورِ خِصْرٍ لَهُ وأشْـرَفْـتُ مِـنْ نَـجْـدِ ذَاكَ الـكَـفَـلْ
وأذَّنْـتُ حِـيْـنَ تَـجَـلَّـى الـصَّـبَـاحُ بِـحَـيَّ عَـلَـى خَـيْـرِ هَـذَا الـعَـمَـلْ
وَقَـدْ عَـلِـمَ الـنَّـاسُ أنِّـي امْـرُؤٌ أحِـبُّ الـغَـزَالَ وأهْـوَى الـغَـزَلْ
وَهَـا أثَـرُ الـمِـسْـكِ فـي رَاحَـتِـي وَهَـاكَ فَـمِـي فِـيْـهِ طَـعْـمُ الـعَـسَـلْ

وقال من أخرى[١]: [من مجزوء الكامل]

أنَـظَـرْتَ أمْ فَـوَّقْـتَ سَـهْـمَـا؟ فَـلَـقَـدْ أصَـبْـتَ الـقَـلْـبَ لـمَّـا
لاَ يَـا مُـعَـذِّبَ مُـهْـجَـتِـي وَالـلـهِ مَـا أجْـرَمْـتُ جُـرْمَـا
يَـا عَـاذِلِـي، وأخُـو الـصَّـبَـا بَـةِ ـ لاَ بُـلِـيْـتَ ـ أصَـمُّ أعْـمَـى
لَـو كُـنْـتَ حَـاضِـرَنَـا وَقَـدْ زَارَ الـحَـبِـيْـبُ عَـجِـبْـتَ مِـمَّـا
وَبَـدَا الـحَـيَـاءُ بِـخَـدِّهِ حَـتَّـى خَـشِـيْـتُ عَـلَـيْـهِ يَـدْمَـى
وَوَدِدْتُ مِـنْ شَـغَـفٍ أفَـتِّـتُ عِـطْـفَـهُ الـمَـمْـشُـوقَ ضَـمَّـا
وَلَـوْ اسْـتَـطَـعْـتُ جَـعَـلْـتُ مِـنْ لَـثْـمِـي عَـلَـى شَـفَـتَـيْـهِ خَـتْـمَـا
بَـلْ لَـوْ قَـدَرْتَ أكَـلْـتُـهُ وَشَـرِبْـتُـهُ عَـضَّـاً وَلَـثْـمَـا
وَلَـرُبَّـمَـا عَـاطَـيْـتُـهُ رَاحـاً يَـرُوقُ سَـنًـى وَشَـمَّـا
بَـاتَـتْ تُـضِـيءُ كَـأنَّـمَـا أوْدَعْـتُ مِـنْـهَـا الـكَـأسَ نَـجْـمَـا

وقال[٢]: [من المتقارب]

قَـالَ الـعَـوَاذِلُ قَـدْ شَـاه... ... مِـن صَـدِّهِ
وَقَـالُـوا: تَـسَـلَّ، فَـقَـدْ شَـانَـهُ عِـذَارٌ أرَاحَـكَ مِـنْ صـدِّهِ
فَـقُـلْـتُ: وَهِـمْـتُـمْ، فَـإنَّ الَّـذِي خَـلَـعَـتُ الـعِـذَارَ عـلـى خَـدِّهِ

وقال من أبيات[٣]: [من الطويل]

تَـعَـشَّـقْـتُـهُ حُـلْـوَ الشَّـمَـائِلِ والـلَّـمَـى فَرِيْدَ صِفَاتِ الحُسْنِ أهْيَفَ أغْيَدَا
رأيْـتُ بِـخَـدَّيْـهِ بَـيَـاضَـاً وَحُـمْـرَةً فَقُلْتُ: لِيَ البُشْرَى اجْتِمَاعٌ تَوَلَّدَا

---

(١) من قصيدة قوامها ١٩ بيتاً في شعره ٣٧٧ـ ٣٧٨، وديوانه ٢١٦ـ٢١٧.
(٢) بيتان منها في ديوانه ١٣٩.
(٣) من قصيدة قوامها ١٨ بيتاً في شعره ٣٦٠ـ٣٦١، وديوانه ١١٥ـ ١١٦.

وقال: [من الطويل]

لَكَ العُمْرُ مَاتَتْ سَلوَتِي وَرُقَادِي ... وَيَهْنِيْكَ عَاشَتْ صَبْوَتِي وَسُهَادِي

.... إنِّي قَدْ سَلَوْتُ لِعَاشِر ... نَعَمْ صَدَقُوا، لِكِنْ سَلَوْتُ فؤَادِيْ

/ ١٧٠/ وقال من أبيات: [من السريع]

أَمَا تَخَافُ اللهَ فَمَن... ... سرى.... تَوْحِيْداً وَإيْمَانَا

يَا مَنْ حَوَى الرِّقَّةَ فِي خَصْرِهِ ... إرْثِ لِصَبٍّ فِيْكَ خزانا

وقال[1]: [من السريع]

مِنْ عَجَبِ الدنيَا وَمَا تَنْتَهِي ... عَجَائِبُ الدنيَا وَلا تَنْقَضِي

تَغَايَرَ الوَرْدُ عَلَى خَدِّهِ ... فَامْتَزَجَ الأحْمَرُ بالأبْيَضِ

وقال: [من الطويل]

أَلاَ لاَ أرَى فِيْمَنْ أرَى مَنْ أُحِبُّهُ ... كَأنْ لَمْ تَضِقْ إلاَّ بِهِ وَحْدَهُ الأرْضُ

وَحُلْوِ اللَّمَى غَضِّ الشَّبَابِ قَشِيْبَةٍ ... فَيَا مَنْ رَأى حُلْواً يُقَالُ لَهُ غَضُّ

وقال[2]: [من الطويل]

دَنَوْتُ وَقَدْ أَبْدَى الكَرَى مِنْهُ مَا أبْدَى ... وَقَبَّلْتُهُ في الخَدِّ تِسْعِيْنَ أَوَ إحْدَى

وَأَبْصَرْتُ فِي خَدَّيْهِ مَاءً وَخُضْرَةً ... فَمَا أمْلَحَ المَرْعَى وَمَا أعْذَبَ الوِرْدَا

وقال[3]: [من الطويل]

وَلَمَّا جَفَانِي مَن أُحِبُّ وَخَانَنِي ... حَفِظْتُ لَهُ الودَّ الذي كانَ ضَيَّعَا

وَلَو شِئْتُ جازَيْتُ التَّجَنِّي بِمِثْلِهِ ... ولكنني أبْقَيْتُ للصُّلْحِ مَوْضِعَا

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ العَهْدِ بَيْني وبَيْنَهُ ... أكِيْداً ولكني رَعَيْتُ وَمَا رَعَى

سَعَى بَيْنَنَا الوَاشِي فَفَرَّقَ بيْنَنَا ... لَكَ الذَّنْبُ يا مَنْ خَانَنِي لا لِمَنْ سَعَى

وقال في ضوء البدر على البركة: [من السريع]

انْظُرْ إلى البِرْكَةِ مَمْلُوءةً ... وَالبَدْرُ فِي أحْشَائِهَا يَلْعَبُ

كَأَنَّهَا مِرْآتُهُ فاغْتَدَى ... لَمَّا رَأى صُورَتَهُ يَطْرَبُ

وقال في النوفر: [من المجتث]

كَأنَّمَا النَّوْفَرُ الغَضُّ ... غِبَّ قَطْرِ السَّحَابِ

أَنَامِلُ الغِيْدِ ضُمَّتْ ... فِيْهَا بَقَايَا خِضَابِ

---

(١) من قطعة قوامها ٥ أبيات في شعره ٤٠١، وديوانه ٣٧٢.

(٢) من قصيدة قوامها ١٠ أبيات في ديوانه ١١٧ـ١١٨.

(٣) القطعة في شعره ٤٠٢، وديوانه ٢٧٤.

وقاتل في النرجس: [من المنسرح]

كَأنَّمَا النَّرْجِسُ الذَّكِيُّ وقَدْ بَاتَتْ تُغَذِّيْهِ دَرَّهَا السُّحُبُ
جَوَاهِرٌ في رُؤُوسِهَا ذَهَبٌ ... مِن زَمُرُّدٍ قُضُبُ

وقال في ناعورة: [من الرجز]

/١٧١/ نَاعُورَةٌ أصبحتْ بالرِّيِّ كافِلَهْ
لِتُرْبَةٍ عِنْهَا الغَوَادِي غَافِلَهْ
كأنَّها طَالِعَةً وآفِلَهْ
وُحُوشَ قَفْرٍ مِنْ ضَوارٍ جَافِلَهْ
فَارِغَةً طَوْراً وَطَوْراً حَافِلَهْ
لَها حَنِيْنٌ كَرُغَاءِ القَافِلَهْ

وقال في يوم مثلج: [من الكامل]

انْظُرْ تَرَى وَجْهَ البَسِيْطِةِ أبْيَضَا لَمْ تَبْدُ فِيْهِ شَامَةٌ سَوْدَاءُ
كَرُمَ السَّحَابُ فَعَمَّ بالثَّلْجِ الثَّرَى إنَّ الكَرِيْمَ لَهُ اليَدُ البَيْضَاءُ

وقال وكتبه في سيف: [من مجزوء الرمل]

الأمَانِي والمَنَايَا بَيْنَ حَدَّيَّ وَمَتْنِي
يَتَّقِي الأعْدَاءُ فَتْكِي وَيَرُوقُ الغَيْرَ حُسْنِي
فتَأمَّلْ هَلْ تَرَى فِيـ ـمَا تَرَى أعْجَبَ مِنِّي
لَمْ يَذُقْ جَفْنِي غِرَارِي وَفَرَارِي مِلْءَ جَفْنِي

وقال في فرس أدهم: [من الرجز]

وَمُشْرِفِ الهَادِي رَحِيْبِ الصَّدْرِ
يَمْشِيْ عَلَى مِثْلِ طِوَالِ السُّمْرِ
أدْهَمَ يُزرِي بالدُّجَى والحِبْرِ
ذِي غُرَّةٍ قَامَ مَقَامَ البَدْرِ
فَهْوَ عَلَى ضَوءِ سَنَاهَا يَسْرِيْ

وقال يستهدي قصب سكر من فخر القضاة: [من المديد]

نَحْنُ مِنْ ذِكْرَاكَ فِي طَرَبٍ وَلَهَا مِن دَائِهَا طَرب
فَعَسَى يُهْدِي لَنَا قَصَباً فقَدِيْمَاً أطْرَبَ القَصَبْ

قال وقد أهدى من يحب ورداً ونرجساً[1]: [من الكامل]

بَعَثَتْ بِنَرْجِسَةٍ إلَيَّ وَوَرْدَةٍ فَفَهِمْتُ - أَفْدِيْهَا - حَقِيْقَةَ قَصْدِهَا

(١) البيتان في ديوانه ١٣٨.

لَـمَّـا تَـعَـدَّدَتِ الـزِّيَـارَةُ أَرْسَـلَـتْ بِـشَـبِـيْـهِ نَـاظِـرِهَـا إلـيَّ وَخَـدِّهَـا

وقال في هدية التفاح: [من الطويل]

وَتُـفَّـاحَـةٍ جَـاءَتْ إِلَـيْـنَـا هَـدِيَّـةً فَيَا حَبَّذَا المُهْدَى وَيَا حَبَّذَا المُهْدِي
وَمَـا ضَـرَّهُ والـغُـصْـنُ يُـشْـبِـهُ قَـدَّهُ وأَفْـدِيْـهِ لـو حَـيَّـا بِـتُـفَّـاحَـةِ الـخَـدِّ

وقال: [من السريع]

مَـوْلايَ قَـدْ أَرْسَـلْـتَ تُـفَّـاحَـةً أَوْدَعْـتُـهَـا سِـرّاً وَقَـبَّـلْـتُـهَـا
لَـمَّـا خِـلْـتُ خَـدَّكَ فـي لَـوْنِـهِ هِـمْـتُ بِـهَـا عُـجْـبَـاً وَنَـقَّـطْـتُـهَـا

[٧٧]

ابن وداعة، عزّ الدين(١)

وزير فاتك، وأمير /١٧٢/ باتك، ولي الوزارة فلبس لبسة الناسك، وجلس جلسة المتماسك، شمخ به العجب كأنه بذوائب الجوزاء ماسك، ونفخ فيه الحمق وقال: إياك أن تتطامن فتطا أم رأسك.

وكان على هذا لا يدع رمي الفقراء، ولا يظهر عليه زين الوزراء، مداوماً على هذا غير متكثر، ولا لباس متكبر... وهو لا يرى السماء إلا بمؤخر طرفه، ولا النجوم إلا ما سقط من خروق كفِّه، وفي هذا قال السامري من أرجوزته.

---

(١) عبد العزيز بن منصور بن محمد بن محمد بن وداعة، الصَّاحب، عزُّ الدين الحلبي: ولي خطابة جَبَلَة في أوائل أمره فيما يُقال. وولي للملك الناصر شدَّ الدَّواوين بدمشق. وكان يعتمد عليه. وكان يُظْهِر النُّسُك والدِّين، ويقتصد في ملبسه وأموره. فلما تسلطن الملك الظاهر ولاّه وزارة الشام. فلما ولي التُّجيبيّ نيابة الشام حصل بينه وبين ابن وداعة وحشة، فإنَّ التُّجيبيَّ كان سُنيّاً ولكن ابن وداعة شيعيّاً... فكان التُّجيبيّ يُسمعه ما يهينه ويؤلمه، فكتب ابن وداعة إلى السلطان يطلب منه مشدّاً تُركيّاً، وظنّ أنَّه يكون بحكمه ويستريح من التُّجيبيّ، فرتَّب السلطان الأمير عزّ الدين كشتغدي الشُّقَيْريّ، فوقع بينه وبينه، فكان الشُّقَيْري يُهينه أيضاً. ثمّ كاتب فيه الشُّقَيْري، فجاء الأمير بمصادرته، فرُسِم عليه وصودِرَ، وأُخِذ خطّه بجملةٍ كبيرة. ثمّ عَصره الشُّقيريّ وضربه، وعلّقه في قاعة الشّدّ، وجرى عليه ما لا يوصف، وباع موجوده التي كان قد وقفها، وحمل ثمنها. ثمّ طُلِب إلى الديار المصرية فمرض في الطريق، ودخل القاهرة مُثْقَلاً فمات في آخر يوم من سنة ٦٦٦هـ بالقاهرة وهو في عَشْر الثمانين. وله مسجد وتُربة بسفح قاسيون، ولم يُعقب. وله وقْفٌ على البرّ.

ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٢/ ٣٩٠-٣٩٢، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٠٠-١٠١، رقم ١٤٩، ونهاية الأرب ٣٠/ ١٥٥-١٥٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣٧٠-٣٧٢، والسلوك ج١ ق٢/ =

وحكي أنه كان يظهر التشيع، ويبطل اعتقاد النصيرية، وكان عقله يملك فلتات لسانه، فما ظهر عليه أحد في اعتقاده إلا أنه طال جلوسه يوماً في مجلس خدرت فيه رجله، فلما أراد القيام، اتكأ بيده على الأرض ليقوم، ثم قال: يا عليّ يا عظيم؟ ثم قام، وكان في المجلس رحل من العلماء المتكلمين، فقال لهم: نصيريٌّ والله. فسمعها ابن وداعة ملء صماخية، ففارَ دم وجهه، وانصرف ولم يتكلم، ثم لم يسمع منه بعدها أبداً.

قلت: ولعلَّ هذا كان الجامع بينه وبين أحد شيوخنا في الأدب، كاتبه علي بن المظفر الكندي، فإنه هو الذي جذب بضَبْعه، وأسدى إليه معروفه، وجذبه إليه، واستكتبه بين يديه، ولزمه حتى فرَّق بينهما الموت المشتِّت، وقطع حبال صحبتهما الدهر المبتِّت، وفي صحبتهما الطويلة يقول الكندي: [من مجزوء الكامل]

ولقدْ صَحِبْتُ الصَّاحبَ ابنَ ... وداعةٍ دَهْراً طَويلا

فَرَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأى، ... أَنَسٌ وَقَدْ صَحِبَ الرَّسُولا

وحكى لي والدي ـ رحمه الله ـ قال: كان الصاحب بن وداعة يلازم الصلوات، المكتوبات في الجامع الأموي، وكانت داره جوار الدار الفاضلية بحضرة باب الجامع، وكان يصرف في كل يوم ديناراً بدراهم... يتصدَّق بها في مروره إلى الجامع إذا ذهب إلى الصلاة، فإن عاقه عائق عن الصلاة في الجامع، يوماً من الأيام، تصدق اليوم الثاني عنه، وقضى النائب لا يخل بهذا أبداً.

وحكي أن الملك الظاهر... وولاَّه الوزارة، وقع بينه وبين نائب الشام جمال الدين التجيبي، فكان يهينه ويسمعه كلاماً مما يتعلَّق بالرفض، فكتب ابن وداعة إلى السلطان يطلب منه مشدّاً تركياً، وظنَّ أنه يكون في تصريفه، ويستريح من التجيبي. فرتب له السلطان عزّ الدين الشقيري، /١٧٣/ فوقع بينه وبين الشقيري وبقي يهينه أيضاً، ثم كاتب فيه الشقيري، فجاء الأمر بمصادرته، فصودر، وعصره الشقيري وضربه، وعلّقه في قاعة الشدّ، وباع أملاكه التي وقفها، وحمل شيئاً كثيراً، ثم حمل إلى مصر، فمرض ودخل القاهرة مثقلاً، ثم مات في آخر سنة ست وستين وستمائة، ولم يُعقب له أوقاف ومسجد وتربة بقاسيون.

وكان المحدث علاء الدين الكندي ـ صاحب التذكرة ـ يكتب بين يديه فنسب إليه.

= ٥٧٢، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٣، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٦٢ـ ٥٦٣، رقم ٥٥٨، والمنهل الصافي ٢/ ٣٠٣ـ٣٠٥، رقم ٤٤٧، والدليل الشافي ١/ ٤١٨ رقم ١٤٤١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ٦٧٠هـ) ص٢٢٥ رقم ٢٠٩.

ومنهم:

[٧٨]

الصاحب محيي الدين، محمد بن يعقوب ابن إبراهيم الأسدي الحلبي الحنفي(١)

عرف بابن النحّاس، نشأ على القراءة والطلب، حتى أُقرَّ على القضاء بحلب، وهو ممن يعد في بيوتها، ويزداد به في ثبوتها، وكان من أعلامها الشوامخ، وقدماء أهل أقدامها الرواسخ.

ثم أتى دمشق، وأقام بها متدبراً، وفي رتبها متحيراً حتى جر مطارف الوزارة، ووقع له على الملوك بالإشارة، وحلَّ في الدست محلَّ الصدر من الجوانح، والبدر من الليالي الكوالح، وسلك من الأمانة سبيلاً، جعلت بعده مناسكها، وأضحى به عيناً، وقد كان يمشي وماله أثر.

ولد في شوال سنة أربع عشرة وستمائة بحلب، وتفقه بها وسمع الحديث بعدة بلاد، ودخل بغداد سنة اثنتين وأربعين وجالس بها العلماء، وناظر وتكلّم، وبان فضله، وكان صدراً معظماً، جليلاً، وجيهاً، إماماً، فقيهاً، عارفاً بالمذهب وغوامضه، علاَّمة في فنون المتفاضل، متبحراً في علم الخلاف والمناظرة، موصوفاً بالإنصاف في البحث.

ولي قضاء الحنفية بحلب في الدولة الظاهرية، وكان صدر أصحاب أبي حنيفة في زمانه، وانتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق، ودرس بدمشق بالمدرسة الريحانية والظاهرية، وكان يحب الحديث والسنة، ويعظم السلف، وكان يقول: أنا على

---

(١) محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم، الصاحب محيي الدين، أبو عبد الله، ابن القاضي بدر الدين، ابن النحاس الأسدي، الحلبي، الحنفي.
ترجمته في: تالي كتاب وفيات الأعيان ١٥٤ـ ١٥٥ رقم ٢٥٠ وفيه وفاته: في المحرّم سنة ٦٩٦هـ، ونهاية الأرب ٣١/ ٣٢٧، والمقتفي ١/ ورقة ٢٤٢أ ـ و٢٥١ب، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٢٢ رقم ٢٢٩٩، ودول الإسلام ٢/ ١٩٨، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩١، والوافي بالوفيات ٥/ ٢٢٤ رقم ٢٢٩٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٤٦، وتذكرة النبيه ١/ ١٩٠، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ١٢٩ـ ١٣٠، وعقد الجمان (٣) ٢٢٥، والدليل الشافي ٢/ ٧١٢ رقم ٢٤٣٤، والنجوم الزاهرة ٨/ ١١٠، والدارس ١/ ٥٢٤ـ ٥٤٥، وشذرات الذهب ٥/ ٤٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٩١ـ٧٠٠هـ) ص٢٧٦ رقم ٣٦٨ .

مذهب أبي حنيفة في الفروع، وعلى المذهب الأحمدي في الأصول ـ أعني أحمد بن حنبل.

وحج سنة خمس وأربعين مع بني عمِّه، واستوطن دمشق، وحجّ ثانية سنة خمس وسبعين من دمشق، فولي أمرة الحاج، فساس الركب أحسن سياسة، وحمدت أمرته.

وولي الوزارة في عاشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين، وكتب له تقليد عن المنصور قلاوون من إنشاء تاج الدين ابن الأثير، فمنه: «الحمد لله على كل نعمة يُولِيها، ورتبة يُولِّيها، وسيادة يُرَبِّيْها، وسعادة يُرْبِيْها يحل دست الوزارة محيي علوم الدين والدنيا ومحبها».

ومنه: وبعد فإنَّ الرتب شرفها بمتوليها... يزيد، والعقل ما امتاز على السلوك إلا بواسطة حسن بها نظام كل فريد، /١٧٤/ والمملكة ما لم يوازرها وازر شديد، ورأي سعيد، وقلم يقلم ظفر الملمّ، ويقوم بعناء المهم، لما افتخرت الدولة، ولكانت مضطربة لولا ابتناؤها على الأقلام والأسل، وكان أولى من عوّل على تدبيره، واهتدى في الأمور بنوره، وتحاسدت الوزارة والأحكام عليه، فكان لهما منه رفع المكانة، وله منهما تنوع المكان إلى أن نالت الوزارة عنها: [من الكامل]

هو الجدّ حتى تفضل العين أختها

ولذلك رسم أعلى الله الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي، لا زالت أوامره مشرفة، ومراسيمه في الأقاليم بأقاليم العلماء مصرفة، أن يفوض إليه الوزارة الشريفة بالشام المحروس على قاعدة الوزارة في النواهي والأوامر، والموارد والمصادر إلى الأموال وتقريرها، والمصالح وتدبيرها، والخيرات وتأثيرها، والبركات وتثميرها، والاستخدام وصرفها، والحرم الذي يطرف عن الأموال عن الخونة كل طرف، ويكفُّ كل كفّ، فليقبل على ما استقبله به من هذا الأمر العظيم، وليدخل في هذا الحلم الذي حلم فيه من له قدرة التحكم والتحكيم، ووصايا الأموال فلا يوصى بها من إذا رضي قال: إني حفيظ عليم، وأرباب الأقلام فلا يعرف بهم، وهو العارف بكل قلم وإقليم.

توفي بالمزة سلخ سنة خمس وتسعين وستمائة، وصُلِّي عليه غرَّة المحرم سنة ست وتسعين، ودفن بتربة له هناك، وحضر نائب السلطنة، والقضاء، وأعيان الناس، والفقهاء، وخلق كثير ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومنهم:

[٧٩]

التقي، توبة بن علي(١)

وجدت الدول منه توبة نصوحى، وأوبة صادفت منه كافياً نصيحاً، رقّي من رتبها العالية صفحا، وتخلق بسجايا كرم لم يزل بها صفوحاً. أفضل بالمنصور قلاوون زمان الإمرة، وخدمه خدمة انفق بها في عنفوان الشباب عمره، وكان يشتري ماء الرقيق ما أضحت مماليكه ملوكاً، وأفراده سلوكاً، فلما وطىء الملك المنصور بقدمه السرير، ورضي لديه السفير، وكان التقى ثوبه قد صار تبعاً / ١٧٥/ للسلطان، ومتبعاً لبحار الترك تتدفق في بعد الأوطان إلى غيرهما كان يبتاعه من أنواع المباع للخزانة العالية، ويملأ صدرها بماء الوراء وقارون ماله الأرتاع مما آل به حال هذا الحال إلى التمنع بطمرها، والتنزه في نظرها، فلما انبسطت يد السلطان بعد سنقر الأشقر بالشام حين نزل عن سلطانها، وذِيدَ عن استيطانها، وتسلم الكرك من بقية البيت الظاهري، وصارت عقليتها في ملكه، وفريدتها في سلكه، ولم يبق إلا أن يسيل من الحضيض أولياؤه، ويفيض على أهل السابقة آلاؤه، ألقى إليه مقاليد الوزارة بدمشق وسائر بلاد الشام، وحكمه فيها حكماً إليه مقاليد الوزارة، وكان لا يزال يراجعها ولا يقر لها قراراً إلا حيث يضاجعها.

---

(١) توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع بن توبة، الصّاحب الكبير، تقيُّ الدين، أبو البقاء الرّبعيّ، التكريتيّ، المعروف بالبيِّع.
وُلِد يوم عرفة بعرفة ٦٢٠هـ، وتعانى التجارة والسَّفر. وكان يعرف السلطان في حال إمرته ويعامله ويخدمه. وولي البياعة وتنقَّلت به الأحوال. ثم لما تسلطن مخدومه الملك المنصور ولاّه وزارة الشام مدة، ثم عزله، ثم ولي وصودر غير مرّة، ثم يسلّمه الله. وكان مع ظلمه فيه مروءة، وحُسن إسلام، وتقرّب إلى أهل الخير، وعدم خُبث. وله همّة عالية، ونفْسٌ أبيّة، وفيه سماحة وكرم وبسط، وحُسن أخلاق، ومُزاح، وعدم جبروت. وكان يقتني الخيل المسوَّمة، ويبتني الدُّور الحسنة، ويشتري المماليك الملاح. وقد عمَّر لنفسه تُربة كبيرة تصلُح للملك، وبها دُفن، وصلّوا عليه بسوق الخيل، وحضره ملك الأمراء والقُضاة والكبراء في ثامن ذي الحجة سنة ٦٩٨هـ.
ترجمته في: أعيان العصر ٢/ ١٣٩-١٤٢ رقم ٥٢٤، والمقتفي ١/ ورقة ٢٨٢ ب، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٦٠ رقم ٩٠، ونهاية الأرب ٣١/ ٣٨٠، وتاريخ حوادث الزمان ١/ ٤٥١- ٤٥٢ رقم ٢٥٧، والعبر ٥/ ٣٨٧، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨٤، والبداية والنهاية ١٤/ ٥، والوافي بالوفيات ١٠/ ٤٣٨ رقم ٤٩٣٠، وفوات الوفيات ١/ ٢٦١ رقم ٩٠، وعيون التواريخ ٢٣/ ٢٧٨، وتذكرة النبيه ١/ ٢١٧، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٤٥، والسلوك ج١ ق٣/ ٨٨١، وعقد الجمان (٣) ٤٧٥-٤٧٦، والنجوم الزاهرة ٨/ ١٨٥، والمنهل الصافي ٤/ ١٧٩ رقم ٨٠٢، والدليل الشافي ١/ ٢٢٩ رقم ٨٠٠، وشذرات الذهب ٥/ ٤٥١، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٢، والمقفّى الكبير ٢/ ٦٢٢ رقم ١٠٣٦، وذيل مرآة الزمان ٤/ ورقة ٢٩٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٩١-٧٠٠هـ) ص٣٤٨ رقم ٥١٣.

وكان واسع النفس، وافر الكرم، كثير التحمل، مليح الهيأة، حسن الشكالة، أصله من بلاد تكريت، وقدم البلاد كثيراً، وتوصل حتى بلغ المبلغ فولي الوزارة في العشرين من ربيع الأول سنة خمس وثمانين وستمائة، وكتب عن المنصور قلاوون تقليد مؤرخ التاريخ المذكور، وكتب له المجلس السامي الصحابي الوزيري التولية.

وهو أول من كتب له بالياء من وزراء الشام والتقت ليد من إنشاء محيي الدين ابن عبد الظاهر، وأوّله «الحمد لله مصطفي من كان نقياً، ومعلي درجه من رفع إلى هضب العلياء، فأحسن لها رقيا، الذي يقبل التوبة عن عباده، ويقبل عن من قربه جميل ارتياده».

ومنه خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي أن يفوض إليه الوزارة الشريفة المنيفة بدمشق المحروسة، وما معها من الممالك الشامية، ولما معها من مصافات، وأعمال وولايات ذوات دواوين، وعمال، وما بها ولها من وجوه مقاليد ومتحصلات أموال، ولتجري في العزل، والتولية، والتعطيل، والتخلية في العقد والحل، قال: كل منهم دق أرجل وفي الإمضاء والتوقُّف وفي المنع والتصرف، وفي المصالح جميعها، وأصولها وفروعها على حكم ما استقرَّت الحال عليه لمن كان قبله مباشراً.

/ ١٧٦/ وفي هذا المنصب قبل مؤازرته، وقد علم أن المجلس العالي الأميري السامي لاجين المنصوري كفيل السلطنة المعظمة بالمماليك الشامية ـ حرس الله عزائمه ـ هو من الأعمال الشامية، وممالكها، وثغورها روح جسدها، ونظيرها يدها، وهو القائم مقامنا في تدبير أمورها، وسداد ثغورها فليستصحب معه من الاتفاق ما يشكر على استصحابه، ولا يحاول إلاّ معه، ولا يجاوب إلاّ به.

قلت: وكتب له في الأيام المنصورية الحسامية لاجين تقليداً من إنشاء شيخنا القاضي شهاب الدين ـ رحمه الله ـ فمنه: وبعد فإن أولى من دعا ليجدد تقليده بما تحسد الذراري مطالع سعوده، والدر بجامع عقوده، وتعرف بالطاعة.

ولما كان المجلس العالي الصاحبي الوزيري، وبقية الألقاب ما برح يثمر الأموال من معادنها عبرته، ويظهر المصالح من مكامنها بما جبله الله عليه من فطنته فطرته، ويصونها بإشفاقه، ويحررها بحسن الضبط من فيض المال وإنفاقه، واقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعل إحضاره إلى أبوابنا الشريفة مقروناً ببلوغ المآرب، وإدراك المطالب، وتجديد السعود التي هي أجمل ما وفد عليه الوالد منقلباً به إلى أهله... فينتحل هذه الرتب، آمنت بمجده من العطل، ويحل هذه الهضبة التي لا يثبت على المحافظة عليها إلاّ كل بطل، وهو ذاك البطل، وكان فيه ستر على الكتاب وأرباب الديوان، ويعطيهم بديل الإعطاء، وقد بدت له مساوؤهم، ويعفو عن زلاَّتهم.

وكان فيه إقدام على الدولة المنصورية لسابق خدمته، ولأن أكثر الأمراء مشتراة للملك المنصور حتى ورطه عرض مملوكاً على العادل كتبغا حين قدم دمشق ـ وهو سلطان ـ.
وكان في رقبته طلوع فطنة العادل شيئاً كان قد طلع فيه مثله حين كان في جملة المماليك، فقال له: هذا يخشى منه؟، فقال له: لا هذا ما هو مثل الذي كان في رقبتك فضربه على أكتافه وعزله، وولّى شهاب الدين الحنفي عوضه، وكان الحنفي وكيله بدمشق، وله عليه حقوق خدمة إلا أن جدوله صادف تباراً، وريحه لاقت /١٧٧/ إعصاراً، فإن العادل لم يلبث إلا ريثما عاد من دمشق إلى بد، ثم نزع وثل من سرير ملكه العرش، فأتى دمشق طريداً، وأقام بالقلعة، والحنفي ينفذ الأمور، ويظن أن الدائرة تدور، وكان له حساب الدهر غير حسابه، وتبَّ الزمان يده من أسبابه، وخلع العادل وأتى التقى توبة لا يهمه إلاّ القبض على الحنفي، لولا أن علاء الدين علي بن معبد هربه وخلّصه من يده، وقد أعلق به مخلبه، ثم باشر التقى توبة الوزارة غير وصول تقليد له ولا مرسوم له بالمباشرة، وعلم وسدّد الأمور ومشاها، وكان يعلم علامة رشاد الكل بخطه بأقلام مختلفة، ويدير أمور المملكة حتى استقرَّت قواعد الملك المنصور لاجين، وبعث إليه بالتقليد والخلعة، واستمر على أكمل ما كان من الرفعة.

ومنهم:

[٨٠]

نجم الدين البصراوي

بيت خرج منه جملة من الكبراء، ودرج منه جلّة من القضاة والوزراء، وسمت نفوس أواخرهم إلى أن عدد من الأمراء، وردوا رداء الجلالة في الدولة الغراء. مطلعهم مدينة بصرى صدوراً في مدارسها، وبدوراً في مجالسها، وأرباب الوظائف بها جميعاً، وأصحاب العوارف الذين طالما أحسنوا صنيعاً.

ولما حلَّ الركاب الناصري بالكرك حيث صرف عما كان عزم عليه من الحج، ووجه ركابه، وفاض على ما جاورها غمامة بانسكابه أكّد به معرفة سابقة، وخدمة تقرب فيها بكل سابقة.

وكان من قناة الخيل يرسلها ألواناً على مقاصده أعواناً، ثم أمّ جهته وإخوته في خفية من المظفر بيبرس، ونائبه الشام أفرش الأفرم، وطافوا بكعبته طواف من حج وأحرم، حتى ثم عادوا، واتخذوهم له بطانة من دون كل رداء، والسناً تبلغ عنه صوت كل...، وبعث منهم إلى أهل طاعته، لتأكيد ما في أعناقهم من أيمان ببيعته، فتخطوا كل خطر، وتخللوا كل صعب، حتى عادوا بالوطر؛ فلما رجع الحق إلى نصابه، وعاد مربع الملك إلى عادة أحصابه، صارت حدائد زبرتهم سيوفاً، وأسمال خبرهم سقوفاً.

وفوّض إليه بالشام أمر الوزارة حتى استقال، وقفل إلى أمرة بقي عليها حتى مات بلا انتقال.

وكان كريماً، رهوباً، /١٧٨/ عالي الهمة، بعيد العزمة. صحب العرب، وأهل البادية، وتخلّق بأخلاقهم الكرام، وسجاياهم في حبِّ كرائم الخيل والإبل، وانتخاب الهجان المحمودة، واشترى صوافن الخيل بجليل المال. واسوقد منها أحاسن الجياد، وجعل عليها رسماً يقوده إلى الأبواب السلطانية في كل، وولي كبار الوظائف بدمشق: الحسبة، ونظر الخزانة، ثم الوزارة ـ كما تقدَّم ـ ثم قلق لكلفة الملازمة والمباشرة بالنفس والدأب في التحصيل والإنفاق، وضاق عطفه بهذا ومثله، وثقلت عليه، وفقه قراسنقر الجوكنداري المنصوري، وكان إذا ذاك في نيابة الشام، وطلب دستوراً من السلطان، فأعطي، فتوجه يقوده إلى الحضرة، وسأل السلطان في الإعفاء، وأخرج خطاً كان السلطان كتب بله بالكرك مضمونه الوعد بالأمرة. فأعطى أمرة عشرة كبيرة تقوم بالطبلخاناه، ثم نقل عن الاقطاع إلى غيره، ثم أعيد، وجرت له أمور من حسد الأمراء الترك له على كبر الإقطاع، وكثرة متحصله.

وكان يميل إلى الشرب، مغرًى بحب الغلمان، لم يزل متنقلاً ما بين دمشق وبصرى وجهات إقطاعه، وبأقرب من البوادي حتى جاءه أجلهُ.

ومنهم:

[٨١]

الصاحب عز الدين، أبو يعلى حمزة بن أسعد بن المظفر بن التميمي بن القلانسي(١)

من بيت الرئاسة القديمة، والسياسة القويمة، والأصالة في تميم، والجلالة من منبت النسب الصميم. كانت آباؤه بعد بني الصقافي، رؤساء دمشق وكبراء أهلها في دفع ما شقَّ.

ولابن القيسراني الشاعر في بعضهم مدائح ذكرهما، وهي في مواضع سكنهم، وموطىء موطنهم.

وكانت الملوك بدمشق إذا احتاجوا في حروب الفرنج وافاتهم، وأخذ ما لا بد

(١) حمزة بن أسعد بن مظفر بن أسعد بن حمزة التميميّ الدمشقي، الصاحب عز الدين أبو يعلى ابن القلانسي: رئيس الشام في عصره. ولد بدمشق سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م وتوفي فيها سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م. ولي وكالة السلطان والوزارة بها، وأنشأ دار الحديث القلانسية، وإليه نسبتها. وأعرض عن المناصب تنزهاً. وصودر.

ترجمته في: التذكرة الكمالية ـ خ، والقلائد الجوهرية ٨٥، والدرر الكامنة ٢/ ٧٥، والدارس ١/ ٩٦، الأعلام ٢/ ٢٧٧.

منه؛ لدفع ضررهم، أو مداراتهم، طلبت رئيس البلد، أو استعانت بسعاته، وتركته وبث دعاته، فيوظف على قدر ما تسعه الأموال وتقتضيه الأحوال.

وكان لا يزال من الأيام النورية في هذا البيت بقية من تلك الإضاءة، وشارقة من تلك الوضاءة، وولي منهم يجد لهذا الوزير الأفضل كتابة إنشاء، ثم /١٧٩/ وزارة لم تطل له باع الرشاء لبعضهم كتاب تاريخ إلاّ أنه كثير على مثله ممن لم يجعل الطلب ديدنه، والعلم معدنه، وكان جلّه أجلاء هذا البيت يرجعون إلى عقاراتهم، ولا يخدمون الملوك إلاّ لمداراتهم، حتى كان والد هذا الوزير مؤيد الدين أسعد بن المظفر، وكان من أهل الغناء، وممن لا يعدّ بأحد من الأمناء، فأقامه الظاهر بيبرس لوكالة بينهما، فوليها على كره أغصَّه بشجاها، وأشرقه بما تجرَّع من كؤوسها المُمِرَّة خوف عقباها.

وحكي من أمانته أن رجلاً أعجمياً قدم للحج تفضل معه مبلغ ألفي دينار عيناً، فسمع بأمانته فأتى إليه والذهب معه، وسأله أن يستودعه، فقال: ضعه في ذلك المكان، وأشار إلى مكان من الرواشن المطلة على داره ـ فطلع العجمي إليه، ووضع فيه المال، ثم نزل للحج، ولم يقدر له العود إلى سنين، فلما أتاها أتى مؤيد الدين في طلب الوديعة، وكان قد أُنسِيَها مؤيد الدين، فقال له: أيّ وديعة لك عندي؟، فقال له: يا سيدي، ارجع إلى الله من قريب.

فغضب مؤيد الدين، وقال له: إليّ تقول هذا. إنْ كنت صادقاً، فذكِّرني بشيء أتذكر به، فقصَّ عليه العجمي القصة، حتى قال له، وأنا وضعتها بيدي في روشن في دارك صفته كذا، قال له مؤيد الدين: يا أخي ابشر إن كنت صادقاً، فمالك مكانه، فإني هناك أضع الأمانات، فاصعد إلى الروشن، فخذ مالك. فصعد إلى الروشن، فوجد ماله بعينه، وقد علاه الغبار لم يلمس منذ وضع هناك إلى يومه ذاك، فأخذ الذهب وانصرف.

قلتُ: ويُحكى عنه من هذا وأمثاله أشياء ليس هذا موضعها، وإنما جاءت هنا عرضاً. فأما ابنه هذا الوزير، فكان صدر وقته، وسرّ الكبر ما في سعته قدم الملوك والأمراء بوداده، واستغرق أوقاتهم باسترداده، واستعدّ الجدّ في استلامه صفاتهم حتى حطم الدروس، وهم الرؤوس، وصار لا يقف قرن في طريقه إلاّ انتحى، ولا يكتب بآرائه اسم إلا تمحى، وكان لا يقدر على تجّرع صبره، ولا يثبت جلد له خرائره يشتري أراقمه بليل، /١٨٠/ وتطل قشاعمه بويل، وتوكّل للسلطان بالشام في خاص ماله، وسلك به سلالا ماله.

ثم عينه السلطان للوزارة فوليها، وهو كاره قد شمر الكره عرنينه وأعرق التحسم لُمستقتمها حنينه، وكتب نظير ما كتب للنائب الجناب العالي، وقدر وهو بها لا يبالي،

وباشر وهو لها غير مريد، ووليها وكان يودّ لو أنَّ بينه وبينها جبالاً من حديد.

وكان الملك المنصور قد صادره على مال أخذه منه، فيمن صادره من الناس، فلما دانت أيام المنصور لاجين، وكان له به سابق معرفة، توجّه إليه بهدايا من ثمار الشام وألطاف، فأقبل عليه وأحسن إليه.

وكان يهش لدمشق، ولمن أتى منها، كما تقدم من نبات فيها، وتعرف أهلها، فعوضه من الأملاك المخلفة عن المنصور قلاوون بعقار عما كان أخذ منه، واستمر له مكاتيب شرعية كتبت له واتقنت، فلما ولي كراي المنصوري بالشام النيابة، اتخذه شحن صدره، وسخي خلقه، وتمحل له الذنوب، وأظهر منه خفي العيوب، وحصل هذه الأملاك سبباً تعلق به عليه، وتوصل منه إلى مضربته وغيّر عليه فاطر السلطان، وكدّر عليه موارد الإحسان، واحجج عليه النيران، ونبّه له كائن الحقد حتى أمر به منه عنان الوزارة، وأمسكه واعتقله في مكان ضيق عليه في الخناق.

وقامت رجال كان قد ملأ صدورهم أحقاداً، وشبَّ جوانحهم بنار البغضاء له إيقاداً، فواجهوه بالبهتان، واستنزلوه ليقطع وحوله حقربان، ويحرصوا له قولاً مأموناً، ونبشوا ما كان له من الشر مدفوناً، وأراد كراي نفسه، ولكن الله سلمه ونجاه، وأخذ من ظلمه بينما كان في تلك الضيافة التي التقت عليه حلقتاها، والشدة التي برقت له عارضتاها، إذ ورد أمن السلطان بإمساك كراي واعتقاله، وربطه في أوثق من اعتقاله، وأدنت ضائقته، ودنت عاشقته من السلاح، ونقل من المكان سدت عليه فيه منافسه، وسلط عليه فيه منافسه، ونزل بدار الحديث الأشرفية حيث مشارق الأنوار اللامعة والأنوار الهامعة، والسنة الشريفة النبوية تنضج بها / ١٨١/ وبطل منها، ونعس في مقامه بها عنه، وثيق الخناق، وشديد الحبل الملتف بالأعناق.

ثم لم يلبث أن وصل أفرش الأشرفي نائباً، وأتاه بالفرج مبشره، وعتم إطلاقه بالفرح أهل بلده، فلم يبق فيهم إلاّ من يبشره.

ثم قصد باب السلطان، فوجد من عفو السلطان وإسعاف الأمير الكبير المحدّث أبي سعيد سنجر الحاولي، وكريم الدين وكيل السلطان، ما أمن روعته، وبرد لوعته، وأمضى السلطان له ذلك التفويض، وأعاده إلى الوكالة على ما كان عليه قبل الوزارة فأقام عليه مدَّة، ثم عزل عنها، وأجرى عليه راتب سلطاني دام عليه إلى أن مات. ووجد من السعادة الوافرة، وحصل من النعم الظاهرة ما كان محسوداً عليه، متطوراً إليه؛ ولقد جمع بين وكالة السلطان، ووكالة كافل المماليك، وبيبرس الجاشنكير رأس البرجية، وكبير الأمراء في وقت واحد.

ثم لما انقطع الملك الناصر بالكرك، وملك المظفر بيبرس، استمر عز الدين

جامعاً بين وكالتيهما، ووكالة سلار.

وطلبه الملك الناصر إلى الكرك على أنه يحاسبه، وقصْدُه أن يبطش به لأمور كان يحقدها عليه، منها أخذ ذلك العقار منه في الأيام اللاجينية، وكان أورثه من أبيه وأخيه، إلى غير ذلك، فشفع له الأفرم في كتب كتبها على يده، وجهزه إليه، فلم ينله كساه، وخلع عليه وأحسن إليه، وأعاده مكرماً على عادته. ولم يزل في نفس السلطان منه لسبب هذا لا لقدر العقار، ولكن لما يرى أنَّ عامياً اهتضمه في وقت، واستضعفه، وأخذ منه ملكه بيد القهر، وعفا له عن هذا غير مرة، وكان خاطره لا ينظفه له، ولا يصفو له كدره.

حكى لي والدي ـ رحمه الله ـ قال: كنّا بين يدي السلطان مرة، وفخر الدين محمد المعروف كاتب المماليك عنده، فسألني السلطان عن عز الدين، فقلت له: إنه حيّ يرزق يذكر صدقات السلطان، ويدعو له، فقال: ذاك إنسان غش أخذ منا ملكنا، فقال له الفخر: كانت المماليك، وكان يدلّ على السلطان ذاك الإدلال آية والله أخذ مليك، ومد أبيك، أو كما قال: وكلّنا نعرف هذا ونشهد به، فقال السلطان: لا أنا تركته /١٨٢/ له، وكان والدي يتخوفها عليه دائماً، ويقول: لا آمن له يوماً نية، قلت: ولقد جرى مرة أخرى ذكره بحضوري، وقال فيه نحو هذا الكلام، وقال الفخر نحوه.

ثم لما تضمنت المطالعة الواردة من الشام ذكر وفاة عز الدين، قال السلطان: استراحت دمشق منه.

وكان عز الدين من ذوي المروءات والمداراة، قائماً بحقوق كل قادم يقدم عليه ومريض يمرض، وميت يموت، يتردد إلى الناس، على كبر مكانته، ويمشي في حوائجه بنفسه وحده، ماشياً في المدينة على رجله، يتردد إلى دور القضاة والحكام، ويثبت كتبه الشرعية، ويؤدي ما يتعين عليه من الشهادات. هذا على إفراط شممه وإباء أنفه، وترفعه عمن فوقه، فضلاء عن النظراء والأشباه.

وكان يبعث إلى الحجاج في كل سنة من يتلقاهم إلى معان، وهما قاربها بالحلواء والفاكهة.

ووقف أملاكه وعقاره على بنيه، وبعض معتقيه، وأخذ منها جهات برّ، وكان من رجال الدهر نبلا، وحشمة، وسعة باع، وعلوّ همة.

ولد في... وتوفي... ودفن بتربة بسفح قاسيون قريب الجهاركسية.

* * *

[مشاهير الوزراء بالجانب الغربي]

وأمّا وزراء الغرب،

فنقول: قد سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله محمد بن القويع عن رتبة الوزير بالمغرب، فقال: ليست بطائل، ولا لصاحبها شيء من الأمر، بل هو كالجاويش يخرج قدّام السلطان يوم الجمعة، حقيقته دون السمعة.

فمنهم:

[٨٢]

الوزير، عيسى بن سعيد(١)

وزير لا وزر عليه، ولا كبر لديه، ولا فضل إلا لآثار يديه. ضرب على السماء مضارب المآرب، وشرّق ذكره في المشارق، وثوى في المغارب. أخذ من السحاب عنان العنان، وعرف من عرف ببابه جنان الجنان، ولا يعبر على منازل النجوم إلاّ ماراً، ولا سحَّتْ ديمه على المجرة إلاّ جارًّا، وكلأه السعد في أقلامه، وجعل السيوف خدم أقلامه، وطالت الرماح قصبها اللداني، وساعدها النصر والتأييد اللداني.

قال ابن بسام(٢): كان قيّمَ دولة أبي عامر وحاملَ لوائها، والمستقلَّ بأعبائها، وملك /١٨٣/ زمام إعادتها وابتدائها، طلع في فلكها قبل دورانه، ودلّ على ما في كتابها دون عنوانه، وساد ذكره كيف كان غروبه وطلوعه، ومن أين اتفق طيرانه ووقوعه.

---

(١) عيسى بن سعيد، المعروف بابن القَطَّاع. وزير أندلسي. كان قيم دولة ابن أبي عامر، والمتصرف في شؤونها. أصله من قوم يعرفون ببني الجزيري، من كورة باغة، كان أبوه معلماً فيها، واتصل عيسى برجال الديوان في قرطبة، وصحب محمد بن أبي عامر وقت حركته في دولة «الحكم» ثم لم يلبث أن اشتمل على الدولة هو وولده وصنائعه، وصاهر ابن أبي عامر سنة ٣٩٦هـ، وكثر حساده والسعاة به، فاضطرب ما بينه وبين عبد الملك بن محمد بن أبي عامر، وانتهى أمره بأن استدعاه عبد الملك إلى مجلس شراب وقتله وقتل بعض أصحابه وقضى على عصبته وأنصاره سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م.

ترجمته في: الذخيرة ق١/مج١/١٢٣ـ ١٣١، الأعلام ٥/١٠٣.

(٢) الذخيرة ق١/مج١/١٢٣.

قال ابن حبّان(١): لم يكن له مأثرة سلف، ولا يثبت بقدم، خلا أنه كان عربي النِّجار من بني الجزيري، فاختلف إلى الديوان، وصحب المنصور بن أبي عامر وقت حركته في دولة الحكم، فبلغ به المنازل الجليلة، [وتبحبح عيسٰى] بعد مهلك ابن أبي عامر، ثم تنكر له عبد الملك هو وولده وصنائعه، ولم ينفذ توقيع إلاّ بأمره، ووالى وجوهاً من أهل الدولة وصاهرهم، ثم صاهر آل أبي عامر.

ثم تنكر له عبد الملك بن المنصور بعد أبيه فسعى عيسى إلى الغدر بالعامرية، والانقلاب مع المروانية، فأرسل هشاماً المؤيد، وأعدّ رجالاً للفتك بعبد الملك، وكاد يتم له الأمر، فوشى به أحد رجاله، فاهتم عبد الملك بمبادرته، واستدعاه إلى مجلس الشراب، وهو لا يفطن بشعوره، فأتاه، ثم عاتبه، ثم صبّ عليه سيفه، وشاركه أصحابه في قتله حتى برد، وجزّ رأسه وعلّقه على باب الزاهرة، وقُبض على جميع موجوده وسُجن أبناؤه. وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره، وغلبته على صاحبه.

وقال فيه صاعد اللغوي: [من البسيط]

فَتِلْكَ هَامَتُهُ فِي الجَوِّ نَاطِقَةٌ ... تُحدِّثُ النَّاسَ مِنْ آياتِهِ عِبَرَا
مَكْتُوبَةُ الوَجْهِ بِالهِنْدِيِّ يَقْرَأُهُ ... مَنْ لَيْسَ يقرأُ مَكْتُوباً وَلاَ سَطَرَا

ومنهم:

[٨٣]

الوزير أبو جعفر، أحمد بن عباس(٢)

رجل أفرط في الشُّح، وأفرغ جهده في القُبح، لو كان بيده البحرَ لانكدر، أو داس على منبع الماء، لما انفجر، أو صافح الغمامَ الممطرَ، لخلاه جَهاما، أو قابل الصباح المسفر، لأعاده ظلاما، لو قدر على الفضاء، لسدَّة على خيط السحاب لشدَّه،

(١) في الأصل: «ابن مروان» وما أثبتنا من الذخيرة.

(٢) أحمد بن عباس القرطبي، أبو جعفر: وزير، من الكتاب المترسلين، جمع من كتب الأدب ما لم يكن عند ملك. وكانت له ثروة واسعة. وعيب بالبخل إلا على الكتب. ووصم بالتيه والصلف. أصله من عرب قرطبة. ومنشأه فيها، واستوزره زهير العامري الصقلي فاستمر معه إلى أن اقتتل زهير وباديس بن حبوس بظاهر غرناطه وقتل زهير وأسر صاحب الترجمة وحبس مدة ثم قتله باديس بيده في حبسه سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م.

ترجمته في: الذخيرة، ق١/ مج٢/ ٦٤٣ـ ٦٧٠ وفيه بعض رسائله، المغرب في حلى المغرب ٢/ ٢٠٥، نفح الطيب ٥٣٥٦٣، الإحاطة ١/ ١٢٩ (١/ ٢٦٧ تحقيق عنان)، الأعلام ١/ ١٤٢.

أو مرَّ بالروض، لأصبح حمماً، أو لامس المسك، لعاد دماً، لو نفخ في الهواء، لما نفَخَ، أو أمسك بحجر الزناد، لما قدح. لو كان في عصر مادر لما ضرب به المثل في اللؤم، أو سكن في المدن العوام، لصاحته على أرجائها البوم، انحل من رب كلب، واكز من باب ضبّ، وأشحّ من باب ...، وأضنّ من الكندي باللاء المسمومة للحين، لا يفتح كفه، ولو ثُقب / ١٨٤/ بمسمار، ولا يجري البخل معه في مضمار.

قال ابن بسام: كان أبو جعفر هذا قد بذّ الناس أهل وقته في أربعة أشياء: المال، والبخل، والعجب، والكتابة.

قال ـ وقد ذكر بخله ـ: لو أن أبا بحر رآه لما ضرب في البخل مثلاً، ولا ذكر معه في رسالته رجلاً. له فيها أخبار تخرق سجف العادة، وتضيق عن قبول الزيادة.

وقال ـ حديث عن الوزير ابن الجدّ وكان امرأً صدق ـ قال: سافرت أيام الشبيبة في معسكر زهير فتى ابن أبي عامر قبل أن يظهر، ويشتهر بصحبة السلطان ذكرى، فرحلنا في بعض الأيام، وقد خلص إلى الأحشاء برد الأحسام وسوى برس السماء بين السماء والآكام، حتى كأنَّ الأرض صفحة حسام، أو صبر غمام وعبث مطر قد غادر الكثبان وغوثا، وصيَّر المسالك تلاعاً ميتا، فكبت بي فرسي، وقد تأخرت عن صحبي، وساخت رجله في بعض ذلك الخيار، فصرعت لحيني، وكانت عندي فروة فيل أعدها لأيام القرّ، فاستظهرت بها يومئذ على شدّة ما كنت فيه على الجهد، وخفته من عادية ذلك البرد فأصابه من الطين ما كاد يشككني في عيافة، وأقمت عامة يومي على إصلاح ما فسد من شأني وشأنه، فوردت العسكر، وقد زاحمت الليل، وبث الوزير المذكور في طلبي الخيل، فساعة رآني قال: ما غالك؟ وأي شيء حبسك لا أبا لك؟ فطفقت أقص عليه أمري، وهو يضحك وكان آخر ما راجعني به: أما عندك إلاّ هذا الفَنَك، ثم انتفخ واستدعى قهرمان ثيابه، وقال: كم أودعت عيابي، وأدرجت في أثناء ثيابي في سفري هذا من الأفناك فجاء بعدد بها. ما ظننتها تجتمع لأحد ولا يحيط بها ملك يد، قال أبو محمد: ولم أشك في تحصيل فروة، وجرّ ذيل كسوة فوالله ما زاد على أن عدّها وأمر القهرمان، فردّها، ثم قال: يا أبا محمد هذه ثياب سفري ومهنتي، وكيف لو رأيت ثياب المدينة، وملابس الزينة.

وقال ابن بسام[1]: وقد ذكر عجبه: والعجب فلم يكن الفضل بن يحيى، ولا معلمه عمارة بن حمزة، ولا عبيد الله بن ظبيان، ولا مطعم بن جبير، في ذلك إلاّ بعض

---

(١) الذخيرة ق١/ مج٢/ ٦٤٣.

قوى سببه و... واطئي عقبه.

وقال وقد ذكر كتابته: والكتابة / ١٨٥/ أربعته. وعلى كل حال فله بها يد، ونفسٌ ممتد، وله فيها يد وغد.

وقد ذكر ابن حيان كيف غرب وطلع، وكيف طار حتى وقع.

ومما قال فيه: كان جامعاً للآداب الملوكية، مؤثراً للدفاتر، مغالياً بها، بلغت عنده أربعمائة ألف مجلد، وأما الدفاتر المخزونة فلم يوقف على عدتها على كثرتها، وكان مع ذلك أغنى ملوك الأندلس. ورث من أبيه خمسمائة ألف مثقال جعفرية، سوى الفضة، والآنية، والحلية، وأمّا الأمتعة في المخازن، والكسوة، والطيب، والفرش، فبحسب ذلك.

ثم حاط هو تلك النعمة بالبخل الشديد القبيح، وحماها بالإمساك الصريح وأثلها بالتكسب والترفيح، حتى صارت أضعافاً مضاعفة، ولم يوفق فيها لبر مزلف، ولا لصنيعة مشكورة، بل أسمن جسمه، وأهزل عرضه، وأشبع بطنه، وأجاع ضيفه.

يطوف في مقاصيره على خمسمائة من مثمنات القيان، وربما لم يكن حظّ الحسناء منهن غير لدغة العضة، ثم لا يعود الدهر إليها، فاتهم بعهر الخلوة للذي شهر به من قلّة الجماع إلى نحل لا كفاله يحمل الناس عنه في ذلك أحاديث شائعة، من أخصر من حكاه لي الوليد بن زيدون عن أبي الباجي كاتب الرسائل، قال: دعاني ابن عباس يوماً مع خواص من أصحابه إلى داره فسرنا مجلس فاهتك به مشاكل الحسن في فرشه، وستوره، وآلته، وآنيته، قد صنفت فيه فواكه غريبة، وأنقال ملوكية على طوله ما وقعت عيني قط على أكثر منها، ولا أغرب من أجناسها، ولا أنفس من أطباقها، وقد غطي جميعها بمناديل شرب تبين صورتها من تحتها، فتطرب العيون والقلوب إليها، فأخذ في ملاعبتها بالشطرنج ولهى من سائر ما أراد بنا إليه، ووصل اللعب بها نهاره كله، وبعض ليلته، لا يرفع رأسه يدعو لنا بطعام، ولا غيره، إلاّ أن رجعنا، وألححنا عليه بالانصراف، فانصرفنا ولم نر شيئاً مما كان أعدّ لنا، وما اعتذر إلينا، وما منا من أسى على ما حرمه مما كان بين يديه، وتعجبنا من... وبخله، واستخفافه بمن دعاه.

ومن نثره قوله[1]:

«وكتابي هذا إليكم، وقد أنفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على كاهله،

---

(١) الذخيرة ق١/ مج١/ ٦٥٢ـ ٦٥٣.

[ونصل] الإمامة في نصابه، وأعدنا / ١٨٦/ في وضع رأس الإمارة على كاهله، ونطلب الأمانة، وأعدنا الحق إلى أهله، [وأصفقنا] على بيعه رضىً واتفاق، وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين المتأيد بالله أيده الله، وطهرنا المنابر من دنس تلك الدعوة، [المستعارة]، وهتفنا هتف التباشير، وقامت بها الخطباء على المنابر، وانجلت الغيابة على فلق الصبح، واقتلعت الظلمة عن وضح الشمس، وأزاح الله غصة الشك، وشجى الإفك، والرمز يكفيكم، والإيماء يغنيكم، ولما استوسق الأمر على منهاجه، واستتم الأمر على أدراجه، هززنا بكم هزَّة التذكير، ورمينا إليكم باليسير».

ومنه قوله[١]:

«قرأت الرقعة الكريمة، ناولتنيها اليد العزيزة، وكأن البدر مدَّ إليَّ يد تختمت بالنجوم الزاهرة، أو الدهر أعطاني بها أماناً من خطوبه الداهرة، وعانيت وشياً منمناً، وأبصرت ريطاً مسهماً، وطفقت ألتمس المجاراة، وأروم المباراة، فإذا شأوي حسير، وباعي قصير، وفمي ملجم، ، ولساني مفحم، لأني تعاطيت مباراة أسد العرين وهو خادر، وموج البحر وهو زاخر».

ومنهم:

[٨٤]

الوزير الرئيس، أبو عبد الرحمان، محمد ابن طاهر[٢]

ما رئي ابن خاقان في تقريضه، وتقريب ما بعد البرق من وميضه، وتقرير ما لا يأتي الليل والنهار بوميضه، وتفريغ الدرّ بما لا يقدر أن يجيء في معاريضه، قال: به بدىء البيان، وختم لديه بيت الإحسان وارتسم، وعنه افتر الزمان وابتسم، واستقر الملك لديه استقرار الطرس في يديه، واختال التاج بمفرقه، اختيال اليراع في مهرقة.

---

(١) الذخيرة ق١/ مج٢/ ٦٥٣.

(٢) محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسي، تغلب على مرسية، وظلّ يحكمها إلى أن غلبته الفتن، وجه إليه المعتمد بن عبّاد جيشاً بقيادة وزيره ابن عمّار وقائده ابن رشيق، ففرّ ابن طاهر إلى بلنسية ونزل في كنف صاحبها ابن عبد العزيز، وتوفي سنة ٥٠٧هـ، وخصّه ابن بسام بتأليف أسماه: «سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر».
ترجمته في: الذخيرة ق٣/ مج١/ ٢٤، ١٠٢، خريدة القصر (قسم شعراء الأندلس) ق٤/ ٢/ ٣١٣ وما بعدها، والحلة السيراء ٢/ ١١٦، وما بعدها، والمغرب في حلى المغرب ٢/ ٢٤٧، وبغية الملتمس رقم ٢٣، والذيل والتكملة ٥/ ٥٩٠، قلائد العقيان ١/ ١٧٠ـ١٧٥ .

ومن نثره، قوله يستدعي أقلاماً قد عدمت بهذا القطر:

«القلم الأقلام، وبها يتشخص الكلام، وهي حلية البيان، وترجمة اللسان، عليها تقرع شعاب الفكر، وذكرها منزل في محكم الذكر، وأريد أن يرتاد لي منها سبعة كالأقاليم حسبة السليم، فضيّة الأديم، ولا يعهد إلاّ حليها والطوال أنابيبها، وإذا استهدت من أنفاسها، أتاك الشكر من طبيب أنفاسها».

ومنه قوله:

«كتبت الجدّ قليل، والذهن كليل بما حدث من عظيم الخرق على جميع الخلق، /١٨٧/ فليقم على الدين نوادبه، فقد حلسه سنامُه وغاربُه، ولنفض عليه مدامعه وعبراته، فقد غشيه حمامه وغمراته، وكان منيع الذرى، بعيداً أن يخلط ويرى، يحميه المتأصل البتر والد وابل الشمس والمسوَّمة الجُرْد، وشيخه كأنهم من مشيخة ما التثموا مرد، فأبى العدد إلاّ أن يفجع ما شمخ مدانيه، ولا يترك له سوى سواحله».

ومنه قوله:

«ووافاني لديك كتاب كريم كما طرز البدر النهر، أو كما بلل القطر الزهر.. طوّقني طوق الحمامة، وألبسني ظلّ الغمامة، وأثبت لي خرق النجم منزله، وأراني الخطوب نائية عني ومعتزله، فوضعته على رأسي إجلالاً، ولثمت كل سطر احتفاء واحتفالاً وفتحته، وأخذت منه للسعادة فالاً».

ومنه قوله:

«أطال الله بقاء الأمير منيعاً حرمه، رفيعاً علمه إنّ الذي بثته الدنيا من مناقبك العليا، فتجلّلت منه أقاصيها، وتكلت به نواصيها، لجاذب نحول أحرارها، وجالت صمت به إلى دراك همم عوال كأنها الرماح عوال، كأنها الحلوق تنفح مسكاً وتشرق، وإن الوشي ما حيطه، وربما أزرى به وخطه، والخير يغنيه عن الخبر، ويعلمه بالعين لا بالأثر».

وقال الفتح في ذكره[1]: وكتب إلى المنصور بن أبي عامر يخبره بخبر السيل الذي سال بمرسيه، فعفى آثارها، وهدّ أسوارها، ... ديارها، وقد كان ورد كتابه مستفهماً عن خبره، ومنتهى عبره،

و... ـ أيده الله ـ كتابه الكريم، مستفهماً عما طار به إليه الخبر عن السيل الحافل

(١) قلائد العقيان ١/ ١٧٢.

الذي عظم منه الضرر، وقد كنت أحداً في الإعلام بحوادثه العظام، فإنه أذهل الأذهان، وشغل البيان، وإذا قيل تملأ السهل والجبل والجنوب كما اضطجعت، والعيون كما هوَّمت للنوم وهجعت.

فمن ماضٍ قد استلبه، وتاج قد خربّه، وفازع قد أثكله، والبرق تحت فؤاده، والورق ينسرب مراده، والكل استسلم القدر، واعتصم بالله تعالى جل من وزر، حتى أرانا الله أية أعجازه وبراهينه، وغيض الماء لحينه، وطلع الصباح على معالم/ ١٨٨/ قد غيرها، ولم يبق إلاّ خبرها، وآكام قد حدرها، لا ينقضي منها عجب لنا، ولا يسمع بمثلها في الزمن الغابر، فالحمد لله على وافي دفعه، وتلافى غوثه ونفعه، لا إله إلا هو.

قال [ابن] بسام حين ذكره(١): أحد من جمع الحديث إلى القديم، وارتقى من رئاسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم، واتفق لبني طاهر بالفتنة المطغية رئاسة كورة مرسية. كان أبو عبد الرحمان يكتب عن نفسه بهذا الأفق كالصاحب بن عباد بالمشرق، وله رسائل تشهد بفضله، وتدل على نبله، ولا سيما إذا هزل، فإنه يتقدَّم الجماعة، ويستولي على ميدان الجماعة الصناعة.

لما خبط أبو بكر بن عمَّار سمرات ملوك الأندلس بعصاه، وتردد ينتجعهم بمكائده ورقاه، وإنما كان يطلب سلطاناً ينثر في يده ملكه، وملكاً يخلع عليه عطفه، جعل أبا عبد الرحمان بن طاهر مرتع همه، ووجه أمِّه.

ولما ألقى المعتمد بن عباد إلى ابن عمار بيده، وقلَّده تدبير دولته وبلده، بعثه على حرب ابن طاهر بغاء لنفسه وبقاء على أُسِّه، فاقبله وجوه الجهاد، وأخذ عليه بالثغور والأسداد، حتى فتّ في عضده، وانتزع سلطانه من يده، ولما نال غرمه، وفعل وقام وزان أمره واعتدل، مدَّ يده وبسطها، وكفر نعمة ابن عباد، وعظمها، وانبرى من حينه على مرسيه، وقعد بها مقعد الرؤساء، خاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء، مستظهراً على ذلك بجر الأذيال، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً أنَّ الرئاسة كأس يشربها، وملا جنون يسحبها، فقيِّض له يومئذ من عبد الرحمان بن رشيق عدوٌّ في ثياب صديق، كان في ذلك الأوان. فخلص عبد الرحمان خلوص الثريا من يد الدَّبرِان، والتقى هو وابن عمّار ببلنسية بعد ذلك، وقد استوى الغالب والمغلوب، وضعف الطالب المطلوب.

وأورد من نثره قوله:

«قد تصرفت بي سهوب الإسهاب، وقد تعلّقت بأطناب الأطناب، وسلكت من

---

(١) الذخيرة ق٣/ مج١/ ٢٤ـ ٢٥.

البلاغة مسالك لا تجد حيات الأدهان فيهان مذبان، ولا أرواح الأفكار في جرّها مهباً، فإن فرعت بأنها معك، وقد باشرت بدعك زاد في انغلاقا، وكنت ككودن مع عتيق لا يرجو له لحاقاً يحجى بذي الحجى /١٨٩/ سلوك سبيل الاختصار والإنجاز إذ لا بُد من الوقوع تحت الاقتصار والإنجاز، والله يبقيك لأحياء رسم الأدب فإقامة أَوَدِ لسانِ العرب».

وقوله(١):

مثلي ومثلك مثل رجل من العرب استقرى عقيلة ربرب، بل سليلة فضل وحسب، فأجزلتْ قِراه، وأكرمتْ مثواه، فلما اطمأن المجلس، واطمأن التأنس، سعته إلى بعض أوطارها، فراقه ما تحت أزارها، فجعل ينشد: [من الرجز]

يا خيرَ أُخْتِ البَدْءِ والحَضَارَهْ
ماذَا تَرَيْنَ في فَتَى فزارَهْ؟
أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ
إيَّاكِ أَعْنِيْ واسْمَعِيْ يا جَارَهْ

وكذلك [غيرك] المخاطب في شؤوني وأنت المراد، وإليك الإيماء وفيك يبدأ القول ويعاد، وأنت ما أعطر خلالك، وأكثر اهتبالك، لازالت أياديك طواق، ومعاليك معطرة الآفاق.

وقوله(٢):

«وتوفي فلان ـ عفا الله عنه ـ وكان البقية الذي يُرضى ببقائها، ويُغْشى إلى أضوائها، فاختلسته المنية، وفجعت به الدنيا الدنية، فمن شأنها أن تذهب بالأفاضل، وتذهب على الأماثل، نقله الله إلى رضوانه، وحفَّه بغفرانه، وأحسن العزاء عنه، وإن عزّ العوض منه.

وأما عهدنا فقد درس منه العهد، بخطوب يتمنَّى معها الفقد: بلاد لحقها التغيير، واستولى عليها التدمير، وأكلت الجوعة بنيها، وتعطل الشرع والدين فيها، فلا صلاة تجمع، ولا منبر يرفع، والكل في حوض الردى ناهل، فلينُحْ على الإسلام نائح، وليجبه من جانب القبر صائح».

---

(١) الذخيرة ق٣/ مج١/ ٧٣ـ ٧٤.

(٢) الذخيرة ق٣/ مج١/ ٧٦ـ ٧٧.

وقوله[١]:

«وفيما ذكرت قرع من الظنابيب، وشرع للأنابيب، وهرج يشمل البعيد والقريب، ومحض ودي، وصحيح عقدي، وما لا يشك فيه عندي، تحملني لك على الانتصاح، شحاً مني، ورغبة في الصلاح، وحسماً لأسباب الفتنة، التي تعظم معها المحنة، فإن وافق قولي قبولاً، وكان على أحسن التأويل محمولاً، فذلك الذي عرضت، وله تعرضت، وإن كان ما سواه، فهي أمور يدبرها الله».

ومنهم:

[٨٥]

أبو بكر، محمد بن عمار[٢]

لطائفه ألذُّ / ١٩٠/ من تقويم الكرى، وأرقّ من النسيم إذا سرى، وقوله: أدر الزجاجة.. ألطف مما تشعشعه، وأميل بالأعطاف مما تضعضعه مثل الطَّيف إذا سرى قوله، والتجم قد صرف العنان عن السرى، بل هي أبعد استعادة، وأبعد من الحبيب النازح استزادة، إذا أنشدت له هي أو سواها من بدائع فطرته التي سواها، قلت:

---

(١) الذخيرة ق٣/ مج١/ ٨٩.

(٢) محمد بن عمّار بن الحسين بن عمّار المهري الأندلسي الشَّلْبي، أبو بكر: وزير، شاعر هجاء، يلقب بذي الوزارتين. ولد سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، صحب المعتمد بن عبّاد (صاحب غرب الأندلس) من الصبا، ثم جعله المعتمد وزيراً له ومشيراً وجليساً، ثم خلع عليه خاتم الملك ولقبه بالإمارة، واستنابه على «مرسية» فعصى بها وتملكها، ونُسب إلى البيتان المشهوران:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فتلطف المعتمد في الحيلة معه إلى أن وقع في يده، فذبحه صبراً، بإشبيلية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م.

ونسبة المهري إلى مهرة بن حيدان، من قضاعة.

والشلبي إلى مدينة شلب Silves بالأندلس.

ولثروت أباظة «ابن عمّار ـ ط» قصة اشتملت على بعض أخباره مع المعتمد، وللدكتور صلاح خالص، كتاب «محمد بن عمّار الأندلسي ـ ط» ببغداد، في أدبه وسيرته.

ترجمته في: قلائد العقيان للفتح بن خاقان ١/ ٢٥٣ـ٢٨٨، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ق ٢/ مج ١/ ٣٦٨ـ٤٣٣، وخريدة القصر (قسم شعراء الأندلس) ق٤/ ج٢/ ٥٩، وبغية الملتمس ١١٣ رقم ٢٢٧، والمطرب لابن دحية ١٦٩، والمعجب للمراكشي ١٦٥ رقم ١٣٣، ١٧٣، ١٧٤، ٣٠٠، والمغرب في حلى المغرب ١/ ٣٨٩ـ٣٩١، رقم ٢٧٩، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٢٥ـ٤٢٩ رقم ٦٦٩، ورايات المبرّزين لابن سعيد ٢٥، وأعمال الأعلام ١٦٠، =

الصباح أهدى لنا كافوره، وأستر الليل غيره، والأكل وقت السحر والسماء، فهم مكنون سرّهما، وغيره.

وذكره الفتح بن خاقان قال: أتى عليه حين من الدهر، ثم كسي بعد إشراقاً ونورا، فأصبح راقي منبر وسرير، ولمح ما شاء بطرف فيه ضرير، واصطفاه العدو، فاتفق به السكون والبدو، وطاعت له اللبانات والأقطار، حتى رأس بتدبير، وجلس مجلس الأمير، ثم رأى أن ... على ميوله، ويجتري بتوليه تحصيل في قبضة المعتمد قميصاً، وعاد معنى خلاصه بهما عويصاً، إلى أن طرقه الحسام طرقاً، وذوقه الحمام فما استعذبه ذوقاً، قتله بيده، وأنزله ليلاً في ملحده.

قلت: وكماله فما لم يرضع به القلائد من الفوائد قوله من نثره: وإن كان هذا الفعل لتوبة فضحت، وطريقة من التقوى وضحت، فما يصنع مولاي من تلك الآلات، ومن يستخلف على الضلالات، وهيهات لقد مرد شيطانه، وصعبت أشطانه، وإنما هو الآن يرجى ليجتهد، ويجتمع لكي يثبت.

وقال الفتح: ودخل سرقسطة، فلما رأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، عكف على راحِهِ معاقراً، وعطف بها على جيش الوحشة عاقراً، فبلغه أنهم نفذوا سربه وفروا بالملام غربه، فقال: [من الطويل]

نَقَمْتُمْ عَلَيَّ الرَّاحَ أُدْمِنُ شُرْبَهَا ... وَقُلْتُمْ فَتَى لَهْوٍ ولَيْسَ فَتَى جِدِّ
وَمَنْ ذَا الَّذِي قَادَ الجِيادَ إلى الوَغَى ... سِوَايَ وَمَنْ أَعْطَى كَثِيراً ولَمْ يُكْدِ
فَدَيْتُكُمْ لِمْ تعلموا السِّرَّ [بَيْنَكُمْ] ... فَلَيْتَكُمُ جُهْدِي فَأَبْعَدْتُكُمْ جُهْدِي

/١٩١/ ثم قال: وأهدى الناس في يوم عيد المعتمد، واختلفوا، وقضوا الفرض وتنفَّلُوا، واقتصر هو على ثوب صوف بحري أهداه وكتب معه:

لَمَّا رَأَيتُ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي ... إهْدَاءِ يَوْمِكَ جِئْتَهُمْ مِنْ بَابِه
سعثب بحري الشَّمْس شِبْه أهلها ... وَكَسَوْتَ قَيْنَ البَحْرِ نَحْوَ ثِيَابِه

وقال يتغزل في غلام رومي للمؤتمن بن هود قد لبس درقاً، وهو يرنو بنرجسه، ويعطر بسوسنه: [من الوافر]

= والعبر ٣/ ٢٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٨٢ـ٥٨٤ رقم ٣٠٤، ومرآة الجنان ٣/ ١٢٠ـ ١٢١، والوافي بالوفيات ٤/ ٢٢٩ـ٢٣٤ رقم ١٧٦٠، ونفح الطيب ١/ ٦٥٢، ٦٥٦، وشذرات الذهب ٣/ ٣٥٦ـ ٣٥٧، وهدية العارفين ٢/ ٧٤، ومعجم المؤلفين ١١/ ٧٤، الأعلام ٦/ ٣١٠ـ٣١١، وللدكتور صلاح خالص مؤلف عنه جمع فيه شعره، وطُبع في بغداد سنة ١٩٥٧. ونشر الدكتور ثروت أباظة دراسة عنه في كتيب صدر ضمن سلسلة «اقرأ» المصرية، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٧١ـ٤٨٠هـ) ص٢٠٨ رقم ٢١٦ .

وأغْيَدَ مِنْ ظِبَاءِ الرُّوْم عَاطٍ لَسَالِفَتَيْهِ مِنْ دَمْعِي فَرِيْدُ
قَسَا قَلْبَاً وسنَّ عَلَيْهِ دِرعاً فَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ حَدِيْدُ

وقال: [من الوافر]

رَشَأٌ يَرْنُو بِنَرْجِسِهِ وَيَعْطُو بِسَوْسَنِهِ وَيَبْسِمُ عَن أقَاحِي
تُشِيْرُ إلَيَّ قُرْطَاهُ وَتُصْغِي خَلاَخِلُهُ إلَى نَغَمِ الوِشَاحِ

وقال: [من مخلَّع البسيط]

يَا عَضُدُ الدَّوْلَةِ المُصَفَّى مِنْ جَوْهَرِ النُّبْلِ وَالذَّكَاءِ
مَاذَا تَرَى فِي اصطِبَاحِ يَوْم مذهب الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ
سرفه مِنْ نَدَى زَمَانٍ لَمْ يَقْسِمِ الرِّزْقَ بِالسَّوَادِ

قال الفتح: واستدعى منه في أحد سفراته مشروب بموضع ليس فيه غير القتاد، ومحل المرتاد، فبعثه وقرن معه تفاحتين ورمانتين، وقال: [من الوافر]

خُذُوهَا مِثْلَ مَا اسْتَهْدَيْتُمُوهَا عَرُوسَاً مَا تُزَفُّ إلى اللِّئَام
وَدُونَكُمُ بِهَا ثَدْيَيْ فَتَاةٍ أضَفْتُ إلَيْهِما خَدِّيْ غُلاَمَ

وقال يصف مكاناً علياً حبس فيه: [من الكامل]

وَمَعَارِجٍ أدَّتْ إلَى حَرَجٍ حَتَّى مِنَ الأنْوَاءِ والقَطْرِ
عَالٍ أظُنُّ الجِنَّ إذْ مَرَدَتْ جَعَلَتْهُ مَرْقَاةً إلى أسْرِ
وحشٌ تَنَاكَرَتِ الوُجُوهُ بِهِ حتَّى اشتَرَيْت بِصَفْحَةِ البَدْرِ
قَصْرٌ يُمَهِّدُ بَيْنَ خَافِيَتَيْ نِسْرَيْنِ مِنْ فَلَكٍ وَمِنْ وَكَرِ
مُتَحَيِّر سَالَ الوَقَارُ عَلَى عِطْفَيْهِ مِنْ كِبَرٍ وَمِنْ كِبْرِ
/١٩٢/ مَلَكَتْ عِنَانَ الرِّيْحِ رَاحَتُهُ فجِيَادُهَا مِنْ تَحْتِهِ تَجْرِي

ومنهم:

[٨٦]

ابن العطار

بدر الأفق الغربي، ومالك عنان اللسان العربي، المسك ما مجّه يراعه، والسلك ما مده صواعه، أعلته الدول اعتلاء النجاد، واعتلقته اعتلاق البجاد.

ومن نثره الذي أقطعه سرى الآفاق، ومجرى النجوم بين الغروب والإشراق، قوله:

جددت يا حزي هذه أكرمكم الله العهد بكم، ووجدتُم أكثرها من ثمرات أدبكم، ومن حرم نفس عصام حرم الإعظام، وفلان ممن كان يلوذ بالفقيه الأستاذ، واقتدى به،

وأخذ عن آدابه ما اقتبس من أنواره، وأنس بجواره، ثم حرمته الأقدار وثبات به الدار، فأهل بماء مقلته، وأن يوثق بنجوم ليلته، وما أجزأه أن يُصلح من أخراه، وأخلقه أن يتوب إلى من خلقه، فبذنبه ذهب عنه من قربك نصيبه، وإنَّ الرجل ليحرم الرزق بذنب يصيبه كيف ما هو أحياء النفوس من القوت، وأعلى قدراً من نفيس الياقوت، والله - سبحانه وتعالى - يغفر لمن عصاه، ويدني بحوله من أقصاه، فينقضي البين، ويلقى عصاه، وينشد قول الأول: [من الطويل]

فألْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقرَّ بِها النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنَاً بالإيَابِ المُسَافِرُ

ومنه قوله:

لقد قال رأي في ... عنه ونأي، ولو علقت، لما انتقلت عن قطر هو من ريَّاه عن عطر، ولا تركت محلاً هو بفخره مجلا، ولا فارقت سيدي الأستاذ، ولو سمحت لي دنيايَ بملك بغداد، فلطَالَمَا أفادني من رباع الحكم عالي الجوهر، وأوردني من رائع الكلام صافي نهر، ولربّ مقال تميَّز عن أشكاله، وأعجز لإشكاله، فحرم عن الذهن... معنى ذلك القيل حلة ومحلّه، فأضحك ثغره، ولمعت ثناياه، وذكرك فتضعضعت ثناياه، والله يبقيك للعلم. فعلى أعلامه وعلى ظلامه.

وكتب إليه أبو عبد الرحمان بن ظاهر:

في إحاطتك الوافية، ودرايتك الوافرة، إني بك راجح ميزان، فنهل ماء الفخر ترى ماء الورد عطر رائحة العهد، وإن بشراي تتابعت /١٩٣/ أنَّ هلالك في الوزارة طلع بدراً وأنَّ نداك بها صار شفعاً، وكان وتراً، فقلت: ساقها شغفها، وزانه شرفه لأشرفها، فليَهْنِها حلولها بفرقديها، وجمعك بين نيرها وإنك مقلدها من خلالك فذاَ وتوأماً، وملبسها من صفاتك طرزاً، وأعلى ما حسن بعين، ومثابة دين، وطيب خدم، ورسوخ درع، وعلم وأدباً كالروض نبهه الصبا، وكرماً كالغيث غمر الرُّبى، ولقد بعدت للتهنئة، فأقبلت على هواديها، وانثالت على من حاضرها وباديها، فان تقدَّمت فلفرط ....، وإن تعظمت فلعظيم.

ومنهم:

[٨٧]
ذو الوزارتين، أبو عامر بن الفرج[١]

أيكة مجد مدَّ الله أيامه وأدامها، وثبَّت في السعادة أقدامها، فذلَّت له المصائب، وانقادت له بعقيصها انقياد الكاعب، فوطد دولة ملك قربه، وأمضى له عزيمة تولت

(١) ترجمته في: مطمح الأنفس ١٥-١٦ رقم ١٨٦، الذخيرة ٣/ ١/ ١٠٣- ١٠٤، المغرب ٢/ ٣٠٣، الحلة السيراء ٢/ ١٧١، نفح الطيب ٣/ ٤٠٨، ٥٤٢-٥٤٣، قلائد العقيان ١/ ٢٩٧- ٢٩٩.

الملك لربه، ولم يزل أيامه الذوائب شامخة الأنف على النوائب، لا تكلَّم الدهر إلاَّ بغمز حواجبها، ولا تتقدم الليالي، ولا للقيام بواجبها إلى آخر مدة، ومفاجأة ما كان يتوقعه من اممه، وطال ما ليس الأيام ... المرام فوافى، فأخذ غرَّة الأيام غفلاً، وصحب الزَّمان في أول شبيبته، وكان طفلاً.

قال ابن بسام[1]: من بيت رئاسة، وعترة نفاسة، ما منهم إلاَّ من تحدَّى بالإمارة، وتردَّى بالوزارة، فأومض في آفاق الدول، ونهض بين الخيل والخَوَل، وفاقهم أبو عامر هذا أدباً ونبلاً، وباراهم كرماً تخاله وبلاً، إلاَّ أنَّه بقي وذهبوا، ولقي من الأيام ما رهبوا، فعاين منكرها، وشرب عكرها، فجال في الآفاق، واستدرَّ أخلاف الأرزاق، وأجال للرجاء قداحاً متواليات الأحقاب، وقد أثبتُّ له بعض ما قاله وحاله قد أدبرت، والخطوب قد انبرت فمن ذلك: [من الكامل]

الشَّمْسُ أنْتَ وَقَدْ أظَلَّ طُلُوعُهَا فاطِلُعْ وَبَيْنَ يَدَيْكَ فَجْرٌ صَادِقُ

وكان له ابن مكبود، قد أعيا علاجه، وتهيأ للفساد بذلك مزاجه، فدُلَّ على خمر قديم، فلم يعلم بها إلاَّ عند فتًى وسيم، فكتب إليه: [من المجتث]

/١٩٤/ أرْسِلْ بِهَا مِثْلَ وُدِّكْ أرَقَّ مِنْ مَاءِ خَدِّكْ
شَقِيْقَةَ النَّفْسِ فانضَحْ بِهَا جَوَى ابْنِي وَعَبْدِكْ

وكتب معتذراً عن تخلُّفه من جاء منذراً: [من الخفيف]

مَا تَخَلَّفْتُ عَنْكَ إلاَّ لِعُذْرٍ وَدَلِيْلِيْ فِي ذَاكَ حِرْصٌ عَلَيْكَا
هَبْكَ أنَّ الفِرَاقَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ أتُرَاهُ يَكُونُ إلاَّ إلَيْكَا[2]

ومنهم:

[٨٨]

أبو محمد بن القاسم[3]

أثنى عليه ابن خاقان بجهده، ووصف له حال خُمُول كفَّنه ببُرده، وكحَّله بسُهده، إلاَّ أنَّه قال ما معناه إنَّه أقبل على ربِّه، وأقبل نظره بيد كتبه.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١/ ١٠٣. (٢) الذخيرة ٣/ ١/ ١٠٣-١٠٤.

(٣) أبو محمد، عبد الله بن يمين الدولة محمد بن عبيد الله بن قاسم، أبو محمد، من بني قاسم أمراء إقليم البونت، وقد خضع بنو قاسم إلى ملك قشتالة، إلى أن استولى المرابطون على إمارتهم مع نهاية القرن الخامس الهجري، وهاجر هو إلى المغرب فقضى فيها بقية حياته.
ترجمته في: قلائد العقيان ١/ ٣٧٧-٣٩٠، صلة تاريخ الطبري لعُرَيب ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، =

وقال ـ وقد وصفه في الأدب بأعلى الرتب ـ وقد أُبت من نثره المنتخب، ونظمه المستحل المستعذب ما تقاطبه المدامة، ولا يدانيه قدامة.

قلت: وهو كما وصفه به الفتح وفوقه، يتناول بيده ذهب الشمس، وفضة القمر، وصاغ الثريا خاتمه، والهلال طوقه، وسرى إلى الأفق والنجوم رواكد، وأشار وأغار على شرب الكواكب، وأخذ فرائد.

قال الفتح[1]: فمن ذلك ما راجعني به من رقعة كتبتها إليه مودّعاً، وصفت فيها النجوم:

عذيري من ساحر بيان، وناثر جمان، ومظاهر إبداع وإحسان، ما كفاه أنَّ أغنام الجواهر اعتياما، وجلاها في أبهى مطالعها نثراً أو نظاما، حتى حشد الكواكب والأفلاك وجلبها نحوي كتائب من هنا ومن هناك، وقدماً حمل لواء النباهة، وأعجز أدواء البداهة، وليس الغمر كالنزر. رويدك أبا النصر، فما سميت فتحاً، لتفتح علينا أبواب المعجزات، ولا ملئت سرواً؛ لترتقي علينا إلى الأنجم الزاهرات، فتأتي بها قبيلا، وتريد منا أن نسومها كما سميتها قود وتذليلاً، وأنَّى لنا أن يساجل احتكاماً، أو يناسل إقداماً من أقدم حتى على القمرين، وتحكَّم حتى في انتقال الفرقدين، وقصَّ قوائد النسرين، ثم ورد المجرَّة، وقد تسلسلت غدرانها، وتفتح في حافاتها أقحوانها، وهنـةٱك اعتقد النجم التنجيم، وأحمد المراد الكريم، حتى إذا وقع قبابه، ومدَّ مـا أحبَّ أطنابه، سيم الدهماء، وصمّم المضاء، واقتحم علـى العذراء رواقها، وفصم علـى /١٩٥/ الجوزاء، وتغلغل في تلك الرجاء، واستباح ما شاء أن تستبيحه من نجوم السماء، ثم ما أقنعه أن بهرها بإدلاله، حتى ذعرها بجياد أقواله، وغمرها بالمراد من سلساله، فله ثم خيل وسيل، لأجلها شمَّر عن سوق التومين ذيل، وتعلَّق برجل السفينة سهيل. هناك سلم المسالم، وأسلم المعارض والمقاوم، فما الأسد وإن لبس الديرة

= ١٠٤، ١١٠، وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ٤٤، ٤٥، ٤٧ـ٤٩، ٧٩، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ٣٤٢٣، والتنبيه والإشراف ٣٢٩، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ٢/٢١٦، والـوزراء لـلـصـابـيء ٤٨، ٦١ـ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٨ـ٧٠، ١٤٠، ١٤١، ١٧٩، ٢٨٤، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٤٠، ٣٤٦، ٣٤٧، وتاريخ حلب للعظيمي ٣٨٤، والإنباء في تاريخ الخلفاء ١٥٦ـ١٥٧، والكامل في التاريخ ٨/١٦٧ـ١٦٨، الفخري ٢٦٩، مختصر التاريخ لابن الكازروني ١٧٥، الوافي بالوفيات ١٧/٤٧٣ـ٤٧٤ رقم ٢٣٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٣١١ـ٣٢٠هـ) ص٤٧٩ رقم ١٦٢.

(١) قلائد العقيان ١/٣٧٨ـ٣٨٠.

ثلاثاً، واتَّخذ الهلال مخلباً، وإنَّما انتهض تحت صبا أعنته، وقبض على شبا أسنته، وما الشجاع وإن هال مقتحماً، وفغر عن الدواهي فماً، وقد أطرق فما رآه ولا وجد مساغاً يأباه، وما الرامي، وقد أنفس عن مرامه، ووجبت لبته بسهامه، وقد قطر دفيناً وغودر بذابله [طعيناً] وتجاوز لمقتي وصفوي، ومتعني بفكري، فقد رجع قليلاً، ودع لي ذهني عسى أن يتودع قليلاً.

قلت: ولما أشاع ذكر كسب به الفتح، وما أجابه ابن القاسم من هذا الجواب،كتب القاضي عياض إلى ابن القاسم رقعة مضمونها[1]:

«قد وقفت أعزَّكما الله على بدايعكما الغريبة، ومنازعكما البعيدة القريبة، ورأيت ترقيكما من الزهر إلى الزهر، وتنقلكما إلى الدراري بعد الدر، فأبحتما حمى النجوم، وقذفتماها من ثواقب أفهامكما بالرجوم، وتركتماهما بعد الطلاقة ذات وجوم، فحللتما بسيطها بغارة سعولها ما عوت أكلب العواء، وهناك افترست الفوارس، ولم يغن عن السماك الدامس، وغودرت النثرة نثاراً، وأغشي لألاؤها نقيعاً مثاراً، كأن لكما بها تأثراً، وأشعرت الشِّعْرَيان ذعراً، وقطعت إحداهما أواصر الأخرى، فأخذت بالحزم العَبُور، وبدرت حبلكما وسلككما بالعبور، وحذرت اللحاق أن تعود عن منجاء العيون، فحلفت أختها جهدها في الاختفاء، كأن الثريا حين فزتم بقطينها، اتقتكم بيمينها، فجذذتم بنانها، وبذلت للخصيب أمانها، فعندها استسهل سيل الفرار، فأبعد بيمينه القرار، وولى الدَّبَرَان مدبراً، وذكر البعاد فوقف متحيراً، وعادت الفوائد بشامها، وألقت الجوزاء للأمان بنطاقها ونظامها، فمهلاً سكنتها غوثاء الدهماء، فقد دعوتما حتى نجوم السماء، فتزحزحا في مجدكما قليلاً، واجعلا بعدكما /١٩٦/ للناس إلى البيان سبيلاً، فقد أخذتما بآفاق المعالي والبدائع، لكما قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِع».

فكتب إليه هذا ابن القاسم رسالة منها[2]:

«.... هببت أنت هبوب زيد الفوارس، وقربت تقريب الإله المدامس، بومض في رجوم، وتمتغض للنجوم فاستخرجها، ومن هناك صبحت الفيالق، وفتحت المغالق، فأذعن بشروطك الشرطان، وازدحمت بالبطين حلقتا البطان، وثار بالثريا [ثبور]، وعصفت بالدَّبران الدَّبور، وهكذا استعرضت واستنهضت للخطب النازل، ثم تيامنت نحو الجنوب، فواهاً للمعاصم والجنوب.

---

(١) قلائد العقيان ١/ ٣٨١ـ٣٨٢، خريدة القصر، (قسم شعراء الأندلس) ٢/ ٣٩١.
(٢) قلائد العقيان ١/ ٣٨٣ـ٣٨٥، خريدة القصر، (قسم شعراء الأندلس) ٢/ ٢٩٣.

لـم يـبـق غـيـر طـريـد غـيـر منـفـلـت ومـوثـق فـي حـبـال الـعـزّ مـسـلـوب

استخرجت السفينة من لججها، وجالت الناقة لهودجها، وغودرت العقرب يخفق فؤادها، وذعرت النعائم فخاطب طرادها، ولما مسحت تلك الآفاق ما نحت فيها، وسددت الوثاق عطفت ذات الشمال، واسعت أسباب الشمال، فلا مطلع إلاَّ ألقى إليك باليمين، واستدارت حولك الفكة، فسميت قَصْعَة المساكين، وانتهت إلى القطب، فكان عليه المدار، وتبوأته ففيه من جلالتك افتخار».

ومن نظمه قوله وقد كتب إليه بعض أصدقائه[1]: [من البسيط]

وَاحَسْـرَتَـا لِـصَـدِيْـقٍ مَـا لَـهُ عِـوَضُ إنْ قُلْـتَ مَن هُوَ لاَ يَلْقَـاكَ مُعْتَـرِضُ

أَلْقَاهُ بِالنَّفْسِ لاَ بِالجِسْمِ مِنْ حَذَرٍ لَـعَـلَّـهُ مَـا رَأَيْـتُ الـحَـدَّ يَـنْـقَـبِـضُ

فكتب إليه من قطعة[2]: [من البسيط]

نَـاشَـدْتُـكَ الـلـهَ والأوصَـافُ مُـكْـرَمَـةٌ أمَـا الـوفـاء بِـحُـسْـنِ الـوُدِّ مُـعْـتَـرَضُ

هَـبِ الـمَـزَارَ لـمـعْـنَـى الـريـب مُـرْتـفـعـاً مَـا لِـلْـوِدادِ بِـظَـهْـرِ الـغَـيْـبِ يَـنْـخَـفِـضُ

ومنهم:

[٨٩]

الصاحب ذو الرئاستين أبو مروان، عبد الملك بن رزين[3]

وهو من نوع الأول من الأمراء، ويعد من الكتاب والشعراء، يرفع بين الكتائب علمه، وبين الكتاب قلمه.

وقد ذكره الفتح ـ بعد أن ألم بذكر كريم ذكره سلفه، وقد تمَّ شرفه / ١٩٧/ ـ فقال: «شيد بناءهم، وتقبل غناءهم، لا يعرف جبناً، ولا خوراً، ولا يتلو غير سور النداء سوراً، وكانت دولته موقف البيان ومقذف الأعيان، يُرتضع فيها للمكارم أخلاف، وتُدار بها

(١) قلائد العقيان ١/ ٣٨٩.

(٢) من قصيدة قوامها ١٤ بيتاً في قلائد العقيان ١/ ٣٨٩ـ٣٩٠.

(٣) أبو مروان، عبد الملك بن رزين بن هذيل حسام الدولة بن خلف بن لب بن رزين صاحب السهلة، ولي الحكم عن أبيه سنة ٤٣٦هـ، كان شديد الإعجاب بنفسه وكان يتعسّف على الشعراء، ويتعسّر بمطلوبهم من العطاء، وكانت وفاته ٤٩٦هـ، وقد صار إليه من أعمال بلنسية بعضها، وولي بعده ابنه يحيى فأقام يسيراً، وتغلّب عليه ابن تاشفين.

ترجمته في: الحلة السيراء ٢/ ١٠٨ـ١١٥، والمطرب ٣٩، والبيان والمغرب ٣/ ٣٠٩، والمغرب في حلى المغرب ٢/ ٤٢٨، والذخيرة ٣/ ١/ ١٠٩ـ ١٢٤، خريدة القصر (قسم شعراء الأندلس) ق٤/ ٢/ ٣٠٨ـ٣١٢، والحلل السندسية ٢/ ١٠٢ـ١٠٣، قلائد العقيان ١/ ١٥٧ـ ١٦٩.

للأماني سُلاف، فوردت الآمال نداه... ووجداً لأحمال في داره سميراً».

ومن نثره قوله[(١)]:

«ما زلت ألقاك بالودِّ على البعد، فأعلم مقدمك في الأعيان، وإن لم أرك بالعيان، واستخبر الأخبار فاسمع، ما يقرع صفاة الكبد ويصدع، إلى أن ورد فلان، فاستفهمته عن حالك، فذكر أزعج ارتماضاً لمثلك أن يعوزه مرام، أو ينبو به مقام، فجردت عن ساعد الشفاعة عند القائد الأعلى، بأنَّه أمر محظور، وقد تقدم به جدّ محذور.

وأنا أعرض ما هو الأولى لي، والأليق بي عن عزيمة مكينة، ورغبة وكيدة، من الانتقال إلى جهتي، وأن شقَّ عليك الكون بها لبرد هوائها، وبعد أنجائها، فها هي شنتمرية، أوقف طاعتها عليك، وأصرف أمرها إليك، وعندي من العون على الارتحال، ما يقتضيه للرفيع الحال».

ومن نظمه قوله: [من الطويل]

وَرَوْضٍ كَسَاهُ الظِّلُّ وَشْيَاً مُجَدَّداً ... فَأَضْحَى مُقِيْمَاً لِلنُّفُوسِ وَمُقْعِدَا

إذا صَافَحَتْهُ الرِّيحَ خِلْتَ غُصُوْنَهُ ... وراقص فِيْ خُصْرٍ مِنَ العَصْبِ مُيَّدَا

إذا مَا انْسِكَابُ الماءِ عَايَنْتَ خِلْتَهُ ... وَقَدْ كَسَرَتْهُ رَاحَةُ الرِّيْحِ مِبْرَدَا

وَغَنَّتْ بِهِ وُرْقُ الحَمَائِمِ حَوْلَنَا ... غِنَاءً يُنَسِّيْكَ الغَرِيْضَ وَمَعْبَدَا

فَخُذْهَا مَدَامَاً مِنْ غَزَالٍ كَأَنَّهُ ... إذَا مَا سَعَى بَدْرٌ يحمّلُ فَرْقَدَا

ومنه قوله: [من الخفيف]

بَرَّحَ السُّقْمُ بِي فَلَيْسَ صَحِيْحَاً ... مَنْ رَأَتْ عَيْنُهُ [عُيُونَاً] مِرَاضَا

إنَّ لِلأَعْيُنِ المِرَاضِ سِهَامَاً ... صَيَّرَتْ أنْفَسَ الوَرَى أغْرَاضَا

ومنه قوله يخاطب ابن عمّار حين تجنّى عليه: [من الطويل]

تَحَقَّقْ أبا بَكْرٍ وُدَادِي وَحَقِّقِ ... وَصَدِّقْ ظُنُونِي في وُدَادِكَ واصْدُقِ

أيَجْمُلُ بَيْعِي في كَسَادٍ مُبَهْرَجٍ ... وَقَدْ كَانَ ظَنِّي ضِدَّ ذَا وَتَحَقُّقِي

/١٩٨/ ثَنَائِي عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُحَلِّقٌ ... عَلَيْكَ وَإنْ أبْدَيْتَ بَعْضَ التَّخَلُّقِ

(وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَك يَعْشَقِ)

---

(١) الذخيرة ٣/ ١/ ١١٣ـ ١١٤.

ومنه قوله: [من الطويل]

دَعِ الدَّمْعَ يُفْنِي الجَفْنَ لَيْلَةَ وَدَّعُوا إذا انْقَلَبُوا بالقَلْبِ لا كَانَ مَدْمَعُ
إذا سَلَّتِ الألْحَاظُ سَيْفاً خَشِيْتُهُ وَفِي الحَرْبِ لا أخْشَى وَلا أتَوَقَّعُ

ومنه قوله في شمعة: [من مجزوء الرمل]

رُبَّ صَفْرَاءَ تَرَدَّتْ في شُحُوبِ العَاشِقِيْنَا
مثل مَا نَفْعَلُ فِيْهَا تَفْعَلُ الآجَالُ فِيْنَا

ومنهم:

[٩٠]

أبو الوليد، أحمد بن عبد الله بن زيدون[١]

كان في الأندلس متيَّم ذلك الحيِّ، وعاشق ولاَّدة... زاد على مجنون ليلى، وقيس، ولبنى، وابن أبي ربيعة صاحب الثريا. لا يغترف إلاَّ من صبابته، ولا تركه هواه أتحف من قلم من نار على علم. له مع ولاَّدة أخبار ما حكى مثلَها ابن أبي عتيق، ولا الأصفهاني عن سكان وادي العقيق، ولا الأصمَعي عن ذلك الفريق، أندى من نسيم الصباح، وأرقّ من ريق الغَوَادي في ثغور الأقاح.

وكانت ولاَّدة ذات يوم بوادر، يشيب لها رأس الوليد، بوادر بدر تَذَرُ مثل لبيد كالبليد.

---

(١) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي، أبو الوليد: وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة، ولد سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م. انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس، فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد، فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب. واتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية فولاه وزارته، وفوض إليه أمر مملكته فأقام مبجلاً مقرباً إلى أن توفي بإشبيلية في أيام المعتمد على الله ابن المعتضد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م. وفي الكتّاب من يلقب ابن زيدون بـ«بحتري المغرب» وهو صاحب «أضحى التنائي بديلاً من تدانينا» من القصائد المعروفة. وأما طبقته في النثر فرفيعة أيضاً، وهو صاحب «رسالة ابن زيدون ـ ط» التهكمية، بعث بها عن لسان ولاَّدة إلى ابن عبدوس وكان يزاحمه على حب ولاَّدة بنت المستكفي. وله رسالة وجهها إلى ابن جهور طبعت مع سيرة حياته في كوبنهاغن. وطبع في مصر من شروحها «الدر المخزون وإظهار السر المكنون» وله «ديوان شعر ـ ط» ولعلي عبد العظيم: «ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه ـ ط» وللأستاذ وليم الخازن «ابن زيدون وأثر ولاّدة في حياته وأدبه ـ ط» ويرى المستشرق كور A.Cour أن سبب حبسه اتهامه بمؤامرة لإرجاع الأمويين.

ترجمته في: جذوة المقتبس ١٣٠/ ١٣١ رقم ٢٢٤، وقلائد العقيان ٧٩، والذخيرة في محاسن =

حكى ابن زيدون على ما كان عليه، وينبوع الفضل لديه، كان منهم الحلوة أنَّه هو الأعلى، فمرَّت ولاَّدة يوماً... إليها ابن زيدون، كان يبلغها يوماً فما ترددت حتى أنشدت: [من السريع]

مَا لابنِ زَيْدُونَ عَلَى فَضْلِهِ   يُوسِعُنِي شَتْماً وَلاَ ذَنْبَ لِي
يَلْحَظُنِي شَزْرَاً إذا جِئْتُهُ   كَأنَّنِي جِئْتُ لأَخْصِي علي

وذكره الفتح فقال: بهر بنظامه، كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلّد أبهى نحر، ولم يصرفه إلاَّ بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلاَّ في سماء مؤانسات وأفراح.

وقال ابن بسام[1]: كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وبرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد ـ صاحب إشبيلية ـ سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، /١٩٩/ فجعله من خواصه، يجالسه في خلواته، ويرتكن إلى إشاراته، وكان معه في صورة وزير.

قلت: توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ومن نثره قوله:

«إني وإن سَلَبْتَني لباسَ إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى بَرْدِ إسعافك، ونفضت بي كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأمُّلي، وسمع الأصمّ ثنائي عليك، فقد يَغَصُّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواء

= أهل الجزيرة لابن بسّام ج١ ق١/ ٣٣٦ـ ٤٢٨، وخريدة القصر وجريدة العصر لابن العماد الأصفهاني (قسم شعراء الأندلس) ٢/ ٤٨ـ٧١، وبغية الملتمس للضبيّ ١٨٦ـ ١٨٧ رقم ٤٢٦، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ٧٤، وإعتاب الكتّاب لابن الأبّار ٢٠٧، والحلّة السيراء، له ١/ ٢٥٠ و٢/ ٤٣، ٥٣، ٩٩، ١٣٨، ١٥٩، والتذكرة الفخرية للإربلي ٩٨ـ ٩٩، والمغرب في حُلى المغرب ١/ ٦٣ـ٦٩، ووفيات الأعيان ١/ ١٣٩ـ١٤١، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٧، والعبر ٣/ ٢٥٣، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٤٠ـ ٢٤١ رقم ١١٦، والإعلام بوفيات الأعلام ١٩١، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ١٦٤، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٣٧٤، والبداية والنهاية ١٢/ ١٠٤ـ ١٠٥، ومرآة الجنان ٣/ ١٤ـ ١٥، والوافي بالوفيات ٧/ ٨٧ـ٩٤ رقم ٣٠٣١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٨٨، ونفح الطيب ١/ ٦٢٧ (وانظر فهرس الأعلام)، وكشف الظنون ٤٧٨، ٤٨١، وشذرات الذهب ٣/ ٣١٢ـ ٣١٣، وإيضاح المكنون ١/ ٤٨٥، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٨٦، وكنوز الأجداد لمحمد كرد علي ٢٥١ـ٢٦٠، ومعجم المؤلفين ١/ ٢٨٤، وانظر ديوان ابن زيدون الصادر عن دار الكتاب العربي، بيروت، شرح د. يوسف فرحات ١٩٩١، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٦١ـ٤٧٠هـ) ص١١٣ رقم ٦٥.

(١) الذخيرة ٢/ ١/ ٣٣٧.

المستشفي به، ويؤتى الخدر من مأمنه، ويكون منية المتمني في أُمنيته، والحَيْنُ قد يسبق جهد الحريص: [من الكامل]

كُلُّ المَصَائِبِ قَد تَمُرُّ عَلَى الفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ

لأتجلد وأرى أني لا أتضعضع، وأقول: هل أنا إلاَّ يدٌ أدماها سوارها، وجبين عضَّ به إكليله، ومشرفيٌّ ألصقه بالأرض صاقله، وسمهريٌّ عرضه مثقِّفُه، وهذا ... محمود عواقبه، وهذه النَّبْوَة غَمْرَةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيفٍ عن قليل تقشع، رأي يريني أن سيدي، وإن أبطأ معذور سعيه، أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأ الدِّلاءِ أملأُها،... السحاب أقفلها، وأنْقَعُ الغيث يا صادق...، وألذّ الشراب ما صاب غليلا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب.

ومن نظمه[1]: [من الطويل]

وَلَيْلٍ أدَمْنَا فيهِ شُرْبَ مَدَامَةٍ ... إلى أن بَدَا لِلصُّبْحِ فِيْهِ تَبَاشِيْرُ
وجَاءتْ بَوَادِيْ الصُّبْحِ تَضْرِبَ في الدُّجَى ... فَوَلَّتْ نُجُومَ اللَّيْلِ واللَّيْلُ مَعْمُورُ
فَحُزْنَا مِنَ اللَّذَّاتِ أطْيَبَ طِيْبِهَا ... وَلَم يَعْرُنَا هَمٌّ وَلا عَاقَ تَكْدِيْرُ
خَلاَ أنَّهُ لَوْ طَالَ دَلَّتْ... وَلَكِنْ ... لَيَالِي الوَصْلِ فِيْهِنَّ تَقْصِيْرُ

ومنه قوله[2]: [من البسيط]

وَلِلنَّسِيْمِ اعْتِلالٌ في أصَائِلِه ... كَأنَّمَا رَقَّ لِي فاعْتَلَّ إشْفَاقَا
وَالرَّوْضُ عَن مائِهِ الفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ ... كَأنَّما شققت على الباب أطْوَاقَا
يَومٌ كَأيَّامِ لِذَّاتٍ لَنا انْصَرَمَتْ ... بِتْنَا لَهَا حِيْنَ نَامَ الدَّهْرُ مُرَّاقَا
لَوْ كَانَ وَفَّى المُنَى في جَمْعِنا بِكُمُ ... لَكَانَ مِنْ أكْرَمِ الأيَّامِ أخْلاقَا
لَوْ شَاءَ حَمْلَ نَسِمِ الرِّيْحِ حِيْنَ هَفَا ... وَافَاكُم بِفَتَّى أضْنَاهُ مَا لاَقَى
/٢٠٠/ والآنَ أوْثَقُ مَا كُنَّا نَوَدُّكُمُ ... سَلَوْتُمُ وَبَقِيْنَا نَحْنُ عُشَّاقَا

ومنه قوله[3]: [من الكامل]

ولَقَدْ شَكُوْتُكِ إلى الهَوَى ... وَدَعَوْتُ مِنْ حَنْقٍ عَلَيْكِ فَأمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِي مِنْ صِفَاتِكِ ضِلَّةً ... وَلَقَدْ تَغُرُّ المَرْءَ بَارِقَةُ المُنَى

ومنه قوله[4]: [من مجزوء الكامل]

---

(١) ديوانه ٢٢٠.
(٢) من قصيدة قوامها ١٥ بيتاً في ديوانه ١٧١ـ ١٧٢.
(٣) من قطعة قوامها ٤ أبيات في ديوانه ١٨٤.
(٤) من قصيدة قوامها ٢٨ بيتاً في ديوانه ٨٥ ـ ٨٦.

رَاحَـتْ يَـصِـحُّ بِـهَـا الـسَّـقِـيْـمُ ... رِيْـحٌ تُـعَـطِّـرُهُ الـنَّـسِـيْـم
مَـقْـبُـولَـةٌ صَـبَّـتْ نَـسِـيْـ ... ـمَاً فَـهْـيَ تَـعْـبَـقُ بـالـشَّـمِـيْـم
إِيْـهٍ أيـا عَـبْـدِ الـكَـرِيْـ ... ـم نِـدَاءَ مَـغْـلُـوبِ الـغَـرِيْـم
ذِكْـرى لِـعَـهْـدِكَ كـالـسَّـمَـا ... وَسَـرَى فَـبَـرَّحَ بِـالـسَّـلِـيْـم
عَـهْـدٌ كَـمَـأْلُـوفِ الـرَّضَـا ... ع يَـسُـوقُ ذَاكِـرَةَ الـفَـطِـيْـم
أيَّـامَ أعْـقِـدُ نَـاظِـرَيَّ ... بِـذَالِـكَ الـمَـرْأى الـوَسِـيْـم
وَالـلـهُ يَـعْـلَـمُ أنَّ حُـبَّـ ... ـكَ مِـنْ فُـؤَادِي فـي الـصَّـمِـيْـم
إنَّ الَّـذِي قَـسَـمَ الـحُـظُـوظَ ... حَـبَـاكَ بِـالـخُـلُـقِ الـعَـظِـيْـم
لاَ أسْـتَـزِيْـدُ الـلـهَ نُـعْـمَـى لـي ... فـيْـكَ بَـلْ أسْـتَـدِيْـم

ومنه قوله[1]: [من الطويل]

وَإنِّـي لَـيَـنْـهَـانِـي نُـهَـايَ عَـنِ الَّـتِـي ... أشَارَ بِهَا الوَاشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي
أأبْغَضُ فِيْكَ المَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ... فَلاَ أقْتَدِي إلاَّ بِنَاقِضَةِ الغَزْلِ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَل أنْتَ مُكْذِبٌ ... فَقَالَ العدني ما انهار له النَّعْلِ
ألا إنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلَيْكَ وَاقِفٌ ... وَقُوفَ الهَوَى بَيْنَ القَطِيْعَةِ والوَصْلِ

ومنه قوله[2]: [من البسيط]

كَأنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالدَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أجْفَانِ وَاشِيْنَا
سِرَّانِ في خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتِمُنَا ... لَكِنْ يَكَادُ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِيْنَا

ومنه قوله[3]: [من البسيط]

أمَّا رِضَاكَ فَشَيْءٌ مَا لَهُ ثَمَنُ ... لَوْ كَانَ سَامَحَنِي فِي مُلْكِهِ الزَّمَنُ
يَبْكِي فِرَاقَكَ عَيْنٌ أنْتَ نَاظِرُهَا ... قَدْ لَجَّ في هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِك الوَسَنُ
/٢٠١/ إنَّ الزَّمَانَ الَّذِي عَهْدِي بِه حَسَنٌ ... قَدْ علت عَنِّي وَجْهكَ الحَسَنُ
وَاللهِ مَا سَاءِنِي أنِّي خَفِيْتُ ضَنًى ... بَلْ سَاءِنِي أنَّ سِرِّي في الهَوَى عَلَنُ
لَوْ كَانَ أمْرِيَ في كَتْمِ الهَوَى بِيَدِي ... مَا كَانَ يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِيَ البَدَنُ

ومنه قوله[4]: [من مجزوء الرجز]

---

(١) من قصيدة قوامها ٥٠ بيتاً في ديوانه ١٢ـ ١٧.
(٢) من قصيدة قوامها ٥١ بيتاً في ديوانه ١٦٥ـ ١٦٩.
(٣) من قطعة قوامها ٦ أبيات في ديوانه ١٨١.
(٤) من قطعة قوامها ٤ أبيات في ديوانه ١٨٥.

يَـا لَـيْـلُ طُـلْ لَـوْلاَ تَـطُـلْ　　لاَ بُـدَّ لِـي مَـا أَسْـهَـرَكْ
لَـوْ بَـاتَ عِـنْـدِيْ قَـمـرِي　　مَـا بِـتُّ أَرْعَـى قَـمَـرَكْ

ومنهم:

[٩١]

ابن عبدوس(١)

وزير ما تقلَّد مثله عبء ملك، ولا أخرج نظيره حب فلك، فما دار على شبيه، ذكائه الفلك الدوار، ولا تفتح على ملك زهره الندى النوار، إلاَّ أنَّه لم يقع لي من مختار نظمه، وبديع شعره، أليق بالتخليد، مما أورد له ابن سعيد، وهو قوله في فرس أبيض في غرَّته لمعة حمراء: [من الخفيف]

حُسْنُ هَذَا الجَوَادِ حِيْنَ بَدَا فِيْ　　شَبَهٍ لَمْ يَكُنْ لِذِي بَلَقِ
وقام عليه النهار مذعناً　　فاعترفت عوفه يَدَ الشَّفَقِ

ومنهم:

[٩٢]

أبو عامر بن سليمان(٢)

الوزير في الأيام الأموية، والمنير شمساً في آفاقِها الضوية، والنمير في مواردها الرَّوية، والمساوي لبدور أهله، والحاوي بالسوية، لا بل زادَ على سلفه، وزان معاقد شرفه، وذكره لم يزل في خلفه.

قال ابن بسام فيه(٣): من قوم لم يزالوا أقماراً في آفاق الكتائب، وصدوراً في صدور المراتب، وكان أبو عامر من شرفهم بمنزلة الفصّ من الخاتم، وبمكان السر من الحازم، ولمّا ثُلَّت تلك العروش الأموية، تحيز إلى المعتضد لأملاك قديمة كانت له بالبلد، فعاش بفضل زنده، ومصون عن الدخول في شيء من أمره، إلاَّ عن زيادة إلمام، ومنادمة في بعض الأيام، جذبه إليها، وغلبه مضطراً عليها، ولم يزل يتخادع له عن ذلك استدفاعاً لشرِّه، ومدارةً على بقيَّة عمره، حتى بات مستوراً بماله، سيداً على أشكاله.

---

(١) سبقت ترجمته في هامش بأول السفر.
(٢) كذا ورد اسمه في الأصل وفي الذخيرة: «أبو عامر بن مسلمة».
ترجمته في: جذوة المقتبس ٦١، بغية الملتمس رقم ١٠٧، مطمح الأنفس ٢٣، المغرب في حلى المغرب ١/ ٩٦، الذخيرة ٢/ ١/ ١٠٥ـ ١٣٥.
(٣) الذخيرة ٢/ ١/ ١٠٥ـ ١٠٦.

ومما أنشد له قوله[١]: [من مجزوء المجتث]

أيَـا شَـقِـيْـقَ إخَـائِـي ... وَيَـا قَـسِـيْـمَ صَـفَـائِـي
وَمَـن هُـمَـا فـي ذَوِيْ الـفَـهْـ ... ـمِ جَـوْهَـرُ إلاَّ بـاذائـي
/٢٠٢/ تـفـضَّـلا وأجـيـبـا ... إلَـى نـدِيٍّ نـدائـي
لِـتَـأنَـسَـا بِـحَـدِيْـثٍ ... وَقَـهْـوَةٍ وَغِـنَـاءِ

وقوله[٢]: [من الكامل]

لاَ تَسْقِنِي رَاحَ الكُؤُوْسِ بَلْ اسْقِني ... سِحْرَ العُيُونِ يَقُمْ مُقَامَ الرَّاحِ
فأقَامَ لِيْ مِنْ لَحْظِهِ ورُضَابِهِ ... رَاحاً وَقَامَ الخَدُّ بالتُّفَّاحِ

* * *

(١) الذخيرة ٢/ ١/ ١٠٦.
(٢) الذخيرة ٢/ ١/ ١٠٩.

[مشاهير الوزراء بالديار المصرية]

وأما الوزراء بالديار المصرية فمنهم:

[٩٣]

أبو الفرج، يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، وزير العزيز نزار(١)

وزير عبق بكافور ردنه، وأورد بسقي الفرات غُصنُه، وتردى بشعار فترقى، ومحب الإمامة تحت بيضاء الفضة وصفراء الذهب، فتوفى ومضت أيام الإخشيد، وتمام بنائه قد شيد، وواتته الأقدار، ووافته لمقدار، وذلك بإطلال طبيعة الدولة العبيدية

---

(١) يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كِلّس، أبو الفرج: وزير، من الكتّاب الحسّاب. ولد ببغداد سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م. وسافر به أبوه إلى الشام. ثم أنفذه إلى مصر، فاتصل بكافور الإخشيدي، فولاه ديوانه بالشام ومصر، ووثق به فكان يشاوره في أكثر أموره. وكان يهودياً، فأسلم في أيامة سنة ٣٥٦هـ ثم انتقل إلى المغرب الأقصى فخدم المعز الفاطمي العبيدي سنة ٣٦٣ وتولى أموره. قال ابن تغري بردي ما محصله: لما مات كافور، وولي الوزارة بمصر جعفر ابن الفرات، أساء جعفر السيرة، فقبض على جماعة وصادرهم، منهم يعقوب ابن كلس، وهرب يعقوب إلى المغرب، فكان من أكبر أسباب حركة «المعز» وإرسال «جوهر» القائد إلى الديار المصرية. وفي سنة ٣٦٨ لقبه المعز بالوزير الأجل. ثم اعتقله سنة ٣٧٣ وأطلقه بعد شهور، فعاد إلى القاهرة، وفيها «العزيز» ابن «المعز» فولي وزارته، وعظمت منزلته عنده. وصنّف كتاباً في «الفقه» على مذهب الباطنية، يعرف بالرسالة الوزيرية، أخذه عن المعز وابنه العزيز. وكان يعقد المجالس في الجامع العتيق، فيقرر المسائل الفقهية على حسب مذهبهم. وتوفي في أيام العزيز سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. فألحده بيده، وأمر بإغلاق الدواوين أياماً بعده. أخباره كثيرة.

ترجمته في: المنتظم ٧/ ١٥٥ـ ١٥٦ رقم ٢٥٩، العبر ٣/ ١٤، مرآة الجنان ٢/ ٤١٠، البداية والنهاية ١١/ ٣٠٨، ذيل تاريخ دمشق ٣٢، إتعاظ الحنفا ١/ ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢/ ٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥١، ١٧٥، ٣/ ٢٦٦، دول الإسلام ١/ ٢٣٢، الكامل في التاريخ / ٧٧، الدرة المضية ١٣١، ١٤١، ١٥٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٩، ١٩٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٢٧، ٢٣٠، ٥٩٣، النجوم الزاهرة ٤/ ١٥٨، شذرات الذهب ٣/ ٩٧، الإشارة إلى من نال الوزارة ١٩/ ٢٣، تاريخ التراث العربي ٢/ ٣٢٧، بدائع الزهور ج١ق١/ ١٩٦، النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ٢١٥، وفيات الأعيان ٧/ ٢٧ـ ٣٥، المواعظ والاعتبار ٢/ ٥ـ ٨، حسن =

على مصر، فإنه سار حتى أتى برقة، وقدمت مقدمتها، وجلّت الأنوار بعثير العجاج ظلمتها، نضاره بحوصرها، وتبدل كافوره المفتت بعنبرها، فمن قائل إنّه استمرَّ حتى اتصل بالمعزّ تميم، وعاد بالعزّ معه في كنفٍ غير ذميم.

ومن قائل وهو الأغلب: إنَّه حيث وجد مقدمة جيشه المطل مع القائد جوهر، عاد تحت ألويته يروع سيفه المجوهر، وتروق إكليله الذي ذهب وهو ذهب، وعاد وقد تجوهر، وقدم المعزّ فأعزّ مكانه، ... لشد قواعد الممالك أركانه، ولم يصرّح له بالوزارة، إلاَّ أنَّه كان هو المتحدث، وأمره مصرَّف، وقدره مشرَّف، هذا وجوهره في الذخيرة، ومعزه يرى له في إعزازه الخيرة، فرتب دولة الخلافة ترتيباً جَرَتْ عليه، وجرَّتْ التصريف إليه، فلم يبق ليعقوب حاجة في نفسه إلاَّ قضاها، ولا عزمة تناط وسيفه المجوهر إلاَّ أمضاها.

وزاد في أيام العزيز جلالاً، ورفَّ ماء ابن الفرات، فلم يدع في فمه بلالاً، وفوضت إليه الوزارة، فردت إليه الأمور كلّها، وطاب به جناها وظلّها.

وكان خفيف الأحمال في مؤنة كلفه، عفيف الأنام عن الأموال لإفراط صلفه، مظاهراً بالتديُّن بدين الإسلام، والتزيُّن بشعار الأعلام، يؤثر خصاصة وسحر من النثران، /٢٠٣/ يزعم أنه من ولد هارون أخي موسى بن عمران ـ عليهما السلام ـ وقيل: كان يزعم أنه من ولد السّموءل بن عاديا اليهودي.

ولد ببغداد ونشأ بها عند باب القزّ، وتعلَّم الكتابة والحساب، وسافر به أبوه إلى الشام، وأنفذه إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، فانْقَطَع إلى بعض خواص الأستاذ كافور على عمارة داره، ثم صار ملازماً لباب داره فرأى كافور من نجابته، وشهامته، وصيانته، ونزاهته، وحسن إدراكه ما يقف عليه، فاستحضره، وأجْلَسَه في ديوانه الخاص، فكان يقف بين يديه، ويخدم، ويستوفي الأعمال والحسابات، ويدخل يده في كل شيء. ثم لم تزل أحواله تتزايد مع كافور، حتى صار الحجَّاب والأشراف يقومون له ويكرمونه، ولم تتطلع نفسه لاكتساب مال، وأرسل له كافور شيئاً فردَّه عليه، وأخذ منه القوت خاصة، وتقدَّم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضى دينار ولا درهم إلاَّ بتوقيعه، فوقع في كل شيء.

وكان يبر ويصل من اليسير الذي يأخذه. هذا كله وهو على دينه، ثم أسلم في شعبان سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ولزم الصلاة، ودراسة القرآن الكريم.

= المحاضرة ٢/ ٢٠١، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٤٢ـ٤٤٤ رقم ٣٢٧، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٣٨٠ـ ٣٨١، عيون الأخبار ـ السبع السادس ٢٢٨ـ٢٤١، الأعلام ٨/ ٢٠٢ـ٢٠٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ٣٨٠هـ) ص٢٦٨.

ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم شيخاً عارفاً بالقرآن والنحو، حافظاً كتاب السيرافي، فكان يبيت عنده، ويصلي به، ويقرأ عليه.

ولم تزل حاله تزيد وتنمو مع كافور إلى أن توفي كافور، فقبض وزيره على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وقبض يعقوب بن كلّس في جملتهم للحسد، فلم يزل ابن كلّس يتوصل، ويبذل المال، حتى أفرج عنه، فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه وغيره مالاً، وتحمل به وسار مستخفيًّاً، قاصداً بلاد المغرب، فلقي جوهراً ـ مولى المعز ـ في الطريق، وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها، فرجع صحبته. وقيل: إنه استمر على قصده، وانتهى إلى إفريقية، وتعلّق بخدمة المعزّ، ثم رجع إلى الديار المصرية، ولم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة، وزيراً للدولة الفاطمية بالديار المصرية، وكان من جملة كتاب كافور، فلما وصل المعزّ، أحسن في خدمته، وبالغ في طاعته، حتى استوزره.

وقال غيره: كان ابن كلّس يحب أهل العلم، ويجمع عنده العلماء ورتّب لنفسه مجلساً كل ليلة جمعة، ويقرأ فيه بنفسه مصنفاته، ويحضره القضاة، والفقهاء، والعلماء، والنحاة، وجميع أرباب الدولة، وأعيان العدول، وغيرهم من وجوه الدولة، / ٢٠٤/ وأصحاب الحديث، فإذا فرغ من مجلسه، أقام وشعراء ينشدونه المدائح.

وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب حتى الطلب، ويعارضون، ويشكلون المصاحف، وينقطونها، وكان من جملة جلسائه الحسين ابن عبد الرحيم الزلازلي ـ مصنِّف كتاب الأسجاع ـ.

ورتب في داره القرآن ... يصلون في مسجد اتخذه في داره، وأقام فيها أيضاً المطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه، وكان ينصب كل يوم خواناً لخاصة من أهل العلم والكتاب، ومن يستدعيه، وينصب مائدة عادته يأكل عليها الحجاب، ولا يخاطب أحداً منهم إلاَّ بالقائد، وكان من جملتهم القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي ينتسب إليه ... القائد فضل، وهي بالأعمال الجيزية من أعمال . . . ثم شرع الوزير يعقوب في تحصيل داره ودروب ... بالحرس والدروب بالحرس والعدد، وعمرت بأخيه بالأسواق، وأصناف ما يباع من الأطعمة، ومن المطعوم، والمشروب، والملبوس.

ويقال: إنَّ داره كانت بالقاهرة في موضع مدرسة الوزير صفي الدين شكر المختصة بالطائفة المالكية، وإنَّ الجادة المعروفة بالوزيرية التي بالقاهرة منسوبة لأصحابهم، لأنهم كانوا يسكنونها، وكان الوزير ابن الفرات يغدو إليه ويروح، ويقرأ عليه محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم، ويقول عليه فيها، ويجلس معه في مجلسه، وربما حبسه لمؤاكلته، فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره، وكانت هيبته عظيمة، وجوده وافراً، وأكثر الشعراء مدحه.

قال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون: كان للوزير يعقوب طيور فائقة، أصيلة، مختارة للسبق تسبق كل طائر يسابقها، وكان لمخدومه العزيز أيضاً طيور سابقة، فسابقه العزيز يوماً ببعض طيور الوزير، فسبق طائر الوزير يعقوب، فعزَّ ذلك عليه، ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الطعن، فقالوا للعزيز: إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ولم يبق منه إلاَّ أدناه حتى الحمام، وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منه لعلَّة، فاتَّصل ذلك بالوزير، فكتب إلى العزيز:

قُـلْ لأمِـيْـرِ الـمُـؤْمِـنِـيْـنَ الَّـذِي ... لَـهُ الـعُـلاَ والـنَّـسَـبُ الـثَّـاقِـبُ
طـائِـرُكَ الـسَّـابِـقُ لَـكِـنَّـهُ ... جَـاء وَفِـي خِـدْمَـتِـهِ حَـاجِـبُ

فأعجبه ذلك وسري عنه ما كان وجده عليه. قيل: إن هذين البيتين لولي الدولة أبي محمد خيران الكاتب.

وذكر أبو القاسم علي بن منجب الكاتب: أنَّ سبب حظوة / ٢٠٥/ الوزير يعقوب عند كافور، أنَّ يهودياً قال له: إنَّ في دار ابن البلدي بالرملة ثلاثين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك، وأنفذ معه البغال يحملها، وورد الخبر بموت بكير التاجر، فجعل إليه النظر في تركته، واتفق موت يهودي، ومعه أحمال كتان، فأخذها وفتحها، فوجد فيها عشرين ألف دينار، فكتب إلى كافور بذلك، فتبرَّك به، وكتب إليه بحملها، فباع الكتان، وحمل الجميع، وسار إلى الرملة، وحفر الدار الذي لابن البلدي، وأخرج المال، وهو ثلاثون ألف دينار، فكتب إلى كافور: «عرَّفت الأستاذ عشرون ألف دينار، ووجدت ثلاثين ألف دينار»، وازداد محله عنده، وتصوره بالثقة.

ووقعت رقعة في دار الوزير سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وهي السنة التي توفي فيها نسختها: [من الخفيف]

احْـذَرُوا مِـن حَـوَادِثِ الأزْمَـانِ ... وَتَـوقَّـوا طَـوارِقَ الـحَـدَثَـان
قَـدْ أمِـنْـتُـمْ مِـنَ الـزَّمَـانِ وَنِـمْـتُـمْ ... رُبَّ خَـوْفٍ مُـمَـكَّـنٍ فـي أمَـانِ

فلما قرأها قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، واجتهد أن يعرف كاتبها، فلم يقدر على ذلك، فلمَّا اعتلَّ علَّة الموت آخر السنة، ركب إليه العزيز عائداً، وقال له: وددت أنَّك تُباع، فابتاعك بملكي، أو نقدي، فأفديك بولدي، فهل من حاجة توصي بها؟ فبكى وقبَّل يده، وقال: فيما يخصني، فأنت أرعى بحقوقي من أن أسترعيك إياها، وأرأف من أن أخلفه من أن أوصيك به، ولكني أنصح لك مما يتعلق بدولتك: سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية بالسكة والدعوة، ولا تبق على مفرج بن دغفل إن عرضت لك فيه فرصة. ومات فأمر العزيز بدفنه في داره بالقاهرة وداخل باب النصر، وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده.

وكان إقطاعه من العزيز كل سنة مائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعة آلاف دينار، وبزمن كل صنف بخمسمائة ألف دينار، وكان للتجار عليه ستة عشر ألف دينار، فقضاها عنه العزيز من بيت المال، وفرِّقت على قبره.

وكانت وفاته لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة، وكفن في خمسين ثوباً، واجتمع الناس كلهم من القصر إلى داره، وخرج العزيز وعليه الحزن ظاهر، وركب بغلته بغير مظلة، وكانت عادته لا يركب إلاَّ بها، وصلى عليه، وبكى، /٢٠٦/ وحضر مواراته، ويقال: إنه ألحده بيده، ويقال: إنه كُفِّن وحُفِظَ بما مبلغه عشرة آلاف دينار.

وذكر من سمع العزيز وهو يقول: وأطول أسفي عليك يا وزير، وبكى عليه القائد جوهر بكاء شديداً، وإنما كان على نفسه؛ لأنه عاش بعده سنة واحدة.

وفد الشعراء إلى قبره. وقيل: إنه رثاه مائة شاعر، وأخذت قصائدهم وأجيزوا.

وقيل: إنه مات على غير دينه، وكان يظهر الإسلام. والصحيح أنه أسلم وحسن إسلامه.

قال يوماً ـ وقد ذكر اليهود في مجلسه ـ كلاماً يسوء اليهود سماعه، ثم بيَن عوراتهم، وفساد مذهبهم، وأنهم على غير شيء، وأن اسم النبي ﷺ في التوراة، وهم يجدونه.

وكانت ولادته سنة ثمان عشرة وثلاثمائة.

ومنهم:

[٩٤]
أمير الجيوش، بدر الجَمَالي[١]

وزير ذهب جلابيب الشفق، وذهب زمانه على نسق، وأشرق بدره في الدولة الفاطمية.

وكان من الرجال المعدودة في ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم. استنابه المستنصر ـ صاحب مصر ـ بمدينة صور، وقيل: ملكاً، فلما ضعف حال المستنصر، واختلّت صورته، وصف له بدر هذا، فاستدعاه، وركب في البحر في السفافي وقتَ لم تجرِ العادة بركوبه في مثله، وركب إلى القاهرة في جمادى الأولى، وقيل: الآخرة سنة

---

(١) بَدْر بن عبد الله الجَمَالي، أبو النجم: أمير الجيوش المصرية، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه. أصله من أرمينية ولد سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، اشتراه جمال الدولة بن عامر غلاماً، فتربى عنده، ونسب إليه، وتقدم في الخدمة حتى ولي إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر سنة ٤٥٥هـ ثم استدعاه إلى مصر واستعان به على إطفاء فتنة نشبت، فوطد له أركان الدولة، فقلده «وزارة السيف =

ست وستين وأربعمائة فولاّه المستنصر تدبير أموره، وقامت بوصوله الحرمة، وأصلح الدولة، وكان وزير السيف والقلم، وإليه قضاء القضاء والتقدم على الرعاة، وساس الأمور أحسن سياسة.

ويقال: إنّ وصوله كان أول سعادة المستنصر، وآخر قطوعه، وكان يلقب أمير الجيوش. ولما دخل على المستنصر قرأ قارىء بين يدي المستنصر، ولم يتم الآية، فقال المستنصر: لو أتمها، ضربت عنقه، ولم يزل كذلك إلى [أن] توفي في أواخر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

وهو الذي بنى الجامع بثغر الإسكندرية بسوق العطارين، وبنى مشهد الرأس بعسقلان.

ولما مرض وزر ولده الأفضل موضعه في حياته، فلما توفي المستنصر، أقام الأفضل ولده المستعلي أحمد مقامه، وتمّ على وزارته، وقضية الأفضل مع نزار ابن المستنصر، وغلامه أفتكين الأفضلي، وأبي الاسكندي مشهورة في إحدارهما وإحضارهما إلى القاهرة، فأما أفتكين فقتل ظاهراً، وأمّا نزار، فقيل إنّ أخاه المستعلي بنى ووجهه حائطاً، فمات.

/ ٢٠٧/ وإلى نزار هذا ينتسب ملوك الإسماعيلية أصحاب الدعوة وأرباب قلعة الألموت، وما معها من القلاع في بلاد العجم.

وكان الأفضل حسن المذكور، حسن الرأي، ولما توفي المستعلي، أقام ولده الأمر مقامه، كما فعل بأبيه، ودبر دولته، وحجر عليه، ومنعه من ارتكاب الشهوات؛ لأنه كثير اللعب، فحمله ذلك على قتله، فوثب عليه جماعة وكان يسكن مصر في دار

= والقلم» وأصبح الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه. وكان حازماً شديداً على المتمردين، وافر الحرمة. توفي في القاهرة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

ترجمته في: أخبار مصر لابن ميسر ٢/ ٣٠، تاريخ الفارقي ٢٦٧، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ١٢٧ـ ١٢٨، والكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٥، والمغرب في حلى المغرب ٧٨، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج١٢ ق٢/ ١٢٣ ب، والإشارة إلى من نال الوزارة ٥٥، ونهاية الأرب ٢٨/ ٢٣٩ـ ٢٤٠، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٠٥، ودول الإسلام ٢/ ١٥، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٨١ـ ٨٣ رقم ٤٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٠١، والعبر ٣/ ٣٢٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤، والوافي بالوفيات ١٠/ ٩٥، وأمراء دمشق في الإسلام ١٣ رقم ٥٦، والدرة المضية ٤٣٩، والبداية والنهاية ١٢/ ١٤٧، ١٤٨، واتعاظ الحنفا ٢/ ٣٢٩، وتاريخ سلاطين المماليك ٢٣١، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٤١، ورفع الإصر عن قضاة مصر ١/ ١٣٠ـ١٣٧، وحسن المحاضرة ٢/ ٢٠٤، وشذرات الذهب ٣/ ٣٨٣، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٤٥، ١٤٩، الأعلام ٢/ ٤٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٨١ـ٤٩٠هـ) ص ٢٣٥ قمْ ٢٥٧ .

الملك التي على النيل، وقد صارت دار الوكالة، فركب الأفضل من داره، وتقدم إلى ساحل البحر، وقتلوه في سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة.

وحكى صاحب الدول المنقطعة[١]: أنه خلّف ستمائة ألف ألف دينار عيناً، ومائتين وخمسين أردب دراهم نقد مصر، وسبعين ديباج المجلس، وثلاثين راحلة إحقاق ذاهب مراقي، ودواة فيها جواهر قيمتها اثنا عشر ألفاً، ومائة مسمار من ذهب، وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس، في كل مجلس عشرة مسامير، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان، أيمّا أحبّ منها لبس، وخمسمائة صندوق كسوة بخاصة، وخلف من الرقيق، والخيل والبغال، والمراكب، والطيب، والتجمل، والحلي ما لا يعلم قدره إلا الله، وخلّف خارجاً عن ذلك من البقر، والجواميس، والغنم ما بلغ ضمن البانه سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء والجواري.

وحكى ابن الأثير في ترجمة والده ـ ما معناه[٢]: أنّ علقمة بن عبد الرزاق العليمي قال: قصدت بدر الجمالي بمصر، فرأيت أشراف الناس، وكبراءهم، وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم، ولم يصلوا إليه، قال: فبينا أنا كذلك، إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرجت في أثره، وأقمت إلى أن رجع من صيده، وقفت على نشز من الأرض، وبيدي رقعة أنشد منها قولي: [من الكامل]

نَحْنُ التِّجَارُ وهذه أعلامُنَا ... دُرٌّ وَجُودُ يَمِيْنِكَ المُبْتَاع
وَافَاك يَحْمِلُهَا إلَيْكَ تِجَارُهَا ... وَمَطِيُّها الآمالُ والأطْمَاعُ
حَتَّى أنَاخُوا حَوْلَ بَابِكَ والرَّجَا ... مِنْ دُوْنِكَ السِّمْسَارُ والبَيَّاعُ
فَوَهَبْتَ مَا لَم يُعْطَهُ في دَهْرِهِ ... هَرِمٌ وَلا كَعْبٌ ولا القَعْقَاعُ
/٢٠٨/ وَسَبَقْتَ هَذَا النَّاسَ في طَلَبِ العُلا ... فَالنَّاسُ بَعْدَكَ كُلُّهُمْ أتْبَاعُ
يَا بَدْرُ أُقْسِمُ لَوِ اعتَصَمَ الوَرَى ... وَلَجَوا إلَيْكَ جَمِيْعُهُمْ مَا ضَاعُوا

وكان على يده بازي، فألقاه، وانفرد عن الجيش، وجعل يسرد الأبيات، وأنا أنشدها إلى أنْ استقرَّ في مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته: من أَحَبَّني فليخلع على هذا الشاعر، فخرجت من عنده، ومعي سبعون بغلاً محملة خلعاً وتحفاً، ثم أمر بعشرة آلاف درهم.

(١) الدول المنقطعة.

(٢) الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٥.

ومنهم:

[٩٥]

المأمون، أبو عبد الله بن البطائحي[1]

وزير حلق إلى مصر بين البطائح، وحقن دمه بمنهل الدماء الطوائح، وساس سائب التدبير وضبطه، وعقد نظام الملك، وربطه، تيسَّرت له الأسباب حتى تنبه الغضيض، وطلع إلى الأوج من الحضيض، ومشى له الآمر مثل الآمر وظهر كرمه مع وجود سحابه الهامر، وخدر بأسه والآمر مظل الظلماء، والمأمون مع هذا البأس الشديد والمراس الذي يلين دونه الحديد، متوقد الجمرات، مصلت السيف، لا يردعه في مرات بلسان مطلق، على البأساء مطبق، إلى أن نكبه الآمر في جملة أهل الأمر في جملة أهل النكبة التي ضيّق فيها على مغالبهم لو جاء ورفعهم لو كان لهم من مربط النجار.

قال ابن الأثير[2]: ابتداء أمره أنه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، وبات أبوه، ولم يخلف شيئاً، فتزوجت أمه وتركته فقيراً، فاتصل برجل يعلم البناء في مصر، ثم صار يبيع الأسقفة بالسوق الكبير، فدخل مع الجمالين إلى دار بدر الجمالي أمير الجيوش مرّة بعد أخرى، فرآه خفيفاً، رشيقاً، سريع الحركة، حلو الكلام، فأعجبه، فسأل عنه، فقيل له: هو ابن فلان فعرفه واستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده، وكبرت منزلته، وعلت حاله، حتى صار وزيراً.

وكان كريماً، واسع الصدر، قتالاً، سفاكاً للدماء، وكان شديد التحرز، كثير

---

(١) أبو عبد الله المأمون بن البطائحي، وزير الديار المصرية. وُلِيَّ الممالك بعد قتل الأفضل أمير الجيوش سنة ٥١٦هـ.
وكان أبوه من جواسيس أمير الجيوش بالعراق، فمات ولم يخلف شيئاً، ورُبِّي محمد هذا يتيماً، فاتَّصل بإنسان يعرف البناء بمصر، ثم صار حمّالاً بالسوق، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل شاباً ضعيفاً، حُلو الحركات، فأعجبه، فسأل عنه، فيل: هو ابن فلان. فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدّم عنده، وترقَّت حاله، وكان آخر أمره أنه عمل على قتل الأفضل، ووُلّي منصبه. وفي الآخر راسل أخا الآمر بذلك فأمسكه، ثم صلبه سنة ٥١٩هـ.
ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/ ٦٢٩ـ ٦٣٠، وذيل تاريخ دمشق ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٣، ونزهة المقلتين لابن الطُّوَير ١٤٢ـ ١٤٣، والإشارة إلى من نال الوزارة ٢، وأخبار مصر لابن ميسر ٢/ ٦٠ـ٨٠، وأخبار الدول المنقطعة ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ووفيات الأعيان ٥/ ٥٩٩، والمغرب في حلى المغرب ٨٣ـ٨٥، ٢٥٢، ٣٦١، ونهاية الأرب ٢٨/ ٢٨٨، ٢٩١ـ ٢٩٢، والعبر ٤/ ٤٤ـ ٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٣ رقم ٣/ ٤١٢، والمواعظ والاعتبار ١/ ١٢٥ـ ١٢٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٩، وشذرات الذهب ٣/ ٦٠، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٢٣ـ ٢٢٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٠١ـ٥٢٠هـ) ص ٤٣٤ رقم ١٦٨.

(٢) الكامل في التاريخ ١/ ٦٢٩.

التطلع إلى أحوال الناس من العامة والخاصة بمصر والشام. وكثر العيارون، وتراسل هو وجعفر أخو الآمر، ليقبل الأمر ويجعله خليفة، وتقرر هذا بينهما، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي سامة، وكان خصيصاً بالآمر، وأعلمه الحال، فقبض عليه، وصلبه هو وأخويه، وذلك سنة تسع عشرة وخمسمائة.

حُكي أنه وُجد له ألف دست كامل من القماش الفاخر برسم ملبس جسده، ووجد له جملة أموال لا تحصى من العين الذهب، والفضة، والجواهر الغوالي، /٢٠٩/ والنفائس، والأمتعة، والخيل، والبغال، والجمال، والبقر، والغنم، وأنه كان له ثمانون جملاً برسم الماء، من شاطىء النيل إلى داره التي بالقاهرة خارجاً عن داره التي بمصر - وغالب أدره بمصر - هذا مع ما كان موصوفاً به من سعة الكرم. والتمزق في العطاء. وإن كان ربما يعطي في اليوم الواحد ألف ألف درهم، وكان يلومه خواصّ أصحابه وخلطائه على إفراطه في الإفراط والكرم، فقال: سجية طُبعت عليها لا أقدر على إزالتها، ثم يقول: لولا حملقة الأسد لأكثرت الحرز، يشير إلى خوفة من بأس الآمر.

ويقال: لا يرى إلاّ رأي الإمامية، وأنه كان يريد تقلب الأمور، ليجعلها إمامية، والذي أقوله: إنّ الكرم يستر كل قبيح. رحمه الله، وغفر له.

ومنهم:

[٩٦]

أبو علي بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي[١]

ورث الوزارة وحازها، وذهب ذهب النعَاق وسوَّلت له نفسه أمراً.

---

(١) أحمد ابن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجماليّ، الأرمنيّ، ثم المصريّ، صاحب مصر وسلطانها، الملك الأكمل أبو عليّ ابن صاحبها ووزيرها.
ولمّا قُتل أبوه في سنة ٥١٥هـ، وأخذ الآمر بأحكام الله جميع أمواله سجَن هذا مدّة، فلمّا مات الآمر أشغلوا الوقت بعده بابن عمه الحافظ عبد المجيد إلى أن يولد حَمل للآمر، فجاء بنتاً. وأخرجوا من السجن أبا عليّ عند موت الآمر، وجعلوا الأمور إليه.
وكان شهماً شجاعاً مَهيباً، عالي الهمة كأبيه وجدّه، فاستولى على الديار المصرية، وحفظ على الآمر، ومنعه من الظهور، وأودعه في خزانة، فلا يدخل إليه أحد إلا بأمر الأكمل. وعمد إلى القصر فأخذ جميع ما فيه إلى داره كما فعل الآمر بأبيه جزاءً وفاقاً، وأهمل الخلفاء العُبَيديين والدعاء لهم، لأنه كان فيه تسنُّن كأبيه. وأظهر التمسُّك بالإمام المنتظر، فجعل الدعاء في الخطبة له، وأبطل من الأذان «حي على خير العمل»، وغيَّر قواعد الباطنية، فأبغضه الأمراء والدُّعاة.
وأمر الخُطباء بأن يخطبوا له بهذه الألقاب التي نصَّ لهم عليها، وهي: السيّد الأفضل الأجلّ، سيد ممالك أرباب الدول، المحامي عن حَوْزة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين، ناصر إمام الحق في غيبته وحضوره والقائم بنُصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه =

قال له الحافظ: فصبر جميل، وطال عليه عطاؤه، وفي قلبه له غليل حتى كان هذا سبب حتفه، وموجب ما لم يفده معه تقليب كفه، ولم تغن عنه أمواله التي أعدّها، ولا عزائمه التي أشدها.

ذكر ابن الأثير(١): إنّ السبب في قتله أنه قد حجر على الحافظ، ومنعه من أن يحكم في أمر من الأمور، وأخذ ما كان في القصر إلى داره، وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل ـ جدّ هذا البيت ـ وأبطل من الآذان حي على خير العمل، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهي: السيد الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، الحامي عن حومة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بتصرفه بماضي سيفه، وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى إتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح إرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، وملك فضيلتي السيف والقلم، السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش.

قال: وكان إمامي المذهب يكثر ذمَّ الحافظ، والنقص به، فنفرت منه الشيعة، وكرهوه،

= وإرشاده، مولى النِّعَم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلَتَيْ السيف والقلم، أبو علي ابن السيد الأجلّ الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش.

فكرهوه وصمّموا على قتله، فخرج في العشرين من المحرَّم للعب بالكرة فكمن له جماعة، وحمل عليه مملوك إفرنجي للحافظ، فطعنه فقتله، وقطعوا رأسه، وأخرجوا الحافظ وبايعوه.

ونُهب دار أبي علي، وركب الحافظ إلى الدار فاستولى على خزائنه، واستوزر مملوكه أبا الفتح يانَس الحافظي، ولقبه أمير الجيوش، فظهر شيطاناً ماكراً بعيد الغور، حتى خاف منه الحافظ، فتحيل عليه لكل ممكن، وعجز حتى وطأ فراشه بأن جعل له في الطهارة ماء مسموماً، فاستنجى به، فعمل على سِفْله ودوَّد، فكان يعالج بأن يلصق عليه اللحم الطَّرِيّ، فيتعلق به الدود، فترجح للعافية، وأتاه الحافظ عائداً، فقام له، وجلس الحافظ عنده لحظة وانصرف، فمات من ليلته في ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٢٥ هـ، وكانت وزارته إحدى عشر شهراً.

واستوزر الحافظ ولده وليَّ عصره الحسن الذي قُتل سنة ٥٢٩هـ.

ترجمته في: أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٧٥، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ٥٨، ونزهة المقلتين لابن الطوير ٢٨ـ٣٠، ٣٤، ٣٦، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٥١، و٣/ ٢٣٥ـ٢٣٧، والكامل في التاريخ ١٠/ ٦٧٢ـ ٦٧٣، وأخبار الدول المنقطعة ٩٤، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥ـ ٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢١٥، والعبر ٤/ ٦٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧، والدرة المضية ٥٠٦ـ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٥١، ومرآة الجنان ٣/ ٢٥٠ـ ٢٥١، ومرآة الزمان ج٨ ق١/ ١٤٦ـ ١٤٧ (في المتوفين ٥٢٧هـ)، والمقفى الكبير ١/ ٣٩٤ـ٣٩٨ رقم ٤٤٨، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٥٩١، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ) ص١٤٠ رقم ٨٤.

(١) الكامل في التاريخ ١٠/ ٦٧٢.

وعزموا على قتله، فخرج /٢١٠/ في العشرين من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة إلى الميدان، ليلعب بالكرة، فاكمن له جماعته منهم مملوك إفرنجي كان للحافظ، فخرجوا من الخزانة التي كانوا فيها، وحمل عليه الفرنجي، فطعنه وقتله وحزوا رأسه.

وخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها وأمر الناس فنهبوا داره وأخذ منها ما لا يحصى وركب الحافظ إلى داره وأخذ ما بقي.

ثم بويع الحافظ فخافه الحافظ وتخيل منه يأنس الحافظ عليه بأن وضع له طعاماً في الطهارة ماءً مسموماً، فاغتسل به فوقع الدود في مخرجه، وقيل له: متى قمت من مكانك هلكت.

وكان يعالج بأن يجعل اللحم الطري في المحل، فيعلق به الدود، ويخرج، ويجعل عرضه، فقارب الشفاء فركب إليه الحافظ، فكأنه يعوده، وقعد عنده، ثم خرج من عنده فتوفي في تلك الليلة.

قال ابن الأثير: وإنما ذكرت ألقابه تعجباً منها من حماقة هذا الرجل. انتهى كلامه.

فائدة:

قال: واستوزر الحافظ ابنه حسناً وخطب له بولاية العهد سنة ست وعشرين وخمسمائة، فتجرأ على سفك الدماء، وتغلب على الأمر جميعه، واستبد به، ولم يبق لأبيه معه حكم، وقتل من الأمراء الكبراء كثيراً، حتى أنه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً، فلما رأى أبوه هذا منه، أخرج له خادماً من خدم القصر، فجمع الجموع، وتقدّم إلى القاهرة، ليقاتل ابنه حسناً، ويخرجه منها، فأخرج حسن جماعة من خوّاصه وأصحابه، فقاتلوهم، فانهزم الخادم، واستكان الحافظ، وصبر تحت الحجز.

ثم اجتمعت بقية الأمراء على قتلِ حسن، وأرسلوا إلى الحافظ، وقالوا: إما أن تسلّم إلينا ابنك؛ لنقتله، أو نقتلكما جميعاً، فاستدعى ولده إليه، واحتاط عليه، فلم يرضَ الأمراء إلاَّ بقتله فسمَّه، ثم أدخل خواصهم عليه، فرأوه، وخرجوا حتى تيقنوا بموته.

وفيه قيل: [من البسيط]

لم يا حسن بين الورى حسناً ... وَلَمْ يَرَ الحَقَّ فِي دُنْيَاً وَلا دِيْنِ

قَتْلُ النُّفُوسِ بِلا حَقٍّ وَلا سَبَبٍ ... تِيْهُ المُلُوكِ وأَخْلاقُ المَجَانِيْنِ

ومنهم:

[٩٧]

رضوان[١]

كان في دولة الحافظ إلاّ أنه مالكها، وصباحها إلاّ أن تجلّى به حالكها، أو ملك

(١) رِضْوان بن ولخشي، أمير الجيوش، وزير الحافظ لدين الله عبد المجيد العبيدي الفاطمي =

بيده أسرتها، وقيم ... كما شاء ومشربها إلا أنه أسقم سوء تدبيره ذلك الأوان. وجاء من العقاب ما عند ملك وهو رضوان، ولم يزل حتى أبحر له سابق وعيده، وحرّ إلى مصرعه بحبل وريده، وحمل رأسه كأنه هدي يزف، /٢١١/ وقتل كأنه من شيعة الشمر بن ذي الجوشن، وما هو إلاّ من شيعة الطف.

وزر للحافظ باليد، واستتبت له الأمور، وقلّت أيدي معانديه، وكان السبب في هذا أنَّ الحافظ استوزر بعد ابنه حسن المسيء الفعل أنشر منه وأشأم وأردأ وألأم، وذلك بهرام النصراني، ولقبه بالأمير تاج الدولة، فاستعمل الأرمن على الناس، فاستذلوا المسلمين، وامتدوا إلى أموالهم، ... وتحكموا، وجاروا، وأهانوا ذوي الأقدار.

وهؤلاء الأرمن الذين ولاهم، فطمعوا فيهم، ولم يكن في مصر من أنف من ذلك إلا رضوان، فإنه قلق لهذا، وجمع جمعاً كثيراً، وقصد القاهرة، وسمع به بهرام فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال، وأتى أسوان، فمنعه واليها من الدخول إليها، وقاتله، فقتل كثيراً من الأرمن.

ثم لما لم يقدر على الدخول إلى أسوان، أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان، فأمنه فعاد إلى القاهرة، فسجن بالقصر، فبقي مدة، ثم ترهب، وخرج من الحبس.

وأما رضوان، فإنه وزر للحافظ، فعهد الحافظ في إخراجه، فثار الناس عليه في منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فهرب من داره، وتركها بما فيها، فنهب الناس منها ما لا يعد ولا يحصى، وركب الحافظ، فسكن الناس، ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره.

وسار رضوان يريد الشام، ليستنجد بالأتراك، فأرسل إليه الحافظ، ابن مصال، ليردّه بالأمان والعهد أنه لا يؤذيه، فقيل: إنه رجع، فحبسه الحافظ، وقيل: بل أتم إلى الشام، وإلى صرخد، ونزل على صاحبها كمشتكين، فأكرمه، وأقام عنده.

ثم عاد إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ومعه عسكر، وقاتل المصريين، فهزمهم، وأقام ثلاثة أيام، ثم تفرّق كثير ممن معه، فعزم على العود إلى الشام، فأرسل إليه الحافظ ابن مصال فردّه وحبسه عنده في القصر، وجمع بينه وبين عياله، فأقام في القصر إلى سنة ثلاث وأربعين، ثم نقب الحبس، وخرج منه، وقد أعدت له خيل، فركبها، وعبر النيل إلى الجيزة، فحشد، وجمع، وعاد إلى القاهرة، فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون، فهزمهم، ودخل القاهرة، فنزل عند الجامع، ... وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً؛ ليفرّقه على عادتهم، فإنهم كانوا إذا وزروا وزيراً، أرسلوا إليه

= المصري، ومدبّر ممالكه بديار مصر وغيرها. قتل سنة ٥٤٢هـ.
ترجمته في: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٤١، ٢٨١.

عشرين ألف دينار، فأرسل إليه الحافظ بها، وفرقها، وكثر الناس عليه بطلب زيادة، فأرسل إليه مثلها، ففرّقها وتفرق الناس عنه، وخفوا عنه، فإذا الصوت قد رفع، وخرج إليه جمع كثير من السودان جهزهم الحافظ عليه، فحملوا على غلمانه، فقاتلوهم، وقام، ليركب فقدم إليه بعض أصحابه قريباً، فلما أراد ركوبه، ضرب رجلٌ رأسه بالسيف، فقتله وحمل رأسه إلى الحافظ، فأرسله / ٢١٢/ إلى زوجته، فوضعه على حجرها، فألقته، وقالت له: هكذا يكون الرجال.

ثم لم يستوزر الحافظ بعده أحداً بل كان يباشر الأمور بنفسه.

ومنهم:

[٩٨]

أبو الحسن، علي بن السلاّر(١)

المنعوت بالملك العادل سيف الدين، وزير الظافر العبيدي، ومميز تلك الأيدي. كان في تلك الأيام التي أظلمت بدعها، وعلت شيعها علة في تلك الدهماء، وفجراً متألقاً في ذلك الظلماء، ممن لا يرى تلك الفرق المضلّة أعرض عنها متصامماً، وأظهر الرضا بها فكأنما وقد عقد ضميره على إزالتها، وعهد إلى عزيمه في إعلاء السنة وإدالتها، واستقدم من الفقهاء من كان يسر مجالسته، ويديم مؤانسته، ويستنصح برأيه

(١) علي بن السَّلاَّر الوزير، أبو الحسن الملقب بالعادل الكردي العُبَيدي، سيف الدين، وزير الظافر صاحب مصر. كان كردياً زرزاريّاً، رُبِّيَ في القصر، وتنقَّل به الحال في الولايات بالصعيد وغيره، إلى أن تولَّى الوزارة. وكان شهماً مقداماً مائلاً إلى أهل العلم والصلاح، سُنيّاً شافعياً. وَلِي ثغر الإسكندرية، واحتفل بالسِّلفي وأكرمه، وبنى له المدرسة العادلية، وليس بالثغر شافعية غيرها. ولما كان جندياً دخل على الموفَّق بن معصوم التنِّيسي متولِّي الديوان، وشكا إليه غرامةً لزمته في ولايته بالغربيَّة، فقال: إن كلامك لا يدخل أذني. فحقدها عليه، فلما وَرِزَ اختفى الموفَّق، فنُودي في البلد: من أخفاه أُهْدِرَ دمُه، فأخرجه الذي خبأه عنده، فخرج في زيٍّ امرأةٍ. فأحضر العادلُ لوح خشب ومسماراً طويلاً، وعمل اللوح تحت أذنه، وضرب المسمارَ في الأذن الأخرى. فكان كلما صرخ قال له: دخل كلامي في أذنك أو لا؟
ثم إن العادل قتله نصرُ ابن امرأته على فراشه باتفاق من أسامة بن منقذ. ونصر هذا هو الذي قتل الظافر بن الحافظ أيضاً. وكانت قتلةُ العادل سنة ٥٤٨هـ، لأن أبا الفضل عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المُعِزّ بن باديس وصل إلى القاهرة، وهو صبيّ ومعه أمه بَلارَة، فتزوَّجها العادل، وأقامت عنده زماناً، ورُزِقَ عبّاسُ ولداً سمّاه نصراً. وكان عند جدته في دار العادل، والعادل يحنو عليه ويعزّه. ثم إن العادل جهَّز عبّاساً إلى الشام للجهاد، وكان معه أسامة بن منقذ، فلما وصلا إلى بُلْبَيْس، وهو مقدّم الجيش، تذاكر طيب الديار المصرية وما هي عليه، وكونه يفارقها ويتوجَّه للقاء العدو، ومقاساة البيكار. فأشار عليه أسامة ـ على ما قيل ـ بقتل العادل واستقلاله بالوزارة ويستريح من البيكار. وتقرّر بينهما أن نصراً ولد عبّاس يقتل العادل، فإنه إذا =

في ظلم تلك الضلال، ... بصحبته في ضحى تلك الهوى ... كالطلال، ولو عمر وساعدته الأقدار للمّ شمل الجماعة، وفطم مواضع تلك الطماعه، ولكنه كان موقد الحنق، لا يمرض غضبه، ولا يُخمَد لهبه، ولا يستقر سيفه في التراب، حتى يغالبه ثوبته.

قال ابن خلكان[(١)] : رأيتُ في بعض النسخ من تواريخ المصريين أنه كان كردياً زرزارياً، وكان تربية القصر بالقاهرة، وتقلبت به الأحوال إلى الولايات بالصعيد وغيره، إلى أن ولي الوزارة للظافر في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ثم وجدت في مكان آخر: أنّ الظافر استوزر أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال نحواً من خمسين يوماً.

وكان شهماً، مقداماً، مائلاً إلى أرباب الصلاح والفضل، عمر بالقاهرة مساجد.

وكان ظاهر التسنن، شافعي المذهب؛ ولما صارت إليه ولاية الإسكندرية زاد في إكرام الحافظ أبي طاهر السلفي، واحتفل السلفي، واحتفل به، وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه، وهي معروفة به إلى الآن.

وكان ذا سيرة جائرة، وسطوة قاطعة، يأخذ الناس بالصغائر والمحقرات. ومما يحكى عنه أنه قبل وزارته بزمان، وهو يومئذ من آحاد الأجناد ـ دخل يوماً على الموفق

= رقد العادل، فإنه معه في الدار ولا ينكر عليه، فقتله نصر.

وكان السلاَّر والد العادل صُحْبَة سُقْمان بن أرتق صاحب القدس، فلما أخذ الأفضل القدس من سُقْمان، وجد طائفةً من جماعة سُقْمان، فضمَّهم إليه الأفضل. وكان في تلك الجماعة السَّلاَّر والد العادل، فأخذه وضمَّه إليه، وحَظِيَ عنده، وسمَّاه ضيف الدولة، وأكرم ولده هذا، وجعله في صبيان الحُجر عندهم، وذلك أن يكون لكل واحد من صبيان الحُجَر فرس وعدَّة، فإذا قيل له عن شُغْلٍ، ما يحتاج أن يتوقف فيه، فإذا تميَّز صبيّ من هؤلاء قُدِّم للإمرة. فترجَّح العادل وتميَّز بصفات، فأمَّره الحافظ وولاَّه إسكندرية. وكان يُعرَف برأس البغل. ثم كان من أمر وزارته وموته ما كان.

ترجمته في: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٣١٩/ ٣٢٠، والاعتبار لابن منقذ ٧، ١٨ـ ١٩، وكتاب الروضتين لأبي شامة ١/ ٢٢٦ـ٢٢٧، وتاريخ الدول المنقطعة لابن ظافر ١٠٢ـ١٠٧، والعبر ٤/ ١٣١، ودول الإسلام ٢/ ٦٣، والبداية والنهاية ٣/ ٤١٦ـ ٤١٩، والمختصر لأبي الفداء ٢/ ٣٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٩، «وفيات سنة ٥٤٥»، وحسن المحاضرة ٢/ ٢٠٥، وكنز الدرر للداواداري ٦/ ٢٥٢، والكامل في التاريخ ١١/ ١٨٤ـ١٨٥، وتاريخ دولة آل سلجوق ٢٢٥، ونزهة المقلتين لابن الطوير ٥٧ـ٥٩، ٦١ـ٦٦، ٧٢، وأخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٩٢، وكتاب الروضتين ١/ ٢٢٦ـ ٢٢٧، ومرآة الزمان ج٨ ق١/ ٢١٤ـ ٢١٥، ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٦ـ٤١٩ رقم ٤٨٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨١ـ٢٨٣ رقم ١٨٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٧٥، والدرة المضية ٢١/ ١٣٨ـ١٣٩ رقم ٨٢، واتعاظ الحنفا ٣/ ٢٠٤ـ٢٠٧، وشذرات الذهب ٤/ ١٤٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٤١ـ٥٥٠هـ) رقم ٤٥١ ص٣٧٨.

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٤١٦ـ٤١٧.

أبي الكرم بن معصوم التنِّيسي. وكان يتولى الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية، فلما طال عليه الكلام، قال له أبو الكرم: والله إنَّ كلامك ما يدخل في أذني، فحقد عليه ذلك، فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه، فخاف منه، واستتر مدة، فنادى عليه في البلد وأهدر دم من يخفيه. وأخرجه من خبأه عنده، فخرج في زي امرأة بإزار وخُفّ فعُرف وأُخذ، وحمل إلى العادل، فأمر بإحضار لوح خشب، ومسمار طويل، وأمر به فالقي على جنبه، وطرح اللوح تحت أذنه، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى، وصار كلّما صرخ، يقول: دخل كلامي في أذنك أم لا، ولم يزل كذلك حتى /٢١٣/ نفذ المسمار إلى الأذن الأخرى التي عليها اللوح، ثم عطف المسمار على اللوح، ويقال: إنه شقه بعد ذلك.

وكان قد وصل من إفريقية أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجي، وهو صبي ومعه أمه، فتزوجها العادل المذكور، وأقامه عنده زماناً، ورزق ولداً سمّاه نصراً، وكان عند جدته في دار العادل، والعادل يحنو عليه ويعزّه.

ثم إن العادل جهز عباساً إلى جهة الشام بسبب الجهاد، وكان معه أسامة بن أسعد بن منقذ؛ فلما وصل إلى بلبيس، وهو مقدم الجيش الذي سار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها، وما هي عليه، وكونه يفارقها، ويتوجه للقاء العدو، ويقاسي البيكار، فأشار عليه أسامة ـ على ما قيل ـ قتل العادل، وأنه يستقل هو بالوزارة، ويستريح من البيكار، ويقرر بينهما أن ولده نصراً يباشر ذلك إذا رقد العادلَ؛ فإنه معه في الدار، ولا ينكر عليه بذلك.

وحاصل الأمر أن نصراً قتله على فراشه يوم الخميس في ذي المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بدار الوزارة بالقاهرة، وقيل: قتل يوم السبت حادي عشر المحرم منها.

ومنهم:

[٩٩]

أبو الغارات، طَلائِع بن رُزِّيك الملقب بالملك الصالح(١)

كان هو السلطان لا الوزير، والملك ودونه كل أمير والخليفة، وإن كان غيره

---

(١) طَلائِع بن رُزِّيك، الملقب بالملك الصالح، أبي الغارات: وزير عصامي، يعد من الملوك. أصله من الشيعة الإمامية في العراق، ولد سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م. قدم مصر فقيراً، فترقَّى في الخدم، حتى ولي منية ابن خصيب (من أعمال الصعيد المصري) وسنحت له فرصة فدخل القاهرة، بقوة، فولي وزارة الخليفة الفائز (الفاطمي) سنة ٥٤٩هـ. واستقل بأمور الدولة، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين. ومات الفائز سنة ٥٥٥هـ، وولي العاضد، فتزوج بنت طلائع. واستمر هذا في الوزارة. فكرهت عمة العاضد استيلاءه على أمور الدولة وأموالها، فأكمنت له =

الجالس على السرير امتطى السنام وسبطا فروع رعية حتى في المنام، وكأنه نهر الندى ويهم البرق ولا يبلغ له مدى، أجود من ابن ... وأوضح من نار حاتم هدى، وأسرى من الأنوار تهب في السحب الدوائج، وأسرع من الأضواء ظلماً في نسب الهوادج، وكان في مجلسه مجال الأدب ... الأدب.

مواهب، وجديد على آثار ذواهب، كأنها أعبدية زمان آل جفنة، وقد عبر، وقام حسان في آل غسان، وقد نسي الخبر وكان الفائز ... لم يكن يفارق القوائل، ولا يخرج بهمّه من يد النائل، قد ذهب دعاء شيعته يوم ... يومه، وأذن عن الأمر بعزله، فتفرد الصالح أبو الطلائع بكل إمضاء، وكل دونه كل مضاء إلاّ أنه ألّف القلوب، وما نفرّها، وتتبع بحسنات زمانه سببه كل دهر وكفرها ... ونظر في المصالح، وساس الرعية سياسة الملك الصالح، وشرع في عمارة البلاد حتى، كانت مدة أيامه تكسي حلل الديباج،

= جماعة من السودان في دهليز القصر، فقتلوه وهو خارج من مجلس العاضد سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م. وكان شجاعاً حازماً مدبراً، جواداً، صادق العزيمة عارفاً بالأدب، شاعراً، له «ديوان شعر ـ ط» صغير، وكتاب سماه «الاعتماد في الرد على أهل العناد» ووقف أوقافاً حسنة. ومن آثاره جامع على باب «زويلة» بظاهر القاهرة. وكان لا يترك غزو الفرنج في البر والبحر. ولعمارة اليمني وغيره مدائح فيه ومراث.

ترجمته في: أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٩٤ـ٩٧، والنكت العصرية ١/ ٣٢ وما بعدها، والمنازل والديار لابن منقذ ١/ ١٥٤، والاعتبار له ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٤٣، وخريدة القصر (قسم مصر) ١/ ١٧٣ـ١٨٥، والكامل في التاريخ ١١/ ١٧٤، ونزعة المقلتين لابن الطوير ٧٠ـ٧٢، ٩٠، ١٢٢، وكتاب الروضتين ١/ ٣١١، ٣١٦، ووفيات الأعيان ٢/ ٥٢٦ـ٥٣٠، وأخبار الدولة المنقطعة ٨٥، ١٠٨ـ١١٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٨ـ ٣٩، وبدائع البدائه ١٨٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٠، ٣٩٢، ومرآة الزمان ٨/ ١٤٦، ونهاية الأرب ٢٨/ ٣٢٤ـ٣٢٨، والدر المطلوب (من كنز الدرر) ١٦، والعبر ٤/ ١٦٠، ودول الإسلام ٢/ ٧٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٩٧ـ٣٩٩ رقم ٣٧٢، والمشتبه في الرجال ١/ ٣٣٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٩، وعقود الجمان للزركشي (مخطوط) ١/ ورقة ١٤١ب، والوافي بالوفيات ١٦/ ٥٠٣ـ٥٠٦ رقم ٥٥٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٣، والمغرب في حُلى المغرب ٢١٧ـ٢٢٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٤٣ـ ٢٤٤، ومرآة الجنان ٣/ ٣١١ـ ٣١٢، والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ١/ ٥٦، ٢/ ٤٥، والكواكب الدرية ١٥٩، والجوهر الثمني ١/ ٢٦٥ـ ٢٦٦، وتبصير المنتبه ٢/ ٢٤٣، وتحفة الأحباب للسخاوي ٧٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٥، ٣٥٩، ٣٦٠، وحسن المحاضرة ٢/ ٢٠٥ـ٢١٥، واتعاظ الحنفا ٣/ ٢٤٦، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٢٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١١٢، وشذرات الذهب ٤/ ١٧٧، وبدائع الزهور ج١ق١/ ٢٣١، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ١٥٠، وأخبار الدول ٢/ ٢٤٨ـ ٢٤٩، وأعيان الشيعة ٣٦/ ٣٢٨ـ٣٣٥، والأعلام ٣٢/ ٣٢٩ـ ٣٣٠، ومعجم المؤلفين ٥/ ٤١، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ٥٦٠هـ) ص١٩٦ رقم ٢٠٢.

و«رُزّيك»: بضم الراء وتشديد الزاي المكسورة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها كاف.

وتوقد بها في كل ناحية سراج. لا زي إلاّ بسط نضار فرش بالأزهار، وبديع شقائق / ٢١٤/ خضر طرزت بالأنهار، وعميم ... لا يتلمس فيه وجه المريب، ولا يروع الشاه. هذا وسيفه لا يرى منه إلاّ خلّته، ولا يعرف منه إلاّ حسن شيته، إلى أن أتت الأرزاء ودهنه حيث لا يُمنع الأعزاء.

ذكر ابن الأثير: أنَّ عباساً قتل الظافر، وأقام الفائز ظنَّ أنَّ الأمر يتمّ له على قدر ما يريده وكان الحال خلاف ما اعتقده؛ فإنّ الكلمة اختلفت وصار الأمر بالأمر إلا وتلقب إليه، ولا يسمع قوله.

وأرسل من بالقصر والخدم إلى طلائع بن رزيك يستغيثون، وأرسلوا شعورهن على الكتب، وكان في منية بني الخصيب والياً عليها وعلى أعمالها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عباساً، وسار إليه، فلما سمع عباس بذلك، خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرةٌ والتحف، والأشياء التي لا يوجد مثلها مما كان أخذه من القصر، وسار معه ولده نصر وأسامة بن منقذ؛ فلما سار وقع به الفرنج، فقتلوه، وأخذوا جميع ما معه، فتقولوا به.

وسار الصالح، فدخل القاهرة بأعلام سود، وثياب سود حزناً على الظافر، والشعور التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، وكان هذا من الفأل العجيب؛ فإنّ الأعلام السود العباسية دخلتها، وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة.

فلما دخل الصالح القاهرة، خلع عليه الوزارة، واستقر في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر، فأراه دفنه، وأخرجه، ونقله. وذلك في ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة إلى مقابرهم بالقصر.

ولما قتل الفرنج عباساً، أسروا ابنه، فأرسل الملك الصالح يبذل لهم مالاً، وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة فأنشد: [من الطويل]

بَلَى، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُرُوفُ اللَّيَالِيْ وَالجُدُوْدُ العَوَاثِرُ

وادخل القصر، وكان آخر العهد به، وقيل: إنه قتل وصلب على باب.

ثم أخذ الصالح في استقصاء البيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية، فأهلك أهلها، وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم من تفرَّق في بلاد الحجاز واليمن وغيرها، وكان قد فعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه، وينازعوه في الوزارة، وتحكّم في الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي، وجباية الأموال إليه ... العاضد؛ لأنه هو ولاّه فزوج ابنته من / ٢١٥/ العاضد فعادله أيضاً الحرم، فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى الأمراء المصريين، ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم في ذلك رجل يقال له

ابن الداعي، فوقفوا في دهليز القصر، وضربوه بالسكاكين على دهش، فجرحوه جراحات مهلكة، وحمل إلى داره، وفيه حياة، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله، فخلف العاضد أنه لم يعلم ذلك، ولا رضي به، فقال: إن كنت بريئاً فتسلم عمَّتك لي حين انتقم منها، فأمره بأخذها، فأرسل إليها، وأخذها قهراً، وحصرت عنده، فقتلها، وأوصى بالوزارة لابنه رزيك، ولقب العادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه في رمضان سنة ست وخمسين وستمائة.

وكان كريماً فيه أدب ومعرفة، وكان لأهل العلم عنده نَفاق، ويرسل إليهم العطاء، وبلغه أنّ محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل شرح بيتاً من شعره، وهو: [من الطويل]

تَـجَـنـبَ سَـمْـعِـي مَـا يَـقُـولُ الـعَـوَاذلُ وَأَصْبَـحَ لِـيْ شُـغْـلٌ مِـنَ الـغَـزْوِ شَـاغِـلُ

فجهز [جائزة] سنية، ليرسلها إليه فقتل قبل إرسالها.

وبلغه أنّ إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بملكه، فأرسل كتاباً يشكره، ومعه هدية.

وكان إمامياً، لم يكن على مذهب العلويين المصريين، لما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة، فقال: ما الخبر؟، فقال: إنّهم يفرحون بالخليفة، فقال: كأني بهؤلاء الجهلة يقولون: ما مات الأول حتى استخلف هذا، ولما علموا أني من ساعة استعرضهم استعراض الغنم.

قال عمارة اليمني: دخلت عليه قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني قرطاساً فيه بيتان من الشعر وهما: [من الخفيف]

نَـحْـنُ فـي غَـفْـلَـةٍ وَنَـوْم وَلِـلْـمَـو تِ عـيُـونٌ يَـقْـظَـانَـةٌ لا تَـنَـامُ
قَـدْ رَحَـلْـنَـا إلـى الـحِـمَـامِ سِنِـيْـنَـاً لَـيْـتَ شِـعْـرِي مَـتَـى يَـكُـوْنُ الـحِـمَـامُ

وكان آخر عهدي به.

قال عمارة: ومن عجيب الاتفاق أنني أنشدت ابنه قصيدة، أقول: [من الطويل]

أَبُـوكَ الَّـذي تَـسْـطُـو الـلَّـيَـالِـي بِـمَـدِّه وَأَنْـتَ يَـمِـيْـنٌ إن سَـطَـا وَشِـمَـالُ]
لِـرُتْـبَـتِـهِ الـعـلْـيَـا وَإنْ طَـالَ عُـمْـرُه إلَـيْـكَ مَـصِـيْـرٌ وَاجِـبٌ وَمَـنَـالُ
لـخـالـصـك الـلَّـحـظ الـمَـصُـونُ وَدُوْنَـهـا حِـجَـابٌ شَـرِيْـفٌ لا اعـصـى وَحِـجَـالُ

فانتقل الأمر إليه بعد أيام.

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة جهزّت عمة العاضد على الصالح أبي الغارات من قتله بالسكاكين، وهو في دهليز القصر، فحمل إلى بيته، وبه رمق، /٢١٦/ فأرسل يعتب [على] العاضد، فخلف العاضد أنه ما علم بذلك، وأمسك

العاضد عمته، فأرسلها إلى طلائع، فقتلها، وسأل العاضد بأن يولي ابنه رزيك الوزارة، فولي، لقب العادل ومات الصالح طلائع، فاستقر ولده في الوزارة.

ولما مات الصالح، دفن بالقاهرة، ثم نقله ولده العادل في تابوت من دار الوزارة ـ وهي المعروفة بإنشاء الأفضل شاهنشاه ـ وركب خلفه العاضد إلى تربته التي بالقرافة الكبرى، فعمل في ذلك عمارة قصيدة طويلة أجاد فيها ومن أبياتها: [من الكامل]

وَكَأَنَّهُ تَابُوتُ مُوْسَى أُوْدِعَتْ ... فِي جَانِبَيْهِ سَكِيْنَةٌ وَوَقَارُ

وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة.

وأما ولده العادل رزيك، فكان الصالح أوصاه أن لا يتعرض لشاور بمساءة، ولا يغير عليه حاله، فإنَّه لا يأمن عصيانه، والخروج عليه، وكان كما أشار. قدم شاور من الصعيد على الواحات فاخترق، ودخلها ثاني عشرين المحرم ثمان وخمسين وخمسمائة فهرب العادل وابنه وحاشيته من القاهرة ليلة العشرين من المحرم منها، وحمل من الذخائر معه ما لا يحصى، واستجار بسليمان، وقيل: يعقوب بن النيص اللخمي وكان من خواص أصحابهم، وحصل من جهتهم نعمة وافرة فأنزلهم عنده وهو ... وسار من ساعته إلى باب شاور، فأعلم بهم، فندب معه جماعة، ومضوا إلى العادل، وأخذوه أسيراً، وأحضروه إلى باب شاور، فوقف زماناً طويلاً، ثم حبسه.

ثم قال شاور لابن النيص: لقد خبأك الصالح ذخيرة صالحة لولده، وأنا أيضاً أخبئك لولدي، ثم شنقه. وبقي العادل في الاعتقال مدة، ثم قتله، وأخرج رأسه لأمراء الدولة.

ومن العجائب أنّ الصالح ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر، وفيهم يقول عمارة اليمني من أبيات: [من البسيط]

وَلَّتْ لَيَالِي بَنِي رُزِّيْكَ وَانْصَرَمَتْ ... والمَدحُ والشُّكْرُ فِيهم غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كَأَنَّ صَالِحَهُم يَوْماً وَعَادِلَهُمْ ... في صَدْرِ ذَا الدَّسْتِ لَمْ يَقْعُدْ ولَمْ يَقُمِ

ومن نظم الصالح أبي الغارات من قصيدة: [من البسيط]

إذا بلَّ الغريم ماله طَرَفٌ ... في كُلِّ جَمْعٍ بدَا مِنْ حُسْنِهِ طَرَفُ
تقولُ لَمَّا أتانَا مَا بَعَثْتَ بِهِ ... هَذَا كِتَابٌ أَتَى أَمْ رَوْضَةٌ أُنُفُ
رَقَّتْ حَوَاشِيْ كَلامَ أنْتَ نَاظِمُهُ ... فِيهِ فَجَاءَ كَزَهْرِ الرَّوْضِ يُقْتَطِفُ
/٢١٧/ وَرَدْتَ بَحْرَ القَوَافِي فاغْتَرَفْتَ كما ... قَدْ حَلَّ يَوْمَاً بِهَذَا النِّيْلِ مُغْتَرِفُ
قَرطَسْتَ رَمْيَاً وَكَمْ رَام بأسْهُمِهِ ... إذَا تَحَقَّقَ مِنْهُ يَسْلَمُ الهَدَفُ
إذَا تَطَلَّعَ فَوْقَ الأَرْضِ ذَا أَدَبٌ ... فأنْتَ مِنْهُ عَلَى العَيُّوقِ تَشْتَرِفُ
لأَعْيُنِ النَّارِ نَهْبٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا ... كَمَا القُلُوبُ يُلاقِيْهَا فَتُخْتَطَفُ

إذا ذكّرنَاكَ مَجْدَ الدِّيْنِ عَاوَدَنَا شرف تَجَدَّدَ مِنْهُ الوَجْدُ وَالأَسَفُ
ولَوْ عَرَفْتَ الَّذِي في القَلْبِ فِيْكَ لَمَا أنْ كُنْتَ عَنَّا عنِ الأخوانِ تَنْصَرِفُ
وَلاَ عَجِيْبٌ إذا خَافَ الزَّمَانُ عَلَى حُرٌّ وَكُلُّ قَضَايَاهُ بِهَا حتفُ
يَا مَنْ جَفَانَا وَلَوْ كَانَ إلى جَنَابِنَا دُوْنَ أهْلِ الأرْضِ يَنْعَطِفُ
وَحَقِّ مَنْ أَمَّهُ وَقْتَ الحَجِيْجِ وَمَنْ ظَلَّتْ إلى بَيْتِهِ الرُّكْبَانُ تَخْتَلِفُ
إنَّا لَنُوفِي عَلَى حَالِ العِبَادِ كَمَا وَفي عَنْ ضمه في قُرْبِنَا كَنَفُ
وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ إن رَامَ بَنَا عَفْواً في حِيْنَ يَنْكَشِفُ
وإنَ جَنَى مَنْ رَأى أنَّا نُعَاقِبُهُ يَرُدُّنَا الصَّفْحُ إذ يَعْتَاقُنَا الأنَفُ
نَعَمْ وَنَحْفِظُ عِنْدَ الغَيْبِ صَاحِبَنَا وَلَيْسَ يُدرِكُنَا كِبْرٌ وَلاَ صَلَفُ
فَمَا لإيْعَادِنا يَومَ الوَغَى وَلاَ قِبَلٌ ولا لِمَوْعِدُنَا يَوْمَ النَّدَى خُلُفُ
وَقَدْ أجَبْنَا إلى مَا أنْتَ طَالِبُهُ فَالآنَ كَيْفَ فِيْهِ أوْ نَقِفُ
فَإنْ يُبَالِغْ أُنَاسٌ في الثَّنَاءِ عَلَى فَكَمْ قَصَّرُوا في كُلِّ مَا وَصَفُوا

وكتب إلى أسامة بن منقذ من قصيدة ميمية منها[1]: [من الطويل]

أَلاَ هَكَذَا في اللهِ تَمْضِي العَزَائِمُ وَتَمْضِي لَدَى الحَرْبِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ
نَذَرْنَا مَسِيْر الجَيْشِ في صَفَرٍ فَمَا مَضَى نِصْفُهُ حَتَّى انْثَنَى وَهْوَ غَانِمُ
وَنَاهِيْكَ مِنْ رَمْلِ الحفار إذَا انْتَظَى بِجَنْبَيْهِ مسوب مِنْ القَيْظِ حَاجِمُ
يَشِيْرَ بِهَا ضرغَامُ في كُلِّ مَازِقٍ وَلَمْ يَصْحَبِ الضِّرْغَامَ إلاَّ الضَّرَاغِمُ
وبرقيّةٌ شاموا السيوف فلم يَعِشْ لبارقها في سَاحَةِ الشَّام شَائِمُ
وسنبس قَدْ شَادُوا المَعَالِي بِنَعْلِهِم وَلَيْسَ لَهُمْ إلاَّ العَوَالِي دَعَائِمُ
وَثَعْلَبَةٌ أضْحُوا بِنَا قَدْ تَأسَّدُوا فَمَا لَهُمُ في المُشْرِكِيْنَ مَقَادِمُ
/٢١٨/ وَإنْ جذْمَا لَمْ يَزَلْ قَطُّ مِنْهُمُ قَدِيْمَاً بِحَبْلِ الكُفْرِ بالشَّام خَادِمُ
إذَا مَا أَثَارُوا النَّقْعَ فالثَّغْرُ بمَا لَيْسَ وإنْ مَرِدُوا الأسيَاق مَا الثَّغْرُ بَاسِمُ
كَذلِكَ مَا تَنْفَكُّ تُهدَى إلى العِدَا وَلِلْوَحْشِ أعْرَاسٌ بِنَا وَمَآتِمُ
وقرى لهم أراونا أرادونا وجيوشاً بذاهبة بيضٌ منها المَقَادِمُ
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّيْنِ لاَ زَلَّ جَدُّهُ وَلاَ حلمت فِيْهِ اللَّيَالِي الغَوَاشِمُ
تَجَهَّزْ إلى أرْضِ العَدُوِّ وَلاَ تَهُنْ وَتُظْهِرْ فُتُوراً إنْ مَضَتْ مِنْكَ حَازِمُ

فأجابه بقصيدة منها[2]: [من الطويل]

لَكَ الفَضْلُ مِنْ دُوْنِ الْوَرَى وَالمَكَارِمُ فَمَنْ حَاتِمٌ مَا بَالُ ذَا الفَجْرِ حَاتِمُ

---

(١) من قصيدة قوامها ٦٤ بيتاً في ديوانه أسامة بن منقذ ٢٢٣ـ ٢٢٧.
(٢) من قصيدة قوامها ٥٧ بيتاً في ديوان أسامة بن منقذ ٢٢٧ـ ٢٣١.

وَصَلْتَ فأغْنَيْتَ الأنَامَ عَنِ الحَيَا ... وَصُلْتَ فأنْتَ فِي سِطاكَ الصَّوَارِمُ
رميت العدا بالأُسْدِ في أُجُم القَنَا ... عَلَى الجُرْدِ يَقْتَادُ الرأيَ وَهْوَ راغِمُ
سل أتى السيف ضَاقَ بِهِ الفَضَا ... وَضَاقَتْ عَلَى الأعْدَاءِ مِنْهُ المَحَارِمُ
ما دين سهب القذف يحمل مثلها ... في الحَتْفِ لِلبَاغِي الرَّحِيْم رَوَاحِمُ
تَعَرَّضَ مِنْهَا فَوْقَ غُرَّةٍ عَارِضٍ ... سَحَابُ المَنَايَا فَوْقَهُ مُتَرَاكِمُ
فَلَيْسَ لِرَاجٍ غَيْرَ عَفْوِكَ مَلْجَأٌ ... وَلَيْسَ لِعَاصٍ لَمْ يَبِتْ منْكَ عَاصِمُ
تَنَزَّهْتَ عَنْ أَمْوَالِ مَنْ أنْتَ قَاتِلٌ ... فَقَدْ حُمِلَتْ بَيْنَ الجُيُوشِ المَقاسِمُ
فَنَهْبُكَ أرْوَاحٌ تُنَقِّلُهَا الظُّبَا ... وَسُمْرُ العَوَالِي وَالبِلادُ مَغَانِمُ
فَلاَ مَوْرِدٌ إلاَّ يُمَازِجُهُ دَمٌ ... وَلاَ مَرْتَعٌ إلاَّ رَعَتْهُ المَنَاسِمُ
فَسَيْفُكَ لِلْخَصْمِ المُعَانِدُ قَاصِمٌ ... وَعَدْلُكَ لِلْشَكْوَى وَلِلْجُودِ شَاكِمُ
خَلَطْتَ السّطَا بالْعَدْلِ حَتَّى تألَّفَتْ ... أسُودُ الشَّرى والمُطْفِلاتُ الرَّوائِمُ
يَشُنُّ أبو الغاراتِ غاراتِ جُوْدِهِ ... عَلَى مَالِهِ وَهْوَ المُطِيْعُ المُسَالِمُ
وَيَبْعَثُهَا شُعْثَ النَّوَاصِي كَأنَّهَا ... ذِئَابُ الغَضَا تَرْدِي عَلَيْهَا الصَّرائِمُ
فَويح العِدَا مِن بأسها، إنَّما سَرَى ... إلَيْهَا وَلَمْ يَشْعُرْ ردى وَأذَاهُمُ
فَلَمَّا أبَادَتْهُمْ سُيُوفَكَ واعْتَلَتْ ... عَلَى الأرْضِ مِنْهُمْ ظُلْمَةٌ وَمَظَالِمُ
عررتهم في البَحْرِ حَتَّى كأنَّمَا الأسَاطِيْلُ ... فِيْهِ مَوْجُهُ المُتَلاطِمُ
بِفُرْسَانِ بَحْرٍ فَوْقَ دُهْمٍ كَأنَّهَا ... عَلَى المَاءِ طَيْرٌ مَا بِهِنَّ قَوَادِمُ
/٢١٩/ تُصَرِّفُهَا فُرْسَانُهَا بأعِنَّةٍ ... جَرَتْ حَيْثُ لَمْ تُوْصَلْ بِهِنَّ الشَّكَائِمُ
إذَا دَفَعُوْهَا قُلْتَ فُرْسَانُ غَارَةٍ ... سَرَوا بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَادِمُ
يَسُوْقُ أسَاطِيْلَ الفِرَنْجِ إلَيْهُمُ ... حَمَامٌ وَطَيْرٌ لِلفِرَنْجِ أشَائِمُ
دِمَاؤُهُمُ فِي البَحْرِ حُمْرٌ سَوَابِحٌ ... وَهَامَاتُهُم فِي البَرِّ شحم حرائمُ
فَلَمْ يخفَ في فَجٍّ مِنَ الأرْضِ هَارِبٌ ... وَلَمْ يَنْجُ في لُجٍّ مِنَ البَحْرِ عَائِمُ
وَعَادَ الأسَارَى مُرْدِفِيْنَ وَسُفْنُهُمْ ... تُقَادُ كَمَا قَادَ المَهَارَى الخَزَائِمُ
وَقَدْ شَمَّرَ الملكان في اللهِ طَالِبَاً ... رِضَاهُ بِعَزْمٍ لَمْ تُعِقْهُ اللَّوَائِمُ
وَقَامَ بِنَصْرِ الدِّيْنِ واللهُ قَائِمٌ ... بِنَصْرِهُمَا مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمُ
أمِيْرَ الجُيُوشِ اسْمَعْ مَقَالَةَ بَائِحٍ ... بِشُكْرِكَ يُبْدِي مِثْلَ مَا هُوَ كَاتِمُ
وَلَوْلاَ رَجَاءُ الصَّالِحِ المَلِكِ الَّذِي ... بِدَوْلَتِهِ الدَّهْرُ المُقَطِّبُ بَاسِمُ
وَأنِّي أُمَنِّي النَّفْسَ لَثْمَ بَنَانِهِ ... وَمَا كَانَ قَبْلِيْ لِلسَّحَائِبِ لاَثِمُ
قَضَيْتُ لِبُعْدِي دَارَه مِنْ نَدَامَةٍ ... وَلاَ عَجَبٌ إن بَاتَ بِالهَمِّ نَادِمُ

وكتب أيضاً الصالح إلى أسامة قصيدة: [من مجزوء الكامل]

تِلْكَ القِسِيُّ مِنَ الحَوَاجِبْ تَرْمِي بِأَسْهُمِهَا الصَّوَائِبْ
لَمَّا افْتُضِحْنَ بِنُورِهِنَّ كُسِـ ـيْنَ فِي لَيْلِ الذَّوَائِبْ
وَكَذَا بُدُوْرُ التَّمِّ لاَ يَبْرُزْنَ إلاَّ في الغَيَاهِبْ
مِنْ كُلِّ آنِسَةٍ يُجَلِّلُ شَعْرُ هَا بِيضَ المَنَاكِبْ
مَا زَالَ يحلفُ طَالِعٌ مِنْهَا بِأُفْقِ المَجْدِ غَارِبْ
وَتَرَى لِسَاحَتِنَا الصَّواهِلَ وَالعَوَاسِلَ وَالقَوَاضِبْ
وَظِلاَلَ أرْمَاحٍ غَدَتْ ثغْرِ النُّحُورِ لَهَا مَشَارِبْ
شَهِدَتْ لَنَا بِالبَأْسِ حِيْنَ غَدَتْ مُضَلِّلَةَ المَضَارِبْ
والسَّابِغَاتُ تُزَرُّ فَوْقَ شُمُوسِنَا مِنْهَا سَحَائِبْ
وَلَنَا إذَا مَا أظْلَمَتْ أعْرَاضُ قَوْمٍ بِالْمَثَالِبْ
قَمَرٌ كَضُوْءِ الشَّمْسِ قَدْ مَلأَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبْ
وَلَقَدْ أخَذْنَا المُلْكَ بِاسْتِحْقَا ـاقِنَالا أخْذَ غَاصِبْ
وَالحَرْبُ تَعْلَمُ إذْ تُرَوِّعُ بِيْضُهَا بِيْضَ الكَوَاعِبْ
مَنْ ظَلَّ يَطْعَنُ فِي مَضَايِقِهَا وَيُطْعِمُ فِي المَسَاغِبْ
مَا كَانَ إلاَّ الخَمْرُ إذْ تَصْفُو وَتُسْكِرُ كُلَّ شَارِبْ
وَلَرُبَّ ... خَامِلٍ بَلَّغْتَهُ أعْلَى المَرَاتِبْ
/٢٢٠/ وَرَفَعْتَ مِنْهُ فَصَارَ مُرْتَفِعاً عَلَى أعْلَى الكَوَاكِبْ
غِرٌّ حَدِيْثِ السِّنِّ سَنَّ الغَدْرَ فِي كُلِّ المَذَاهِبْ
فَدَفَنْتَهُ حَيّاً وَمَا قَامَتْ بِمَصْرَعِهِ النَّوَادِبْ
وَإلَيْكَ مَجْدَ الدِّينِ بِكْراً لَمْ تَهُنْ يَوْمَاً لِخَاطِبْ
تَأوِي لِرَحْبِ البَاعِ يُكْرَمُ عِنْدَهُ مَثْوَى الغَرَائِبْ

فكتب إليه أسامة قصيدة منها[1]: [من مجزوء الكامل]

أطِعِ الهَوَى وَاعْصِ المَتَاعِبْ وَاصْدُفْ عَنِ الوَاشِي المُرَاقِبْ
وَانْظُرْ إلى الأغْصَانِ حَامِلَةً شُمُوسَاً فِيْ غَيَاهِبْ
فَحَذَارِ يَا أُسْدَ الشَّرَى مِنْ فَتْكِ ألْحَاظِ الرَّبَارِبْ
غَضْبَانُ أفْدِيْهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ مُغَاضِبْ

---
(١) منها ١٠ أبيات في ديوانه ص١٠ـ ١١، وقد أخل بالباقي.

دَعْ ذَا فَـمَـا عُـذْرُ الـفَـتَـى فِـي غَـيِّـهِ والـفَـودُ شَـائِـبْ
والأَرْيَـحِـيَّـةُ وتَـمْـنَـعُ الـكُـرَمَـاءَ أن يَـغْـشُـو الـمَـعَـايِـبْ
. . . . والجَهْلُ إن يَكُونَ لَهُ أَخُو السِّنِيْن صاحب
. . . . قُلْ للفَتَى الجَزْلِ العَطَايَا وَالمَواهِبْ
. . . . الصَّالِح المَلِكِ الَّذِي مِنْهُ تَفرَّعَتِ المَنَاقِبْ
فَابْسُطْ يَمِيْنَكَ فَهْيَ بَحْرٌ لَمْ يَـزَلْ عَـذْبَ الـمَـشَـارِبْ
واغْـمُـرْهُـمُ بِـنَـدًى يَـكُـونُ لَـهُـمْ إذا خَـانُـوكَ طَـالِـب
فَـإذَا تَـسَـاوَى فِـي وِلاَئِـكَ شَـاهِـدٌ مِـنْـهُـمْ وَغَـائِـبْ
فَـاحْـفَـظْـهُـمُ فَـهُـمُ سُـيُـوفُـكَ فِـي الـحَـوَادِثِ والـنَّـوائِـبْ
هَـذَا وَفِـي صَـدْرِي شُـجُـون ضِـقْـنَ عَـنْـهُـنَّ الـتَّـرائـبْ
وَاقْـبِـل عـن ولائِـكَ بِـمَـن عَـادَاكَ تَـخْـتَـلِـفُ الـمَـذاهِـبْ
أَظْـنَـنْـتَـهُ إحـدى مُـلُـوكِ الـرُّوم أَرْبَـابَ الـمَـنَـاصِـبْ
هَـلاَّ أَمَـرْتَ بِـقَـتْـلِـهِ بَـيْـنَ أَعـلَـى قَـتْـلَ الـعَـقَـارِبْ
أم كُـنْـتَ قِـدْمـاً سُـمْـتَـهُ فَـصَـدَقْـتَ وَهـوَ أَغَـشُّ كَـاذِبْ
هَـذَا الـوَفَـاءُ لِـمَـنْ تَـجَـاهَـرَ بِـالـنِّـفَـاقِ وَلَـمْ يُـرَاقِـبْ
وَعَـلامَ تَـلْـتَـزِمُ الـوَفَـاءَ لِـخَـائِـنٍ مَـازَالَ خَـائِـبْ
أَقْـتُـلْـهُ واسْـمِـعْـنَـا لَـمَـوْتَـتِـه الـنَّـواعِـي والـنَّـوادِبْ
واجْـعَـلْـهُ مَـوعِـظَـةً لِـمَـن رَامَ الـعَـظِـيْـمَ مِـنَ الـمَـطَـالِـبْ
هَـذَا هُـوَ الـسِّـحْـرُ الـحَـلاَلُ سَـمَـاعُـهُ بِـالـلُّـبِّ لاَعِـبْ
تَـتَـنَـافَـسُ الأَسْـمَـاعُ فِـيْـه فَـكُـلُّ سَـمْـعٍ مِـنْـهُ نَـاهِـبْ

/ ٢٢١/ ومما كتبه الصالح إلى أسامة من قصيدة[1]: [من الخفيف]

أَيُّـهـا الـمُـنْـقِـذِي وَأَنْـتَ عَـلَـى الـبُـعْـ ـدِ صَـدِيْـقٌ وَأَنْـتَ نِـعْـمَ الـصَّـدِيْـقُ
وَأَهَـمُّ الـمُـهِـمِّ أَمْـرُ جِـهَـادِ الـ ـكُـفْـرِ فَـاسْـمَـعْ فَـعِـنْـدَنَـا الـتَّـحْـقِـيْـقُ
وَاصَـلَـتْـهُـمْ مِـنَّـا الـسَّـرَايَـا فـاشـجـا هُـمُ مِـنْـهَـا لَـهُـمْ وَطُـرُوقُ
وَانْـتَـظَـرْنَـا يـا ابـن حـفـنـا وَنُـور الـ ـدِّيـنِ عِـلْـمـاً مِـنَّـا بِـأَنْ سَـيُـفِـيْـقُ
وَهُـوَ الآنَ فِـيْ أَمَـانٍ مِـنَ الـلّـهِ وَمَـا يَـعْـتَـرِيْـهِ أَمْـرٌ يَـعُـوقُ
قُـلْ لَـهُ: لاَ عَـدَاهُ رَأْيٌ وَلاَ زَا لَ لَـدَيْـهِ لِـكُـلِّ خَـيْـرٍ طَـرِيْـقُ

(١) من قصيدة قوامها ٢٠ بيتاً في ديوان أسامة بن منقذ ١٣٥ـ ١٣٦.

أنْـتَ فِـي حَـشْـمٍ ذا طـاعـتـه الـ ـكُـفَّـار ذَاكَ الـمَـرْجُـوُّ والـمَـرْمُـوْقُ

فأجابه أسامة(١): [من الخفيف]

كَمْ إلي كَمْ يُلْحَى المُحِبُّ المَشُوقُ وَهْـوَ مِـنْ سَـكْـرَةِ الـهَـوَى لاَ يُـفِـيْـقُ
حَـمَّـلُـوْهُ وَهْـوَ الـضَّـعِـيْـفُ مِـنَ الـتَّـعْـنِـيْـف والـلَّـوْم مَـا لاَ يُـطِـيـقُ
شَـجَّـعُـوْهُ عَـلَـى الـقَـطِـيْـعَـةِ وَالـصَّـبِّ مِـنَ الـصَّـدِّ وَالـفِـرَاقُ فَـرُوْقُ
وَلَحَوْهُ مِنْ سَاحِلِ البَحْرِ وَالمِسْكِيْنُ فِـي لُـجَّـةِ الـغَـرَام غَـرِيْـقُ
وَأَخُـو الـوَجْـدِ مَـا إلـى قَـلْـبِـه. الـمَـحْـجُـوب بـالـحُـبِّ لـلسُّـلُـوِّ طَـرِيْـقُ
وَإِذَا نَـهْـنَـهَ الـدُّمُـوعَ اسْـتَـجَـمَّـتْ وَهَـمَـتْ وَهْـيَ لُـؤْلُـؤٌ [وَ]عَـقِـيْـقُ
مِـثْـلُ مُـنْـهَـلٍّ أنـعـمُ الـمـلـكِ الـصَّـالِـح يُــرْوَى دَانٍ بِــهِ وَسَــحِــيْــقُ
مَــلِــكٌ زَادَهُ الــتَّــواُضُــعُ لــلــهِ جَــلالاً يَــرُوْعُ ثُــمَّ يَــرُوْقُ
يَـا أمِـيْـرَ الـجُـيُـوشِ مَـا زَالَ لـلإسْـلام والـدِّيْـنِ مِـنْـكَ وَكْـرٌ وَثِـيْـقُ
مَـلِـكٌ عَـادِلٌ أنـارَ بِـهِ الـدِّيْـنُ فَـعَـمَّ الإسْـلاَمَ مِـنْـهُ الـشُّـرُوقُ
مَـا لَـهُ عَـنْ جِـهَـادِ[هِ] الـكُـفْـرَ و الـعَـدْلَ وَفِـعْـلَ الـخَـيْـرَاتِ شُـغْـلٌ يَـعُـوْقُ
هُـوَ مِـثْـلُ الـحُـسَـام صَـدْرٌ صَـقِـيْـلٌ لَـهُـنَّ سِـتَّـة حُـدُودٍ لـيـقُ
فَـأَسْـلَـمَـا لـلأنَـام كَـهْـفَـيْـنِ مَـا طَـرَّزَ يَـوْمَ الـظَّـلامِ بَـرْقٌ خَـفُـوقُ

وكتب الصالح إلى أسامة:

«أصدرنا هذا الكتاب إلى المظفر المنصور الكامل لما تجدَّد قِبَلَنا بعد توجيه الرسل والسائر من حضرتنا إلى الملك العادل نور الدين ـ أدام الله له التأييد والنصر ـ من تواصل العساكر إلينا، وقدوم الحشود المتوافرة العدد / ٢٢٢/ علينا .... الأجلين فارس المسلمين، وركن الإسلام، زاد الله في علائهما، وكبت حسدتهما وأعدائهما إلى الباب في الجيوش التي سدت القضاء، وملأت البيداء، وبهرت النواظر عدة وعديداً، وأوسعت المُباهي المكاثر خيلاً مسوَّمة وحديداً، وجاء النفير من العربان والراجل التي تحصى قبل إحصائهم..... منتحرهم وقائدهم عن أن يسوقهم سوق العضار في نهار يوم الأحد لاثنتي ليلة خلت من رجب، استخرنا الله تعالى، وبرزنا مساله منظره الفتوح برأس ... لما خلعنا عليه من النهوض النفقة في الجنود، وتفرقة العطاء الموفر في سائر العربان والحشود، طالبين بذلك وجه الله وثوابه الذي هو أكبر غنم، وأجل قسم، وكان بنا ولله المشيئة، وقد نهضنا بأنفسنا وسرنا بجموعنا، وآثرنا فضل الجهاد على لين المهاد، ومشقة العمل بالفرض على طيب الدعَّة والخَفْض، وكنا قد أصبحنا الرسل إلى الملك العادل، قصرناه عن استنهاضه، وضرب ميعاد بيننا وبينه إلى مكان معلوم في

(١) منها ١١ بيتاً في ديوانه ١٣٦ وقد أخل بالباقي.

وقت محدود نجتمع معه فيه، ونستعين بالله جميعاً على استئصال هذا العدو اللعين، وإنقاذ الشام من أيدي الكفرة الملحدين، وحلفنا له يميناً مؤكدة على أنا لا نخلف الميعاد، وأنَّا واعدنا ولا نتَّكل، أو نقصر في جهاد من حاربنا..... ولا يثني عزمنا عما شرطناه، ولا ينتهي وجهتنا التي نتوجه لها دون ما صمدنا له وقصدناه. والأمير يعلم ما يلزمنا في الكلف في هذه الحال الذي مد طرق الإفرنج هذه البلاد، ولم يتكلفها أحد من ملوك الديار المصرية سوى الأفضل لما حاز من الذخائر، وملك من الأموال الجمة والعساكر، وقد تعاطينا نقله مع تأخر الزمان واحين أنا ـ إن شاء الله ـ نرضى عليه، ونجري من الغاية القصوى إلى ما لم يجر إليه، فليصور عند الملك العادل هذه الحال بصورتها، ويقرره بهيأتها ولسـ... في المطالعة لنا بما تجدَّد قِبَلَه، وحدث في البلاد من الأمور التي يتطلَّع إلى معرفتها، فإنه قد أخلَّ به وأهله، فهو يعلم لم سلوتنا إليه وتعويلنا في المهمات عليه، لفرط رغبتنا في التحريض والاستنفار، فضمَّنا ما تضمَّنه كتابنا إلى الملك العادل في قصيدة، ليكون أسْيَر لذكره، وأشهر لأمره، وقد جعلناها ثني هذه المكاتبة، ليقف عليها، ويصلح خللاً إن كان فيها، ومعيرها بتوليته، لإذاعتها جمالاً، ويزيدها بتكلفه، لإشاعتها رواء وحلالاً، فاستماع الأدباء إليه أسرع، ومنه أسمع، وإيراده لها فيما يحاوله ألمع وأنجع، والأمير لا يُغِبُّ مطالعتنا، ولا يُهمل مكاتبتنا ومراسلتنا، فهو عندنا القوي الأمين، وله من أنفسنا المكان المكين، ليعلم ذلك، وليعمل به».

فكتب إليه أسامة / ٢٢٣/ جواباً:

«وينهي وقوفه على ... العالي المشتمل على إنعامه الضافي عليه السابغ، وفضله الذي حيث حمل، فهو واصل إليه، بالغ ما يته، وهو جوار الصعب من كتب، ويلحُّ إذا تباعد عنه، وأغرب في الطلب ينقب عنه في البلاد، ويبادي إليه سيل العهاد، فهو عيشه الهامي، وغوثه المانع الحامي، يعقل ثناه بشوارد الفضل، ويمرع جنابة في أزمة المحل، فشكره وتمليك رقِّه لا يقومان بأيسر حقِّه، فلله در أوراق تضمنت منا شقلا للأعناق، لكنها خرقت العادة في الحلول، وعدلت من الستر المسلول، يؤمر فيه بالمثول بمجلس المولى الملك العادل ومفاوضته في ميعاد يضربه للقاء على مناجزة الأعداء.

وكان المملوك ـ بل أهل الشام ـ في ذلك الوقت لمرض المولى المالك في عداد الأموات، لا يفرقون بين ما مضى وبين ما هو آت. ألبابهم حائرة، وقلوبهم طائرة، والعدو عليهم كَلِب، وحلهم مضطرب، فكان تقصير الملوك لهذا السبب الذي أحمد الله فيه العاقبة والمنقلب. وقد خامر المجلس العالي من ذلك على البعد ما أشتهر وظهر تأسفه وتوجهه ما ما ظهر، فكيف يلام المملوك على تدلهه، وتشعب فكره، وولهه على من ملك بفضله رقَّه، وطوق بأنعامه عنقه، ومحا إلى ظله والخطوب تكربه، والحوادث تطلبه، فأجله رأس عمدان، وجعله ينظر من علٍ إلى الزمان ورأس جهاجه الكسير،

وانهضه وغمره من أنعامه ما ثقله كلما كان يجده، ومسيره إلى الجهاد بالعديد والعدد، وقد ندب مملوكه الأمير نجم الدين لإحضار الأمراء الأرتقية وعساكرهم، وهم الجم الغفير، والعدد الكثير، وسير من الأمراء الأماثل كل واحد منهم إلى جهة يستدعي العساكر، وظهر من شريف الاهتمام، وما في الاعتزام في أنفاق الأموال، وجمع الرجال، واستدعاء الأمراء الأكابر أرباب الممالك والعساكر ما لو كان يقدم في السنين الخالية ما كان بقي للكفرة باقية. والله تعالى يمده بنصره، ويجعل الملائكة من أعوانه وجنوده، فهو في هذا الكتاب قبة الإسلام التي يلجأ إليها، ونصرته التي يعتمد عليها، وهذا وقت إرهان العزائم الملكية الصالحية أمضاها الله وأعلاها، ومكَّن سيوفها من هام أعدائها، ومواصلة بلاد العدو لعنه الله بالمقانب والعساكر، وتجهيز أول في ذكره آخر حتى يقطع الله دابر أولي الكفر والفساد ويسترجع بسيوف الملكين الصالح والعادل البلاد، والله تعالى ينصرهما ويقرب بالأعداء ظفرهما، ينهي أنه قد شاع /٢٢٤/ في بلاد الشام أن العساكر المنصورة لا تشن الغارات على العدو وطروق بلاده في الرواح والغدو، والأيدي بالدعاء لمالك الرقة مرفوعة، والأدعية الصالحة مجابة مسموعة، وعلى أنَّ الآمال في الهمم العالية متطلعة إلى أكثر من هذه الأموال الجارية لما في النفوس منها من الإجلال والإعظام، وما جمعه الله تعالى في المجلس العالي من الورع والكرم والإقدام، فلهذا يستصغر الكبير، ويستقل له العظيم الكثير، وقد تيسَّر المطلوب، وأتفقت النيات والقلوب مما غدر الصوارم عن مد القصر والجماجم، وما إحجام الأُسد الضاربة عن الكلاب العاوية، أليس هم سور السيوف، وبقية صرعى الحتوف، فإذا شرعت فيهم السيوف المالكية الصالحية من هناك، والملوك العادلية أوردتهم موارد الهلاك، وإن تربَّت بمشيئة الله تعالى، ولا يتأخر، وهو تعالى يتعجل منه ما يتوقع وينتظر، والمملوك ينهى إلى..... من مطالعته لما تضمَّنَت الإجابة الكريمة الملكية العادلية، فإنها تشتمل على ما يتطلع إليه، ويفصح عما يقول عليه، وللآراء العالية مزيد العلو والقدرة».

ومنهم:

[١٠٠]

أبو شجاع، شاور بن مجير بن نزار[(١)]

من ولد أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة مرضع رسول الله ﷺ.

---

(١) أبو شجاع، شاور بن مجير بن نزار السَّعْدي، من بني هوازن، أبو شجاع: أمير، من الولاة. فيه نجابة وفروسية. يلقب بأمير الجيوش. ولي الصعيد الأعلى بمصر، في أيام العاضد. ثم قام بثورة =

وزير لم يمضِ له أمر غالب مدته، ولا أخذ فواق نفس من خناق شدَّته. اتسعت في ميل تدبيره الخروق، ووسعت في زمانه أكثر من ... الفتوق، وأحوجته غير الحوادث، وبلايا الكوارث إلى أن انتجع حمى الشام ملتجأً إلى عتاته، مرتجياً لرعاته، حتى أصرخه أسد يقطع نياط القلوب، .... ويحرق سحح البحار زفيره، سرى يوم المقام دمنوري، ويستوضح بزناده الوري فرد عليه نافراً عفائه، وانهد معه الجيوش عكا لعقد وفائه، على أمور ضمنها الشهيد نور الدين، ثم ما وفى ... أبي وائل، ولا قام بها إلاَّ قيام الكوشاني لأهل بابل، فسار بهم حتى إذا سلت له دهماء مصر، وأضاء له بارق النصر، منعهم حتى موارد الأقوات، واستدرك حتى يطالبهم بالفوات، ودافع بالجيش المطل منيته. عاد فكان بالسيف الصلاحي سبب إدناء أجله، رحل به حيث أمر عاقبة وجعله.

قال ابن خلكان[1]: كان الصالح بن رزِّيك قد ولاَّه الصعيد الأعلى، ثم ندم على توليته، وكان الصالح يعد لنفسه ـ حين جرح، وأشرف على الموت ـ ثلاث غلطات، إحداها: تولية شاور، وثانيها بناء الجامع خارج باب زويلة، فإنه صار عوناً على من يحاصر القاهرة، وثالثها: خروجه إلى بلبيس بالعساكر، /٢٢٥/ ورجوعه بعد أن أنفق

= استولى بها على وزارة مصر، بعد أن قتل «الملك الصالح رزيك» سنة ٥٥٦هـ. واتهم بممالأة الإفرنج وأنه استعان بهم على دفع أسد الدين «شيركوه» عن دخول مصر، في أيام العاضد. ودخل شيركوه مصر، فاتفق مع العاضد على قتله، وعهدا إلى «صلاح الدين» وكان لا يزال قائداً، فتولى قتله أمام قبر الإمام الشافعي، بالقاهرة، وبعث برأسه إلى العاضد سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م.
ترجمته في: النوادر السلطانية ٣٦ـ٤٠، وسنا البرق الشامي ١/ ٧٨، وتاريخ مختصر الدول ٢١٢، والنكت العصرية ٦٧ـ٧٠، ٧٢، ٧٧، ٧٩، ٨١١، ٩٢، ١٣١، ١٣٤، ١٣٦، ١٥٠، ١٨١، ١٨٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢٧٤، ٣٦٠، ٣٦٧، ونزهة المقلتين ٩، والكامل في التاريخ ١١/ ٣٣٥ـ٣٤١، والتاريخ الباهر ١٢٠ـ١٤٠، ومرآة الزمان ٨/ ٢٧٧، والروضتين ج١ق١/ ١٥٦ـ١٥٨، وأخبار الدول المنقطعة ١١٢ـ١١٦، ومفرّج الكروب ١/ ١٥٨، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩ـ٤٤٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٥ـ ٤٦، والدر المطلوب ١٨ـ ١٩، ٢٥ـ٣٩، ١٤٢، والمغرب ٩٦، ١٤٠، وزبدة الحلب ٢/ ٣١٥ـ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، والعبر ٤/ ١٨٦، ودول الإسلام ٢/ ٧٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥١٤ـ٥١٧ رقم ٣٢٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٥ـ ١١٦، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥٩، والوافي بالوفيات ١٦/ ٩٥ـ٩٧ رقم ١١٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٤٦، واتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨٨، ٢/ ٢٥٠، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٣٢، والكواكب الدرية ١٧٨، والسلوك ج١ ق١/ ٤٣، وشفاء القلوب ٢٥ـ٣٥، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٢، وحسن المحاضرة ٢/ ٢١٥ـ ٢١٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢٠ـ ١٢١، وشذرات الذهب ٤/ ٢١٢، وأخبار الدول (طبعة عالم الكتب)، الأعلام ٣/ ١٤٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٦١ـ٥٧٠هـ).

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩.

أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم إلى بلاد الشام، ويفتح بيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج.

وقد تقدم في ترجمة الصالح بن رزيك قدوم شاور من الصعيد إلى القاهرة، وهروب العادل بن الصالح، ولما قتله، أخذ موضعه من الوزارة، واستولى.

ثم توجَّه في سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة في شهر رمضان منها إلى الشام مستنجداً بالشهيد نور الدين محمود بن زنكي، لما خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر ـ الملقب فارس المسلمين ـ اللخمي المنذري بجموع كثيرة، وغلبه، وأخرجه من القاهرة، وقتل ولده طياً، وولي الوزارة مكانه، كعادة المصريين، وأنجده أسد الدين شيركوه، وتردد معه إلى القاهرة دفعات.

وقتل شاور في ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن في تربة ولده طي بالقرافة القصوى.

وذكر صاحب تحفة الخلفاء: أنَّ السلطان صلاح الدين أوقع به، وكان إذ ذاك صحبة عمه أسد الدين، وأن قتله كان في منتصف جمادى الأولى من السنة المذكورة.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين: أنَّ شاور المذكور خرج إلى أسد الدين في موكبه، فلم يتجاسر عليه أحد إلاَّ صلاح الدين، فإنه تلقاه، وسار إلى ركابه، وأخذ سلاحه، وأمر العسكر بقصد أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وأنزل شاور في خيمة مفردة، وجاء في الحال توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول: لابدَّ من رأسه جرياً على عادتهم مع وزرائهم، فحزَّ رأسه، وأنفذ إليهم، وسير إلى أسد الدين خلع الوزارة، فلبسها وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً.

وذكر ابن عساكر: أن شاوراً وصل إلى نور الدين مستجيراً، فأكرمه واحترمه وبعث معه جيشاً، فقتلوا خصمه، ولم يقع منه الوفاء بما ورد من جهته.

ثم إن شاور بعث إلى ملك الفرنج واستنجده، وضمن له أموالاً فرجع عسكر نور الدين.... جهز إليها عسكراً، فلما سمع العدو بتوجه جيشه، رجعوا خائبين، وأطلع من شاور على المحاصرة، وأنفذ يراسل العدو طمعاً منه في الظافرة، لما حيف من شره، تمارض أسد الدين، فجاءه شاور عائداً، فوثب جردل وبرغش موليا نور الدين، فقتلا شاور[اً]، وكان ذلك برأي الملك الناصر صلاح الدين، فإنه أول من تولى القبض، ومدَّ يده بالمكروه إليه، وصرف الأمر لأسد الدين، وظهرت السنة بالديار المصرية، وخطب فيها للدولة العباسية.

وللفقيه عمارة اليمني في شاور مدائح / ٢٢٦/ منها قوله[1]: [من الكامل]

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٤٤١.

ضَجِرَ الحَدِيْدُ مِنَ الحَدِيْدِ وَشَاوَرٌ مِنْ نَصْرِ دِيْنِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ
حَلَفَ الزَّمَانُ لَيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنِثَتْ يَمِيْنُكَ يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ

وحكى الفقيه عمارة: أنَّه لما تمَّ لشاور الأمر، وانقرضت دولة بني رزيك، جلس شاور، وحوله جماعة من أصحاب رزيك، ممن له عليهم إحسان وإنعام، فوقعوا في بني رزيك تقرُّباً إلى قلب شاور، وكان الصالح بن رزيك وابنه العادل قد أحسنا إلى عمارة عند دخوله إلى الديار المصرية فأنشده: [من البسيط]

صَحَّتْ بِدَوْلَتِكَ الأَيَّامُ مِنْ سَقَمِ وَزَالَ مَا يَشْتَكِيْهِ الدَّهْرُ مِنْ أَلَمِ
زالَتْ لَيَالِي بَنِي رزِّيْكَ وَانْقَرَضَتْ وَالحَمْدُ وَالذَّمُّ فِيْهَا غَيْرَ مُنْصَرِمِ
كَأنَّ صَالِحَهُمْ يَوْمَاً وَعَادِلَهُمْ فِي صَدْرِ ذَا الدَّسْتِ لَمْ يَقْعُدْ وَلَمْ يَقُمِ
كُنَّا نظنُّ وَبَعْضُ الظَّنِّ مَأْثَمَةٌ بِأنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
فَمُذْ وَقَعتَ وُقُوْعَ النَّسْرِ جَاءهُمُ مَن كان مُجْتَمِعَاً مِنْ ذَلِكَ الرَّخَمِ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيْمِي عِدَاكَ سِوَى تَعْظِيْمِ شَأنِيَ فاعذُرْنِي وَلا تَلُمِ
وَلَو شَكَرْتُ لَيَالِيْهِم مُحَافَظَةً لِعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بالعُسْرِ مِنْ قِدَمِ
وَاللهُ يَأْمُرُ بالإِحْسَانِ عَارِفَةً مِنْهُ وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ في الكَلِمِ

قال: فشكرني شاور وولده على الوفاء لبني رزيك.

وأما الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي، فإنَّه لما وصل شاور بالعساكر من الشام، خرج من القاهرة، وقتل في جمادى الآخرة، وقيل: في رجب سنة تسع وخمسين، وحزُّوا رأسه، وطافوا به على رمح، وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام يأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة[1].

ومنهم:

[١٠١]

أسد الدين، شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، الملك المنصور[2]

أسد لا يقدم على لقائه، ولا يحذر إلا من عدم إبقائه. قاد الجيوش وساسها،

---

(١) إلى هنا النص من وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩ـ ٤٤٢.

(٢) شِيركُوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو أخو نجم الدين أيوب، وعمّ السلطان صلاح الدين. كان من كبار القواد في جيش نور الدين (محمود ابن زنكي) بدمشق، وأرسله نور الدين على رأس جيش =

ووطىء البلاد وداسها، حتى ولج من مصر عريشه، ودخل من دار الوزارة جيشه.

كان من الأمراء النورية، وأهل الآراء التورية، معروفاً بقوة الجلد، موصوفاً بالشجاعة التي هي من صفات الأسد، وكان مترباً من المال، مورياً نار راية في فحمة الليالي، ... من الملك والعقار ما استقطع مواقع الأمطار، حتى ظَنَّ نور الدين أنه ربما ظلم، وحصَّل هذا بما صدع به زجاج الرعايا وثلم، فبنى داراً ليجلس فيها بعض الأيام، ويحكى فيها شكايات الأنام، وسمَّاها «دار العدل»، جعل من رسمها أن يكون فيها مجلسه مجلساً عاماً لا يمنع عليه والج، ولا يعترض /٢٢٧/ داخل، ولا خارج، وكان باطن قصده أن يتوصل إليه من له شكوى على أسد الدين. وهيهات أن يخلص من

=

إلى مصر (سنة ٥٥٨هـ) نجدة لشاور بن مجير السعدي (مرّت ترجمته) وعاد. وذهب إليها ثانية (سنة ٥٦٢) لنجدة ابن أخيه «صلاح الدين» وقد حاصره «شاور» في الإسكندرية، فأصلح ما بينهما، وقويت صلته بالمصريين، وعاد. وهاجم الفرنج بلدة «بلبيس» بمصر، وملكوها، فكتب إليه أهلها يستنجدونه. فأقبل للمرة الثالثة، وطرد الفرنج. وعلم بأن شاور بن مجير يأتمر به لقتله هو ومن معه من كبار القواد، فتعاون مع صلاح الدين على قتل شاور. وأرسل رأسه إلى الخليفة «العاضد» فدعاه العاضد، وخلع عليه ولقبه بالملك المنصور، وولاه الوزارة. ولم يُقم غير شهرين وخمسة أيام، وتوفي فجأة سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م. ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى المدينة، بوصية منه. وكان كما يصفه ابن تغري بردي، عاقلاً شجاعاً مدبراً وقوراً. وللعماد الكاتب، من قصيدة:

يا شيركوه بن شاذي الملك، دعوة من ... نادى، فعرَّف خير ابن بخير أب

ترجمته في: الاعتبار ١٤، والنكت العصرية ٧٨ـ٨٠، ٣٧٠، ونزهة المقلتين ١١٢، والكامل في التاريخ ١١/ ٣٤١ـ ٣٤٢، والتاريخ الباهر (انظر فهرس الأعلام) ٢١٨، وأخبار الدول المنقطعة ١١٤ـ١١٦، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٧٩ـ٤٨١، والنوادر السلطانية ٣٦ـ٤٠، وكتاب الروضتين ج١ ق٢/ ٤٠٥ـ ٤٠٦، ٤٣٨، وسنا البرق الشامي ١/ ٨٠ـ ٨١، وتاريخ مختصر الدول ٢١٢ـ ٢١٣، ومرآة الزمان ٨/ ٢٧٨ـ ٢٧٩، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢١ـ٣٢٨، ومفرّج الكروب ١/ ١٤٨ـ١٦٨، والمغرب في حُلى المغرب ٩٦ـ ١٤٠، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٥ـ ٤٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٨٧ـ٥٨٩ رقم ٣٦٩، ودول الإسلام ٢/ ٧٧، والعبر ٤/ ١٨٦ـ ١٨٧، وتاريخ ابن الوردي ٣/ ١١٥ـ١١٧، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٧/ ٣٥٢ـ٣٥٤، والبداية والنهاية ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٩، والوافي بالوفيات ١٦/ ٢١٤ـ٢١٦ رقم ٢٤١، وأمراء دمشق في الإسلام ٤١، والدر المطلوب ٢٣٢ـ٢٣٥، والسلوك للمقريزي ج١ ق١/ ٤٣، والكواكب الدريّة ١٧٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٨١ـ٢٨٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٨١ و٣٨٧ـ٣٨٩، وحسن المحاضرة ٢/ ٣ـ ٤، ٢١٦، وشفاء القلوب ٤٣ـ ٤٤، وشذرات الذهب ٤/ ٢١١، وترويح القلوب ٣٨، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٣٢، وتهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٣٦٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٨١، سير أعلام النبلاء ٢٠٠/ ٥٨٨، الأعلام ٣/ ١٨٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٦١ـ٥٧٠هـ) ص١٩٤ رقم ١٤٨.

و«شيركوه» بالعربي: أسد الجبل، فشير: أسد، وكوه: جبل، و«شاذي»: معناه بالعربي فرحان.

الأسد فريسه، ويخلد عليه خسيسه. وفطن أسد الدين لمراده، وفهم قصده، فأصدر له قبل إيراده، وجمع وكلائه ونوابه، فأطلعهم على ما هجس في خاطره، ورأى من لوامع البرق النوري قبل مواطره، وقال: أقسم بالله، لئن تركتموه يبلغ أم لا، ويقف له من يشكو إليه بسببنا مُحقًّاً، أو مبطلاً، لآخذنَّ ما فيه لئن تركتموه يبلغ، فلمَّا تمت تلك الدار وجلس بها نور الدين لم يرفع إليه فيها بسبب أسد الدين قصة، ولا نفست له بالشكوى عليه غصَّة، فما زاد على أن قال: الحمد لله الذي جعل أهل دولتنا ينصفون من أنفسهم، ثم قام من بين جماعة، ولم يعد إلى مجلسهم.

ولما استضرب كلاب الفرنج على مصر وسائرهم الدنية، وزلزلوا صاحب القصر أركانه المبنية، أتى شاور إلى الأبواب النورية مستنجداً، فأنجدهم بجيش قدم عليهم من شيركوه أسد الدين، فلما سكن بأهل قصر الزلزال، ودفع حكم النزال، غدر شاور وختر، وقطع مواد الجيش الأسدي، ... فعاد أسد الدين يرهق وجهه منه الغضب، وعاد أسر الفرنج موقع جمرهم، وكان قد فتر، فكرَّ شاور راجعاً يستنجد نور الدين، فأنجده بيأس ذلك الأسد الضرغام، وأكرهه ليدرأ عن غيله بالإرغام، وأخرج معه كارهاً صلاح الدين أخاه لأمر أراد الله تمامه، وألقى إليه زمامه، فكان من أمر هذه الكرة ما كان، وقتل شاور وطُلَّ دمه وهان، وخطب العاضد أسد الدين للوزارة، وقلَّده طوقها، وحمله أَوْقَها، ثم لم تطل أيامه حتى دهمه ما كان يتوقعه من جماعة، وكان قد ... والموت ساقيها الأسد القسورة والنَقَد، تقدم من حديثه نبذة في ترجمة شاور.

قال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل والمواظبة على تناول اللحوم الغليظة، متواتراً عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شديدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. ودفن بالقاهرة، ثم نقل إلى مدينة رسول الله ﷺ بعد مدَّة بوصية منه، ولم يخلف ولداً سوى الملك القاهر ناصر الدين محمد.

ولما مات أسد الدين، أخذ نور الدين منهم حمص في رجب سنة أربع وستين، فلمَّا ملك صلاح الدين الشام وأعطى حمص لناصر /٢٢٨/ الدين المذكور، ولم يزل ملكها حتى توفي يوم عرفة في إحدى وثمانين وخمسمائة، ونقلته زوجته بنت عمه ستّ الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق بظاهر البلد، ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

وملك بعده ولد أسد الدين شيركوه، ومولده سنة تسع وستين وخمسمائة، وتوفي في رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكانت له أيضاً الرحبة، وتدمر، وماكسين من بلد الخابور.

وخلَّف جماعة من الأولاد فقام في الملك مقامه ولده الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم، ولم يزل حتى توفي في صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من

غوطة دمشق، ونقل إلى حمص.

وترتب مكانه ولده الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى، مولده سنة سبع وعشرين وستمائة، ولمَّا بشر به والده، قال للملك الأشرف: يا خوند قد زاد في مماليكك واحد، فقال له: سمِّه باسمي، فسمَّاه الأشرف مظفر الدين أبا الفتح موسى. وكانت وفاة الأشرف هذا بحمص في صفر سنة اثنتين وستين.

وحجَّ شيركوه سنة خمس وخمسين وستمائة من دمشق على طريق تيماء وخيبر.

وكانت ولاية أسد الدين للوزارة يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومنهم:

[١٠٢]

الوزير صفي الدين بن شكر(١)

وزير يعد من العلماء، ويعيب أيامه امتداد الظلماء. أعرق في نسبه الفخار، وضايق السحاب حتى تمنى منه الفرار إلى سعيه في المهام، ورفعه عن المدام إلاّ أنه كان يحب التقدم عند الملوك، ولا يبالي بما يحتمل، ولا يعبأ بسحاب الدم، ولو احتفل، وكان أقوى من الصخرة الصماء لمساً، وأشدّ من الحديدة الخشناء مساً، ولي أولاً النظر وبصره مثل قلبه حديد، وبأسه مثل بؤسه شديد، وذلك على العهد الناصري الصلاحي، فكثر في تشكيه الإلحاح، ورأى انتكاساً في زمن ذلك الصلاح، وكان الفاضل يمقته مقت المريض الدواء، وينغضه بعضِّ الكلاب الماء، كان يقصد تقييد

---

(١) عبد الله بن علي بن الحسين، أبو محمد، صفيّ الدين الشيبي الدميري، المعروف بالصاحب ابن شُكْر: وزير مصري. من الدهاة. ولد في دميرة البحرية (من إقليم الغربية بمصر) سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. ونشأ نشأة صالحة، فتفقه في القاهرة، وصنف كتاباً في «الفقه» على مذهب مالك. واتصل بالملك العادل أبي بكر بن أيوب فولاه مباشرة ديوانه سنة ٥٨٧هـ. ثم استوزره، فعمد إلى سياسة العنف والمصادرة واستبد بالأعمال، فعزله العادل، فخرج إلى آمد وأقام عند ابن أرتق إلى أن مات العادل (سنة ٦١٥) فطلبه الكامل محمد ابن العادل، وهو في نوبة قتال مع الإفرنج على دمياط، فجاءه، فكاشفه بما هو عليه من الاضطراب بثورة العرب في مصر ومحاربة الفرنج وعصيان بعض الأمراء، فنهض ابن شكر بالأمر عنيفاً على سابق عادته، فخافه الناس وهابوه، فاستقر الملك. وعظم أمره عند الملك الكامل. واستمر على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في شعبان سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. قال مؤرخوه: كان طلق المحيا، حلو اللسان، حسن الهيئة، صاحب دهاء مع هوج، شديد الحقد، منتقماً لا ينام عن عدوه ولا يقبل معذرة أحد.

ترجمته في: النجوم الزاهرة ٦/ ١٥١، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧، ٢٦٣، ٢٨٠، فوات الوفيات ١/ ٢١٩، خطط مبارك ١١/ ٥٧، الأعلام ٤/ ١٠٥ـ ١٠٦.

قلمه، وتقليل كلمه، والفاضل قد جمع تلك الدولة في يمينه، وقمع في تلك الفرق بتمكينه، وكان على هذا لا يقدر على هضمه، ولا يجد له، فقال مرة: وأمّا ابن شكر فهزَّ الذي لا يشكر، وإذا ذكرت الأشياء فهو الشيء الذي لا يذكر.

وقال مرَّة أخرى، وقد بلغه أنه وزر، وكان خيراً طائعاً /٢٢٩/ إلاّ أنه أهمه، وحمل وما تحقق صحة وهمَّه، فقال: وأما ابن شكر قد قال أناس وزر، وقال أناس: كلا لا وزر، انتهى كلامه.

قلت: كان ابن شكر من الفقهاء العلماء، اشتغل على مذهب مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ وتقدّم فيه، وحضر الدروس، وناظر الفقهاء، وافتى.

ثم علق يخدم السلطان، وباشر أمور الدواوين، وكان يقول: إنه من قريش، وسمعت بقايا بنيه يقولون: إنهم من بني مخزوم، ورأيت بخط من يوثق به في علم النسب، أنهم من العرب، وليسوا من قريش، ولا يحضرني الآن إلى من نسبهم، ولا من أي الآخرين .... حسبهم.

وترقى في المباشرات، إلى أن ولي نظر الدواوين بمصر سنة السلطان صلاح الدين، وشرع في قطع الأرزاق، وأحداث المطالبة.

وكان الفاضل يتقصد عزله، ويصفه بالظلم والقوة، ولا يقدر؛ لأن الملك العادل كان ظهيراً لابن شكر، ... وكان كافياً في عمله يسدّ الأعمال، ويثمر الأموال، وينهض بتكاليف الكلف، وأعباء المهمات، وكان ... السلطان منه كفايته، ويلبسه على علاته.

وكان سمحاً، جواداً، كريماً صنّف كتاباً في الفقه، وجعل لمن يحفظه مائة دينار، فعرضه عليه زيادة على مائتي نفر وأعطاه واجفل لهم، وبنى بالقاهرة المعزيَّة مدرسة على المدرسة المالكية، وهي من مدارس مصر الجليلة المذكورة معنى وصورة.

وكان ممدَّحاً مجزلاً في جوائز الشعراء، وكان مغرماً بالنساء والجواري، كثير النكاح، مجازفاً في إتيائهن، قال به كثرة النظر في هذا العمى.

وولي الوزارة بعد العهد الصلاحي وعظم مكانه، وكان على هذا كله إذا سافر السلطان، وخرج معه يخرج ببغلة واحدة يجيب معه، وركب هو على جمال الثقل توطأ له على بعض الحمول، ليركب ولا يأخذ معه غلاماً، ولا طباخاً بل غلمان السلطان تخدمه، وتنصب له الخيمة، ويأتيه الطعام من مطبخ السلطان والشراب من سرنجاراته على كفايته، ولا يتجاوز قدر ما يحتاج إليه، يكتفي بالزبدية الواحدة، ولا يزيد عليها. ولم يزل على علياته وهبوب رياحه إلى أن كفّ بصره، وأخذ من سواد عينه جوهره.

وكان مع هذا يحضر عند السلطان، ويخرج ويباشر ... الديوان عادة بالطريق التي يسلكها حتى يجلس بين يدي السلطان، ويده على كتابه، ما يحتاج الوزير إلى كتابة مثله من الكلمات إلى أن نبه السلطان على تجلده/ ٢٣٠/ حياً لدوام الرئاسة، فأنكر السلطان

هذا، وقال: لم أفقد شيئاً منه حال صحته، فقيل: لو اختبره السلطان، لظهر له هذا بالعيان، فقال: كيف؟، فقال: أن يقعد السلطان في موضع غير مقعوده الذي جرت عادته به، فجلس ثم طلبه فأتى على عادته، ثم جلس في مكانه الذي كان يجلس فيه بين يدي السلطان، فقال له السلطان: ما أنا هناك قم إليّ، فقام لا يعرف كيف يمشي حتى أخذ بيده من حضر، ثم قال له السلطان: اكتب لي كذا وكذا، واقترح عليه، نسباً مطولاً يكتبه، فلم يقدر فتحقق السلطان ما قيل له، فقال له: ما حملك على ما صابرت نفسك عليه؟، فقال: حبّاً لقرب السلطان، فقال له: هذا حاصل، وأبدأ بما فيه الراحة لك.

توفي ابن شكر... ودفن بقبة بناها جوار مدرسته.

ومنهم:

[١٠٣]
شرف الدين الفائزي[(١)]

واسمه هبة الله بن صاعد وزير عنه تسل، إذا اعتنق الأسل، ودونه الملك الكندي المغترب، وصاحب الصمصامة عمرو بن معدي كرب، لو لاقى ابن الصمّة، وذا الخمار لقتله ووهب الخمار أمّه، وكان على هذه الشجاعة والسطا التي يأمر بها سباع الطير المجاعة لا تحصى فوائده، ولا تحصر في الكرم عوائده. ولا تطوى للقرى موائده، ولا تطفا به للقراع نار لابست مثلها، ولا يده.

كان خرق اليدين، طرق الغمام، لو وطىء هام الفرقدين. اقتنى من الغلمان الأتراك ما أصبحوا أمراء، وامتطوا من السيوف الأتراك، وكان يغالي فيهم أثماناً، ويبقى منهم أغصاناً تثمر أقماراً، وتقل كثباناً، وكان على هذا لا يبيت ضجيعه إلاّ العفاف، ولا رضيعه من عناقيد السوالف السلاف، وكان أعرابي الكرم في طعامه،

---

(١) هبة الله بن صاعد الفائزي، شرف الدين: من وزراء دولة المماليك البحرية بمصر. كان في صباه نصرانياً يلقب بالأسعد، وأسلم. وخدم الملك «الفائز» إبراهيم بن أبي بكر، ونسب إليه. وخدم بعده «الكامل» ثم ولده «الصالح» واستوزره «المعز» فتمكن منه تمكناً عظيماً، حتى كان المعز يكاتبه بالمملوك. ولما قتل المعز، باشر الفائزي وزارة ابنه «المنصور» أياماً، وقبض عليه سيف الدين «قطز» مدبر دولة المنصور، فمات في حبسه مخنوقاً سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. وكان يوصف بسمو النفس، والأريحية، وكرم الطباع.

ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٠-٨٣، وإنسان العيون لابن أبي عُذيبه، ورقة ٣٩٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٢٧-١٢٨، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ١٤، والسلوك ج١ ق٢/ ١٠٧، وعقد الجمان (١) ١٦٣، الأعلام ٨/ ٧٢-٧٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١-٦٦٠هـ) ص٢٢٠ رقم ٢٣٢.

زعيم برّه وأنعامه، رحابه معمورة بالمنائح، مملؤة بالذبائح، كان كلّ أيامه منى، وكان كل أوقاته أوقات هنا، لا تزال لياليه شريفة، ويده للدماء مريقة، وساعاته رياضاً زواهر كأنها كلّها شقيقة، وهو جد الصاحب تاج الدين بن هنا لأمه، وبه كان يفتخر من حديه، ويملأ إذا ذكر يديه، فقد كان واحداً لا تخلف له مواعد، وكريماً لا تزمجر له مواقد، وعلياً لا ينكر له. وجدّه كأبيه صاعد. هذا إلى ستر يسبل على الجرائم، وسبع على الرعايا إشباع مثله منه على الكرائم، ولم يستطع مماثل أن أقله، ولا ولد / ٢٣١/ الزمان بعده مثله.

قال ابن اليونيني[١]: كان في صباه نصرانياً، ويلقب بالأسعد، منسوب إلى الملك الفائز إبراهيم بن العادل، لأنه كان خدمه أولاً، ثم أسلم وترقى، وكانت عنده رئاسة ومكارم، ونفسه تسمو إلى الرتب العالية، وخدم الكامل بعد موت الفائز، ثم خدم ابنه الصالح، وتنقلت به الأحوال حتى استوزره المعزّ بعد قاضي القضاة تاج الدين العلائى ابن بنت الأعزّ، ومكن عنده حتى مكن في خواص الأمور، وتقدم على الجيش في الحرب.

قلت: كان الركن الصرمي عند اختلال الدولة، وانحلال الصولة قد خرج بالصعيد واستمال أكثر سكانه، وسائر عربانه، وتلقب بالمنصور، ودام بالملك، ورمى فما أخطأ الهلك، فخرج إليه الفائزي في الطائفة من العسكر، وقدم قدامه مملوكه شهاب الدين جلدك إلى الشريف بعلب كسر وله نوافر العربان، وتمهد لمقدمه فأنجح سعي جلدك، ومهد له المسلك، فقال السراج الوراق في ذلك: [من لخفيف]

نَجَحَتْ إذ بَعَثْتَ تِلْكَ الرِّسَالَهْ ... وَعَلَى نُجْحِهَا أَقَمْتَ الدَّلالَهْ
ضلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنُ بِهَا وَكَفَى اللهُ ... بِهَا مَنْ هَدَيْتَ شَرَّ الضَّلاَلَهْ
فَسَلَلْتَ الأَضْغَانَ مِنْ كُلِّ صَدْرٍ ... فِيهِ نَفْسٌ مُحْتَالَةٌ مُغْتَالَهْ
رَدَّدَ الجَهْلِ مَا اسْتَعَارَ وَمَا ... أمْهَلَهُ الدَّهْرُ أنْ يُطِيْلَ مِطَالَهْ
كُلَّمَا اخْتَال في حِبَالِةِ كَيْدٍ ... لِسِوَاهُ صَادَتْهُ تِلْكَ الحِبَالَهْ
إنَّ مَنْ عانه السَّعَادَة مَا أظْهَرَ ... إلاَّ جُنُونَهُ واخْتِلاَلَهْ
الوَزِيْرُ ابنُ صَاعِدٍ صَانَهُ اللهُ ... سُعُوداً أجْرَتْ على النَّصْرِ فَالَه
وَنَجَاحٌ يَلُوحُ فِي كُلِّ أمْرٍ ... وَفَلاَحٌ يَبِيْنُ في كُلِّ حَالَهْ
وَلَقَدْ أنْذَرَ العِدَا بِشِهَابٍ ... يَتَلَظَّى شَجَاعَةً وَبَسَالَهْ
قلتُ لمَّا اقْتَفَى إلى المَجْدِ ... مَسْعَاهُ أجَلْ مَا وِرِثْتَهَا عَنْ كَلاَلَهْ

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٠.

ثم أتى الصاحب في جيش يضيق به الفضاء، ويحين به القضاء، فما لبث ...ملك أن انصرم، وترك ولده وانهزم، فقال السراج الوراق: [من الخفيف]

صَحِبَتْ عَزْمَةُ الوَزِيْرِ النَّجَاحَا ... وأرسا صُبْحُ الفَلاَحِ فَلاَحَا
واخْتَلَيْنَا وَجْهاً يجَلِّلُهُ السِّرُّ ... نَعِمْنَا بِما سَقَاهُ صَلاحَا
وَاجْتَنَيْنَا ثِمَارَ مَا غَارَسَ ... النَّصْرُ وَلَيْسَ الغُصُونُ إلاَّ الرِّمَاحَا
إنَّ لِلْعَزْمِ مَوْقِعَاً مِنْ نُفُوسٍ ... لَمْ يَجِدْ في رُكُوبِ هَوْلٍ جُنَاحَا
حصد الله شأفة الفَسَادِ ... سَاقَهَا لِلْمُسْلِمِيْنَ سَلاَحَا
ورمى عصبة النِّفاقُ بِسَهْمٍ ... لَمْ يَزَلْ سَهْمُهُ المُعَلَّى قِدَاحَا
بالذي حد يتعب النَّفْسُ حتى ... سكَن المَجْدُ وَادِعاً واستَرَاحَا
صرت والنصر عاقد اللواء ... مدنس السماء منه جناحا
ستر الشمس من عجاجٍ بليل ... ما أرانا إلاَّ الصِّفاح صَبَاحا
واستعاد الحسين ملاً ... السطين رِحالاً وَنَجْدَةً وَسَمَاحَا
/ ٢٣٢/ فكأنَّ البِطَاحَ سَالَتْ بُحُوراً ... وكأنَّ البُحُورَ سَالَتْ بِطَاحَا
رَكِبُوهَا جُرْدَاً وملكاً سارت ... فاسْتَطَارَتْ بَوارِقَاً وَرِمَاحَا
وَيْلَ شَانِيْكَ لاَ أَقَلَّتْهُ أرْضٌ ... كَيْفَ قَدْ رَامَ لِلسَّمَاءِ نِطَاحَا
وَيْحَ مَنْ أعْلَنَ النُّبَاحَ فَلَمَّا ... زَأرَ اللَّيْثُ بَاتَ يُخْفِي النُّبَاحَا
وَلَئِنْ فَارَقَ ابْنَهُ فَمِنَ الأحسام ... دَعَا مَا فَارَقَ الأَرْوَاحَا
وَيَمِيْنَاً لَوْ اسْتَمَاحَكَ صَفْحَاً ... لَتَدَارَكْتَ بِالغُمُودِ الصِّفَاحَا
أبَدَاً يا بنَ صَاعِدٍ جَدُّكَ ... الصَّاعِدُ فاصْحَبْ فِي كُلِّ أمْرٍ نَجاحَا
علا فطال دله لاَ أرَاهَا اللهُ ... مِنْ ريك السَّعِيْدِ امتِرَاحَا
سُقْتَهَا نَحو غَنَائِم مِنْ خَيْلٍ وَمَالٍ ... سَدَّ الفَيَافِي الفيَاحَا

وأنشد أيضاً قولهً فيه يرثيه[1] : [من الخفيف]

عيل صبري وعزَّ عندي عَزَائِي ... بَعْدَ فَقْدِي لِسَيِّدِ الوزراء
شرف الدين والذي شرّف الدّ ... ين بِفَضْلٍ وَعِفَّةٍ وَغِنَاءِ
والوزير الذي أقام منار الـ ... ـعَدْلُ في حَالِ شَدَّةٍ وَرَخَاءِ
جهل العلم بعده واستخف الحـ ... ـلم يَا حِسْرَةَ العُلَماء
كان لله فيه سر خفي ... دَقَّ مَغْنَىً عَنْ فِطْنَةِ الأذْكِيَاءِ

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٣.

قـلـت لـمـن سـرّه مـصـابـك يـومـاً   قـد كَـفِـى مَـا جَـرَى عَـلَـى الـخـلـفـاء

قال ابن اليونيني[١]: وكان المعزُّ يكتب إليه بالمملوك، وكان في الفائزي كرم طباع، وأريَحيَّة وحسن نظر في حق من يصحبه، وينتمي إليه، ولم تزل منزلته عند الملك المعز في تزايد إلى أن قتل، وتملك ولده، فباشر وزارته، وهو مضطرب فتخيل توقّع النكبة، فقبض عليه سيف الدين قطز وكان مدبر دولة المنصور بن المعز، وأخذ خطه بمائة ألف دينار لنفسه، وبقي معتقلاً، وكان يتهم بالأموال الكثيرة.

وحكي عن البرهان السخاوي، أنه قال: دخلت إليه في محبسه، فسألني أن أتحدث في إطلاقه على أن يحمل في كل صباح ألف دينار، فقلت له: كيف تقدر على هذا؟ فقال: أقدر عليه إلى تمام سنة، وإلى سنة يفرج الله، فلم يتلفت المعز إلى ذلك، بل عجلوا هلاكه، فخنق وحمل إلى القرافة، ودفن بها.

وذكر ابن اليونيني[٢]: أنَّ بطريق مصاهرة فخر الدين بن حنا له لتزويجه ابنته، ترقَّى أبوه الصاحب بهاء الدين إلى الوزارة.

قال: ونالت ابنة الفائزي من السعادة في الأيام ما لا يوصف وتوفيت، وكانت كثيرة البرِّ والمعروف، مفرطة في السمن.

قال: وقد آل الحال بابن الفائزي لما أن رغب أن يخدم في بعض الفروع بالإسكندرية، وأنشد لبعض الشعراء يهجوه[٣]: [من الرمل]

خَـلَّـفَ الأسْـعَـدُ مَـا جَـازَ وَقَـدْ   شَـهِـدَتْ أفـعَـالُـهُ الـمُـشْـتَـبِـهَـهْ
بَـعْـدَهُ سـتـيـن نـقْـداً عَـدَداً   عَـنْ سـبـات الـرشـى مُـنَـزَّهَـةْ
فَـالـبِـغَـالُ الـشُّـهْـبُ مِـن أيْـنَ لَـه   والـجَـوَارِي الـتُّـرْكُ مِـن أيِّ جِـهَـهْ

وأنشد الخطيب بن المنير فيه مدحاً[٤]: [من الطويل]

ألا أيُّـهَـا الـبَـدْرُ الـمُـنِـيْـرُ وَإنَّـنِـي   لأخْجَلُ إن شَبَّهْتُ وَجْهَكَ بِالبَدْرِ
لَئِنْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي وَشَطَّتْ بِهَا النَّوَى   لَمَا زِلْتُ أسْتَحلِيْكَ بالوَهْمِ في فِكْرِي
وَحَـقِّ زَمَـانٍ مَـرَّ لِـي بِـطُـوَيْـلِـعِ   وَأَنْتَ مَعِي ما سرّ من بعدكم سرّي

وأنشد أيضاً قوله فيه يرثيه[٥]: [من الخفيف]

عِـيْـلَ صَـبْـرِي وَعَـزَّ عِـنْـدِي عَـزَائِـي   بَـعْـدَ فَـقْـدِي لِـسَـيِّـدِ الـوزَرَاءِ
شَـرَفَ الـدِّيْـنِ وَالَّـذِي شَـرف الـدِّ   يْـن بِـفَـضْـلٍ وَعِـفَّـةٍ ونـقـاءِ

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨١.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨١.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٢.
(٤) الذيل ١/ ٨٢.
(٥) الذيل ١/ ٨٣.

وَالــوَزِيْــرِ الَّــذِي أَقَــامَ مَــنَــارَ الــ ـعَــدْلِ فِــي حَــالِ شِــدَّةٍ وَرَخَــاءِ
جَهِلَ العِلْمَ بَعْدَهُ واسْتَخَفَ الحِـ ـلْمَ يَا طُوْلَ حَسْرَةِ العُلَمَاءِ
كَـانَ فِـيْـهِ للهِ سِـرّ خَـفِـيّ دَق مـعـنًـى عـن فِطْنَةِ الأذْكِيَاءِ
قُـلْ لِـمَـنْ سـرّه مـصـابـكَ يَـوْمـاً قَـدْ كَفَى مَا جَرَى عَلَى الخُلَفَاءِ
/٢٣٣/ يَا قَرِيْبَاً دُوْنَ الأقارِبِ مِنِّي وَوَلِـيّ مِـن سَـائِـرِ الأَوْلِـيَـاءِ
خُذ عَرُوسَ الرَّثَاءِ مِنّي تَحَلَّى فِي ثِيَابِ مِنْ صَفْوَتِي وَوَلائِي

قلت: ولم يَلِ الوزارة بمصر - بعد شاور إلى زمانه - مثله، وكان واسع النعمة، عريض الجاه، كثير السعادة في كل الأمور، لا يحسب فيما يتوجه إليه، وكان له العدد الكثير من المماليك الكفاة الأعيان، وتأمر منهم جماعة، منهم الحاج طيبرس، وطجنكي، وجلدك، وبيليك، وسائر المسيمين بالوزيرية وبالفائزة.

وحكي أنه لم يبع مملوكاً في مدة عمره إلاَّ مملوكاً واحداً طلب منه البيع مرة على مرة، وكان قد اشتراه وهو على حدّ البلوغ بثلاثمائة دينار، وبقي عنده إلى أن خطَّ عارضه، فلما طلب البيع، شاوره عليه الدلال على مائة دينار، فقال له: ويحك أنا اشتريته وهو صبي ما ينفع بثلاثمائة دينار، وربيته حتى كبر، وجاء نفعه، ما يجيب إلاَّ مائة دينار، فقال له الدلال: يا مولاي وأي عيب له أكثر من الكبر؟ فقال له: ولم؟ قال: لأنه كان يطلب، وهو أمرد لذلك العمل، وبقي الآن كل ما له في نقص، فقال: أو يفعل هذا؟ قال: نعم، فقال: هو حرّ لوجه الله. لا كنت والله سبباً في ذلك ببيع، ولا غيره.

وكان محباً للعلماء، موقراً للصلحاء، مقبلاً على الشعراء، مجزلاً للجوائز. وللسراج الوراق فيه غرر القصائد، ومن شعره فيه قوله حين ولي الوزارة: [من الكامل]

وَاللهُ وَطَّـدَ لابْـنِ صَـاعِـدَ رُتْـبَـةً مَـدَّتْ لَـهُ فَـوقَ الـسُّـهـا أطْـنَـابَـا
شَرُفَتْ نَوَاحِي المُلْكِ بالشَّرَفِ الَّذِي سَحَّتْ نَدَاهُ عَلَى البِلادِ سَحَابَا
أقْسَمْتُ لَو نَادَى الزَّمَانَ لأمْرِهِ لَبَّى عَلَى صَمْتٍ بِهِ وأجَابَا
بَذَلَ الصَّنَائِعِ وَالمَوَاهِبَ لِلوَرَى أفْدِيْهِ مُصْطَنِعَاً لَهَا وَهَّابَا
مُتَهَلِّلٌ بِشْرَاً وجُودُ يَمِيْنِهِ مُتَهَلِّلٌ مِثْلَ السَّحَابِ رِغَابَا
مَا شَيَّدَ الوُزَرَاءُ دُونَكَ مِدْحَةً أجْرَتْ قَوَافِيْهَا إلَيْكَ عِذَابَا
خَطَبَتْكَ حِيْنَ رَأتْكَ كُفْءاً لِلعُلا فَسَعَتْ إليكَ وَرَدَّتِ الخُطَّابَا

وكذلك قوله فيه، ويذكر الصلح بين الملك الناصر صاحب الشام والملك المعز صاحب مصر، وكان هو المسبب له والمسيء لعقده: [من الكامل]

يُثْنِي عَلَيْكَ المُلْكُ وَالدُّوَلُ وَاللهُ وَالأمْلاكُ وَالرُّسُلُ
تُثْنِي على إقْبَالِهَا هِمَمَاً مَا لِلزَّمَانِ بِرَدِّهَا قِبَلُ

وَعَـزَائِـمٌ لَـكَ قَـدْ بَـلَـغْـنَ مَـدًى ... لاَ الـبِـيْـضُ تَـبْـلِـغُـهَـا وَلاَ الأَسَـلُ
وَوِزَارَةٌ بَـلَّـغْـتَ مَـالِـكَـهَـا ... مَـا شَـاءَ حَـتَّـى مَـا لَـهُ أَمَـلُ
إنَّ الَّـذِي اسْـتَـرْعَـاكَ دَوْلَـتَـهُ ... لَـعَـلَـيْـكَ بَـعْـدَ اللهِ يَـتَّـكِـلُ
هَـيَ دَوْلَـةٌ بَـلَـغَ ابـنُ صَـاعِـدِهَـا ... عَـلْـيَـاءَ عَـنْـهَ الـنَّـجْـمُ يَـسْـتَـفِـلُ
وَأَمَـا ودان الـبَـيْـنِ قَـدْ سَـلِـمَـتْ ... لِـلـحُـسْـنِ، رأيـك الـحـج الأَمَـلُ
فَـالـيَـوْم مِـصْـرُ مَـوَدَّةٍ حَـلَـبٌ ... وَالـمُـسْـلِـمُـونَ بِـحُـبِّـه رَحَـلُ
وَالـيَـومَ قَـرَّتْ فـي الـجُـفُـونِ ظُـبَـاً ... يَـا طَـالَـمَـا سَـحَّـتْ بِـهَـا الـمُـقَـلُ
حـفـيـت دِمَـاءُ الـمُـسْـلِـمِـيْـنَ فَـمَـا ... يَـبْـدُو عـلَـى خَـدِّ الـثَّـرَى خَـجَـلُ

/ ٢٣٤/ ومنهم:

[١٠٤]

ابن الزبير، يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد الوزير، أبو يوسف(١)

وزير لا يوازن في عظم الفضائل، ولا يوازى في كرم الفعائل. البحر ما ضمته يمينه، والبدر ما أضاء به جبينه، والأصل قرشي، والفضل كأنه ديباج موشى شد الأزر، وسدّ العظائم... لو قُذفت به الكتائب، لفللها، أو السباسب، لسد ظلها. وكان سهلي الساحة، برمكي السماحة، لو بارى بقلمه السيوف، لقطعها، أو بعزمه الجبال، لصدعها، أو أعار الليالي سعادته، لما اسْتَسَرَّت أقمارها، أو وهب الأيام سعادته، لما تناهت أعمارها، ويرجع إلى نسب زبيري لو أنّه لزبر الحديد، لما لانت، أو لأضواء الشمس، لما هانت.

هذا كله إلى آداب كأنها من بقايا العقود، ولطائف كأنها شربت ندى ورد الخدود، وأشعار كأن لهوات العرب بها نطقت، أو الزُّهْر زُهر الكواكب منها تحيرت...

مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة، وقيل: غير لك.

وزر للملك المظفر قطز، ثم للملك الظاهر في أوائل دولته بمدة، ثم صرف بابن

---

(١) يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد بن مالك، أبو يوسف، الصّاحبُ، زين الدين الأسَدي، الزُّبيريّ، من ولد عبد الله بن الزُّبير، وزير مصري، من الفضلاء الشعراء، ولد سنة ٥٨٦هـ. كان إماماً فاضلاً، ممدَّحاً، كثير الرئاسة. وزَرَ للملك المظفر قُطز، ثمّ وزَرَ للملك الظاهر في أوائل دولته، ثم عُزِل بابن حِنّا فلزم بيته أن توفي في ربيع الآخر سنة ٦٦٨هـ.

ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٢/ ٤٤١ـ ٤٤٢، والمقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٦ ب، ونهاية الأرب ٣٠/ ١٧٢، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٥٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣٩٧ـ ٣٩٨، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٨٩، وعقد الجمان (٢) ٦٥، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٣١، الأعلام ٨/ ٢٠٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ٦٧٠هـ) ص٢٧٣ رقم ٢٩٥.

جني بهاء الدين، فلزم بيته إلى أن أدركته منيته في ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة بالديار المصرية.

وكان إماماً، عالماً، فاضلاً، ممدحاً، كثير الرئاسة، وله نظم جيد، فمنه[1]:

[من المديد]

لاَمَنِي وَالعُذْرُ مُشْتَهِرُ عَاذِلٌ مَا عِنْدَهُ خَبَرُ
رَشَأٌ مَا قَالَ وَاصِفُهُ إِنَّهُ بِالوَصْفِ يَنْحَصِرُ
رَامَ غُصْنُ البَانِ قَامَتَهُ فَانْثَنَى مِنْ ذَاكَ يَعْتَذِرُ
وَاسْتَعَارَ الظَّبْيُ مُقْلَتَهُ وَاكْتَسَى مِن بَعْدِهِ القَمَرُ
أَسْمَرٌ سُمَّارُ عَاشِقِهِ بَيْنَ أَخْبَارِ الوَرَى سَمَرُ
وَإِمَامٌ فِي مُلاَحَتِهِ وَاثِقٌ بِالحُسْنِ مُقْتَدِرُ
أَمَرُوا قَلْبِي بِسَلْوَتِهِ أَنَا عَاصٍ لِلَّذِي أَمَرُوا
لَو بِقَلْبِي مِثْلُهُ عَشِقُوا وَبِعَيْنِي حُسْنَهُ نَظَرُوا
لَرأوا غَيْي بِهِ رَشَداً وَلَكَانُوا فِي الهَوَى عَذَرُوا

وقوله: [من الطويل]

مَرَرْتُ بِقَبْرِ الشَّافِعِيِّ أَزُوْرُهُ فَعَارَضَنَا فُلْكٌ وَما عِنْدَهُ بَحْرُ
فَقُلْتُ: تَعَالَي إنَّ تِلْكَ إشَارَةٌ تُشِيْرُ بأنَّ البَحْرَ قَدْ ضَمَّهُ قَبْرُ

وقوله: [من الخفيف]

جَعَلُوْهُ كَمَا يَشَاءُ مُعِيْدَا فَاكْتَسَى بِالجُنُونِ ثَوْبَاً جَدِيْدَا
لَيْتَ شِعْرِي وَلِلزَّمَانِ عُيُونٌ أيُّ شَيْءٍ أبْدَاهُ حَتَّى نُعِيْدَا

وقوله: [من الكامل]

أتُرَاكَ مهما سلوا فِيْ الهَوَى لاَ وَالَّذِي جَعَلَ السَّقَامَ ضَجِيْعِي
وَالعَادِيَات فَأنَّهُنَّ مَدَامِعِي وَالمُوْرِيَات فَأنَّهُنَّ ضُلُوْعِي
لاَ كَانَ تَفْرِيْطُ المَحَبَّةِ وَالهَوَى مِنِّي بِمَرْأَى لاَ وَلاَ مَسْمُوعُ
وإذَا رَوَوا عَنِّي أحَادِيْثَ العُلا فَحَدِيْثُهُم منْ جُمْلَةِ المَوْضُوْعُ

ومن نثره قوله:

«وصل ما جهزه من الأقلام، وبعثه من تلك الرماح تحمل الأعلام، وجهزه من تلك العَوَال والغَوَال، وأسنده من تلك الإسل الطوال، وأرسله من ذلك الغاب الذي / ٢٣٥/ ما سمح به إلاَّ ليث جاد بِسَكَنِه وأنف السواد فسمح بوطنه».

(١) ذيل مرآة الزمان ٢/ ٤٤٢.

وقال:

«شكراً لتلك السيول التي أنبتت هذا القصب، ولتلك السماء التي بوأت مطالع الشهب، ومرحباً بتلك الهدية التي ما احتفل بها إلاَّ معين بالأدب، فبعث ينابيع الحكمة، ومدَّ معين السحب، وقيل إن قبل واردها أعد لها من ظفر ظفر من أرسلها ماضيات الأسنة، وعقد لها أعلاماً على ما أسدى من مِنَّة، وحمل بها على جيوش الأعداء فهزمها، واعتقلا منها ردينيات ثقبت درر الكواكب، وأحوت من الهلال لهزمها».

وكان ممدحاً، وفيه يقول السراج الوراق: [من الكامل]

أهْلاً بِطَيْفِكَ يَا إمَامُ رَسُوْلا ... مَا كُنْتُ لَوْلاَه لأبْلُغَ سُوْلاَ
أنَّى وَصِبْغُ اللَّيْلِ حَانَ نُصُولُهُ ... والجَوُّ يَشْهَرُ لِلصَّبَاحِ نُصُولاَ
وَألَمَّ والجَوْزَاءُ عَقْدُ نِطَاقِهَا ... قَدْ رَاحَ مِنْ سِلْكِ الدُّجَى مَحْلُولاَ
أنَّى اهْتَدَى ضَيْفُ الخَيَالِ لِمُدْنَفٍ ... غَادَرْتَهُ مِثْلَ الخِلاَلِ نُحُولاَ
وَلَقَدْ يَزِيدُنِي المُلاَمُ صَبَابَةً ... وَيَزِيدُنِي بَرْدُ الزَّمَانِ غَلِيْلاَ
وَكَذَا يُلامُ ابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى النَّدَى ... فَتَرَاهُ أكْرَمَ مَا يُرَى مَعْذُولاَ
وَلَقَدْ يَجُوْدُ وَمَا سَألْتَ نَوَالَهُ ... عَفْواً فَكَيْفَ بِجُوْدِهِ مَسْؤُولا
صَلْتُ الجَبِيْنِ يَلُوْحُ مِن قَسَمَاتِهِ ... بِشْرٌ يَقُومُ على السَّمَاحِ دَلِيْلا
أمُؤَمِّلاً يَعْقُوبَ دُوْنَكَ جَاحِداً ... أدْنَى نَدَاهُ تَجَاوَزَ التَّأمِيْلا
والى ابنِ أسْمَاءَ ارْتَمَتْ فِيْ هِمَّةٍ ... طَالَتْ بِهِ أسْمَى الكَوَاكِبِ طُولا
نَزَلَتْ بِمَرْبَعِهِ الَّذِي مِن دَأْبِهِ ... أن لاَ يُضَيَّعَ مَنْ أتَاهُ نَزِيْلا

وقال أيضاً يمدحه: [من الطويل]

رَنَا فَرَمَى بِاللَّحْظِ أوَّلَ نَظْرَةٍ ... يُصَابُ بِهَا مِنْ كُلِّ صَبٍّ مَقَاتِلُهْ
وَهَزَّ لَنَا مِن مِعْطَفَيْهِ مُثَقَّفاً ... يَجُورُ عَلَيْنَا نَاظِرَاهُ وَعَامِلُهْ
لَقَدْ طَلَعَتْ قَدْ أشْرَقَتْ تَحتَ طُرَّةٍ ... سعد بها ألبسه مِمَّا أحَاوِلُهْ
كَأنَّ بِجُنْحِ اللَّيْلِ قِنْدِيلَ رَاهِبٍ ... يُضِيْءُ وَصُدْغَاهُ عَلَيْهِ سَلاسِلُهْ
وَلَيْلٍ لَوَ أنَّ البَدْرَ سَارَ لِجَوِه ... يشكل فيه البَدْرُ أيْنَ مَنَازِلُهْ
وَخِلْتُ الثُّرَيَّا كَفَّ سَمْحٍ بِشَرْطِهِ ... بِمَا رَامَهُ رَاجِيْهِ مِنْهَا وَسَائِلُهْ
وَمَا هُوَ إلاَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ الَّذِي هَمَتْ ... بِجُوْدٍ عَلَى كُلِّ الأنَامِ أنَامِلُهْ
إذا اسْتَسْقَتِ الآمَالُ غُرَّ سَحَابِهَا ... تَدَفَّقَ طَلُّ الغَيْثِ مِنْهَا وَوَابِلُهْ
وَلَو قَصَّرَتْ جُوْداً لَقِسْنَا بِهَا الحَيَا ... وأنَّى وَفَيْضُ البَحْرِ لَيْسَ يُسَاجِلُهْ
لَهُ مَنْطِقٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ كَأنَّمَا ... بَدِيْهَتُهُ جَدْوَى يَدَيْهِ وَنَائِلُهْ
فَتًى كَثُرَتْ فِي الحَيِّ آثَارُهُ الَّتِي ... يدلُّ عَلَيْهَا حَيْثُ كَانَتْ مَنَازِلُهْ
فَحُمْرٌ مَوَاضِيْهِ وَزُرْقٌ حمامه ... وَخُضْرٌ نَوَاحِيْهِ وَبِيْضٌ خَصَائِلُهْ
مِنَ القَوْمِ لاَ تُعْزَى أواخِرُ سُؤْدَدٍ ... إلَى أحَدٍ إلاَّ وَفِيْهِمْ أوَائِلُهْ

وكان السراج الوراق قد سافر مع /٢٣٦/ ابن الموصلي إلى دمشق، فلما رأى

ركابه المعرب، وصد حياله المقرب يذكر مصر وأيامه بها، وابن الزبير يغشاه بديمه السواكب، ويحلُّ في حرمه حيث تزاحم الثريا المناكب فكتب إليه: [من الرمل]

لَمْ أسِرْ أسْتَنْجِعُ الغَيْثَ الشَّآمِي ... وَنَدَى الصَّاحِبِ مُنْهَلُّ الغَمَام
إنَّمَا صِرْتُ لِعبدي عوده له ... فوق منه مِنْ عَيْنِ الأنَامَ
وَارْتِحَالِيْ لِيَرَى مَنْ لا أرَى ... مَا تَقَلَّدْتُ مِنَ الأيْدِي الجِسَامَ
سائِراً حَذْوَ . . . وما مداحي ... إذا جمع السير رما باللجامَ
. . . سا صاحبي عرفة ... شَقَّ عِنْدَ الدَّهْرِ أطْوَاقُ الكِمَام
سأُبَاهِي جَوْنَةَ الشَّرْقِ بِمَنْ ... وَجْهُهُ مَاجَ لِظُلْم وَظَلامَ
وَأُجَارِيْ كُلَّ بَحْرٍ بِنَدًى ... كَمْ شَفَى غُلَّةَ ظَام مِنْهُ ظَامِي
وَأزِيْدُ الوَفْدَ شَوْقاً لِفَتًى ... عِرْضَهُ فِيْ دامٍ فِيْ ذِمَام
الوَزِيْرِ المُجْتَبَى مِنْ حَسَبٍ ... يَتَهَادَى مِنْ كِرَام لِكِرَامَ
أشْبَهَتْ أشْبَالُهُمْ آسَادَهُمْ ... فَوَقَارُ الشَّيْخِ منهم فِي الغُلامَ
أسَدِيُّوْنَ لِكُلِّ أُجُمٌ ... من قنا الخط وَظُفْرٌ مِنْ حُسَامَ
يَا بَنِي أسْمَاءَ مَا أجْدَرَكُمْ ... بِمَحَلٍّ مِنْ رَسُولِ اللهِ سَامِي
أسَّسَ الصَّاحِبُ ذِكْراً لَكُمُ ... لَمْ يَزَلْ حَيّاً وأنْتُمْ فِي الزِّحَامِ

وفيه يقول: [من الكامل]

يَا بْنَ الَّذِيْنَ أكُفُّهُمْ وَسُيُوْفُهُمْ ... تُجْرِيْ المَوَاهِبَ وَالدَّمَ المَسْفُوْكَا
وابْنَ الأئِمَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمُ ... عَرَفَ الوَرَى المَأخُوْذَ وَالمَتْرُوْكَا
وَابْنَ الأسِرَّةِ وَالمَنَابِرِ مُهِّدَتْ ... لِخَلائِفٍ سَلَكُوا الصِّرَاطَ سُلُوْكَا
الجَاعِلِيْنَ قُلُوبَهُمْ ما حَدبوا ... أدْرَاعُهُمْ والمُرْهَفَاتِ تَرِيْكَا
لَوْ لَمْ ... بِقَدِمِهِمْ وَحَدِيْثِهِمْ ... فِي الفَخْرِ إلاَّ أنَّهُمْ وَلَدُوْكَا

ومنهم:

[١٠٥]

الصاحب بهاء الدين، علي بن محمد سُلَيْم عرف بابن حنّا، أبو الحسن[١]

رجل كان صديقه غير آمن، ورفيقه يتوقع مساورة أرق ه الكامن، لا يتعجل معه الشارب، ولا يأمن المتسلل زُبانَى عقربه الضارب، دخل مع الملك الظاهر بيبرس

(١) علي بن محمد بن سُلَيم، الصاحب، الوزير الكبير، بهاء الدين ابن حِنّا المصريّ. أحد رجال الدهر حزماً وعزماً ورأياً ودهاء وخبرة بالتصرُّف، ولد سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م.
استوزره الملك الظاهر، وفوَّض إليه الأمور، ولم يجعل على يده يداً، فساسَ الأحوال، وقام =

مداخل لا تتخللها ولا تتجللها الظلماء، وجرى منه مجرى الدم من العروق، ووافق منه موافقة القطيعة للعقوق، وكان لا يقبل فيه لومة لائم، ولا يسمع فيه إيماضة سائم، ومكنه تمكين الظالم للظالم، وطول له حتى استمرأ له جلب البلاد بالمظالم.

وكان هذا الوزير يحب الصالحين / ٢٣٧/ وليس منهم، ويتقرَّب إليهم، وهو ناحية منهم، يعمل هذا إقامة لناموسه، وطريقاً إلى ما يحل بالناس من بؤسه. وكان إذا رأى فقيراً أنزله إليه، وترامى على قدميه، ويتعهد فقهاء المدارس، ويباكر إلى زيارة القبور الدوارس، ويظهر التعلل من متاع الدنيا القليل، ويصوم الدهر ويقوم ليله الممتد، ويكابد نهاره الطويل، وله صدقة تفرّق، ورقة قلب تظهر، ولا يتحقق هذا على أنه فرعون زمانه، ونمرود أيامه وضحاكي دهره أيامه، أكثر وَضَراً من ابن الزيات، وأعظم عملاً من ابن العلقمي على السيئات، بقلب أقسى من الحجر، وبأس أشد من كل من فجر، واستمر أيام السعيد على فسيح هذا السلوك، لا يعطيه تقدم قرينه، ولا يضعفه ذهاب معينه، إلى أن أتاه آتيه وما أعجله، وجاءه الأجل، ويا ليته لا كان أجله.

قال ابن اليونيني[1]: كان من رجال الدهر حزماً، وعزماً، ورأياً، وتدبيراً. انتقلت به الأحوال، وتنقلّت به المناصب الجليلة، وظهرت كفايته ودرايته وحسن تأتّيه، فاستوزره الملك الظاهر في أوائل دولته، وفوض إليه أمور مملكته مما يتعلّق بالأموال والولايات والعزل، لا يعارض في ذلك، ولا يشارك، بل هو المستقل بأعباء ذلك، والمحيا إليه فيؤه، ولم يزل مستمراً على ذلك إلى حين وفاة الملك الظاهر، فدبر الأمور

= بأعباء المملكة، وأخمل خلقاً ممن ناوأه. وكان واسع الصدر، عفيفاً، نزهاً، لا يقبل لأحد شيئاً إلا أن يكون من الصلحاء والفقراء.

وكان قائلاً بهم يُحسن إليهم يحترمهم ويدرّ عليهم الصِّلات. وقد قصده غيرُ واحدٍ بالأذى، فلم يجدوا ما يتعلقون به عليه. واستمرّ في وزارة الملك السعيد، وزادت رُتبته. وله مدرسة وبرّ وأوقاف ومتاجر كثيرة.

توفي في سلخ ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م. وشيَّعه الخلق، وعاش أربعاً وسبعين سنة.

ترجمته في: نهاية الأرب ٣٠/ ٣٨٨ـ ٣٨٩، والمقتفي للبرزالي ١/ ورقة ٧٧ ب، ودول الإسلام ٢/ ١٧٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٩، والوافي بالوفيات ٢١/ ٣٠ـ٣٣ رقم ٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٨٨ـ ١٨٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٨٢، والعبر ٥/ ٣١٥ـ ٣١٦، والسلوك ج١ ق٢/ ٦٥١، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٤٤، وعيون التواريخ ٢١/ ٢٠٠، وذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨٤ـ٣٨٦، وتاريخ ابن الفرات ٧/ ١٢٥، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٩٩، وفوات الوفيات ٣/ ٧٦، والدرة الزكية ٢٢٥، وتبصير المنتبه ٤٧٣، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٨٥، وحسن المحاضرة ١/ ٢١٦، وشذرات الذهب ٥/ ٣٥٨، وتاج العروس ٩/ ١٨٦، وعقد الجمان ٢/ ٢٠٧ـ ٢٠٨، الأعلام ٤/ ٣٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١ـ٦٨٠هـ) ص٢٧٦ رقم ٣٧٣.

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨٤.

أحسن تدبير، وساس الأحوال في سائر المملكة. وأخمل خلقاً كثيراً ممن ناوأه. وكان عنده حسن ظن بالفقراء والمشايخ يحسن إليهم، ويقضي حوائجهم، ويبالغ في إكرامهم، فكان أرباب الحوائج يتوسلون بهم إليه فلا يردّ لهم شفاعة.

قال(١)، وحكي: أن بعض الصلحاء المتورعين قدم القاهرة في آخر شعبان، فكلف الاجتماع به بسبب شخص مصادر، فاجتمع به، وحدّثه في ذلك، فأجابه، ثم قال له: هذا شهر رمضان قد أقبل، وأشتهي أن تصومه، وتفطر عندي، وأقضي لك في كل ليلة عشر حوائج كائنة ما كانت. فنظر ذلك الرجل إلى ما يترتب على إجابته من المصالح، فصام شهر رمضان، وأفطر عنده، فوفى له بوعده وكان كل ليلة يقضي له عشر حوائج من إطلاق محبوس، وولاية بطال، ومسامحة من عليه مال وهو عاجز عنه، إلى غير ذلك.

واستمر به السعيد بعد وفاة أبيه الظاهر، وزاد في إكرامه ولم تزل حرمته تامة، ومكانته عالية، وكلمته نافذة، وأوامره مطاعة إلى حين وفاته.

وله برّ أوقاف كثيرة منها مدرسة بزقاق القناديل بمصر، وكان يتصدق بالجمل الكثيرة سرّاً وجهراً، وله متاجر كثيرة، وابُتلي بفقد ولديه، الصاحب فخر الدين والصاحب محيي الدين.

مولده بمصر سنة ثلاث وستمائة، وتوفي بها آخر يوم الخميس سلخ ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة، وصلّي عليه بكرة الجمعة، ودفن بالقرافة الصغرى بتربته، ومات وهو جدّ جدٍ، وكان ممدحاً، والشعراء تتقرب إليه بمدحه بالدين والورع.

ومما يحضرني فيه قول السرّاج الوراق يهنيه بعيد الفطر: [من الوافر]

إذَا هَنَّاكَ بِالأَعْيَادِ يَوْمٌ ... فَلِلأَعْيَادِ تَمَّ بِكَ الهَنَاءُ
مَضَى شَهْرُ الصِّيَام عَلَيْكَ يُثْنِيْ ... وَخَيْرُ ذَخَائِرِ المرءِ الثَنَاءُ
جَبَرْتَ بِهِ الأَرَامِلَ وَاليَتَامى ... وَعِنْدَ اللهِ فِيْ ذَاكَ الجَزَاءُ
فأحْيَيْتَ اللَّيَالِي فِيْهِ حَتَّى ... بَدَا فَيْ اللَّيْلِ مِنْ شَفَقٍ حَيَاءُ

وكذلك قوله فيه، وقد فتحت صفد من قصيدة: [من الخفيف]

أَرْدِفِ الجَيْشَ مِنْكَ جَيْشَ الدُّعَاءِ ... وَبِضَرْبِ الرَّايَاتِ بالآرَاءِ
وَتَجَافَتْ عَنِ المَضَاجِعِ جَنْبَا ... كَ وَأدْمَيْنَ قَرْعَ بَابِ السَّمَاءِ
/٢٣٨/ أيْنَ مَا مُبْلِغُ السَّمَاءِ نَهاراً ... مِنْ سِهَام الدُّعَاءِ في الظَّلْمَاء
وَنَعَمْ تَفْعَلُ العَزَائِمُ مَا لاَ ... تَفْعَلُ المُرْهَفَاتُ ذَات المَضَاءِ

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨٤ـ ٣٨٥.

وَكَـذَا الـمـلـكُ وَالـوَزِيـرُ إذا مَـا أنْـجَـدَا والـمُـلُـوكُ بـالـوُزَرَاءِ
واتـحـاد قـضـى عَـلَـى عَـابِـدِي الـتَّـثْـلِـيْـثِ وَيْـلاً لَـهُـمْ بِـشَـرِّ الـقَـضَـاءِ
أَسْـلَـمَـتْـهُـمْ مُـصَـفِّـدِيْـنَ إلَـيْـنَـا صَـفَـدٌ والـشَّـقـيُّ رَهْـنُ الـشَّـقَـاءِ
وَاسْـتَـطَـاعُـوا بِـشَـاهِـقٍ مـسـح الـنـون لـدَيْـهِ ومـريـض الـعـواء
مـجـبـول الإسْـلام فـي جِـيْـدِه مَـنْـظُـومَـةٌ فـي قِـلادَةِ الـجَّـوْزَاءِ
مَـعْـقِـلٌ شَـيَّـبَ الـلّـيَـالِـي وَأعْـيـا هِـمَـمـاً لِـلْـمُـلُـوكِ والـخُـلَـفَـاءِ
فـنـجـاه مـلـك بـه تـبـدو لأمـلاك فَـهْـوَ الـمَـرْفُـوعُ بـالابْـتِـدَاءِ
فِـي رَعِـيْـلٍ لَـوْ أنَّـهُ صَـدَمَ الأَطْـوَا دَ عـادَتْ لِـوَقْـتِـهَـا كَـالـبَـهَـاء
ورِجَـالٍ فِـي آلِ خَـاقَـانَ يَـبْـدُو بَـأسُ أسُـدٍ فـيْـهُـمْ وَحُـسْـنُ ظِـبَـاءِ
بَيْنَ سُمْرٍ مَكْحُوْلَةِ الطّرْفِ بالبَقِيْعِ وَبِـيْـضٍ مَـخْـضُـوْبَـةٍ بِـالـدِّمَـاءِ
يَـا وَزِيْـراً عَـلَـى الـزَّمَـانِ مِـنه بِـهَـا لاَ زَالَ مِـنْـهُ مَـعْـنَـى الـبَـهَـاءِ
ان بِـقُـرْط فـأنـت أرْفـعُ قَـدْراً أو تُـهَـنَّـى فـأنْـتَ فَـوْقَ الـهَـنَـاءِ

وقال فيه أيضاً: [من الطويل]

قِـفَـا نَـنْـسَـاهَـا قَـد تَـرَاءتْ خِـيَـامُـهَـا وَهَـا رَامَـةٌ وَالـنَّـفْـسُ ثـمَّ مَـرَامُـهَـا
خَـلِـيْـلَـيَّ مِـنْ نَـجْـدٍ غَـرَامٌ لِـمُـهْـجَـتِـي وَهَـلْ مـهْـجَـةٌ إلاَّ وَنَـجْـدٌ غَـرَامُـهَـا
أحَـاوِلُ كَـتْـمَ الـحُـبِّ دُوْنَ وُشَـاتِـنَـا وَلِـلْـحُـبِّ حَـالٌ لا يُـرَامُ اكْـتِـتَـامُـهَـا
وأُعْـرِضُ عَـنْ أبْـيَـاتِـهَـا فَـيَـشُـوقُـنِـي هَـوَى مُـهْـجَـتِـي قَـسْـراً لَـهَـا وَهُـيَـامُـهَـا
كَـذَاكَ مَـتَـى وَجَّـهْـتُ لِـلْـقَـوْم مِـدْحَـةً فَـنَـحْـوَ بَـهَـاءِ الـدِّيْـنِ يُـثْـنـى زِمَـامُـهَـا
هُـنَـالِـكَ آمَـالُ الـوَزِيْـرِ تَـحَـكَّـمَـتْ وَتَـمَّ عَـلَـى مَـالِ الـوَزِيْـرِ احْـتِـكَـامُـهَـا
كَـرِيْـم غَـدَا أوْلَـى الأنَـام بِـسُـؤْدَدٍ كَـذَلِـكَ سَـادَاتُ الأنَـام كِـرَامُـهَـا
تَـهَـنَّ بَـهَـاءَ الـدِّيْـنِ شَـهْـراً مُـعَـظَّـمَـا وَدُوْنَـكَ مِـنْ كُـلِّ الأُمُـورِ عِـظَـامُـهَـا
وَدُمْـتَ تُـهَـنَّـا بِـالأهِـلَّـةِ مِـثْـلَـمَـا يُـحِـطُّ مِـنَ الاسْـفَـارِ عَـنْـهَـا لِـثَـامُـهَـا
وَأَجْـدَرُ مِـنْـهَـا بِـالـهَـنَـاءِ أهِـلَّـةٌ بِـنُـورِ مُـحَـيَّـاكَ الـجَـمْـيلِ تَـمَـامُـهَـا

وفيه قال أيضاً: [من الطويل]

تَـبَـارَكَ مَـنْ أعْـطَـاكَ يَـا بْـنَ مُـحَـمَّـدٍ مَـعَـالِـيَ لاَ تَـنْـفَـكُّ إثْـرَ مَـعَـالِـيْ
وَخَـوَّلَـكَ الـدُّنْـيَـا طَـرِيْـقـاً لأُخْـتِـهَـا فَـمَـا مِـلْـتَ عَـنْ حَـقٍّ بِـزُوْرِ مُـحَـالِ
وَأَصْـبَـحْـتَ لِـلإسْـلام أحْـصَـنَ جُـنَّـةٍ بِـهَـا لاَ نُـبَـالِـيْ لِـلْـعِـدَا بِـنِـبَـالِ
وَقُـمْـتَ مَـقَـامـاً خِـفْـتَ رَبَّـكَ عِـنْـدَهُ فَـخَـافَـتْـكَ أُسْـدٌ بِـالـفَـلاةِ خَـوَالِـي
أرَى مَـلِـكَ الإسْـلاَمِ حَـصَّـلَ مـا مـنـه وَ... غَـالَـى فَـوْقَ كُـلِّ مُـغَـالِـي

وَمِثْلُكَ فِي حِفْظِ الوَدِيْعَةِ مِثْلُهُ ... فَكَافٍ لَمِا قَدْ أَوْدَعُوهُ وَكَالِي
إِلَيْكَ نِظَاماً أَنْتَ يَا بَحْرُ دُرُّهُ ... فَمَا أَنَا مَغْرُوْرٌ بِلَمْعَةِ آلِ
أَتَى عُمَرٌ فيها عَلِياً بِمِدْحَةٍ ... فَأَرْضَى بِهَا السُّنِّيَ وَالمتَوَالِي

وقال يهنِّيه بشهر رمضان وبالمدرسة التي وقفها بمصر على الشافعية ـ كثرهم الله تعالى: [من الطويل]

يُنَادِيْكَ حلّ الصّوم ضَيْفاً مُحَبَّبَا ... فَنَادَيْتَهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبَا
وَضَاحَكْتَهُ مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَبوأْتَهُ رَبْعاً مِنَ الخَيْرِ مُخْصِبَا
وَمَدْرَسَةٍ خِلْنَا بِهَا وَطَناً لَهُ ... فَيَا مَوْقِعَ الأَوْطَانِ مِمَّنْ تَغرَبَا
ذَهَّبْتَ بِهَا مِنَ العُلاَ ... مَذَاهِبَ أَحْيَتْ لابْنِ إِدْرِيْسَ مَذْهَبَا
وَشِدْتَ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ أُسَّهَا ... وَأَنْفَقْتَ مَا لاَقَى رِضَا اللهِ طَيِّبَا
وَلَمْ أَرَ كَالفِسْطَاطِ زَادَتْ رُبُوعُهُ ... طِرَازاً مِنَ العِلْمِ المُعَظَّمِ مُذْهَبَا
بِهَاسه تُنْسِي النِّظَامِيَّةَ الَّتِي ... لَهَا العِيْسُ كَمْ شُدَّتْ وَكَمْ حُلَّتِ الحُبَى
وَمَا هِيَ إِلّا عَزْمَةٌ عَلَوِيَّةٌ ... إِذَا حَاوَلَتْ أَمْراً أَبَى مِنْهُ مَا أَبَى
سَتَحْيَا لَيَالِي الشَّهْرِ فِيْ جَنَبَاتِهَا ... كَمَا قَدْ تَلاَ القُرآنَ تَالٍ فَأَطْرَبَا
سَيَرْفَعُ أَعْلاَمَ العُلُومِ فَلَمْ يَدَعْ ... صَبَاحُ يَقِينٍ فِيهِ لِلشَّكِّ غَيْهَبَا
سَتُجْزَى ثَوَابَ اللهِ عَنْ ذَاكَ كُلِّهُ ... إِذَا مَا دَعَا دَاعِيْ الجِنَانِ وَثَوَّبَا

وقال يهنيه بشهر رجب: [من الطويل]

أَنِخْ بِجَنَابِ الصَّاحِبِ ابْنِ مُحَمَّدٍ ... تُنِخْ أَيُّهَا الرّاجِيْ بِأَكْرَمِ صَاحِبِ
وَهَنِّيْهِ بَلْ هَنِّي بِهِ رَجَبَ الَّذِيْ ... يُعَوِّدُ مِنْ يُمْنَاهُ لَثْمَ الرَّوَاجِبِ
وَمَا عَدِمَتْ مِنْهُ الأَهِلَّةُ مُشْبِهاً ... سِوَى أَنَّها مِنْ دُوْنِهِ فِي المَرَاتِبِ
وَلَولاَهُ مَوْصُوفٌ بِفَرْطِ تَوَاضُعٍ ... لَمَا شَبَّهُوا آرَاءهُ بِالكَوَاكِبِ
وَدَبَّرَهَا لِلظَاهِرِ المَلْكِ دَوْلَةً ... تَوَلَّى مَبَادِيْهَا لِخَيْرِ العَوَاقِبِ
/٢٣٩/ بَنَى بِوَزِيْرٍ صَالحٍ أُسَّ مُلْكِهِ ... فَزَاحَمَ آفَاقَ السُّها بِالمَنَاكِبِ
وَمَا مَلِكٌ كَانَ الوَزِيْرُ وَرَاءهُ ... بِمُحتَفِلٍ يَوْماً بِكَيْدِ مُحَارِبِ
مَنَاقِبُ لاَ تَعْدُو عَلِياً وَآلَهُ ... وَمَنْ مِثْلُهُ فِي آلِه وَالمَنَاقِبِ
إِلَيْكَ بَهَاءَ الدِّيْنِ عِقْداً يَزِيْنُهُ ... وَكَمْ مِنْ عُقُودٍ حُلِّيَتْ بِتَرَائِبِ
يُهَنِّئُكَ الشَّهْرُ الأَصَمُّ وَإِنَّهُ ... لَمُصْغٍ لِمَدْحٍ فِيْكَ جَمِّ العَجَائِبِ
سقط فِي جُنْحِ الدُّجَى عمرٌ لَهُ ... وَشَدَّ أَعَالِيْ كُلِّ هُدْبٍ بِحَاجِبِ

وقال سعد الدين الفارقي: وكان يوقع بين يدي الصاحب بهاء الدين المذكور[1]:

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨٦.

[من السريع]

يَمَمْ عَلِياً فَهْوَ تَمَّ النَّدَى ... وَنَادِهِ فِي المضلع المُعْضِلِ
فَرِفْدُهُ نَجْدٌ عَلَى مُجْدِبٍ ... وَوَفْدُهُ مُفْضٍ إِلَى مُفْضِلِ
أَسْرَعُ مِنْ سَيْلٍ يَدَاهُ وَهَلْ ... أَسْرَعُ مِنْ سَيْلٍ أَتَى مِنْ عَلِ؟!

وقال الشيخ رشيد الدين الفارقي[1]: [من البسيط]

وَقَائِلٍ قَالَ لِي ....عُمَراً ... فَقُلْتُ إِنَ عَلِياً قَدْ تَنَبَّهَ لِيْ
مَالِيْ إذَا كُنْتُ مُحْتَاجاً إِلَى عُمَرٍ ... مِنْ حَاجَةٍ فَلْيَنَمْ حَسْبِيْ إِنْتِبَاهُ عَلِي

وكان يهش للمديح، ويجيز الجوائز السنية.

وحكى لي قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي: أنه وقف على كتاب يتضمن إقرار الصاحب بهاء الدين لأولاد ابنه فخر الدين، وهم: الصاحب تاج الدين، وأخوته بمبلغ ستين ألف دينار.

ومنهم:

[١٠٦]

الصاحب شمس الدين، محمد بن عثمان بن أبي الرجاء التّنوخي، عرف بابن السَّلعُوس[2]

وزير لج في كبريائه، وجلّ عن القياس بالوزراء في عليائه، تاه به الشمم، وتصاوخ به الصمم. لو عرض له البحر لما رآه إلاّ ضَحْضَاحا، أو الجبل لما جعله إلاّ صَحَصَاحا.

كان أول حاله تاجراً إلاّ أن همته تكلّفه خوض الغمرات، وطلب العلياء ولو مات

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨٦.

(٢) محمد بن عثمان بن أبي الرجاء، شمس الدين التنوخيّ، الدمشقي، الوزير الكبير، الصاحب، الأثير، التاجر، ابن السَّلعوس، وزير الملك الأشرف.
قال الذهبي: كان في شبيته يسافر في التجارة. وكان أشقر، سميناً، أبيض، معتدل القامة، فصيح العبارة، حلو المنطق، وافر الهيبة والتؤدة، سديد الرأي، خليقاً للوزارة كامل الأدوات، تامّ الخبرة، زائد الحُمق جدّاً، عظيم التيه والبأو. وكان جاراً للصاحب تقيّ الدين ابن البيّع، فصاحَبَه ورأى منه الكفاءة، فأخذ له حسبة دمشق. ثم ذهب إلى مصر وتوكّل للملك الأشرف في دولة أبيه فجرت عليه نكبة من السلطان، ثم شفع مخدومه فيه، فأطلق من الاعتقال. وحج إلى بيت الله، فتملّك في غيبته مخدومه الملك الأشرف، وعيّن له الوزارة. وكان مُحِبّاً فيه، معتمداً عليه، فعمل الوزارة في مستحقّها. وكان إذا ركب تمشي الأمراء والكبار في خدمته. ودخل دمشق يوم قدومه من عكا في دَسْتٍ عظيم وكبكبة من القُضاة والمفتين والرؤساء والكُتّاب، فلم يتخلّف أحد. وكان =

دونها حسرات، وكان مبذول اليد بالكرم، مطلق العنان في حبّ التقدم.

خدم وزير الشام الصاحب تقي الدين توبة التكريتي وجاوزه، وترقى به، وتلقى مبادىء العلياء بسببه، ولي به الحسبة بدمشق، فحفظ مضاعها، وفخم أوضاعها، وتوكل بدمشق عن الملك الأشرف خليل، وولي العهد إذ ذاك أخوه الملك الصالح علي، فامتد به الخيلاء لا يثني له رسناً، ولا يريه من فعله إلاّ حسناً، فبدت عليه أمور أنكرها عليه الأمراء بالشام لاجين، فأحضره بدار العدل، وهي حافلة الآفاق، كاملة

= الشجاعيّ فمَن دونه يقفون بين يديه، وجميع أمور المملكة منوطة به. وإذا ركب ركب في عدّة مماليك ورؤساء وأمراء، ولا يكاد يرفع رأسه إلى أحدٍ ولا يتكلّم إلا الكلمة بعد الكلمة، قد قتله العُجب، وأهلكه الكِبْر، فنعوذ بالله من مقت الله. وكان صحيح الإسلام، جيّد العقيدة. فيه ديانة وسُنّة في الجملة.

فارق السلطان كما ذكرنا، وسار إلى الإسكندرية في تحصيل الأموال، وفي خدمته مثل الأمير عَلَم الدين الدواداري، فصادر متولّي الثغر وعاقبه، فلم ينشب أن جاءه الخبر بقتل مخدومه، فركب لليلته منها هو وكاتبه الرئيس شرف الدين ابن القيسراني ـ وقال للوالي: افتح لي الباب حتى أخرج لزيارة القباريّ. ففتح له وسافر. وبلغني فيما بعد أن الوالي عرف الحال وشتم الوزير، ثم أخرجه في ذلة، صحّ ـ وجاء إلى المَقْس ليلاً، فنزل بزاوية شيخنا ابن الظاهريّ، ولم ينم مُعظم الليل. واستشار الشيخ في الاختفاء، فقال له: أنا قليل الخبرة بهذه الأمور.

وأُشير عليه بالاختفاء، فقوّى نفسه وقال: هذا لا نفعله، ولو فعله عامل من عمالنا لكان قبيحاً. وقال: هم محتاجون إليّ، وما أنا محتاج إليهم. ثم ركب بُكرةً ودخل في أبّهة الوزارة إلى داره، فاستمرّ بها خمسة أيام، ثم طُلب في اليوم السادس إلى القلعة، وأنزل إلى البلد ماشياً، فسُلِّم من الغد إلى عدوّه مشدّ الصُّحبة الأمير بهاء الدين قراقوش، سلّمه إليه الشجاعيّ، فقيل إنه ضربه ألفاً ومائة مِقْرعة، ثم سُلِّم إلى الأمير بدر الدين المسعوديّ مُشدّ مصر يومئذٍ حتى يستخلص منه، فعاقبه وعذّبه، وحمل جملةً، وكتب تذكرة إلى دمشق بسبعة آلاف دينار مودعة عند جماعة، فأُخذت منهم.

ثم مات من العقوبة في تاسع صفر سنة ٦٩٣هـ، وقد أنتن جسمه، وقُطع منه اللحم الميّت قبل موته.

ترجمته في: تالي كتاب وفيات الأعيان ١٥٢ـ١٥٤ رقم ٢٤٨، والحوادث الجامعة ٢٢٦، ٢٢٩، ونهاية الأرب ٣١/ ٢٧٠ـ٢٧٣، ومنتخب الزمان ٢/ ٣٧٠، والمقتفي ١/ورقة ٢٠٨ب ـ ٢٠٨أ، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨١، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٠، والعبر ٥/ ٣٩٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٧٨، ٣٨٠، والوافي بالوفيات ٤/ ٨٦ رقم ١٥٥٥، والسلوك ج١ ق٣/ ٧٩٧ـ ٧٩٨، ٨٠٤، وتذكرة النبية ١/ ١٧٣، ودرة الأسلاك ١/ورقة ١٢١، والمقفى الكبير ٦/ ٢٠٤ رقم ١٦٦٠، والنجوم الزاهرة ٨/ ٥٣ـ ٥٤، والدليل الشافي ٢/ ٦٥٢ـ ٦٥٣ رقم ٢٢٤٣، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٧٩ـ٣٨١، تاريخ الإسلام المقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٤٠أ، الوافي بالوفيات ٣/ ٧٠ رقم ٩٧٣، ذيل مرآة الزمان ٣/ ٨٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١ـ٦٨٠هـ) ص١١٧ رقم ٨٩، (السنوات ٦٩١ـ٧٠٠هـ) ص١٩٩ رقم ١٩٦.

النطاق، فأوقفه لديه لأمر شكي به إليه، ثم أمر به، فضرب على هامته، وجرّ بعمامته يتغافل مدة.

ثم سار إلى مصر موقر الركاب، مملوء الأكياس المعدة عنه للجواب، فأتى باب موكله الملك الأشرف، وأقام به متسبباً في إقباله، متقرباً إليه بما يأكل نار كرمه من قرابين ماله، صاداً له عن المباشرين لديه، ساداً لخلل ضروراته بما يقدر عليه.

وكان الملك الأشرف ضيّق اليد ليس له إلاّ ما يتحمل من إقطاعه بما لا يقوم، ولا يقوى بما يقدر عليه أخوه ولي العهد، وهو ينفق من مال لا يخشى من تلفه، فتكفل للملك الأشرف بكل كلفه، وإن جلت وترتيب نفقاته نظير أخيه والزيادة عليها إن قامت، فولاه أمر ديوانه، وأولاه من القرب ما أدخر له أضعافه إلى أوانه.

ثم لم يلبث أن صار العهد للملك الأشرف حين مات أخوه، واضطر إلى أن يعهد إليه أبوه فروح في بذخه، والملك الأشرف في نفخه، فعمل ما لا يفعله كبراء الوزراء، وزاد حتى تعدى طور الأمراء، فأهم أبوه الملك المنصور أمره، فأمسكه وعاقبه، وأراد الفتك به، فشفع له أمير سلاح إليه، فأطلقه على أنه لا يأوي إلى ولده، ولا يساكنه ببلاده.

وآن أوان الحج فتوجه إليه في عامه / ٢٤٠/ من التجمل بالجمال، والهجن، والخيل، فما أمهلت الأيام الملك المنصور حتى مات، وورث ابنه الملك الأشرف ملكه، ونظم سلكه، وكتب إلى الوزير كتاباً أرسله مع محاب يستحثه، وكتب فيه بخطه: يا سفير، يا وجه الخير، حث السير، فجاء يطير في آهابه، ويحرق شواظ التهابه، فقلّده أمر الوزارة تقليداً لم يكن لأحد عهد بمثله، ولا وصول إلى أقله.

كان السلعوس هذا في أول مرة من جملة التجار، وكان يأخذ نفسه بالسياسة والحشمة، وكان إذا طلع في متجره أخذ معه خيمة كبيرة، وقدراً كبيرة، فإذا نزل، طبخ وغرف وجلس في خيمته، ومدّ الطعام بين يديه وطلب التجار ليأكلوا معه، فكانوا يهزأون به، ويقولون له: الصويحب، تصغيراً للفظة الصاحب.

ثم غلبه حبّ التقدم على تبطيل المدخر والانضمام إلى التقى توبة، فنقله حتى ولي الحسبة، كما قدّمنا، ثم ولي الوكالة الأشرفية، ثم توجه إلى مصر ودخل في عين الأشرف بالتقرب إليه. واتفق أنّ الأشرف أراد الخروج للعب بالكرة يوماً مع أخيه ولي العهد، الملك الصالح، فطلب مباشري ديوانه، وأمرهم بالاستعداد لذلك، لما تحتاج إليه من الطعام والشراب والخلع والنفقة، فبكى مباشره، وقال: من أين لنا؟، ومن أين نجد نحن هذا وعلينا من الدين ما علينا؟ تريد أن تضاهي أخاك وأنت رجل أمير، وذاك رجل ملك، وكلّ واحد يمشي على قدر حاله، فعظم هذا على الأشرف، ووجد له وجداً عظيماً، وأخرج من الحوائص الذهب التي عنده، ابتاع وينفق في ذلك، ولم يرد إظهار العجز قدام أخيه، فبلغ هذا، ابن السعلوس ـ وهو في بابه ـ فاستأذن عليه، فلما

دخل عليه، قبَّل الأرض، ثم قال: إنّ برز المرسوم إلى تكفية هذا المهم وغيره كفيته من مال مولانا بالشام، ففيه فضلة تسع هذا وأكثر منه، فأعجب الأشرف قوله، وقال له: اعمل. وردّ الأشرف الحوائص، فقام ابن السلعوس وجهز ما أراده بزيادة كثيرة، وأتى إليه بالبقج فيها الخلع التمام وغيرها، ومعها أكياس فيها من خفائف الذهب والدراهم قدر الحاجة بالفاضل، فوقع فعله منه بموقع عظيم، ثم ركب للعب الكرة، فوجد ابن السلعوس قد هيأ فوق ما كان في نفسه من الطعام والشراب وأنواع الطارىء، فرأى الملك الأشرف ما ملأ قلبه سروراً وتم له ما أراده من إظهار التجمل قدّام أخيه، وقدام الناس، لئلا يراه، وأرضى الملك الأشرف بالقيام بكل ما يطلبه.

ثم لم يمتد المهل بالملك الصالح، فولي الملك الأشرف العهد بوساطة الأمراء الكبار على رغم كافل الممالك طرنطاي، وعلى كره من أبيه الملك المنصور، لما كانوا يعلمونه من بأسه وشجاعته، فزاد تعظيمه لابن السلعوس، وزاد شمم ابن السلعوس به، وصار يركب ركوب الوزراء، وينزل نزولهم، وتحمل خلفه دواة جليلة من الفولاذ المجوهر منزلة بالذهب، وفيها عقيان ... الأشرف.

ثم كان إذا جلس جاءت إليه مخفية من المطبخ الأشرفي، ويجيء بعدها المشروب وغير ذلك، فضاق ذرع طرنطاي وأرباب التصرف منه، وبلغوا الملك المنصور عنه أقبح القول، ووصفوه / ٢٤١/ حتى أحضره وضربه، وأمر بأن يرتجع منه كل ما وصل إليه من جهة ولده الملك الأشرف من المآكل، والمشارب، والخلع، والبغال، فجاء بجملة كبيرة، فعظم على الملك الأشرف موقع هذه المصيبة، وركب إلى أمير سلاح، ونزل عنده، وشكا إليه من فعل أبيه وطرنطاي، فركب أمير سلاح، وأرسل إلى بقية الأمراء، وكانوا يحبونه، ويبغضون طرنطاي، واجتمع بالملك المنصور خلوة، وقال عنه وعن الأمراء: إنّ الذي نقل عن ابن السلعوس كذب، وسأله فيه عنه وعن الأمراء حتى أمر بإطلاقه وطرده، وقال: بشرط أن لا يقيم بمصر، ولا يجاورنا؛ فلما أتى وقت الحج، وكان قد قرب، وخرج ابن السعلوس حاجاً وجهزه أمير سلاح وغيره من الأمراء بأحسن الجهاز رعاية للخاطر الأشرفي فتوفي الملك المنصور في أثناء تلك المدة، وآل الملك إلى الملك الأشرف، فلم يكن عنده حال جلوسه أهم من طلب ابن السلعوس، فكتب إليه كتاباً يطلبه فيه، ويحث على سرعة الحضور.

ثم لما قدم إليه الكتاب؛ ليعلم عليه، كتب في موضع العلامة: يا شقير، يا وجه الخير، حثّ السير.

فلما قرب بعث إليه من يلقاه بخلعة وبغله، ثم إنه حال وصوله، خلع عليه خلعة الوزارة، وأعطي الدواة، وقدمت إليه بغلة بالزناري، وباشر الوزارة مباشرة لم يبلغها أحد ومن الوزراء بعد شاور إلاّ الفائزي، ولم يبلغها.

وكان رجلاً قد باض الحمق في رأسه وفرّخ، وبقي الملك الأشرف كلما نفخ فيه، انتفخ، وصارت الأمراء وأرباب تقاوم الألوف تأتي إليه، وتقف بين يديه، ولا يقول لأحد منهم: أقعد، حتى يطول مكثه في القيام، ولا يدعو أكثرهم إلاّ بالأسماء دون اللقب، حتى كان يقول للاجين: يا حسام الدين، وللشجاعي: يا علم، وللدواداري: يا سنجر، ومن هذا ومثله. فامتلأت الصدور عليه وعلى الملك الأشرف بسببه، حتى صار الأمر إلى ما صار وآل إلى ما آل.

حدثني عمّي الصاحب شرف الدين أبو محمد ـ رحمه الله ـ وقد جرى ذكر حمق ابن السلعوس وترفعه، قال: كان الرجل في رأسه حمق، وزاده الملك الأشرف، وكان عامياً فطاش وطار، ثم شرع يحدث، قال: كنت في الخدمة الأشرفية بالنيل، وقد نصبت خيمة السلطان على العين، فمرّ بي كرت أمير أخو أحد مقدّمي الألوف فسلم علي فقمت له، ورددت عليه السلام، فرآني الملك الأشرف فطلبني، فلما جئت إليه، أنكر عليّ، فقال: ها ها تقوم لكرت، وتمشي له، وتخضع له، ومن هو كرت حتى تعمل هذا معه وأنت لساني ويدي وأذني وعيني، والله لولا أنك شيخ كبير، لقطعت رأسك، وإن عدت إلى مثلها قطعت رأسك، فخرجت وأنا لا أعي مما أراد أن يحملني عليه، ثم كنت إذا مرّ بي أحد تغافلت عنه ما أمكنني، فإن لم أجد بداً أشرت إليه بتقبيل اليد، أو أكثر من هذا على قدر مراتبهم، ولا أقدر أقوم خوفاً أنه يراني، فاذا كنت حيث آمن أنه لا يراني، قمت، وخدمته بما يناسب، فلم يتوغر علي صدر.

ثم قال: وإذا كان /٢٤٢/ هذا قبول الملك الأشرف لي وما أنا وزيره المتصرف ولا لي عليه خدمة سابقة، فكيف كان يقول لابن السلعوس: ما حمل، انتهى كلامه.

قلت: وعلى الجملة فقد أحسن إلى أصحابه الدماشقة، وكان يتلقاهم بالرحب والسعة، ويقضي حوائجهم ويحسن إليهم، وكان كامل الأمور محباً للرئاسة إلاّ أنه أفرط حمق العامية، ولم يقع في أيامه أقبح من واقعة ابن بنت الأعز القاضي والحمالة عليه، ونكبته له، وكانت بإغراء المصريين له عليه، ولم يكن فيه أقبح من أنه كان تياهاً متكبراً، كثير الخيلاء، معجباً بنفسه، معتزاً بسلطانه.

وحدّثني شيخنا أبو الثناء محمود الكاتب ـ رحمه الله ـ قال: رأيت ابن السلعوس وقد جاءه قضاة القضاة إلى باب داره بدمشق ـ وفيهم من خلع عليه في يوم الجمعة ـ فجلسوا في انتظاره، ليخرج فطال مكثه إلى أن حانت الصلاة، فخرج واستأذنه حاجبه عليهم، فقال: قد ضاق الوقت، فليأتوا بعد الصلاة، وركب الدواداري، ومشوا في ركابه حتى أتى باب البريد فنزل ومشى، وهم قدامه، حتى صلى، ثم خرج، وهم قدامه، حتى ركب، فمشوا معه حتى باب داره، فنزل، ثم أتاه حاجبه، وأستأذنه عليهم، فأذن لهم، فأتوه وقبّلوا يده، وأنا أراه.

وحدّثني أنه لما اهتم الملك الأشرف بأطيار الناصري أمر الأمراء بالعرض فتضاهوا في التجمل، وبالغ لاجين، ونزل الملك الأشرف بالميدان وجعلت الأمراء تعرض بالنوبة أياماً، فلما أتت نوبة لاجين، كنت قد خرجت أريد الخدمة بالميدان، فرأيت لاجين على فرسه واقفاً وحده ينتظر طلبه، وقد جمّله أحسن التجمل، ورتبه أحسن الترتيب، فلما رآني ناداني، فأتيت فجعل يتذكر أيامه بدمشق وطيبها وهو سار منشرح، فأقبل طلبه كأن عليه ومضان برق أو شعاع شمس، فزاد ابتهاجه وسروره فما وافى الطلب، حتى أتى ابن السلعوس في موكبه معترضاً، فساق إليه لاجين، وأومأ إليه بالخدمة والسلام فما زاد على أن قال له: حاشاك حسام الدين. فأريد وجه لاجين، ثم ساق ابن السلعوس حتى شق الطلب عرضاً فقطعه فزاد غيظ لاجين؛ فلما مضى ابن السلعوس جاءه أستاذ داره يسأله أن يعيد ترتيب الطلب، فقال له بغيظ، اعمله كيف ما كان إلى لعنة الله، وأثر هذا في خاطره تأثيراً، فأتيت إلى عمّك، يعني شرف الدين أبا محمد ـ رحمه الله ـ فقال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله .ما يزال هذا الجاهل حتى يخرب هذه الدولة، والله لا رجع لاجين حتى يخرب هذه الدولة أو يقتل، وهكذا كان.

وقد اختصرت في هذه الحكاية ما ليس هذا ذكر موضعه.

وحكى لي غير واحد: أن الملك الأشرف لما قتل كان ابن السلعوس بالإسكندرية، وقد رفع رأسه إلى السماء، وظهر بسيماء الجبروت، وهدد الوالي وتوعده بما فيه الإتيان على /٢٤٣/ روحه فلما خرج من عنده، وقعت إليه البطائق على جناح الحمام الرسائل بقتل الأشرف، ورسم له فيها بالقبض على ابن السلعوس، فأتى الوالي إلى بابه، وقد نهض من مجالسه، فقعد على الباب، فبعث يقول له: قد دعت الضرورة إلى المثول بين يدي مولانا الصاحب، فقال له حاجبه: هذا ما لا سبيل إليه، فقال: لا بدّ، وألحّ، فآذنه بحضوره، فقال: ائذن له؛ فلما دخل عاجله بالشتم والإخراق وقال له: لا تعجل يا مولانا، ثم تقدم إليه، فاقرأه البطائق، فأُسقط في يده، وخاف بادرة الوالي لما قدمه من الإساءة إليه، فقال له: لا بأس عليك يا مولانا مني، وأنت بخير، إن شئت جهزتك مع من يوصلك آمناً، وإن شئت مكنتك من الهرب، ودع روحي تذهب، وإن عزمت على هذا اتجهت معك حيث قصدت، فإنه لا يكون لي مقام بعد تمكيني لك من الهرب، فقال له: يا أخي والله ما زيد وزارة هؤلاء إلا هم ما يخلونا، فقال: والله ما رأي عليك إلاّ أن تنجو بنفسك؛ فإنك قد ملأت بحمقك عليك الصدور حنقاً، ولا ذهاب إليهم إلا أن كنت تريد أن تذهب نفسك، فقال له: دع منك هذا، فجهزه إلى القاهرة، فنزل في داره، فقبض عليه، وضرب بالمقارع حتى مات.

ومنهم:

[١٠٧]

تاج الدين بن حنّا[(١)]

وزير كان عن الوزارة مترفعاً، وبمثل رداء الإمارة متلفعا، يصدعن مقلتها، ويضمّ عن وسيلتها، وزر وزارة صحبه في زمن جدّه، ونفس فيها حناق يضيقه بحمده، فكان يحل ما عقد، يطفيء ما وقد، إلاّ أن ذلك الجبار العنيد كان لا يتهيأ معه تمام معروف، ولا اهتمام بمعروف، وكانت ولايته بعد أبيه الصاحب فخر الدين محمد حين اختطفه الحمام، واقتطفه ولم يبلغ التمام، ودام مباشراً حتى مات جدّه في زمن الملك السعيد، وطار به نعيه إلى المرمى البعيد.

ثم كانت نكبتهم التي أحاطت بجمعهم، وأحالت مصيبتها حتى بين جفونهم ودموعهم، وأمسك تاج الدين أول من أمسك، وأخذ منه أكثر ما يملك إلاّ بقية عقار من معاقر قصب كان فيها يعتصر، وصبابة مال كان بها يتجَّر، تمت له فيما بعد، جاءت بما لا يعد، وضرب في حال نكبته إلاّ أنه ما عدي له ثوب، ولا أمطر له صوب، وكان في حال هذه ... مكرماً، وفي أوقات هذه الصنعة معظماً، خرج فرأته الأمراء، فمثلت له وقوفاً، وشقّ الجند إلى دار مجسه فانفرجت له صفوفاً، ثم سمى خلاصه، وخرج كالذهب خلاصه فأقام بيته منقطعاً، ولا وأمر من يقصده مهطعاً، إلى أن سحت له من ملك الأمراء طرنطاي بارقة رأى بها ... نجاحه، وأوى بها إلى جناحه، فجعله من موقعي الدست يوقع على القصص من غير معلوم له فرد، ولا بتوقيع له سطر.

وبقي على هذا حتى هدأت روعته، وردت لوعته، ثم لزم بيته آمناً إلاّ أنه كان لوفور عقله يتخوف، ولا يأمن من أن يتخطف إلى الأيام الناصرية / ٢٤٤/ الأول حيث

---

(١) تاج الدين، محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن بهاء الدين علي بن محمد بن سُليم بن حنّا، ويلقب بالصاحب كأبيه فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين، من آل حنّا: وجيه مصري، وجدّه لأمه الوزير شرف الدين صاعد الفائزي. ولد في ٩ شعبان سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م. وكان يتعاطى الفروسية ويحضر الغزوات، وانتهت إليه رياسة عصره في بلده. نشأ في بيت مجد، واشتغل بالحديث والأدب، ونظم الشعر والتوشيح، وحدّث بمصر ودمشق. وهو الذي اشترى الآثار النبوية ـ على ما قيل ـ وجعلها في مكانه «بالمعشوق» المنسوب إليه بمصر. وكانت رياسته فوق الوزارة، حتى إن أحدهم (الصاحب فخر الدين ابن الخليلي) لما ولي الوزارة جاءه وقبل يديه فأكرمه، فكان ذلك «بمنزلة الإجازة والإمضاء لوزارته» واستوفى الصفدي كثيراً من أخباره مع شعراء عصره وغيرهم. توفي بالقاهرة يوم السبت ٥ جمادى الآخرة سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/ ٢١٧، والدرر الكامنة ٤/ ٢٠١، وفوات الوفيات ٢/ ١٥٣، والضوء اللامع ١١/ ٢٤٤ في كتاب من عرف بابن فلان: «ابن حنّا»: بكسر ثم تشديد، وانظر التاج ٩/ ١٨٦السطور الأخيرة من الصفحة، النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٠، ٢٦٤، الأعلام ٧/ ٣٢.

كان كتبغا هو الكافل والمشار إليه في ذلك الدست الحافل، وكان له إليه السعات، عليه اشتمال رد عليه ما فات، فأحضره وقلّده الوزارة وأحل سبلها منه القرار، فباشرها بشمم وألم بها وكان لمم لم يطأها بتراب ولا واخذها باكترات حتى زحزح كتبغا الناصر عن سريره، وآل إليه بمصيره فاستمر به أحسن الاستمرار، واستقر به أكمل الاستقرار، وكان نجيَّه وصاحبه، وملازم مجلسه، ومواظبه إلى أن دهى وادي حضر بمصيبة ذلك الغلاء، ورموا ذلك الموت ... صرف إلى الظلم، وجهه الملك العادل، وحاول أكل أموال الناس بالباطل، فاستعفى الصاحب، فأعفي، وأقام في بيته كالملك إلاّ أنه المحفي حتى حلّ به أجله المنتظر، ودنا منه ما كان ينتظر.

ومنهم:

[١٠٨]

فخر الدين، عمر بن عبد العزيز بن الخليلي(١)

وزير يملأ الدست ويخجل البدر إن نافست، لا يشبه به السحاب إلاّ ارتعدت فرائص برقه، ولا السيل إلاّ على شعب الحبل يده إلى عنقه. وكان خليلي الكرم، داريّ العِطر إلاّ أنه الذي لا يشب على ضرم عمي الفخار، لا ما ادعاه الفرزدق لدارم، أوسي العمومة إلا أنه خزرجي المكارم، ابن أبٍ صالح دعى بالمجد، لأنه حقيقته، ويرسل عن الخلافة، وعرف بالشحّ، فلم ينكر في أهلِ الرسالة طريقته، فما رفعت لأبيه راية مجد إلا تلقاها عُرَابة باليمين، ولا عرفت له سيماء صلاح إلاّ وقد ظهر منها سره في السين.

خدم الملك الصالح حال ولايته للعهد في أيام أبيه المنصور، وكان لديه موقراً، وإليه يخضع كل ذي أنفة مفتقراً.

ثم ولى النظر والأمر كلّه إليه مرجعه، وإليه قراراته ومنتجعه، حتى استعفى ابن حنا في الأيام العادلية زمن ذلك الغلاء الذي انتهب الأجساد، وألهب شعل الفساد.

وكان تاج الدين حنا لا يجلس لتصريف الأمور إلاّ ساعة من نهار، ثم ينصرف إلى بيته، ويتركه في غمرات تلك البحار، لا يقرّ له قرار، حتى يكفي دونه السلطان

---

(١) الصاحب فخر الدين عمر بن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسن بن الحسين الخليلي التميمي الدّاري.
ولد سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م. وتولى الوزارة في دولة الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس، ثم بعدها غير مرّة إلى أن عزله الملك الناصر، ومات معزولاً.
وكان فاضلاً، خيّراً، ديّناً، كثير الصدقات، عفيفاً في أموال الرعية. توفي بالقاهرة في يوم عيد الفطر سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م، ودفن بالقرافة الصغرى.
ترجمته في: النجوم الزاهرة ٥٨/٨، ٦١، ١٠٠، ١٤١، ٩/ ٢٢٠.

وحواشيه، ويتصرف، وإن غاب الوزير، تصرف المستقل ولا يحاشيه، فقلِّد الوزارة، فتقلد طوقها وحمل أوقها، وظهر فيها بالكفاية، وبلغ فوقها، وسلك طريقاً أمن فيه التعزير، ومن فلولا بعض ... إلا أن هذا الوزير أعاد سميه عمر بن عبد العزيز، بلغ فيها ما بلغ ابن حنا الكبير من وزارة بنيه.

وأيامه ما حان حينها، ولا ذهب من يد الزمان المدد طينها، كانوا يجلسون فرادى معه، ويقعدون دونه، ويسدون موضعه، واتصلت به وبهم أرزاق ما اتصل أقلها بابن حنا وبنيه، ولا جاء قبلهم ولا بعدهم من كان يدانيهم في هذا ولا يدانيه، فكم قاموا سنة / ٢٤٥/ في عموم القرى، وعظيم الجود الذي وسع الورى، فأذعنت الرقاب لقدرهم الجليل، وسلمت منهم إلى الأولاد تميم الداري أعداءهم كرم مجاورتهم للخليل، فسد ذكرهم، وانعقد عليه الإجماع، وطاف البلاد فأمسى له في كل أرض نوبة خليلية تطرب الأسماع، وعزل مرات. ثم لم ترد رتبتها سواه حديثاً، ولا رضيت عقيلتها على كثرة الخطاب غيرها قريباً، ثم ما مات إلاّ وهو عنها قد انفصل، وزرى بنيه، وخطاب سعادته قد فصل، وانقطع به السبب، وكان لا يظن إلاّ أنه قد وصل.

ومنهم:

[١٠٩]

أمين الملك

وزير ضبط الملك بقلمه، وضغط الفرقد بقدمه، وجاوز على عنق العَيُّوق محلّقا، وجال المجرة محقّقاً، ولي الاستيفاء مُذ كان يافعاً، وحلّ مكان العلياء على قمة الجوزاء واضعاً، وكان هو الوزير، وإن سمي مدى غيره، والميمون وإن زجر الفأل طيره.

ثم تناوب النظر والوزارة مراراً، وتناوبها لحظه إقبالاً وازوراراً، وباشر الشام أكنافها سحائبه، وملأت ساحاتها رغائبه، وجرى بها منه النيل، لكنه البحر الذي يحكى عجائبه.

وكان وزير على له الدست إذا حضر، ويتهور له مرأى السيوف إذا نظر، سطا بيت لها قلب الفرقد ... يحتفل الغمام، ولا يقدر على أنه مثله سعد.

ولي الوزارة نوباً دافعت النوائب، ووفرت بسداد آرائها الأسهم الصوائب، وكان نعم الصاحب لو عُرف حقُّه، أو متع الدهر بأن لا يتقدم فيه إلاّ مستحقه، لسيرة لا يتخللها عيب عائبة، وسريرة لا يشوبها كدر شائبة، واستحضار لأمور ممالك الإسلام من جميع ما يدخل تحت الحدود، لا يفوته فائت، ولا يصح وعنده من ... تنفيذ لا يدعيه الرامي إذا أطلق، ولا الطاعن إذا أخرق، ومضاء ما أقدم حتى يقدمه التخريب، ولا ابتعد حتى دنا به التقريب، هذا إلى رسم خط كأنمّا نفس بالغوالي، أو قسم منه على صفحات النهار والليالي، لا يتباين فيه المقادير، ولا يراد الريحان المغنم على ما فيه

من حسن التصوير. وعمل عليه أعداؤه مراراً عديدة، إذ كانت خفافيشهم لا تطير مع عقابه وأحابيشهم لا تتجاسر على غابه، فأخرج إلى طرابلس ناظراً إلاّ أنه، لم ينقص وترك هناكَ وما فيهم إلاّ خائف منه يتربص، ثم حج واستأذن على بيت المقدس، ليقيم به فأذن في هذا المرام، وصلى مدة ثم خطب على عاداته من ذلك الركن الذي لاذ به والمقام.

ثم كان آخر موعد أمره أن أخذ من دمشق على ظاهر الإكرام، وباطن البأساء، وفعل به ما طال تأوّه الرجال وبكاء النساء.

ومنهم:

[١١٠]
الصاحب /٢٤٦/ كريم الدين(١)

وزير، وإن لم يُسمّ بهذا الاسم، وملك، وإن دخل في هذا القسم، لا يقاس به أحد من الكرماء، ولا يقرن بنداه ابن ماء السماء، أهون عنده بالدينار واحد لا يظفر منه بعين، وبالدرهم، وإن كانت الناس تأكل عليه بالدين، وبالمعدنين، وإن صبغت الشمس من الذهب والفضة من لجين لو ليم في الجوهر لقال: هل هو إلا حجر أو في الدار، لقال: هل هو إلا مطر، طالما سدّ خللا، وأفاض حللاً، وسمح بالحرير، وقال: كيف ينحل بنسيج دودة، وبالدنيا وقال: كيف ينافس في عارية مردودة، زاد على كرماء العرب، وجاد بما لو قيس به مطر السحاب لسجد واقترب، وذهبت أيامه البيض بما لا كان لأبي ... وانقضى إنعامه وطعامه لا يعد لبني هبيرة منه هبرة، ومضى وله من البر أضعاف ما لآل برمك، ولجوده المتلبس ما ليس لبني سهل منه مسلك، وتتبع الفائزي إلاّ أن ذاك غرر، وهذا فاز، وابن الزبير فما وجد له في الزبير إلاّ بعض ما حاز. خدم عند الأمراء، ثم ترقى وسلم إلى المشية فتوفي، واتصل بالمظفر بيبرس حال إمرته، فملك قياده، وصحبه حيث صرف عن الملك حياده، واتهمه سلطاننا بماله،

(١) الصاحب عبد الكريم بن هبة الله بن السَّديد المصري، كريم الدين، أبو الفضائل: مدير دولة الناصر القلاووني. قبطي الأصل، كان اسمه «أكرم» وأسلم كهلاً فتسمى «عبد الكريم» وقرره الناصر في نظر شؤونه الخاصة، وهو أول من سُمِّي «ناظر الخاصّ» وأطلقت يده في جميع أعمال الدولة، فتجاوز حده، وانتهى أمره بالنفي إلى «أسوان» وشنق فيها بعمامته سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، وقد قارب السبعين.

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٥-١٨، البداية والنهاية ١٤/ ١٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٧٥، شذرات الذهب ٦/ ٦٣، السلوك ٢/ ١/ ٢٤٣-٢٤٨، ٢٥٩، كنز الدرر لابن الدواداري ٩/ ٣١٠-٣١٢، ٣١٤-٣١٥، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ١٨-١٩، =

ومال بيت المال، فحضر، وأحضر ما معه، ولم يترك شيئاً إلاّ ما لعله ودّعه، ودخل في عين السلطان بما أحضره من العين، ودخل على خواص الأمراء، حتى أصلحوا له ذات البين، فأفرجوا له عن أملاكه، وعلائقه إفراجاً، وجدّ به سبيلاً إلى سعاته، وطريقاً لمراعاته.

ثم لم يزل، حتى ولاه السلطان أموراً خاصة، ووكله لحقّه، وأقامه لاستخلاصه، ثم حسن لرأي السلطان المتجر وملا عسه بمدده الأكثر حتى أطلق له بقيد التوكيل، وقال وقد أختبره: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم كان هو المسلم حتى لأمور الحرم، والمقدم على الركب المتوجه ركائبهن إلى الحرم، وكان يخلع على الخواص والأمراء، فما منهم إلاّ من يتشرف بملابسه، ويعده فخراً له على منافسه حتى أن وقعت زواله، وأذن الله بتغير أحواله، فأمسك وأخرج إلى الشوبك، ثم إلى بيت المقدس، ثم طلب وجعل مكانه. مدفنه بالقرافة له كالمجلس، ثم بعث به إلى أسوان، وقد قرب وقت حمامه وآن، فجهز عليه حتى عزل عنه ولده وخنق وعلق، على أنه شنق روحه وما شنق.

وكان رحمه الله ـ انموذج الكرام، وآخر الضرام، وبقية أهل الإحسان، والدنيا على غيره حرام، والله أعلم بالصواب.

* * *

تمَّ الجزء الحادي عشر بحمد الله وعونه، يتلوه إن شاء الله في السفر الذي يليه: ثم كانت وزراء وكتّاب مع من سمّينا وبعدهم...

والحمد لله، وصلى الله على محمد وآله وأصحابه وسلم ورضي الله عن الصحابة...

وحسبنا الله ونعم الوكيل

تم الجزء الحادي عشر ـ بحمد الله وعونه ـ من مسالك الأبصار

* * *

= ٢٤ـ٢٥، تذكرة النبيه ٢/ ١٣٣، أعيان العصر ٣/ ١٤٢ـ١٥٤ رقم ١٠٣٠، فوات الوفيات ٢/ ٣٧٧ـ٣٨٨، الوافي بالوفيات ١٩/ ٩٧ـ١٠٢ رقم ٩٣، بدائع الزهور ١/ ٤٥٣، المنهل الصافي ٧/ ٣٤٥ـ٣٥٠ رقم ١٤٧٥، الدليل الشافي ١/ ٤٢٦ رقم ١٤٦٩، الأعلام ٤/ ٥٧.

مصادر ومراجع التحقيق

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء: الوزير جمال الدين أبو الحسن، علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ) ـ طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.
- أخبار العبّاس وولده: مؤلّف مجهول ـ تحقيق د. عبد العزيز الدوري ود. عبد الجبار المطلبي ـ طبعة بيروت.
- أخبار القُضاة: القاضي وكيع محمد بن حيّان (ت ٣٠٦هـ) ـ طبعة عالم الكتب. بيروت.
- أخبار النحويين البصْريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨هـ) ـ تحقيق: د. فريتش كرنكو ـ المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٣٦.
- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة طهران.
- الأسماء والصفات: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة مصر ١٩٣٩.
- الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) ـ طبعة مؤسسة جمّال بيروت، المصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.
- الإكمال في رفع الإرتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: الأمير هبة الله بن ماكولا (ت ٤٥٧هـ) ـ نشره المعلمي اليماني ـ حيدر آباد ١٩٦٢م.
- الأمالي: أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ) ـ تقديم: محمد عبد الجواد الأصمعي ـ طبعة دار الكتاب العربي ببيروت المصَّورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- أمالي المرتضَى (غُرر الفوائد ودُرر القلائد): الشريف المرتَضَى علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ) ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧.
- أمراء دمشق في الإسلام: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ـ تحقيق: د. صلاح الدين المنجد ـ طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٥م.
- إنباه الرُواة على أنباه النُحاة: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م.
- الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة ـ يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٣٦٤هـ) ـ القاهرة ١٩٥٠م.
- الأنساب: الإمام أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ـ تحقيق محمد عوّامة ـ نشره محمد أمين دمج ـ بيروت.
- أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت ٢٧٩هـ) ـ الجزء الثالث ـ تحقيق عبد العزيز الدوري ـ منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٩٧٨.
  ـ الجزء الخامس ـ نشره غويتن ـ طبعة القدس ١٩٣٦.
- الأنساب المتّفقة: أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ) ـ تحقيق دي غويه ـ طبعة المثنّى ببغداد.
- الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية: ـ د. صبحي المحمصاني ـ بيروت ١٩٧٨.
- البداية والنهاية في التاريخ: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ـ طبعة بيروت، الرياض ١٩٦٦م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبّي (ت ٥٩٨هـ) ـ نشرته دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م.
- بغية الوُعاة في طبقات اللُّغَويين والنُّحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) ـ طبعة مطبعة

السعادة بمصر ١٣٢٦هـ.

● البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي - نشره ج.س. كولان، وليفي بروفنسال - طبعة دار الثقافة، بيروت.

● البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - طبعة دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨.

● تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبِّيدي - سلسلة التراث العربي، منشورات وزارة الإعلام، الكويت.

● التاج المكلَّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: أبو الطيّب صدّيق بن حسن القنوجي - طبعة بمباي ١٩٦٣م.

● التاريخ: يحيى بن مَعين، أبو زكريا يحيى بن مَعين بن عون بن زياد المرّي الغَطَفاني (ت٢٣٣هـ) - تحقيق د. أحمد محمد نور سيف - منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة ١٩٧٩.

● تاريخ أبي زُرْعَة: أبو زُرْعَة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي - رواية أبي الميمون بن راشد - تحقيق: شكر الله بن نعمة الله القوجاني - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠.

● تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) - نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم (٣٩٦). وبتحقيق: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) - تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣/ ١٣٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

● تاريخ بغداد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) - طبعة محمد أمين الخانجي - مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١م.

● تاريخ بيروت والأمراء البُحْتُريّين: صالح بن يحيى (توفي في القرن التاسع الهجري) - تحقيق فرنسس هورس وكمال الصليبي - طبعة المشرق. الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٧.

● تاريخ جُرْجان: أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي - طبعة حيدر آباد ١٩٥٠م.

● تاريخ الحكماء: (مختصر الزَّوْزَني المسمَّى بالمنتخبات الملتَقَطات من أخبار الحكماء) - جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) - نشره ليبرت - لَيْبزغ ١٩٠٣م.

● تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - طبعة السعادة بمصر ١٩٥٢.

● تاريخ خليفة بن خياط: خليفة بن خيّاط، أبو عمر شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) - تحقيق: د. أكرم ضياء العمري - طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧م.

● تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

● التاريخ الصغير: الإمام أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) - طبعة الهند ١٣٢٥هـ.

● تاريخ علماء الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي المعروف بابن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ) - طبعة القاهرة ١٩٦٦.

● التاريخ الكبير: الإمام أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) صحّحه: عبد الرحمن بن يحيى اليماني - نشرته دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد١٣٦٢هـ.

● تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) - نسخة خطيّة بدار الكتب الظاهرية، دمشق رقم ٣٣٨٧. ونسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم١٠٤١ تاريخ - تيمور. وطبعة دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

● تاريخ الموصل: أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي (ت ٣٣٤هـ) - تحقيق د. علي حبيبة - القاهرة ١٩٦٧.

● تاريخ واسط: أسلم بن سهل الرزّاز الواسطي المعروف ببحشل (ت ٢٨٠هـ) - تحقيق: د. كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد ٦٧

● تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) - منشورات دار صادر بيروت.

● تذكرة الحُفّاظ: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - طبعة حيدر آباد

١٩٥٥ـ ١٩٥٧م.

- تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) ـ تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى اليماني ـ طبعة حيدر أباد ١٩٥٢.
- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلانّي (ت ٨٥٢هـ) ـ نشره عبد الوهاب بن عبد اللطيف ـ بيروت ١٩٧٥.
- تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ـ طبعة بيروت.
- تهذيب التاريخ الكبير (تاريخ دمشق): الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ هذبه: عبد القادر بدران ـ طبعة دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٩.
- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة حيدر آباد ١٣٢٥ وما بعدها.
- الثقات: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ).
- الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ).
- جذوة المقتبس في ذكر وُلاة الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيْدي (ت ٤٨٨هـ) ـ طبعة مصر ١٩٦٦.
- الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي (ت ٣٢٧هـ) ـ طبعة حيدر آباد ١٩٥٣م.
- جمال الدين يحيى بن مطروح: حياته وشعره: دراسة وتحقيق: عوض محمد الصالح منشورات جامعة قاريونس ـ ليبيا ١٩٩٥.
- الجمع بين رجال الصحيحين: أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧هـ) ـ طبعة حيدر آباد ١٣٢٣هـ.
- جمهرة أنساب العرب: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧.
- الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية: محمد بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ) ـ طبعة حيدر آباد ١٣٣٢هـ.
- حُسْن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) ـ طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ـ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.
- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦م.
- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال: صفيّ الدين الخزرجي الأنصاري ـ طبعة مصر ١٣٢٢هـ.
- دفع شُبَه التشبيه: ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ).
- دُول الإسلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٤م.
- ديوان الأمير الفارس أسامة بن منقذ: ط دار صادر ـ بيروت ١٩٩٦م.
- ديوان البحتري: تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، ط٢/ دارالمعارف بمصر ١٩٧٢.
- ديوان رؤبة بن العجّاج: رؤبة بن العجّاج (ت ١٤٥هـ) ـ نشره وليم ابن اللورد البروسي، سنة ١٩٠٣.
- ديوان ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (ت) تحقيق: د. حسين نصار، ط٣ دار الكتب والوثائق ـ القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ديوان ابن زيدون: (أبو الوليد، أحمد بن عبد الله بن زيدون ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط البابي الحلبي بمصر ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- ديوان الصاحب جمال الدين بن مطروح: جمع وتحقيق: د. جودة أمين، منشورات دار الثقافة العربية ـ القاهرة [دت].
- ديوان الصاحب بن عبّاد: تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط بغداد ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.
- ديوان صريع الغواني: مسلم بن الوليد الأنصاري (ت ٢٠٨هـ) تحقيق: د. سامي الدهان دار المعارف بمصر ١٣٧٦هـ.
- ديوان أبي نؤاس: الحسن بن هاني، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي دار الكتاب اللبناني ـ بيروت [دت].

● ديوان المعاني: أبو هلال العسكري ـ طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٢هـ.
● ديوان نصيب بن رباح: جمع وتحقيق: د. داود سلوم، ط بغداد ١٩٦٨.
● الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لأبي الحسن، علي بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
● ذِكْر أخبار أصبهان: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ـ نشره سنن دررنج ـ طبعة ليدن ١٩٣١م.
● ذيل مرآة الزمان: قطب الدين، أبي الفتح، موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت ٧٢٦هـ) ط حيدر آباد ـ الدكن ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).
● رجال السند والهند إلى القرن السابع: القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري ـ طبعة دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.
● رجال الطوسي ـ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ): نشره محمد صادق آل بحر العلوم ـ المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦١م.
● رسائل سعيد بن حميد وأشعاره: يونس أحمد السامرائي، ط بغداد ١٩٧١.
● رسالة محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي: أحمد بن محمد بن أحمد الموصلي المعروف بابن زيد (ت ٨٧٠هـ) ـ نشره شكيب أرسلان، القاهرة ١٩٣٣.
● رفع الإصْر عن قَضاء مصر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ـ تحقيق حامد عبد المجيد ـ نشرته وزارة الثقافة والإرشاد بمصر، ١٩٦١.
● روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات: ميرزا محمد باقر الموسوي الخُوانساري ـ طبعة إيران ١٣٦٧هـ.
● زهر الآداب وثمر الألباب: الحُصَري ـ تحقيق: علي محمد البجاوي ـ طبعة مصر ١٩٥٣م.
● السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ـ تحقيق ودراسة: محمد بن مطر الزهراني ـ طبعة دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
● سلم الخاسر شاعر الخلفاء والأمراء في العصر العباسي: د. نايف محمود معروف، دار الفكر اللبناني ـ بيروت [دت].
● سمط اللآلي: لأبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت٤٧٨) تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط القاهرة١٩٣٦م.
● سِيَر أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط ـ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
● شَذَرَاتَ الذَهَب في أخبار مَن ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) ـ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، المصوَّرة عن الطبعة المصرية ١٣٥١هـ.
● شرح ديوان أبي نؤاس: إيليا حاوي، ط الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت ١٩٨٧.
● شرح مقامات الحريري: الشريشي أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦٣٠هـ) ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة المدني بمصر ١٩٧٣.
● شعر ماني الموسوس وأخباره: محمد بن القاسم المصري (ت ٢٤٥هـ) جمع وتحقيق: د. عادل العامل، ط دمشق ١٩٨٨.
● شعر ابن المعتز: دراسة وتحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، ط بغداد ١٩٧١.
● شعر منصور النمري (ت ١٩٣هـ): جمع وتحقيق: د. عبد الحفيظ مصطفى عبد الهادي مكتبة الآداب ـ القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
● أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية (ت نحو ٢٠٠هـ): دراسة وجمع شعره وتحقيقه: د. محمد سعد الشويعر، نادي الطائف ـ السعودية ١٤٠١هـ.
● الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ـ طبعة دار الثقافة ببيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
● صفة الصفوة: جمال الدين أبو الفرج المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ـ تحقيق: محمود فاخوري ـ خرّج أحاديثه: محمد روّاس قلعه جي ـ طبعة حلب ١٣٩٣هـ.
● الضعفاء الصغير: الإمام أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) (ملحق بالتاريخ الصغير) ـ تحقيق: محمود إبراهيم زايد ـ طبعة

حلب ١٣٩٦هـ.

● الضعفاء والمتروكين: الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي - (ملحق بالضعفاء الصغير للبخاري) - تحقيق: محمود إبراهيم زايد - طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

● الطبقات: أبو عمر خليفة بن خياط شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) - تحقيق: د. أكرم ضياء العمري - طبعة العاني ببغداد ١٩٦٧م.

● طبقات الحُفّاظ: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

● طبقات الشعراء المحدثين: ابن المعتزّ - تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٦.

● طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) - تحقيق: د. إحسان عباس - طبعة بيروت ١٩٧٠.

● طبقات القراء = غاية النهاية.

● الطبقات الكبرى: محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ١٩٥٨م.

● الطبقات الكبرى: المُسَمَاة (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار) - أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني - طبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٤.

● طبقات المدلّسين: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).

● طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى بن المرتضَى - تحقيق سوسنة ديڤلد - فلزر - طبعة بيروت ١٩٦١.

● طبقات المفسّرين: محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت ٩٤٥هـ) - تحقيق: علي محمد عمر - طبعة القاهرة ١٩٧٢.

● طبقات النُّحَاة واللُّغويّين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبَّيدي (ت ٣٧٩هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٣.

● عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام: طه الولي - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

● العِبَر في خبر مَن غَبَر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق: د. صلاح الدين المنجد وفؤاد السيّد - طبعة الكويت ١٩٦٠- ١٩٦٦.

● العِقْد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) - تحقيق الأساتذة: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر ١٩٥٢م.

● العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تَقيّ الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ) - تحقيق: فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناحي - القاهرة ١٩٥٩- ١٩٦٩م.

● عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: أحمد بن علي الداودي الحسني - تحقيق: د. نزار رضا - طبعة دار مكتبة الحياة. بيروت.

● عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِيَر: أبو الفتح محمد بن أبي عمرو محمد المعروف بابن سيّد الناس (ت ٧٣٤هـ) - طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ.

● عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦هـ) - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥.

● عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفّق الدين أبو العباس، أحمد بن القاسم ابن أبي أُصَيْبعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ) - طبعة دار الثقافة بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ط دار الحياة - بيروت [دت].

● غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) - تحقيق: أتو بدتزل وبرجستراسر - القاهرة ١٩٣٣- ١٩٣٧م.

● الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ) - طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

● الفهرسْت: محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت ٣٨٠هـ) - طبعة مصوَّرة عن طبعة أوربة بتحقيق فلوجل - مكتبة خيّاط - بيروت ١٩٦٤م.

● فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنَّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)، نشره فرنستسكه قداره زيدين وخليان ربابه طرغوه: طبعة سرقُسْطَة ١٨٩٣ (مصوَّرة دار الآفاق

الجديدة، بيروت ١٩٧٩).
● فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) ـ تحقيق: د. إحسان عباس ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٣، ١٩٧٤.
● القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ) ـ مصوَّرة دار الفكر، بيروت.
● قُضاة قرطبة وعلماء إفريقية: أبو عبد الله الخشني ـ طبعة القاهرة ١٣٧٢هـ.
● قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: كمال الدين، أبو البركات، المبارك ابن الشعّار الموصلي (ت ٦٥٤) تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
● الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتّة: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ نشره عزّت علي عيد عطيّة وموسى محمد علي الحوشي ـ طبعة القاهرة ١٩٧٢م.
● الكامل في التاريخ: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥.
● اللُّبَاب في تهذيب الأنساب: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت.
● لسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة حيدر آباد ١٣٢٩هـ.
● المجروحين من المحدِّثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ) ـ نشره محمود إبراهيم زايد ـ طبعة حلب ١٣٩٦هـ.
● المحبّر: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكّري، عن أبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) ـ صحّحته: د. إيلزه ليختن شتيتر، مصوَّرة دار الآفاق الجديدة ببيروت عن طبعة حيدر آباد ١٣٦١هـ.
● محمد بن عبد الملك الزيّات: سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه: د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة بيروت ـ دار البشير ـ عمّان ٢٠٠٢م.
● مراتب النَّحْويين: أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللُّغوي ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة القاهرة ١٩٥٥م.
● مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان: أبو محمد عبد الله اليافعي (ت ٧٦٨هـ) ـ طبعة حيدرآباد ١٣٢٨.
● مروان بن أبي حفصة وشعره: قحطان رشيد التميمي، ط النجف ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦.
● مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٥٨.
● مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حِبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ) ـ نشره: م. فلا يشهم ـ طبعة القاهرة ١٩٥١م.
● المشتبه في أسماء الرجال: شمس الدين محمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: علي محمد البجاوي ـ طبعة القاهرة ١٩٦٢.
● المصايد والمطارد: محمود بن الحسين، أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت ٣٦٠هـ) ـ تحقيق: د. محمد أسعد طلس ـ طبعة بغداد ١٩٥٤.
● المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري (ت ٢٦٧هـ) ـ تحقيق: د. ثروت عُكاشة ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
● معجم الأدباء (إرشاد الأريب في معرفة الأديب): أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) ـ نشره: د. مرجليوث ـ القاهرة ١٩٣٦ـ١٩٣٨.
● معجم البلدان: أبو عبد الله شهاب الدين، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت.
● معجم بني أميّة: د. صلاح الدين المنجد ـ طبعة دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧٠.
● معرفة علوم الحديث: الإمام الحاكم أبو عبد الله، محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) ـ تحقيق: د. السيد معظّم حسين ـ مصوَّرة المدينة المنوَّرة ١٩٧٧ عن طبعة حيدرآباد.
● معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: محمد سيّد جاد الحق ـ طبعة دار التأليف بمصر ١٩٦٩.
● المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ) ـ تحقيق: د. أكرم

ضياء العمري ـ طبع وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٤ـ ١٩٧٦م.

● المُغْني في الضعفاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: د. نور الدين ثمر ـ مصوَّرة ببيروت (لا مكان للطبع ولا تاريخ).

● مقاتل الطالبيين: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ـ تحقيق: السيد أحمد صقر ـ طبعة القاهرة ١٩٤٩.

● مقدّمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة القاهرة.

● مناقب أبي حنيفة: الإمام الموفَّق بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) ـ نشره محمد حيدر الله خان الدراني الحنفي ـ صوّرته دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠١هـ. عن طبعة حيدر آباد.

● مناقب أبي حنيفة: الإمام حافظ الدين بن محمد المعروف بالكردري (ت ٨٢٧هـ) مُلْحَق بالذي قبله.

● المُنْتَخَب من كتاب ذيل المُذَيَّل: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

● المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شِعرهم: الحسن بن بِشْر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) ـ نشره د.ف كرنكو ـ طبعة القدسي بالقاهرة.

● موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي: جمعها: د. عمر عبد السلام تدمري ـ طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٩٨٤.

● ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق: علي محمد البجاوي ـ القاهرة ١٩٦٣م.

● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن، يوسف ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.

● نزهة الألباء في طبقات الأدباء والنُّحاة: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ـ تحقيق: د. إبراهيم السامرائي ـ بغداد ١٩٥٩.

● نزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٦ مصطلح الحديث.

● نسب قريش: مَصْعَب بن عبد الله بن الزبير (ت٢٣٦هـ) ـ تحقيق: ليفي بروفنسال ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

● نَكْت الهميان في نُكَت العميان: صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ـ نشره: د. أحمد زكي ـ القاهرة ١٩١١م.

● نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.

● نور القَبَس المختصر من المقتبس: للمرزباني ـ اختصار الحافظ أبي المحاسن، يوسف بن أحمد (ت٦٧٣هـ) ـ تحقيق رودلف زلهايم ـ المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤م.

● الوافي بالوفيات: صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ـ منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت، وط دار الفكر ـ بيروت ١٤٢٥هـ/ ١٤٢٦م.

● الوزراء والكُتَّاب: محمد بن عبدوس الجهشياري (ت ٣٣١هـ) ـ تحقيق: مصطفى السَّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ـ طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨.

● وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلّكان (ت ٦٨١هـ) ـ تحقيق: د. إحسان عباس ـ طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٧٢.

● الولاة والقضاة: أبو عمر محمد بن يوسف الكِنْدي المصري (ت ٣٥٠هـ) ـ نشره رفن كَست ـ مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

* * *

فهرس المحتويات